

شرح مقامات الحريري

للأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريفي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

المجلد الثاني

المكتبة العصرية
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م

شركة البناء شريف الانصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار البيضاء - ص.ب. ٢٢١ - تلکس ٢٩١٩٨٤

بيروت - ص.ب. ٨٣٥٥ - تلکس ٢٩١٩٨٤

صيدا - ص.ب. ٢٢١ - تلکس ٢٩١٩٨٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقامة الحادية عشرة وهي السأوة

حدث الحارث بن همام ، قال : آنستُ من قَلْبِي القسأوة ،
حينَ حَلَلْتُ سَأوةً ، فأخذت بالخَبَرِ المأورِ ، في مُدَاوَاتِهَا
بزيارةِ القُبُورِ .

فلَمَّا صِرْتُ إِلَى مَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ ، وَكَيْفَاتِ الرُّفَاتِ ، رَأَيْتُ
جَمَاعًا عَلَى قَبْرِ يُحْفَرُ ، وَتَجْنُوزٍ يُقْبَرُ ، فَأَنْحَزْتُ إِلَيْهِمْ مُتَفَكِّرًا فِي
الْمَالِ ، مُتَذَكِّرًا مِنْ دَرَجِ مِنَ الْآلِ .

فلَمَّا أَلْحَدُوا لِلنَّيْتِ ، وَفَاتَ قَوْلُ لَيْتَ ، أَشْرَفَ شَيْخٌ
مِنْ رَبَاوَةٍ ، مُتَخَصِّرًا بِهَرَاوَةٍ ، وَقَدْ لَفَعَ وَجْهَهُ بِرِدَائِهِ ، وَنَكَرَ
شَخْصَهُ لِدَهَائِهِ .

* * *

الحادية عشرة ، تبنى على الفتح كبناء أحد عشر . آنست : أدركت
وأحسست .

القسأوة : غِلَظُ الْقَلْبِ . وَقَلْبٌ قَاسٍ وَقَسِيٌّ ، أَيْ صَلْبٌ ، وَقُلُوبٌ قَاسِيَةٌ
وَقَسِيَّةٌ ؛ وَهِيَ عَنِ الْكِسَائِيِّ وَالْفَرَّاءِ لَفْظَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ .

أبو عبيدة : القاسية مأخوذة من القسوة ، والقسيّة التي ليست خالصة
الإيمان ، كالدرهم القسي وهو الذي خالطه غش من نحاس أو غيره ، وقد قسا القلبُ
يقسُو قسأوة وقسأ : صَلَبٌ .

ساوة : بلد بينه وبين الرى اثنان وعشرون فرسخاً ، وهى فى الطريق ما بين همدان والرى .

* * *

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى المواعظ]

الخبر المأثور ، أى الحدّث به ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « عودوا المرضى ، واحضروا المقابر ، فإنها تزهد فى الدنيا ، وتذكر الآخرة » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفتُ نهيتكم عن زيارة القبور ، ثم بدا لى فزوروها ، فإنها ترقق القلب ، وتدمع العين ، وتذكر الآخرة » .

وسأل رجل عائشة رضى الله عنها ، فقال : يا أمّ المؤمنين ، إن لى داء فهل عندك دواؤه ؟ قالت : وما دأؤك ؟ قال : القسوة ، قالت : بسّ الداء دأؤك . عدّ المرضى ، واشهد الجنائز ، وتوقع الموت .

وقيل لعلّى رضى الله عنه : ما شأنك جاورت المقبرة ! قال : إنى أجدهم خيراً جيران صدق ، يكفون الألسنة ، ويذكرون الآخرة .

وكانت عجوز فى عبد القيس متعبدة ، فإذا جاء الليل تحزمت ، ثم قامت إلى الحراب ، فإذا جاء النهار خرجت إلى المقبرة ؛ فعوتبت فى إتيان القبور ، فقالت : إن القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى ، وإننى لآتى القبور ؛ فكأننى أنظر وقد خرجوا من بين أطباها ، وكأننى أنظر إلى تلك الوجوه للمتفجرة ، وإلى تلك الأجسام المتغيرة ، وإلى تلك الأكفان الدسمة .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ؛ فلما نظر إلى القوم بكى ، ثم أقبل على فقال : يا ميمون ، هذه قبور آبائى بنى أمية ،

كانهم لم يشاركو أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم ؛ أما تراهم صرعى قد خلت من قبلهم المثلثات ، واستحكم فيهم البلى ، وأصاب الهموم في أبدانهم مقيلاً ، ثم بكى وقال : والله لا أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمِنَ من عذاب الله .

استنشد المتوكل أبا الحسن علي بن محمد بن موسى بن جعفر بن علي بن الحسين ، فقال : إني لقليل الرواية في الشعر ، فقال : لا بُدَّ ، فأنشده :

باتوا على قُللِ الأجيال تحرسُهُمُ غلب الرجال فلم تنفعهُمُ القُللُ^(١)
واستُنزلوا بعد عزٍّ عن معاقِلِهِمُ وأودِعُوا حُفراً ، يابئس ما نزلوا!
ناداهمُ صارخ من بعد ما دُفِنُوا : أين الأسرَّةُ والتيجان والحللُ ؟
أين الوجوه التي كانت منعمَةً من دونها تُضرب الأستار والكللُ !
فأفصح القبرُ عنهم حين سِيلَ بهم^(٢) : تلك الوجوه عليها الدودُ يفتتلُ
قد طالما أكلوا دهرًا وما شربوا

فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

قال عمر : لو أنشد شعراً في أو صاف آباءه وبنى عمه ملوك بني أمية وانحطاطهم من عزِّ المملكة إلى ذل المقبرة ، لم يكن إلا هذا الشعر .

أبو الحسن القلوي كان قد سُمي به إلى المتوكل ، وقيل له إن في بيته سلاحاً وكتباً وغير ذلك ، فوجه إليه بعدة من الأتراك ، فجمعوا عليه على غفلة ممن في داره ، فوجدوه في بيت مغلق عليه وحده ، وعليه منج شعير ، ولا بساط في البيت إلا الرَّمْل والحصى ، وعلى رأسه ملحفة صوف متوجهاً إلى ربه ، يترنم بالقرآن ، فثل بين يدي المتوكل على حاله ، والمتوكل يشرب وفي يده كأس ،

(١) المسعودي ٤ : ٩٤

(٢) في الأصول : • فأصبح • ، ولأصح ما أثبتته من المسعودي

فلما رآه عظمه وأجلسه إلى جنبه ، وعلم أنه لا يوجد عنده شيء مما قيل ، فتأولاه فقال : يا أمير المؤمنين ، ما خامر لمحي ولا دمي قط ، فأعفى منه ، فأعفاه ، ثم قال : أنشدني شعراً أستحسنه ، فأنشده الأبيات المتقدمة ، فأشفق من حضر عليه من المتوكل . فوالله لقد بكى المتوكل بكاءً طويلاً ، وبكى من حضر ، وقال : يا أبا الحسن ، أعليك دين ؟ قال : أربعة آلاف درهم ، فدفعت إليه ، وردَّ إلى منزله مكرماً ، وقال له : ما يقول ولد أبيك في العباس بن عبد المطلب ! قال : وما يقولون يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعته على بنيه ! فأمر له بمائة ألف درهم ، وإنما أراد طاعة الله على بنيه فعرّض .

وقال سابق البربري^(١) في المعارض :

تعاون على الخيرات تظفروا ولا تكن	على الإثم والعدوان ممن يعاون
وداهن إذا ما خفت يوماً مسلطاً	عليك ، ولا يخال من لا يداهن
ولا تلك ذا لونين يبدى بشاشة	وفي صدره صب من الغل كامن ^(٢)

رجعت إلى عرض المقامة .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس إلى قبر ، وكنت أدنى القوم منه ، فبكى وبكىنا ، فقال : ما يبكيكم ؟ قلنا : بكائك ، قال : هذا قبر أمي آمنة ، استأذنت ربي في زيارتها ، فأذن لي ، فاستأذنته في أن أستغفر لها ، فأبى عليّ ، فأدركني ما يدرك الولد من الرقة .

وكان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبلى لحيته ، فسئل عن ذلك ، فقبل

(١) هو أبو سعيد سابق بن عبد الله ، صاحب الأسماء الحسنة في الزهد ، والبربري لقبه ، وليس منسوباً إلى البربر . خزائن : ٤ : ١٦٥ .
(٢) الضب بالفتح : العداوة والبط.

له : تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكي إذا وقفت على قبر ! فقال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد » .

والمقصود من زيارة القبور الاعتبار للزائر والانتفاع بدعائه للمزور ، ولا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت .

وكان رجل يشهد الجنائز ، فإذا أمسى وقف على المقابر ، فقال : آانس الله وحشتكم ، ورحم الله غربتكم ، وتجاوز الله عن سيئاتكم ، وقيل الله حسناتكم ؛ لا يزيد على هذا شيئاً . قال : فأمسيت ليلة ولم أدع ، فبينما أنا نائم إذا خلق كثير قد جاءوني ، فقالت : من أنتم ؟ قالوا نحن أهل المقابر ، قلت : ما حاجتكم ؟ قالوا : إنك كنت عودتنا هديةً عند انصرافك إلى أهلك ، قلت : وما هي ؟ قالوا : الدعوات التي كنت تدعو ، قلت : فإني أعود لذلك ؛ فأتراكها بعد ذلك .

قوله : محلة الأموات ، هي المقابر التي يحلون بها . كفات : قبور وأوعية وكفت الشيء : ضمته وقبضته ، وكفات الشيء : ماضيه وستره ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءُ وَأَمْواتًا ﴾^(١) قيل : كفات الأحياء بيوتهم ، وكفات الأموات قبورهم . والرفات : العظام البالية ، وقال ابن المعتز في مقبرة :

وسكان دارٍ لا تراور بينهم على قرب بعض في التجاور من بعض^(٢)
كأن خواتباً من الطين فوقهم فليس لها حتى القيامة من فض

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه :

انظر لنفسك يا مسكين في مهل ما دام ينفعك التكبر والنظر

(١) سورة المرسلات ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) ديوانه ٢ : ١٣٩

قف بالمقابر وانظر إن وقفت بها لله درك ماذا تَشْتُرُ الْخَنَرُ !
ففيهم لك يا مغرور موعظة وفيهم لك يا مغترّ معترّ بهر !

وقال مالك بن دينار : مررت بالمقابر ، فأنشدت أقول :

أتيتُ القبور فناديتها فأين المعظم والمهجر ؟
وأين المدلّ بسلطانه وأين الزكيّ إذا ما افتخر ؟
فنوديت من بينهم : لا أرى شخوصاً لهم ولا من أتر ؟
تفانوا جميعاً فلا نخبر وماتوا جميعاً ومات الخبر ؟
فيا سائلي عن أناس مضوا أمالك فيما ترى معتبر ؟
تروح وتغدو بنات الترى وتمحى محاسن تلك الصور !

ومما وجد على قبر مكتوباً :

تفاجيك أحداثٌ وهن سكوت وسكاتها تحت الأراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغية لمن تجمع الدنيا وأنت تموت ؟

ومما وجد على قبر مكتوباً :

إن الحبيب من الأحباب مختلس لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذاتها يا من يمدّ عليه اللفظ والنفس ؟
لا يرحم الموت ذا جاء لمرته ولا الذي كان منه العلم يقتبس
قد كان قصرك معموراً له شرف فقبرك اليوم في الأجداد مندرس

ووجد على قبر مكتوباً :

وقفت على الأجنة حين صفت فيورهم كافرهم الرهال

فلما أن بكيتُ وفاضَ دمعِي رأت عيناىَ بينهمُ مكاني

قال أعرابيٌّ: مَنْ خاف الموتَ بادر الفوتَ ، ومن لم يقمع النفسَ عن الشهواتِ بادرَتْ به إلى الهلكاتِ ، والجنة والنارُ أمامك .

مرض أعرابيٌّ قفيلَ له : إنك تموتُ ، قال : وإذا متُ فإلى أين أذهب ؟ قالوا : إلى الله ، قال : فما كراحتي أن أذهب إلى مَنْ لم أرا الخيرَ إلاَّ منه !

وقال أعرابيٌّ : ما بقاءَ عمر تقطعه الساعاتُ ، وسلامةَ بدنٍ معرضٍ للآفاتِ ! ولقد عجبت للمؤمن كيف يكره الموتَ وهو ينقله إلى الثواب الذي أحيأ له ليله ، وأظمأ له نهاره !

وقال آخر : مَنْ كانت مطيَّاته الليل والنهار ، سارا به وإن لم يَسِرْ ، وبلغا به وإن لم يبلغ .

آخر : تصرف الليل والنهار ، لا تبقى معه الأعمار ، ولا لأحدٍ فيه الخيار .

قوله : مجنوز ، أى ميّت ؛ وحكى ابن سيده قول بعضهم : جنزتُ الميتَ إذا سترته بالكفن . وقال الحسن - لما أنذرَ بمجنازة النوار امرأة الفرزدق - للمنذر بها : إذا جنزتموها فأذنوني بالمجنازة ، والمجنازة من جنزت وهى بالفتح الميت ، وبالكسر النعش ، وقيل معناهما واحد ، وهو الميت ، والختار الكسر . يُقْبَرُ : يدفن . انخرزت : ملت . المآل : المرجع . مذكراً : متذكراً . درج : هلك . الآل : الأهل . اخلدوا : دفنوا وألقوه في اللحد ، وهو حَفِيرٌ في جانب القبر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المقبرة يقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » .

وكان على رضى الله عنه إذا دخلها يقول : السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة والمنازل المقفرة ، من المؤمنين والمؤمنات . اللهم اغفر لنا ولهم ، واعفُ

عنا وعنهم . ثم يقول : الحمد لله الذى جعل الأرض كِفَاتًا ، أحياء وأمواتًا ،
منها خَلَقْنَا ، وإليها معادُنَا ، وعليها محشرنا ، طوبى لمن ذكر المعاد ، وقنع
بالكفاف ورضى عن الله .

وكان الحسن البصرى رحمه الله إذا دخل قال : اللهم رب الأجساد البالية ،
والعظام النخرة ، التى خرجت من الدنيا وهى بك مؤمنة ، أدخل عليها روحًا
منك وسلامًا منا .

قوله : « أشرف » : أى طلع . والرباوة ^(١) : الكذبة . متخصر : أى جاعلها
مما يلى خصره . هراوة : عصا . لغع : غطى . نكر : غير هيئته . لدهائه : لمكره .

* * *

فقال : لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ، فَادْكُرُوا أَيُّهَا الْغَافِلُونَ ،
وَشَمِّرُوا أَيُّهَا الْمُقَصِّرُونَ ، وَأَحْسِنُوا النَّظَرَ أَيُّهَا الْمُتَبَصِّرُونَ .
مَا لَكُمْ لَا يَحْزَنُكُمْ دَفْنُ الْأَتْرَابِ ، وَلَا يَهْوِيْكُمْ هَيْلُ الثَّرَابِ ،
وَلَا تَعْتَبُونَ بِنَوَازِلِ الْأَحْدَاثِ ، وَلَا تَسْتَعِدُّونَ لِتَزُولِ الْأَجْدَاثِ ،
وَلَا تَسْتَمِيرُونَ لِعَيْنِ تَدْمَعُ ، وَلَا تَعْتَبِرُونَ بِنَغْيِ يَسْمَعُ ، وَلَا
تَرْتَاعُونَ لِإِلْفٍ يُفْقَدُ ، وَلَا تَلْتَاعُونَ لِمَنَاحَةِ تُعْقَدُ ،
يُسْمِعُ أَحَدُكُمْ نَعْسَ الْمَيِّتِ ، وَقَلْبُهُ نِلْقَاءَ الْبَيْتِ ، وَيَشْهَدُ
مَوَارَاةَ نَسِيْبِهِ ، وَفَسْكَرُهُ فِي اسْتِخْلَاصِ نَصِيْبِهِ ، وَيُخَلِّي بَيْنَ
وَدُودِهِ وَدُودِهِ ، ثُمَّ يَخْلُو بِمَزْمَرِهِ وَعُودِهِ .

* * *

(١) الرباوة ، مثقلة الراء ، والكذبة ، بالضم : الأرض الفليضة .

ويقال : قصر فهو مقصر ، إذا ترك الشيء وهو قادر عليه وشمر : اجتهد .
 والمتبصر : الناظر في الشيء على وجه التتبع ، فقد يصيب وقد يخطئ ،
 ولذلك قالوا : أحسنوا النظر . الأتراب : الأصحاب المتقاربون في الموالد ، كأنهم
 قُطعوا من تربة واحدة ، وأكثر ما يقع للنساء ، وإذا مات للإنسان صاحبٌ
 على سِنِّه كان أوقع لحزنه ، فلذا نَبَّه بالتراب ، قال الأليبري^(١) :

فإن الردى غلّ أهل التقى فلم يبق إلا الفشوم العتيد
 وأودى بكلّ خليل ودودٍ فأين ، ولا أين ، خلٌّ ودود !
 وكَم من أخى ثقةٍ قد لحدتُ فله ما غيّبته اللحدود
 وأنكلي الأنس نكل اللداتِ فصرت كَأنى غريبٍ وحيد
 وكَم من شقيّ بُوارى الترابِ وكَم من سعيدٍ بُوارى الصَّعيد !

قوله : «يهولكم» ، أى يفزعكم ، والهيل : الصب الكثير من أعلى إلى
 أسفل ، فى مثل كدس الرمل ، وعند صبّ التراب على الميت تطير القلوب
 إشفاقاً ، وتسيل العيون رحمة ، قال أبو العتاهية :

بكيّتك يا أخى بدمع عيني فلم يُغنِ البكاء عليك شيئاً^(٢)
 كفى حزناً بدفنك ثمّ أُننى نفضتُ تراب قبرك من بدباً
 وكأنت فى حياتك لى عظامٌ وأنت اليوم أوعظُ منك حياً

أبو على الرازى : مررت بصبيان فى طريق الشام يلعبون بالتراب ، وقد
 ارتفع الغبار ، قلت : مهلاً ، قد غبرتم ، فقال صبيّ منهم : يا شيخ : أين تفر

(١) الكامل للبرد ٢ : ١١ ، وذكر قبل هذه الأبيات :

طوتك خطوبٌ دهرٍ بعد نشرٍ كذاك خطوبه نشرٌ وطباً
 فلو نشرت قواك لى المنايا شكوت إليك ما صنعت إلّياً

إذا هيل عليك الترابُ في القبر ؟ فَعُشِيَ على ، فأفقت والصبيّ قاعد عند رأسى
مع الصبيان يكون ، فقلت له : أعندك حيلة في الفرار من التراب ؟ قال : أنا
لا أعلم ، ولكن سل غيرى ، فقلت : ومن غيرك ؟ قال : عقلك . تعبثون :
تبالون وتمتمون . والنوازل : جمع نازلة ، وهى المصيبة . الأحداث : ما يحدث على
الإنسان من الخير والشر . والأجداث ، بالجم : القبور ، واحدا جَدَثَ وجَدَفَ .
تستعبرون : تبكون . تعتبرون : تتعظون وتروثه عبرة . والنَّعى : ذكر موت
الإنسان ، وكانت العرب إذا مات منها سيّد ركب رجلٌ فرسه ، ومشى في
الأحياء ، فيقول : نعاء فلاناً ، والناعى : الخبر بموت الرجل ، وقد نعاهُ نعيًا .
ترتاعون : تخافون . إلف : صاحب ، وهو فى الأصل مصدر ألفت الشيء إلفًا ،
فسمّى به ، ويقال فى معناه : أليف . تلتاعون : تحترقون من الحزن ، واللوعة :
حرقه من الهم . المناحة : اجتماع النساء للبكاء على الميت . تعقد : تجمع وتؤلف .
وقلبه تلقاء البيت ، أى قلبه مستقبل لبّيت الميت ، يفكر فيما ترك ليرثه . مُوَازاة :
دفن ، وقد واره ، إذا ستره . استخلاص : تحصيل . ودوده الأول : محبوبه
الذى يودّه ، ودوده الثانى : جمع دودة ، والوار للعطف .

وقال سابق البربرى فى معنى ما تقدم :

نلهو ونأمل أياماً تُعَدُّ لنا	سريمة المرّة تطوينا ونطويها
كم من عزيزٍ سيلقى بعد عزّته	ذلاً ، وضاحكة يوماً سنبيكها
وللحتوف تربى كلُّ مرضعة	وللحساب برى الأرواح بأريها
لا تبرح النفس تنعى وهى سالمة	حتى يقوم بنادى القوم ناعيا
ولن تزال طوال الدهر ظاعة	حتى تقيم بوادٍ غير واديا
أموالنا لذوى الميراث نجمها	ودورنا لخراب الدهر نبتيا

وقال آخر :

اعمل وأنت من الدنيا على حذرٍ واعلم بأنك بعد الموت مبعوثٌ
 واعلم بأنك ما قدّمتَ من عملٍ يُحصى عليك، وما خلفتَ مَوروثٌ
 وقال الحسن : ابن آدم ! أنت أسير الدنيا ، رضيت من لذاتها بما ينقضى ،
 ومن نعيمها بما يمضى ، ومن مُلكها بما ينفد ، تجمع لنفسك الأوزار ، ولأهلك
 الأموال ، فإذا مِتَّ حملت أوزارك إلى قبرك ، وتركت أموالك لأهلك . أخذه
 أبو العتاهية فقال :

أَبَقَيْتَ مَالَكَ مِيراثًا لَوَارِثِهِ يَالَيْتَ شِعْرِي مَا بَقِيَ لَكَ الْمَالُ^(١)
 الْقَوْمُ بِمَدِّكَ فِي حَالٍ تَسْرُؤُهُمْ فَكَيْفَ بَعْدَهُمْ دَارَتْ بِكَ الْحَالُ !
 مَلُوا الْبُكَاءَ فَمَا يَبْكِيكَ مِنْ أَحَدٍ وَاسْتَحْكَمَ الْغَيْلُ فِي الْمِيرَاثِ وَالْقَالُ

وقال ابن عبد ربّه :

أَبَا مَنْ عِنْدَهُ أَمَلٌ طَوِيلٌ يُوَدِّيهِ إِلَى أَجَلٍ قَصِيرٍ
 أَتَفْرَحُ وَالْمَنِيَّةُ كُلُّ يَوْمٍ تُرِيكَ مَكَانَ قَبْرِكَ فِي الْقُبُورِ
 هِيَ الدُّنْيَا فَإِنْ سَرَّكَ يَوْمًا فَإِنَّ الْحُزْنَ عَاقِبَةُ السُّرُورِ
 سَتُسَلِّبُ كُلَّ مَا جَعَلْتَ فِيهَا كَعَارِيَةٍ تُرَدُّ إِلَى الْمِيرِ

وقال جبلة بن الحويرث^(٢) :

يَا قَلْبُ إِنَّكَ فِي الْأَحْيَاءِ مَفْرُورٌ فَاذْكُرْ وَهَلْ يَنْفَعُنكَ الْيَوْمَ تَذْكِيرُ^(٣)
 تَرِيدُ أَمْرًا وَلَا تَذَرِي : أَعَاجِلْهُ خَيْرٌ لِنَفْسِكَ أَمْ مَا فِيهِ تَأْخِيرُ !
 فَاسْتَقْدِرِ اللَّهَ خَيْرًا وَارْضَيْنِ بِهِ فَبَيْنَا الْمَسْرُ إِذَا دَارَتْ مِيسِيرُ

(١) الأبيات في المصمرين ٥٢ ودرّة النّواس ٢٣ ونزعة الألباء ٢٨ ، وهى فى اللسان
 دهر ، قال : « قال ابن برى : هى لعثير بن ليبد الغدري . وقيل : لحريث بن جبلة الغدري »
 (٢) بعده و المصمرين :

قَدْ رَحَّتْ بِالْحُبِّ مَا تُخْفِيهِ مِنْ أَحَدٍ جئى جرت بك أطلافاً محاضيرُ

وبينا المراء في الأحياء مُفْتَبَطًا إذ صار في الرمس تعفوه الأعاصيرُ
يبكى الغريب عليه ليس يعرفه وذو قرابته في الحى مَسْرُورُ
حتى كأن لم يكن إلا تذكره والدَّهرُ أبتما حين دَهَارِبرُ
وذاك آخر عهدٍ من أخيك إذا بالموت ضمَّنه اللَّحدُ الخناسيرُ^(١)

* * *

طالما أُسَيْتُمْ عَلَى انْثِلَامِ الْحَبَةِ ، وَتَنَاسَيْتُمْ اخْتِرَامَ الْأَحْيَةِ ،
وَاسْتَكَنْتُمْ لِعِغْرَاضِ الْعُسْرَةِ ، وَاسْتَهَيْتُمْ بِانْقِرَاضِ الْأَمْرِ ،
وَضَحِكْتُمْ عِنْدَ الدَّفْنِ ، وَلَا ضَحِكُكُمْ سَاعَةَ الزَّفَنِ ، وَتَبَخَّرْتُمْ
خَلْفَ الْجَنَائِزِ ، وَلَا تَبَخَّرْتُمْ يَوْمَ قَبْضِ الْجَوَائِزِ ، وَأَعْرَضْتُمْ
عَنْ تَعْدِيدِ النَّوَادِبِ ، إِلَى إِعْدَادِ الْمَادِبِ ، وَعَنْ تَحْرِقِ الثَّوَالِكِ ؛
إِلَى النَّاتِقِ فِي الْمَآكِلِ ، لَا تَبَالُونَ بِعَنْ هُوَ بِالْ ، وَلَا تُخْطِرُونَ
ذَكَرَ الْمَوْتِ بِيَالٍ ، حَتَّى كَانَكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ مِنَ الْحَمَامِ بِزِمَامٍ ،
أَوْ حَصَلْتُمْ مِنَ الزَّمَانِ عَلَى أَمَانٍ ، أَوْ وَثَقْتُمْ بِسَلَامَةِ الذَّاتِ ،
أَوْ تَحَقَّقْتُمْ مُسَالَمَةَ هَادِمِ الذَّاتِ ؛ كَلَّا سَاءَ مَا تَوَهَّمُونَ ، ثُمَّ
كَلَّا سَرَفَ تَعْلَمُونَ !

* * *

قوله : « أُسَيْتُمْ » ، أى حزتم . انثلام : انكسار وقصان . اخترام : هلاك ،
يقول : إذا انتقص لكم من المال أدنى شيء حزتم عليه ، ولا تحزنون على نقص
أحبابكم .

(١) فى الأصول : « المياسير » ، تحريف ، صوابه من المعبرين قال : الخناسير ،
مع الخنسير - ويقال : الخناسرة - والخناسير : هم الذين يثيرون الميت .

أنس رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : من أصبح حزينا على الدنيا ، أصبح سائطا على الله .

قوله : « استكنتم » ، ذلتم ، واستكان ، استعمل من لفظ الكين ، وهو لحم باطن الفرج . اعتراض العسرة : ظهور الفقر . انقراض الأسرة : موت القرابة الزّفن : الرقص .

ضحكتم عند الدفن ، جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى كره لكم العبث في الصلاة ، والرفث في الصيام ، والضحك في الجنائز . ورأى ابن مسعود رضى الله عنه رجلا يضحك في جنازة ، فقال : تضحك وأنت في جنازة ! والله لا أكلمك أبداً .

ونظر عبد الله بن ثعلبة إلى رجل يضحك في جنازة مستغرباً ، فقال : أتضحك ولعلك قد أخذت أكنفانك من القصار !

وفي الحديث « كثرة الضحك تميت القلب وتذهب بهاء المؤمن » . قوله : « تبخرتم » ، أى تعظمتم وأظهرتم الإعجاب في مشيكم . الجوائز : الصلوات وهم يظهرون في أحسن الثياب عند الملوك ليكثر لهم العطاء .

أعرضتم : تهنئتم ، وهو من العرض ، كأنك إذا لقيت من تكره استقبلته بعرضك ، أى بجانبك . النوادب : النوائج الواثية بندب الميت أى يبكيه ، فيقول : أعرضتم عن الباكيات حين عددن خصال الميت المحمودة ، ولم تفكر في تلك الحال . إعداد ، أى استعداد . المآدب : المطاعم للأعراس . محرق : توجع . التواكل : النفاقات لأحبائهن . التأنق : التحسين ، وقد تأنق في الشيء ، إذا احتفل فيه فأعجب به كل من رآه . بال : دارس متغير ، يريد الميت . ببال : بفكر وخاطر . الحمام : الموت ، وأصله القدر . وهو من حُم ، أى قُدر ، وذات الشيء نفسه وحقيقته . مسالة : متاركة ومصالحة .

أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أ كثروا ذكر هادم اللذات ، قالوا : وما هاذم اللذات ؟ قال : الموت » ^(١) .

وقال الألبيري في معنى ما تقدم :

كم آمنٍ للمنون لاهٍ	عن الرّدَى بات مطمئناً
صَبَّحَهُ وافدُ المنايا	فما بين الموت حين عَنَّا
حتى إذا ما قضى بكاهُ	حُمِيهِ معولاً مُرِنًا
واروهُ في لحده وسنوا	عليه قَئِد التراب سَنَّا
وانتهبوا ماله وسنوا الـ	سفارات فيما حَوَاهُ سَنَّا
لمثل هذا فكُن معداً	ما قد أعدَّ الهداة مِنَّا
وارتقب الموت فهو حَتَمٌ	يحترم الطفل والمسنَّ

قوله : كلا ، زجر ، أى ليس الأمر كما ظننتم .

* * *

ثم أنشد :

أَيَا مَنْ يَدْعَى الْفَهْمَ	إِلَى كَمْ يَا أَخَا الْوَهْمِ
تُعْبَى الذَّنْبَ وَالذَّمَّ	وَتُخْطَى الْخَطَأَ الْجَمَّ

أما بَانَ لَكَ الْعَيْبُ ! أما أَنْذَرَكَ الشَّيْبُ !

وما في نَصِيحِهِ رَيْبٌ ولا سَمْعَكَ قَدْ صَمَّ

أما نَادَى بِكَ الْمَوْتُ أما أَنْصَمَكَ الْعَصَوْتُ !

أما تَخْشَى مِنَ الْفَوْتِ فتَحْتَاطُ وتهْتَمُّ

فَكَمْ تَسْدُرُ فِي السَّهْوِ وَتَخْتَالُ مِنَ الزَّهْوِ
وَتَنْصَبُّ إِلَى اللَّهِ كَأَنَّ الْمَوْتَ مَاعَمَ

* * *

قوله :

أيا من يدعى الفهم إلى كم يا أبا الوهم
يسمى هذا من أنواع الشعر المستط ، أى المفصل ، مأخوذ من السط وهو
سلك الجوهر المفصل بالزمرود والذهب وغير ذلك . الوهم : الغلط . الجم : الكثير ،
وعلى قوله : « وتخطئ الخطأ الجم » ، ذكر الحريري في الدرّة ^(١) أن قول الخواص :
« أخطأ لمن يأتي بالذنب متعمداً تحريف للفظ والمعنى ، ولا يقال : أخطأ إلا لمن
لم يتعمد الفعل ولمن اجتهد » ، فلم يوافق الصواب لقوله صلى الله عليه وسلم :
« إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر » وإنما أوجب له الأجر على اجتهداه في إصابة
الحق الذي هو نوع من أنواع العبادة ، لاعن الخطأ الذي يكفي صاحبه أن يُعذَر فيه
ويرفع مآثم عنه ، و[اسم] الفاعل من هذا النوع : مخطئ ، والاسم الخطأ ، قال الله
تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ﴾ ^(٢) وأما المتعمد ، فيقال فيه : خطئ
فهو خاطئ ، والمصدر الخطئ ، قال الله تعالى : ﴿ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيرًا ﴾ ^(٣) ،
والاسم منه الخطيئة ، ويقع على الصغيرة ، قال الله تعالى : ﴿ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ
الْدين ﴾ ^(٤) إخباراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وعلى الكبيرة كقوله تعالى
﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خِطِيئَتُهُ ... ﴾ ^(٥) الآية : قال أبو محمد الحريري : ولى في تضمين هاتين
اللفظتين وتخصيص معنيهما المتنافيين :

لَا تَخْطُونَ إِلَى خِطَاءٍ وَلَا خَطَأٍ مِنْ بَعْدَ مَا الشَّيْبُ فِي فَوْدَيْكَ قَدْ وَخَطَا
فَأَيُّ عَذْرٍ لِمَنْ شَابَتْ مَفَارِقُهُ إِذَا جَرَى فِي مِيَادِينِ الْهَوَى وَخَطَا
وهذه التفرقة منه مستحسنة ، وكذا يقع في أكثر كلامهم ، وأما على

(١) درة القواس ٦٩ (٢) سورة النساء ٩٢ (٣) سورة الإسراء ٣١

(٤) سورة الشعراء ٨٢ (٥) سورة البقرة ٨١

(٢ - شرح مقامات الحريري ٢) .

القطع فلا ، لأنه قد حكى الزجاج وقطرب وابن دريد في الجمهرة أن العرب تقول :
 خَطِطْتُ الشيءَ أخطؤه خطأً ، وخطئني وأخطأته خطأً في معنى واحد ، قال :
 والناس يلحون الأمير إذا هُمُو خطبوا الصواب ولا يلام المرشدُ
 أما : حرف استفتاح وإخبار . بان : ظهر . أما أنذرك الشيب ،
 سيأتني مستوفياً .

وقال في الشيب الفقيه الزاهد أبو عمران رحمه الله :

ذهب الشباب بحمله وبعاره	وأتى الشيبُ بحمله ووقاره
شَتَّانَ بين مبعْدٍ من ربه	بغروره ومبشرٍ بمواره
مازلت أُمِرُحُ بالشباب جهالةً	كالطُرفِ يمرحُ معجباً بعاره
وسحبت أثواب البطالة لاهياً	وجررتُ من بطْرِ فضول إزاره
حتى تقلص ظله فتكشفت	عوراته أو بدا قبيح عواره
لم أحظ منه بطائل غير الأسي	وتقدم متى على أوزاره
والآن قد خطَّ الشيب بمفرقي	بمواظٍ والحق في تذكاره
والنفس تركب غيها لا ترعوى	عنه ولا تُصْنِي إلى إنذاره
لمنى على عُمرٍ يمرّ مضياً	محصى على بليته ونهاره

كان شاباً في بني إسرائيل عَبَدَ الله عشرين سنة ، وعصاه عشرين سنة ،
 فنظر يوماً في المرأة ، فرأى الشيب في لحيته ، فسأه ذلك فقال : إلهي أظعتك
 عشرين سنة ، وعصيتك عشرين سنة ، فإن رجعتُ إليك أتعبلني ؟ فسمع صوتاً
 من زاوية البيت : أحبيتنا فأحببتنا ، وتركبتنا فتركبتنا ، وعصيتنا فأمرلناك ؛
 فإن رجعت إلينا قبلناك .

قال ابن وضاح : إذا باغ الرجل أربعين سنة ولم يقب ، مسح إبليس على وجهه ،
 وقال : بأبي وجه لا يفلح أبداً ! وأنشدوا :

وإذا مضى للمرء من أعوامِهِ خَسُونَهُ وَهُوَ إِلَى التَّقَى لَمْ يَجْنَحْ
رَكَدَتْ عَلَيْهِ الْخَزَيَاتُ وَقَلْنَ قَدْ أَرْضَيْنَنَا فَأَقِمْ لَنَا لَا تَبْرَحْ
وإذا رأى إبليسُ غُرَّةَ وَجْهِهِ حَيًّا وَقَالَ : فَدَيْتُ مِنْ لَمْ يَفْلَحْ

هو قال آخر :

تُلَاحِظُنِي الْمَنِيَّةُ مِنْ قَرِيبِ وَتَلَحِظُنِي مِلَاحِظَةُ الرَّقِيبِ
وَتَنْشُرُ لِي كِتَابًا فِيهِ طَيٌّ بِخَطِّ الدَّهْرِ أَسْطَرُّهُ مَشْيِي
كِتَابٌ فِي مَعَانِيهِ غَمُوضٌ تَلُوحُ لِكُلِّ أَوَابٍ مُنِيبِ
أَزَالُ اللَّهَ يَا صَاحِبِي شَبَابِي فَعَوَّضْتُ الْبَغِيضَ مِنَ الْحَبِيبِ
وَبَدَّلْتُ التَّكَاسُلَ مِنْ نَشَاطِي وَمِنْ حَسَنِ النُّضَارَةِ الشَّحُوبِ
كَذَاكَ الشَّمْسُ يَمْلُوهَا أَصْفَرَارٌ إِذَا جَنَحَتْ وَمَالَتْ لِلْغُرُوبِ

وهذا القدر كافٍ هنا في ذكر الشيب .

وقوله : « ريب » ، شك . أما أسمعك الصوت ، الصوت هنا : النِّبَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ . والقوت : بُعْدُ الشَّيْءِ . الاحتياط ، من الحَوَاطَةِ ، وهى الْوَقَايَةُ . تسدُّر : تَتَبَعْتَهُ . تَخْتَال : تَتَكَبَّرُ . الزهو : الكبر . عم : شمل .

ولأبى العتاهية فى معناه :

حتى متى ذوالتيه فى تيهِهِ أَصْلَحَهُ اللَّهُ وَعَافَاهُ !
يتيهُ أهلُ التَّيِّهِ مِنْ جَهْلِهِمْ وَهُمْ يَمُوتُونَ وَإِنْ تَأْهَوْا
من طلب العزِّ ليبقى به فَإِنَّ عِزَّ الْمَرْءِ تَقْوَاهُ
لم يعتصم بالله من خَلْقِهِ مَنْ لَيْسَ يَرْجُوهُ وَيَخْشَاهُ

ولحمد بن حازم :

فيا شامخاً أقصرَ عنانك مقصراً فإن مطايا الدهر تكبو وتعتز
ستفرغ سناً أو تفض ندامةً يدبك إذا خان الزمان وتبصر
ويلقاك رشدٌ بعد غيتك واعظاً ولكنه بقلبك والأمر مدبر

وَحَتَّامٌ تَجَافِيكَ وإبطاء تَلَاْفِيكَ
طِبَاعاً جَمَعَتْ فِيكَ عِيوباً شَمَلَهَا انْضَمَّ

إِذَا اسْتَخْطَتَ مَوَلَاكَ فَمَا تَقَلَّقُ مِنْ ذَاكَ
وَإِنْ أَخْفَقَ مَسْعَاكَ تَلَطَّيْتُ مِنْ أَلْهَمِ

وَإِنْ لَاحَ لَكَ النَّقْشُ مِنَ الْأَصْفَرِ تَهَشُّ
وَإِنْ مَرَّ بِكَ النُّعْشُ تَغَامَمْتُ وَلَا غَمَّ

تُعَاصِي النَّاصِحَ الْبَرَّ وَتَعْتَاصُ وَتَزُورُ
وَتَنْقَادُ لِمَنْ غَرَّ وَمَنْ مَانَ وَمَنْ نَمَّ

قوله : «تجافيك» ، أى تباعدك من فعل الخير . إبطاء : تأخر . تلافيك : تداركك . طباعاً : أخلاقاً ؛ يريد أن أخلاقك قد جمعت فيك عيوباً انضمَّ عليك شملها . أخفق : خاب . مسعاك : طلبك ومشيك فى اكتساب الرزق . تلطيت : احترقت واشتعلت ، وهو تفتعلت ، من اللفظ . الأصفر : الدينار ، وقشه الكتاب

الذى فيه . تهتش : تحف وتهتز طرباً . تقامت : أظهرت الغم . ولا غم ، أى ليس عندك غم على الحقيقة .

كان أبو الدرداء رضى الله عنه إذا رأى جنازة قال : اغدى فإننا راحون ، أو روى فإننا غادون .

أبو عمرو بن الملاء قال : جلست إلى جرير وهو يملئ على كاتبه :

* ودّع أمانةً حانَ منك رحيلُ*^(١)

ثم طلعت جنازة فأمسك ، وقال شيبني هذه الجنازة ، قلت : فلم تُسبّ الناس ؟ قال : بيده وني ، ثم لا أعفو ، وأعتدى ولا أبتدى . ثم أنشأ يقول :

تروّعنا الجنائزُ مقبلاتٍ ونلّهُو حين تذهب مدبراتٍ^(٢)
كروعةٍ هجمة لمغار ذئبٍ فلما غاب عادت راتعاتٍ

وقال آخر :

وتعدُّ كثرة من يموت تعجباً عما قريب سوف تدخل في العدد
وأراك تحملهم ولست تردهم وكأنتى بك قد حملت ولا ترد

قوله : « تعاصى الناصح البر » ، أى تعاصى من ينصحك ويبرك . تعاقص : تنصعب ، وهو « تفتعل » من المصيان ، على القلب . تزور : تنقبض . غر : خدع . مان : كذب ، ونم : مشى بالنميمة .

* * *

وَنَسَى فِي هَوَى النَّفْسِ وَتَحْتَالُ عَلَى الْفَلَسِ
وَتَنْسَى ظُلْمَةَ الرَّمَسِ وَلَا تَذْكُرُ مَا سَمَتْ

(١) ديوانه ١٧٢ ، وبقيته :

* إن الوداع إلى الحبيب قليل *

(٢) ديوانه ٨٧ .

وَلَوْ لَا حَظَّكَ الْحَظُّ لَمَا طَاحَ بِكَ الْأَحْظُ
وَلَا كُنْتَ إِذَا الْوَعْظُ جَلَا الْأَحْزَانُ تَقَمُّ

سُتَذَرِي الدَّمَ لَا الدَّمَغَ إِذَا عَايَنْتَ ذَا جَمْعٍ
يَبْقَى فِي عَرَصَةِ الْجَمْعِ وَلَا خَالَ وَلَا عَمٍّ

كَأَنِّي بِكَ تَنْحَطُّ إِلَى اللَّحْدِ وَتَنْفَطُّ
وَقَدْ أَسْلَمَكَ الرَّهْطُ إِلَى أَضْيَقَ مِنْ سَمٍّ

* * *

الرمس : القبر . لاحظك الخط : نظرك السعد . طاح بك : أذهبك
وأهلكك ، والخط : النظر بمؤخر العين ، وقد لحظه لخطاً ولاخطته ملاحظة ،
وكله من اللحاظ ، وهو طرف العين مما يلي الصدغ . وجلاً : كشف . تُذَرِي :
تصب وترسل متفرقاً .

أنس رضي الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَبْكَوْا
فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَبُيَاكُوا ، فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَبْكُونَ فِي النَّارِ حَتَّى تَسِيلَ دُمُوعُهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ كَأَنَّهَا جِدَاوِلٌ ، حَتَّى تَنْقَطَعَ الدَّمُوعُ فَتَسِيلَ الدِّمَاءُ ، فَلَوْ أَنَّ السُّفْنَ
أُجْرِيتَ فِي دُمُوعِهِمْ لَجَرَّتْ » .

لاجع ، أى لا قبيل ولا عشير يحميك ولا يمنعك يوم القيامة . يقي : يمنع .
عرصة الجمع : موضع اجتماع الناس في الحشر . تنحط : تنزل . اللحد : حفير في
جانب القبر . وتنفض : تنضم وتنقبض ، يقال : غططته في الماء إذا أغرقته فيه
وغسسته . أسلمك الرهط : تركك قومك . سم : عين الإبرة ، يريد ضيق القبر

على الميت . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ » .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فساءنا حاله ، فلما اتهمنا إلى القبر فدخله ، التمع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه ، قلنا : يا رسول الله ، رأينا منك شأنا فمِمَّ ذلك ؟ قال : ذكرت ضغطة بنتى وشدة عذاب القبر فأخبرت أن الله تعالى قد خفف عنها ، ولقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخالقين .

* * *

هُنَاكَ الْجِسْمُ تَمْدُودٌ لَيْسَتْ كُلُّهُ الدُّودُ
إِلَى أَنْ يَنْخَرَّ الْعُودُ وَيُمْسِيَ الْعَظْمُ قَدْ رَمَ

وَمِنْ بَعْدُ فَلَا بُدَّ مِنْ الْعَرْضِ إِذَا اعْتُدَّ
صِرَاطٌ جِسْرُهُ مُدَّ عَلَى النَّارِ لِمَنْ قَدْ أُمِّدَّ

فَكَمْ مِنْ مُرْشِدٍ ضَلَّ وَمِنْ ذِي عِزٍّ ذَلَّ
وَكَمْ مِنْ عَالِمٍ زَلَّ وَقَالَ الْخُطْبُ قَدْ طَمَّ

فَبَادِرْ أَيُّهَا الْقُتْرُ لِمَا يَخْلُو بِهِ الْعُرُ
فَقَدْ كَادَ يَهِيَ الْعُمُرُ وَمَا أَقْلَعْتَ عَنْ دَمِّ

* * *

قوله : « ينخر » ، أى يبلى ، والعود : تابوت الميت . رم : بلى : قال

الفجديهيّ : إلى أن ينخر العود ، أي إلى أن يبلى الجسم الناعم الذي هو مثل القضيب ، وقال الألبيري :

كَأَنِّي بِنَفْسِي وَهِيَ فِي السَّكَرَاتِ تَعَالَجُ أَنْ تَرُقِّي إِلَى اللَّهَوَاتِ^(١)
وَقَدْ رَمَ رَحْلِي وَاسْتَقَلْتُ رِكَابِي وَقَدْ آذَنْتَنِي بِالرَّحِيلِ خُدَاتِي
إِلَى مَنْزِلٍ فِيهِ عَذَابٌ وَرَحْمَةٌ وَكَمْ فِيهِ مِنْ زَجَرٍ لَنَا وَعِظَاتٍ
وَمَنْ أَعْيَنَ سَأَلْتُ عَلَى وَجَنَاتِهَا وَمَنْ أَوْجِهَ فِي التُّرْبِ مُنْعَفِرَاتٍ
وَمَنْ وَارِدٍ فِيهِ عَلَى مَا يَسْرُهُ وَمَنْ وَارِدٍ فِيهِ عَلَى الْحَسَرَاتِ

قوله : «اعتدّ» أي استعدّ ، روى أبو بكر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « يُحْمَلُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الصُّرَاطِ فَيَتَقَادَعُ بِهِمْ جَنَبَتَا الصُّرَاطِ تَقَادُعُ الْفَرَاشِ فِي النَّارِ ، فَيَنْجِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ . التَّقَادَعُ : التَّهَافُ ، كَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقْدَعُ صَاحِبَهُ كَيْ يَسْبِقَهُ . والجسر : بناء على النار يُجَازُ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ إِلَى أُخْرَى . وَأَمَّ : قصد . مُرشد : هادٍ . ضلّ : تحيّر . الخطب : الأمر الشديد . طمّ : عظم . العُمر : الجاهل بالأمور . والذي يحلوه المرّ : هو التوبة والأعمال الصالحة التي يصلح بها ما فسد . يهسى : يضعف . أقلمت عن ذمّ ، أي رجعت عن أمر مذموم ، وقال ابن عبد ربه :

بَادِرْ إِلَى التَّوْبَةِ الْخُلَصَاءِ مَجْهَدًا وَتَوْتُ وَنَحَكْتُ لَمْ يَدِدْ إِلَيْكَ يَدًا^(٢)
وَأَرْقَبُ مِنَ اللَّهِ وَعَدًا لَيْسَ يُخْلَفُهُ لَا بَدَّ لَهِ مِنْ إِنْجَازِ مَا وَعَدَا

* * *

وَلَا تَرْكَنْ إِلَى الدَّهْرِ وَإِنْ لَانَ وَإِنْ سَرَّ
فَتُلْنِي كَمَنْ اغْتَرَّ بِأَفْعَى تَنْفُتُ السَّمَّ

وَحَفْضٌ مِنْ تَرَايِكَ فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا يَكُ
 وَسَارٍ فِي تَرَايِكَ وَمَا يَنْكُلُ إِنْ هَمَّ
 وَجَانِبَ صَعَرَ الْحَمْدِ إِذَا سَاعَدَكَ الْجَدُّ
 وَزُمَ اللَّفْظَ إِنْ نَدَّ فَمَا أَسْعَدَ مَنْ زَمَ
 وَنَفْسٍ عَنْ أَخِي الْبَثِ وَصَدَّقَهُ إِذَا نَثَ
 وَرُمَ الْعَمَلَ الرَّثِ فَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَمَ

* * *

قوله : « لا تركن » : تقول : ركنت إلى فلان ، إذا اتخذته ركناً تلجأ إليه ،
 تلقى : توجّد . اغترّ : انخدع . تنفث : تبصق عند لدغها . خفض : سكن . ترايك
 ارتفاعك وتكبرك . سار : ماش . والترقى : العظمان المعوججان على الصدر .
 ينكل : يضعف وينقطع . إن هم : إن أرادك وهم بك ، وفي معنى هذا قول
 أبي نواس - قال غانم الوراق : دخلت عليه قبل وفاته بيوم فقال لي : أملك
 ألواحك ؟ قلت : نعم ، قال : اكتب :

دَبَّ فِي السَّقَامِ سُفْلًا وَعُلُوًّا وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضْوًا فَعُضْوًا
 لَيْسَ تَمْنَى مِنْ لِحْظَةٍ لِي إِلَّا نَصْنِي بِمَرَّهَا بِي جُرُؤًا
 ذَهَبَتْ جِدَّتِي بِطَاعَةِ نَفْسِي وَتَذَكَّرْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نِصْوًا
 قَدْ أَسَانَا كُلَّ الْإِسَاءَةِ فَالَا هَمَّ صَفْحَاعِنَا وَغَفْرًا وَعَفْوًا

قوله : « نفس » ، أى وسّع نفسه ، كأنه خنق فضايق نفسه ، فأمر بحمله . أخى
 البث : صاحب الحزن . نث : نطق وكشف له سره . رم : أصلح ، وقد رمت
 الشيء رمًا أصلحته . الرث : الخلق .

وَرِشَ مَنْ رِيشَهُ انْحَصَ ۖ بِمَا عَمَّ وَمَا خَصَّ
وَلَا تَأْسَ عَلَى النَّقْصِ ۖ وَلَا تَحْرِصْ عَلَى اللَّامِ

وَعَادِ الْخُلُقَ الرَّذْلَ ۖ وَعَوِّذْ كَفَكَ الْبُذْلَ
وَلَا تَسْتَمِعِ الْمَذْلَ ۖ وَانْزُهِمَا عَنِ الضَّمِّ

وَزَوِّدْ نَفْسَكَ الْخَيْرَ ۖ وَدَعْ مَا يُمَقِّبُ الضَّرَّ
وَهَيِّئْ مَرْكَبَ السَّيْرِ ۖ وَخَفْ مِنْ لُجَّةِ الْيَمِّ

بِذَا أُوصِيَتْ يَا صَاحَ ۖ وَقَدْ مَحَتْ كَمَنْ بَاحَ
فَطُوبَى لِفَتَى رَاحَ ۖ بِأَدَابِي يَا تَمَّ

* * *

رِشَ : اجعل له ريشا . انحصَ : تنف ريشه ، تقول : رشت الرجل ، أى
أعنته وأغنيته . بما عَمَّ وما خَصَّ ، أى بما كثر من العطية وقل . تأسَ : تحزن :
على النقص ، أى على النقصان فى الصدقة والمعروف ، ولا تكن أيضاً حريصاً
على جمعه ومنعه فين احتاج إليه ، واللّم : جَمَعَ المال ، ولملت البنية لك .
الرّذْلُ : الردىء ، يريد : عادِ أخلاق البخل ، أو الخلق السوء .

عائشه رضى الله عنها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مامن مسيء إلا وله
توبة ، إلا صاحب سوء الخلق لأنه لا يتوب من ذنب إلا عاد فى شر منه » . والبذل :
الطاء ، وبذلت الشيء بذلاً ، أى أبجته عن طيب نفس . والعذل : اللوم ، أى .

من لامك على العطاء لا تسمعه وأعط ، وأحسن ما قيل وردّ العذل على كثرتة
قول زهير :

وأبيضَ فياض نداءه غمامةً على مُتَفَيِّهٍ ماتُغَبٍّ فواضله^(١)
بكرت إليه غدوةً فرأيتُه^(٢) قعوداً إليه بالصريم عواذله^(٣)
يفدّيته طوراً ، وطورا يلدنه وأعياناً فايدرين أين غاتله^(٤)
فأقصرن فيه عن كريم مرزأ^(٥)
صبورٍ على الأمر الذي هو فاعله^(٥)

قوله « نَزَّهَهَا » ، أي باعدها . عن الضم ، أي عن ضم الأصابع على مافي الكف ،
يقول : أبسط كفك بالعطية ولا تقبضها على مافيها شحاً ، قال ابن عبد ربّه :
يا قابض الكف لا زالت مقبضة فما أناملها للناس أرزاق^(٦)
وغب إذا شئت حق لا ترى أبداً فما لتقدك في الأحشاء إحراق^(٧)
كانه قلب بيت ابن دُرَيْدٍ في رجل من أهل البصرة^(٨) :

يا مَنْ قَبِلَ كَفَّ كُلِّ مَخْرُوقٍ^(٩) هذا ابنُ يحيى ليس بالخرّاق
قَبِلَ أَنامِلَه فَكَسَنَ أَنامِلًا لكنهنّ مفاتيح الأرزاق

(١) ديوانه ١٣٩ ، من قصيدة يمدح فيها حصن بن حذيفة بن بدر ، وفي الديوان « يداه غمامة » ، وقال في شرحه : « يقول : تَطَرَّ يداه بالإعطاء كما تَطَرَّ القمامة » ، وفواصله : « طاياها » لأنها تفضل كل عطاء .

(٢) الديوان : « فوجدته » .

(٣) الصريم : جمع صريمة ؛ وهي القطعة من الرمل تنقطع من معطاه .

(٤) قال في شرح الديوان : « أي لا يدري أين الأمر الذي يختلفه فيه ، أي كيف يتجدد عنه » .

(٥) أعرضني : ولين . ومرزأ : بصاب منه الحبر وبرزأ ماله ، وفي الديوان : « جوع على

الأمر » ، أي ماض عليه بجمع الرأي .

(٦) العقد ٢ : ٣٥١ .

(٧) الديوان : « إفلاق »

(٨) ديوانه ٨٧ .

(٩) الديوان : « مخرق » .

أخذه ابن دُرَيْدٍ من إبراهيم بن العباس الصوليّ يمدح الفضل بن سهل^(١) :

أفضل بن سهل يدُّ تقاصر عنها المثلُ
فَبَسَطَها للفنى وسَطَوُها للأجلِ
وباطنُها للنَّدى وظاهرها للقبَلِ

وسرقه ابن الرومي فقال :

أصبحتُ بين خصاصة ومذلةٍ والحرُّ بينهما يموتُ ذليلاً
فامدُّدْ إلى يدِّا تعودَ بطنُها بذلِ النوالِ وظنُّها التَّقبيلَ

وقال ابن عبد ربه :

وما خُلِقَتْ كَفَّاهُ إلا لأربعٍ عقائلُ لم يعقلَ لهنَّ نوايِ
لتقبيلِ أفواهٍ، وإعطاءِ نائلٍ، وتقليبِ هندیٍّ وحَبْسِ عنانٍ

قوله : «ودع ما يعقب الضير» ، أى دع عنك شيئاً يجيئك فى أثره ضرر .
للمركب هنا : السفينة . واليم : البحر . واللجة : معظم الماء ، وجعل الميت كالسافر ،
وضرب له البحر مثلاً لكثرة ما يرى من الأحوال ، فأمره بالاستعداد لذلك .
ياصاح : يا صاحب . بُحْتُ . نطقت ، يريد أن كل ما قدم من الوصية إنما هو على
وجه النصح ، كما وصى هو بها قبل ذلك ، وأراد بقوله : «صاح» كل من يسمع وصيته ،
لأصاحباً معيناً . طوبى : شجرة فى الجنة ، وهى ، عندهم «فُفلى» من الطيب . يَأْتَمُ :
يقتدى بها فى الظاهر ، يريد أنه من اقتدى بهذه الوصية فطوبى له ، وهو يريد : من
حصل آداب المقامات كلها رأس .

* * *

(١) ديوانه ١٣٦ (من مجموعة الطرائف الأدبية) .

ثُمَّ حَسَرَ رُذْنَهُ عَنْ سَاعِدِ شَدِيدِ الْأَسْرِ ، قَدْ شَدَّ عَلَيْهِ جَبَازُ
الْمَكْرِ لَا الْكَسْرَ ، مُتَعَرِّضًا لِالاسْتِمَاحَةِ ، فِي مَعْرِضِ الْوَقَاحَةِ ،
فَاخْتَلَبَ بِهِ أَوْلِيكَ الْأَمَلَاءُ ، حَتَّى أَتَرَعَ كَيْمَهُ وَمَلَأَ ؛ ثُمَّ انْحَدَرَ
مِنَ الرَّبْوَةِ ، جَذِلًا بِالْحُبْوَةِ .

قال الراوى : فَجَاذَبْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ ، حَاشِيَةً رِدَائِهِ ، فَالْتَفَتَ
إِلَى مُسْتَسْلِمًا ، وَوَاجَهَنِ مُسْلِمًا ، فَإِذَا هُوَ شَيْخُنَا أَبُو زَيْدٍ بَعَيْنِهِ
وَمِيْنِهِ ، فَقُلْتُ لَهُ :

إِلَى كَمْ يَا أَبَا زَيْدٍ أَفَانِيْنِكَ فِي الْكَيْدِ
لِيَنْحَاشَ لَكَ الصَّيْدُ وَلَا تَتَّبِعَا بِمَنْ ذَمَّ

* * *

قوله : « حسر » ، أى كشف . رذنه : كُتْمُهُ . الأسر : الخِلقة ، ومنه
قوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ (١) ، أى خلقهم ، وهو من الإِسَارِ ، وهو
القَدْرُ الذى يشدُّ به الأسير ، فشرُّك الجِلْدِ هى الإِسَارُ - ويراد بها فى الخِلقة العَصَبُ -
التي يشتدُّ بها الجسد وتلتصق بها الأعضاء ، وإليها حُكْمُ حركة البدن من القيام
والقعود ، فسبحان الذى أنشأ الخِلقة كيف شاء ! الاستِمَاحَةُ : الطلب ، استئفاة ،
من مَاحِ الرجلَ يَمِجُّه إذا أعطاه ، وأصل ذلك من اللامح ، وهو النازل فى قعر
البئر ليغرف ماءها ويفرقه على دِلاءِ المستقين ، وقد ماح البئرَ مِجًّا . الوقاحة :
ترك الحياء وصلابة الوجه ، من الحافرِ الوقَاح وهو الصَّلب . ومعرضها : موضع
عَرَضُها ونشرها ، وإن كسرت الليم وفتحت الراء فهو ثوب الوقَاحَة ، لبسه لأنَّ
المِعْرَضِ الثوب الذى تُعْرَضُ فيه الجارية للبيع ، والوقَاحَة : إظهار ذراعه صحيحًا

مشدوداً عليه بخرق ، ليوهم مَنْ رآه أنه مكسور. اختلب: خدع، واحتلب بالحاء: حلب ما عندهم كما تُحلب الشاة. الملا: الجماعة. أترع: ملا. انحدر: هبط ، والرَبْوَة، لغة في الرِّبَاوَة التي تقدّمت. جذلاً: مسروراً. الحبوة: العطية. جاذبته: نازعته. مئنه: كذبه. أفاينك: أنواع كذبك وحيلك. ينحاش: ينضمّ ويجتمع ، وحُشت الصيد أحوشه، إذا جئته من حواليه لتصرفه إلى الحبالة. لا تعباً ، أى لا تبالي ، من عبأت الحلم للجهل ، والخيل للحرب إذا أعدّته ، وإذا لم يبال بالشئ لم يستعد له .

* * *

فأجابَ مِنْ غَيْرِ اسْتِخْيَاءٍ ، وَلَا ارْتِيَاءٍ ، وَقَالَ :

تَبَصَّرْ وَدَعِ اللَّوْمَ وَقُلْ لِي هَلْ تَرَى الْيَوْمَ
قَتَى لَا يَقْمُرُ الْقَوْمُ مَتَى مَا دَسَّتْهُ تَمَّ !

فقلتُ له : مُبْعَدًا لَكَ يَا شَيْخَ النَّارِ ، وَزَامِلَةً الْعَارِ ، فَمَا مِثْلُكَ
فِي طُلَاوَةِ عَلَانِيَتِكَ ، وَخُبْتِ نَيْتِكَ ، إِلَّا مِثْلُ رَوْثٍ مُفَضَّضٍ ،
أَوْ كَيْفِ مُبَيَّضٍ .

نَمْ نَفَرَقْنَا ، فَاِنْطَلَقْتُ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَانْطَلَقَ ذَاتَ الشَّامِلِ ،
وَنَاوَحْتُ مَهَبَ الْجُنُوبِ ، وَنَاوَحَ مَهَبَ الشَّامِلِ .

* * *

ارتياء: إبطاء، وهو «افتعال» من رؤية القلب، التي معناها التدبر والتفكير،
وأصل بابه الهمزة ، فنقلها لمكان همزة اللام ؛ يقول : أجب من غير فكرة .

يَقْمُرُ: يَغْلِبُ، وتقول: قامرتُ الرجلَ قِاراً فقمرتهُ أقره ، أى غلبته . دَسْتُهُ ، أى
 حيلته ، والدَسْتُ: الذى يكون لك فيه الغلب فى الشطرنج ، تقول : الدَسْتُ لى ،
 والدَسْتُ على . ومن ألفاظ عامّة المشرق أن يقول الرجل لصاحبه : هَلَمْ نَأْخُذْ
 دَسْتاً . تَمْ : كَل . قوله : « زاملة » ، أى حاملة ، والزاملة : الدابة يَحْمَلُ عليها . طُلَاوَةٌ
 علانيةٌ ، أى حسن ظاهرك . خَبْتُ تَيْتَكَ : فساد باطنك ، وفى معنى هذا قال
 لقمان لابنه : احذر واحدةً - وهى أهلٌ للَحَذَرِ : إِيَّاكَ أن ترى أنك
 تخشى الله وقلبك فاجر ؛ يحذّره من الرياء ، وفى الحديث : « من أصلَحَ سريره
 أصلَحَ الله علانيته » .

وقيل لرجلٍ مُراءٍ : ما أحسن صلاتك ! قال : ومع هذا فإنى صائم !

قال الشاعر :

وَإِذَا أَظْهَرْتَ شَيْئًا حَسَنًا فليكن أحسن منه ما يَسْرُ
 قُسِيرَ الْخَيْرِ مُوسُومٌ بِهِ وَمُسِيرَ النَّارِ مُوسُومٌ بَشَرُ

وقال محمود الوراق لابن أخيه :

تَصَوِّفْ كى يَقَالَ لَهُ أَمِينٌ وَما معنى التَّصَوُّفِ وَالْأَمَانَةُ
 وَلَمْ يُرِدِ الْإِلَٰهَ بِهِ وَلَكِنْ أَرَادَ بِهِ الطَّرِيقَ إِلَى الْخِيَانَةِ

وقال فيه أيضاً :

تَمَّرَ ثِيَابَكَ وَاسْتَعْدَّ لِقَائِلَ وَاحْكُكْ جَمِينَكَ لِلْقَضَاءِ بِشُومِ
 وَعَلَيْكَ بِالْفَتْوَى فَاجْلِسْ عِنْدَهُ حَتَّى تَصِيبَ وَدِيعَةً لِيَتِيمِ

وقال الأبيض الألبيرى :

أَهْلَ الرِّيَاءِ لِبَسْتُمْ نَامُوسَكُمْ كَالذَّنْبِ يُصْبِحُ فِي الظَّلَامِ الْعَاتِمِ

فلكتُم الدنيا بذهب مالِكِ وقستمُ الأموال بآبن القاسمِ
وركتُمُ شُهَبَ البغالِ بأشهبِ وبأصبغِ صبغت لكم في العالمِ

وقال آخر :

لا شيء أخسر صفقةً من عالم لعبت به الدنيا مع الجهالِ
فنداً يفرق دينه أيدي سبّا ويديله حرصاً لجمع المالِ
لاخير في كسبِ الحرامِ وقلما يُرجى الخلاص لكاسبٍ لحلالِ
نخذ الكفاف ولا تكن ذا فضلةٍ فالفضل تُسألُ عنه أى سُؤالِ

قوله : «مفضض» ، مطلى بالفضة . والكنيف : المستراح . ذات : جهة وناحية .
ناوحت : قابلت . مهب : ناحية هبوبها . الجنوب : الريح القبليّة . والشمال
[مقابل] الجنوبيّة .

المقامة الثانية عشرة وهي الدمشقية

حكى الحارث بن همام قال : شَخَصْتُ مِنْ الْعِرَاقِ إِلَى الْغَوَاطِ ،
وَأَنَا ذُو جُرْدٍ مَرْبُوطَةٍ ، وَجِدَّةٍ مَغْبُوطَةٍ ، يُبْلِغُنِي خُلُوعَ الذَّرْعِ ،
وَيَزِدُّهُنِي حُفُولُ الضَّرْعِ . فَلَمَّا بَلَغْتُهَا بَعْدَ شِقِّ النَّفْسِ ،
وإِنْضَاءِ الْعَنْسِ ، أَلْفَيْتُهَا كَمَا تَصِفُ الْأَسْنُ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي
الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ، فَشَكَرْتُ يَدَ النَّوَى ، وَجَرَيْتُ طَلْقًا مَعَ
الْهَوَى ، وَطَفِيفْتُ أَفْضُ فِيهَا خُتُومَ الشَّهَوَاتِ ، وَأُجْتَنِي قُطُوفَ
اللَّذَاتِ ، إِلَى أَنْ شَرَعَ سَفَرٌ فِي الْإِعْرَافِ ، وَقَدْ أَشْفَقْتُ مِنْ
الْإِعْرَاقِ ، فَعَادَنِي عَيْدٌ مِنْ تَذْكَارِ الْوَطَنِ ، وَالْحَنِينِ إِلَى الْعَمَلِ ،
فَقَوَّضْتُ خِيَامَ الْغَيْبَةِ ، وَأَسْرَجْتُ جَوَادَ الْأَوْبَةِ .

◊ ◊ ◊

[غوطة دمشق]

شَخَصْتُ ، أى خرجت . الغوطة : موضع بالشَّامِ خَصِيبٌ بِخَارِجِ دِمَشْقٍ ، قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « سَتَفْتَحُ عَلَيْكُمْ الشَّامَ فَلْيُكِمَ بِمَدِينَةِ يَقَالُ لَهَا
دِمَشْقُ ، هِيَ خَيْرُ مَدَائِنِ الشَّامِ وَفَسْطَاطُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَرْضِ مِنْهَا يَقَالُ لَهَا الْغَوَاطُ » .
قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : أَحْسَنُ أَنْهَارِ الدُّنْيَا ثَلَاثَةٌ أَنْهَارُ : الْغَوَاطُ ، وَ سَمَرْقَنْدُ ، وَنَهْرُ الْأَبْلَةِ ،
وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْبَصْرَةِ ، وَحَشَوْهَا ثَلَاثَةٌ : عُمَّانُ ، وَأَرْدَبِيلُ ، وَهَيْتُ .

وسُمِّيت دمشق باسم صاحبها الذي بناها ، وهي إرم ذات العماد .

وقال اليعقوبي : مدينة دمشق جليلة المقدار قديمة ، وهي مدينة الشام في الجاهلية والإسلام ، وليس لها نظير في جميع بلاد الشام في أنهارها وبساتينها ، ومبانيها وكثرة عمارتها . وافتتحت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة أربع عشرة .

وقال شيخنا ابن جبير^(١) : مدينة دمشق هي جنة المشرق ، ومطلع حسنه المونق ،^(٢) وعروس المدن^(٣) . قد تجلّت بأزاهير الرياحين ، وتجلّت في حلل سندسية من البساتين ، وحلّت من موضع^(٤) الحسن بمكان مكن ، وتجلّت^(٥) في منصتها بأجل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله المسيح وأمة منها إلى ربوة ذات قرار ومعين . ظل ظليل ، وماء سلسيل ، ينساب انسياب الأراقم بكل سبيل ، ورياض تحيي النفوس^(٦) بنسيمها العليل ، تبرز^(٧) لناظرها بمجتلّى صقيل ، وتناديهم : ألا هلثوا إلى معرّس للحسن ومقبل ، وقد سئمت أرضها كثرة المياه حتى اشتاقت إلى الظما ، فتكاد تناديك بها الصمّ الصّلاب : « إاركض برجلك هذا مُغتسل بارد وشراب^(٨) » . قد أحذقت البساتين بها إحذاف الهالة بالقمر ، واكتنفها اكتناف الأكام للزهر ، وامتدّت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موقع لحظته بجهاتها الأربع ، نضرتة اليانة قيد النظر ، ولقد صدق القائلون عنها :

(١) رحلة ابن جبير ٢٤٠ .

(٢ - ٣) ابن جبير : « وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقر بناها ، وعروس المدن التي جعلناها » .

(٣) ب : « وضع » ، ابن جبير : « موضوع » .

(٤) ابن جبير : « وتزيّن » .

(٥) ب وابن جبير : « يحيي النفوس نسيمها » .

(٦) ابن جبير : « تبرز » .

(٧) سورة ص ٤٢ .

إن كانت الجنة في الأرض ندمشق لا شك منها ، وإن كانت في السماء فهي
بحيث تُسامتها وتحاذيها .

وقال فيها البحرى :

إذا أردت ملأت الطرف من بلدٍ مستحسن ، وزمان يشبه البلاداً^(١)
يُمسِي السحاب على أجبالها فِرَقاً

ويُصبحُ النَّبتُ في صحرائها بدداً
فلست تُبصر إلا واكفاً خضلاً أو يانفاً خضيراً ، أو طائراً غرداً
كأنما القيظ ولَّى بعد وقد تده^(٢) أو الربيع دنا من بعد ما بَعُدَا

قوله : « جرد » ، أى خيل قصيرة شعر الجسد . جِدَّة : غنى . مغبوظة :
محسودة ، أراد مغبوظاً عليها مالكمها ، قلب . يُلهيني : يدعونى إلى اللهو .
خُلُو الذرع : فراغ البال والصدر من الهم ، يزدهيني : يحمانى على الزهو . خُفُولُ
الضرع : كثرة المال ، والضرع للبقرة والشاة بمنزلة الثدي للمرأة ، وخُفُوله :
امتلاؤه باللبن . شق : مشقة . إنصاء : إهزال . والنفس : الناقة القوية . أَلْفَيْتُهَا :
وجدتها . النوى : البعد والانتقال من بلدٍ إلى بلد ، وأراد أنه شكر سفره .
ويد النوى : النعمة التى أنعم بها عليه ، بأن أوصله إلى الغوطة . الهوى : ماتهواه
النفس وتشتهيه . طفقت : أخذت . أنفض : أ كسر . ختوم : ربوط ؛ يريد
أن شهوته التى كانت قد شُدَّت ورُبُطت أخذ يكسر ختومها ويسرحها في
المآكل والمشارب واللذات . أجتني : أجمع . جناة قطوف : ما يجنى من الثمار ،
وجعله للذات أنساعاً . شرع : أخذ وابتدأ ، من شرعت الدابة في الماء ، إذا

(١) ديوانه ٧١٠ ، وقوله :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها وقد ولَّى لك مطربها بئاً وعداً

(٢) الديوان : « حيثته » .

دخلته لتشرب سَفَر : مسافرون ، الإغراق : المشى إلى العراق . أشفقت : خِفْتُ
الإغراق : الفقر من أجل الزاد ولما كل ، وكأنه غرق في ذلك ، فهو يرجع إلى
الغرق والإغراق : للبالغة في الشيء ، يقال : أغرق الرجل في القول والرمي
بالقوس ، إذا بالغ فيهما .

عادنى : زارنى . عيد : شوق ، وكل ما تذكرته واشتقت إليه فهو عيد ،
كانه عاد إلى قلبه بعد نسيانه ، ونقل لفظ الشاعر :

عاد قلبى من الطويلةِ عيدُ واعترانى من حُبِّها تَسْهِيدُ^(١)

ابن الأنبارى ، العيد هنا : الوقت الذى يعود فيه الحزن والشوق ، وقال
تأبط شراً :

يا عيد مالك من شوق وإِراقٍ ومَرَّ طيفٍ على الأهوال طِراقٍ^(٢)

العيد : ما يعتاد من الحزن والشوق ، ومعنى « يالك من شوق » : ما أعظمك
من شوق . الحنين : الشوق . المَطْن : مبارك الإبل حول الماء ، وأراد به بلده .
قوتضت : هدمت . خيام : بيوت . الأوبة : الرجوع ، وأراد قطعت أسباب
الإقامة .



وَلَمَّا تَاهَبَتِ الرَّفَاقُ ، وَاسْتَتَبَّ الاتِّفَاقُ ، أَلْخَنَّا مِنَ الْمَسِيرِ ،
دُونَ اسْتِصْحَابِ الْخَفِيرِ ، فَرُدْنَاهُ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ ، وَأَعْمَلْنَا فِي تَحْصِيلِهِ
أَلْفَ حِيلَةٍ ، فَأَغْوَزَ وَجَدَانُهُ فِي الْأَحْيَاءِ ، حَتَّى خِلْنَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ

(١) صدرة في اللسان - عود ، من غير نسبة ، قال : أراد بالطويلة روضة الصمان ،
تكون ثلاثة أيال في مثلها .

(٢) مطلع قصيدته المفضلية ، وإِراق ، مصدر آرقه يورقه ، من الأرق ، والطراق : الذى
يطرف ليلاً .

الأحياء ، فَحَارَتْ لِعُوزِهِ عُزُومُ السَّيَّارَةِ ، وَانْتَدَوْا بِبَابِ جَيْرُونِ
لِلْإِسْتِخَارَةِ ؛ فَمَا زَالُوا بَيْنَ عَقْدٍ وَحَلٍّ ، وَشَرْزٍ وَسَحْلٍ ، إِلَى أَنْ نَفِدَ
التَّجَاجِي ، وَقَنَطَ الرَّاجِي .

وَكَانَ حِذْيُهُمْ شَخْصٌ مِيسْمُهُ مِيسَمُ الشُّبَّانِ ، وَلَبُؤُسُهُ لَبُؤْسُ
الرُّهْبَانِ ، وَبِيْدِهِ سُبْحَةُ النِّسْوَانِ ، وَفِي عَيْنَيْهِ تَرْجَمَةُ النِّسْوَانِ ، وَقَدْ
قَيَّدَ لِحَظَهُ بِالْجُمُعِ ، وَأَرْهَفَ أُذُنَهُ لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ . فَلَمَّا آتَى
انْكِفَاؤُهُمْ ، وَقَدْ بَرَحَ لَهُ خَفَاؤُهُمْ ، قَالَ لَهُمْ : يَاقَوْمُ لِيُفْرِخْ كَرَبُكُمْ ،
وَلِيَأْمَنْ سِرُّكُمْ ، فَسَاخَفُوكُمْ بِمَا يَسْرُو رَوْعَكُمْ ، وَيَبْدُو
طَوَعَكُمْ .

* * *

استنبت : تهيأ وأقام . أُلْحَنَا : خفنا . الخفير : المجير ، وهو الذي تمشي الرفاق في
ذمته ، وتسميه العامة الفخير . رُدْنَاهُ : طلبناه . أُعُوزَ : عدم . الأحياء الأول :
القبائل ، والثاني ضد الموتى . حالت : تغيرت . لِعُوزِهِ : لفقده . عُزُومُ : جمع
عُزْمٍ ، وهو الجِدَّة . السَّيَّارَةُ : الرفقة ، وهي فَعَّالَةٌ مِنَ السَّيْرِ . انتدوا :
اجتمعوا .

* * *

[باب جيرون]

باب جيرون ، من أبواب جامع دمشق ، وجيرون هذا هو جيرون بن سعد بن عاد ، وهو الذي بنى دمشق ، ونقل إليها الرثام ، وسماها إرم ، وعلى هذا نقلة الأخبار ؛ وأن إرم ذات العماد هي دمشق ، يقال : إنه كان فيها أربعمائة ألف عمود . وقد تقدم أيضاً أن دمشق سميت باسم بانيها ، وهو دماشق بن عمرو بن كنعان ، وقيل : بانيها دمشق بن عامر بن كتمك بن أرفخشذ بن سام بن نوح . قال اليعقوبي^(١) : جامع دمشق ليس في الإسلام أحسن منه ، بناه الوليد ابن عبد الملك في خلافته بالرثام والذهب سنة ثمان وثمانين ، مفروش بالرثام الأبيض المحتم بالأزرق ، وسقفه لاختشب فيه ، مذهب كله ، ومناثره ثلاث : واحدة في مؤخر المسجد ، مذهب كلها من أعلاها إلى أسفلها .

وذكر شيخنا ابن جبير في وصف هذا الجامع ووصف دمشق غرائب لا يتسع لها هذا الكتاب ، فلنم هنا ببعض ما وصف في هذا الجامع ؛ لنفي بشرطنا . قال^(٢) : هذا الجامع من أشهر جوامع الإسلام حسناً وإتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين^(٣) ، ومن عجيب شأنه أنه لا يلم به نسج العنكبوت^(٤) ، ولا تلم به الطير المعروقة بالخطاف ، انتدب لبنائه الوليد^(٥) ، ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية بأمره بأشخاص اثني عشر ألف صانع من بلاده ، وتقدم إليه بالوعيد في ذلك إن توقف [عنه]^(٦) ، فامتثل أمره مذهباً ،

(١) اليعقوبي أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ، صاحب كتاب البلدان والتاريخ المعروف باسمه .

(٢) رحلة ابن جبير ٢٤٠ - ٢٥١ ، يتصرف .

(٣) بعدها في ابن جبير : « وشهرته المتعارفة في ذلك تغني عن استغراق الوصف فيه » .

(٤) ابن جبير : « لا تنسج به العنكبوت » .

(٥) ابن جبير : « الوليد بن عبد الملك » .

(٦) تكملة من ج وابن جبير .

وشرع في بنائه ، وبلغت الغاية في التأنيق فيه ، وأنزلت جدره كلها بقصوص الذهب المعروفة بالنُسَيْفَسَاء ، وخطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة ، قدمثلت أشجاراً ، وفرعت أغصاناً منظومة بالقصوص ببدع الصنعة المعجزة وصف كل واصل ، فجاء يُنَشِى العيون وهيمضاً وبصيصاً .^(١) وبلغت النفقة فيه أحد عشر ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار .

وكان أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه صالح النصارى لما دخلها ، بأن أخذ نصف الكنيسة الشرقى ، فصيّره مسجداً ، وبقي النصف الغربى^(٢) للنصارى . فأخذه الوليد ، وأدخله في الجامع بعد أن رغب إليهم أن يعرضوه عنه ، فأبوا ، فأخذه قهراً . وكانوا يزعمون أن من يهدم كنيستهم يُجَنّ ، فبادر الوليد ، وقال : أنا أول من يُجَنّ في الله ، وبدأ الهدم بيده ، فبادر المسلمون ، فأكلوا هدمها . ثم أرضاهم عمر بن عبدالعزيز في خلافته عن الكنيسة بمال عظيم .

وطول هذا الجامع من الغرب إلى الشرق : ذرعه مائتا خطوة^(٣) ، وهما^(٤) ثلثمائة ذراع ، وذرعه في السعة من القبلة إلى الشمال مائة وخمس وثلاثون خطوة ، وهى مائتا ذراع ، وتكسيره بالمرجع الغربى أربعة وعشرون مرجعاً ، وهو تكسير مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ؛ غير أن طوله من القبلة إلى الشمال ، وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاث ، مستطيلة من المشرق إلى المغرب ، سعة كل بلاطة منها ثمان عشرة خطوة ، وقامت البلاطات على ثمانية وستين عموداً ، منها ثمانية أرجل تتخللها

(١-١) ابن جبير : « وكان مبلغ النفقة فيه حسبما ذكره ابن اللعي الأسدى في جزء وصفه في ذكر بنائه - مائة صندوق ، في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ومائتا ألف دينار ؛ فكان مبلغ الجميع إحدى عشر ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار - والوليد هذا هو الذى أخذ نصف الكنيسة الباقية منه في أيدي النصارى وأدخلها فيه ؛ لأنه كان قسمين : قسماً للمسلمين وهو الشرقى ، وقسماً للنصارى وهو الغربى لأن أبا عبيدة . . .

(٢) ب ، ج : « النصف المصارع عليه » .

(٣) قال ابن جبير : الخطوة : ذراع ونصف .

(٤) ط : « هى » ، وما أثبتته من ب وابن جبير .

واثنتان مرخّمة مصلّقة بالجدار الذي يلي الصخرة ، وأربع أرجل مرخّمة أبدع ترخيم ، مرصّعة بفصوص من الرّخام ملوّنة ، قد نظمت خواتيم ، وصوّرت محاريب وأشكالاً غريبة قائمة في البلاط الأوسط ، دور كلّ رجل منها اثنان وسبعون شبراً ، ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته ، سعة عشر خطاً ، وعدد قوائمه سبع وأربعون ، منها أربع عشرة رجلاً ، والباقي سوار ، وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص . وأعظم ما فيه قبة الرصاص المتّصلة بالحراب ، وهي سامية في الهواء ، عظيمة الاستدارة ، وقد استقلّ بها هيكل عظيم ، هو عماد لها يتصل من الحراب إلى الصحن والقبة ، قد أغصّت بالهواء ، فإذا استقبلتها رأيتَ مرأى هائلاً ، ومن أيّ جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء ، كأنها معلّقة في الجو ، وعدد شمسياتها الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون ، فإذا قابلتها الشمس واتصل شعاعها بها انعكس الشعاع إلى كلّ لون منها ، واتصل ذلك بالجدار القبلي ، ويتصل بالأبصار منها أشعة ملوّنة هائلة لا تبلغ العبارة تصوّرها ، ومحرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسناً وغرابة صنعة يتقدّ ذهباً كلّها ، وقد قامت في وسطه محاريب صفار متصلة بجداره ، تحفّها سويريات مقتولات قتل الأسورة ، فإنها مخروطة ، بعضها أحمر ، كأنها مرجان لم يُرْ شيء أجمل منها .

وفيها ثلاث مقاصير : مقصورة معاوية ، وهي أول مقصورة وضعت في الإسلام ، طولها أربعة وأربعون شبراً ، وعرضها نصف الطول . ويليها بحمة الغرب المقصورة التي أحدثت عند زيادة الكنيسة فيه ، وهي أكبر^(١) . والثالثة بالجانب الغربي ، يجتمع الحفنيّة فيها للتدريس .

وله أربعة أبواب : باب قبليّ يعرف بباب الزيادة ، وباب شماليّ يعرف بباب الناطقين ، وباب غربيّ يعرف بباب البريد ، وباب شرقيّ يعرف بباب جيرون ، وهو أعظمها .

(١) ابن جبير : « مقصورات » .

وله وللغربي دهاليز متسعة يفضى كل دهليز منها إلى باب عظيم كانت كلها مداخل للكنيسة ، فبنيت على حالها .

ثم ذكر في الصحن عجائب من الأبنية والقباب والصوامع الثلاث وليماء المدبرة فيه ما يطول وصفه واختصاره . قال : وهذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها ، وفيه مجتمع أهل البلد ومتفرجهم ومنزههم ، كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين من باب جيرون إلى باب البريد ، لا يزالون على هذه الحالة إلى انقضاء صلاة العشاء الأخيرة ، منهم من يتحدث مع صاحبه ، ومنهم من يقرأ . فهذا دأبهم أبداً بالعشي والغداة^(١) ، وأكثر الاحتفال بالعشي ، [فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم ، لا يزالون على ذلك كل يوم]^(٢) ، وأهل البطالة يسمونهم الحرائين .

وللجامع أربع سقايات في كل جهة سقاية . وأعظمها سقاية باب جيرون . وذكر أن حول باب جيرون من الأبنية الغربية ما يطول وصفه ، وذكر باب جيرون فقال : يخرج من دهليزه إلى بلاط طويل عريض له خمسة أبواب مقوَّسة ، لها ستة أعمدة في جهة اليسار ، منه مشهد كبير كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه ، قبل أن يُنقل إلى القاهرة ، وبازائه مسجد صغير لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها إلى الدهليز ، وهي كالخندق العظيم تتصل إلى باب عظيم الارتفاع ينحسر^(٣) الطرف دونه سموًا ، قد حفته أعمدة كالجدوع طولاً ، وكالأطواد ضخامة ، وبجانب الدهليز أعمدة قامت عليها شوارع مستديرة ، فيها حوانيت العطارين وغيرهم ، وعليها شوارع مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكراء مشرفة على الدهاليز ، وفوقها سطح بيت فيه سُكَّان الحجر والبيوت ، وفي وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام ، عليه قبة تقاًها أعمدة من الرخام . وفي وسط الحوض أنبوب صُفَّر يزجج

(١) ابن جبير : « ولبعضهم بالغداة مثل ذلك » .

(٢) تسكلة من ابن جبير .

(٣) كذا في ابن جبير ، وفي ط ، ب : « بتجير » .

الماء بقوة ، فيرتفع في الهواء أزيد من القامة ، وحوله أنابيب صفار ترمى الماء علواً^(١) ، فيخرج منها كقضبان اللجين ، فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية ، ومنظرها أبداع من أن يوصف ، وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه شبه غرفة ، بها هيئة طاق كبير مستدير ، فيه طيقان من صفر وقد فتحت أبواباً صفراً على عدد ساعات النهار ، ودبرت تديراً هندسياً ، فعند انقضاء ساعة من النهار ، تسقط صنجتان من صُفْر من فئ بازئين من صُفْر قائمين على طاستين من صُفْر مثقوبتين ، فتبهر البازيين بمدان أعناقهما للصنجتين إلى الطاستين ، ويقذفانها بسرعة ، بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً ، فعند وقوعهما يُسمع لهما دوى ، فيعودان من الأتواب إلى داخل الجدار إلى الغرفة ، ويتعلق الباب تلك الساعة بلوح أصفر ، فلا يزال كذلك حتى تنقضي الساعات ، فتعلق الأبواب كلها ، ثم تعود إلى حالاتها الأولى . ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك أن في القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخروطة ، في كل دائرة زجاجة ، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فإذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح ، وأفاض دلى الدائرة شعاعاً ، فلاح دائرة محمرة ، ثم ينتقل إلى الأخرى ، حتى تنقضي ساعات الليل ، وقد وكل بها من يدير شأنها ، فيعيد فتح الأبواب ، ويسرح الصنّج إلى موضعه وهي التي تسمى الميقات .

ثم ذكر في باب جيرون ، وفي الجامع وفي خارج البلد عجائب ليست من شرطنا ، وإنما ذكرنا منها مادعت إليه الحاجة من ذكر باب جيرون .

* * *

قوله : « الاستخارة » أي طلب الخير ، واستخرت الله : سأله أن يهب لي الخير .
شزر : عقد . سخل : حل ، وشزرت الحبل شزراً شددت قتله ، وسحات النسيج سحلاً أفردت سداً ولم تنفله . نفذ : تم وفرغ . التناجى : التحدث سراً . قنط : ينس

الراجى : الطامع . حَذَّهم : قريبا منهم ، تقول : دارى حَذوه وحذوته . وحذته ، أى حذاه . ميسمه : علامته ، وأصل الميسم المِؤسَم ، لأنه من وسمت الشيء ، فقلبت الواو ياء لسكونها وكسر ما قبلها . لبوسه : ثيابه . الرهبان : العباد . والترهب : ترك النساء . سُبحَة : خيط ينظم فيه خرز يعد به التسبيح ، وكانت لأبى هريرة رضى الله عنه سُبحَة من النوى المجزَع ، وهو الذى حُكَّ حتى اختلف لونه . وفرغ من سبحته ، أى من صلاته وما يتبعها من الذكر . ترجمة : علامة . الشَّوان : السَّكران . قَيَّد لحظه : ربط نظره ، أى شخص فيهم . أرهف : أهدأ . آن : حان وقرب ، ويروى « ناء » مقلوب « آن » . انكفاؤهم : انقلابهم ورجوعهم . برَّح : انكشف . خفاؤهم : سرهم .

لِيُفْرِخَ كَرَبِكُمْ : لِيَزُولَ وَيَسْكُنَ ، وَمَثَلُ الْعَرَبِ : أَفْرِخَ رَوْعَكَ ، وَمَعْنَاهُ : انْجَلِ وَانْكَشِفْ كَمَا يَنْكَشِفُ مَا فِي الْبَيْضَةِ إِذَا انْشَقَّ عَنِ الْفَرْخِ . وَقِيلَ : مَعْنَى أَفْرِخَ ، ذَهَبَ .

وقال الفارسي في التذكرة : معنى أَفْرِخَ رَوْعَكَ : صار له فرخ ، وإذا أَفْرِخَ الطائر طار ، لأنه فارق الحضن ، وهذا قول حسن .

وقال عروة بن مضر م : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم يجمع قبل أن يصلي الصبح ، فقلت : يا رسول الله ، طويت الجبلين ، ولقيت شدة ، فقال : « أَفْرِخَ رَوْعَكَ ، مَنْ أَدْرَكَ إِمَّاضَتَنَا هَذِهِ فَقَدْ أَدْرَكَ الْحِجَّ » ، وقال الأخطل يصف الثور والكلاب :

حَتَّى إِذَا مَا الثَّوْرُ أَفْرِخَ رَوْعَهُ وَأَفَاقُ أَقْبَلَ نَحْوَهَا يَتَذَمَّرُ^(١)
أَضْمًا وَهَزَّ لَهَا رَوْقِي رَأْسِهِ^(٢) إِذْ قَدْ أَتَيْتُ لَهَا مَوْتَ أُحْمَرُ

(١) ديوانه ٢٣١ .

(٢) الديوان : رعى رأسه .

فقوله : « أفأق » بعد « أفرخ روعه » يدلّ على أنه أراد ذهب فزعه وزال .
ويتذمّر ، يحضّ نفسه على الإقدام ، يقال : ذمرت إذا حضضته . وأضما ، أى غضبان ،
وللوت الأحمر مذكور في المقامة بعد هذه . قوله : « كركبكم » أى همكم .
سركم ، أى جمعكم ، أى تأمنوا في نفوسكم . سأخفركم : سأجبركم . يَشْرُو :
يكشف ويزيل . رَوْعكم : فزعكم . يبدو : يظهر . طوعكم : منقاداً لكم ، وأراد
سأجبركم بشئ . يزيل عنكم الفزع ، ويكون منقاداً لكم ، وذلك الشئ هو
الكلمات التي باتى بها .

* * *

قال الراوى : فاستطلعننا منه طمع الخفارة ، وأسئنا له الجمالة
عن السفارة ، فزعم أنّها كلمات لقنها في المنام ، ليخترس بها من
كيد الانام ، فجعل بعضنا يؤمض إلى بعض ، ويقلب طرقه
بين لخط وعرض ، وتبين له أنا استضعفنا الخبر ، واستشعرنا الخور ،
فقال : ما بالكم اتخذتم جدى عبداً ؛ وجعلتم تبرى خبثاً ؛ ولطالما
والله جبت مخاوف الأقطار ، ولجبت مقاحم الأخطار ، فغنيت
بها عن مصاحبة خفير ، واستصحب جفير . ثمّ إلى سأنفى
مارابكم ، وأسئل الخذر الذى نابكم ، بأن أوافقكم في
البداوة ، وأرافقكم في السماوة ، فإن صدقكم وعدي ، فأجدوا
سعدى ، وأسعدوا جدى . وإن كذبكم فمى ، فمزقوا أدى ،
وأريقوا دى .

قال الحارث بن همام : فَأَلْهِمْنَا تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ ، وَتَحْقِيقَ مَا رَوَاهُ ،
فَنَزَعْنَا عَنْ مَجَادَلَتِهِ ، وَاسْتَهَمْنَا عَلَى مُعَادَلَتِهِ ، وَفَضَمْنَا بِقَوْلِهِ عُرَى
الرَّبَائِثِ ، وَالْغَيْنَا اتِّقَاءَ الْعَايِثِ وَالْعَائِثِ .

* * *

استطلعنا منه طُلُعَ الْخِفَارَةِ ، أى استخبرناه عن خبر الإجارة ، قال ابن
الأنباري : معنى السَّفَارَةِ فى كلامهم الإصلاح ، والسفير : المصلح .

قال الشاعر :

وَمَا أَدْعُ السَّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي وَمَا أَمْشِي بِفَشٍّ إِنْ مَشَيْتُ

وأُسْنِينَا لَهُ الْجِمَالَةُ عَنِ السَّفَارَةِ ، أى كَثَرْنَا لَهُ الْعِطَاءَ لِيَدْلَنَا عَلَى الْحَجِيرِ ،
وَأَنْ يَكُونَ رَسُولًا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ . وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ السَّفَارَةُ فِعَالَةً ، مِنْ لَفْظِ السَّفِيرِ ،
فِيَكُونُ اسْمًا لِلْحِرْفَةِ كَالنَّجَارَةِ وَالْخِيَاطَةِ . لُقِّنَهَا : حَفَظَهَا . لِيَحْتَرِسَ ، لِيَمْتَنِعَ .
يَوْمُضُ : يُشِيرُ . لِحَظَ : نَظَرَ بِطَرَفِ عَيْنِهِ . غَضَّ : كَسَرَ النَّظَرَ ؛ أى جَمَعُوا
يَتَغَامَزُونَ عَلَيْهِ اسْتِضْعَافًا لِحَبْرِهِ . اسْتَشَعَرْنَا الْخَوَرَ ، أى ظَهَرَ عَلَيْنَا الْفَرْعُ وَالضَّعْفُ
مِنْ كَلَامِهِ . الْعَبَثُ : اللَّعِبُ . تَبَرَّى : ذَهَبَ ، وَالتَّبَرُّ : كُلُّ مَا لَمْ يَصْنَعْ مِنَ الْجَوَاهِرِ
مِنْ نُحَاسٍ وَغَيْرِهِ . خَبَنًا : فَاسِدًا . جُبَيْتُ : قَطَعْتُ . مَخَافُ : مَوَاضِعُ الْخَوْفِ .
الْأَقْطَارُ : نَوَاحِي الْأَرْضِ . وَلَجَجْتُ : دَخَلْتُ . مِقَاحِمُ : مِهَالِكُ ، وَالْمُخِمَةُ الْأَمْرُ
الْعَظِيمُ لَا يَرْكَبُهُ أَحَدٌ لَهُوْلَهُ . الْأَخْطَارُ : جَمْعُ خَطَرٍ ، وَهُوَ الْفَرَرُ . جَنِيرُ : جُعبَةُ
السَّهَامِ . رَابِكُ : شَكَّكَكُمْ ، أَسْتَسِيلُ : أَزِيلُ . الْحَذَرُ : الْخَوْفُ . نَابِكُ :
قَصَدَكُمْ . أَوَافَقَكُمْ : أَسَاعِدُكُمْ وَأَمْشِي مَعَكُمْ مَصَاحِبًا لَكُمْ . أَرَاْفَقَكُمْ : أَسَافِرُ

معكم ، والرفيق: الصاحب في السفر. السماوة : مفازة بين الشام والعراق، وسماوة كل شيء شخصه ، وبذلك سُميت السماوة لأنها منازل نمود، وفيها إلى الآن أشخاص منازلهم وآثارهم. أجَدَّوه : ردوه ذاجدً ، وهو السعد والحظ ، والمعنى أنه يقول : إن كان سعدى قليلاً فأجدَّوه ، أى كثرُوا حظَّه بعطيتهم حتى يعود صاحبه كثير السعد ، وكذلك يقدر : أسعدوا جدِّي ، فيريد : إن صدقتكم وعدى ، وسلمتم ، فهبوا لي من أموالكم ما يتقوى به سمدى الضعيف ، ويكثر حظي القليل . ويقال أيضاً : أجَدَّ الشيء إذا صيره جديداً . مزقوا : قَطَّموا . أدعى : حِلدى . أريقوا : صُبوا .

أهملنا ، أى ألقى في قلوبنا . نزعنا : أقلعنا . مجادلته : مخالفته . استهننا : ضربنا التهام وتخطأنا على من يركب معه رفيقاً . ومعادلته : الركوب معه في الحمل ، وهو أن يركب هذا في الأيمن ، وهذا في الأيسر ، مأخوذة من المدل .

ونذكر هنا حكاية مضحكة تزيد المعادلة بياناً ، كان المعتصم يأنس بعلی ابن الجنيد الإسكافي ، وكان عجيب الصورة والحديث ، فقال المعتصم لابن حماد : اذهب إلى ابن الجنيد ، وقل له : يتهمياً ليزاملني ، فأتاه فقل له : تهياً لزمالة أمير المؤمنين ، فإن زمالة الخلفاء كبيرة ، فقال : كيف أتهياً لها ؟ أصيب رأساً غير رأسي ! أشتري لحية غير لحيتي ! قال ابن حماد : شروطها الامتناع عن الحديث والمذاكرة والنادمة ، وألاً تبصق ولا تسعل ولا تمخط ولا تنتنح ، وأن تتقدم في الركوب إشفافاً عليه من الميل ، وأن يتقدمك في النزول ، فتمى لم يفعل هذا المعادل كان ومثقلة الرصاص التي تملد بها القبة واحداً ، فقال لابن حماد : اذهب قل له ما يراملك إلا من أمه زانية . فرجع إلى المعتصم وأعلمه ، فضحك وقال : على به ، فلما جاء قال : يا على ، أبعث إليك أن تزامني فلا تفعل ! فقال له : إن رسولك هذا الأرهن جاءني بشروط حسان السامى وخالويه الحاكى ،

قَالَ : لَا تَبْصُقْ وَلَا تَعْطُسْ ، وَجَلَّ يَتَرَقَّعُ بِصَادَاتِهِ ، وَهَذَا لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ ؛ فَإِنْ رَضِيتَ أَنْ أَرَامَلَكَ ، فَإِذَا جَاءَنِي الْفُسَاءُ وَالضَّرَاطُ فَسُوتُ وَضَرَطْتُ ، وَإِلَّا فَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَمَلٌ . فَضَحَكَ الْمُعْتَصِمُ حَتَّى فَحَصَ بِرَجْلَيْهِ ، وَقَالَ : نَعَمْ زَامِلْنِي عَلَى هَذِهِ الشَّرُوطِ ، فَسَارَ سَاعَةً فَلَمَّا تَوَسَّطَ الْبَرَّ ، قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ حَضَرَ ذَلِكَ الْمَتَسَامِحُ ، قَالَ : ذَلِكَ إِلَيْكَ ، قَالَ : يَحْضُرُ ابْنُ حَمَادٍ ، فَحَضَرَ ، فَنَاولَهُ كَعْبَهُ ، وَقَالَ أَجِدُ فِي كَعْبِي دَيْبَ شَيْءٍ ، فَانْظُرْ مَا هُوَ ، فَأَدْخَلَ رَأْسَهُ فَشَمَّ رَائِحَةَ الْكَنِيفِ ، قَالَ : مَا أَرَى شَيْئًا ، وَلَكِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ فِي جَوْفِ ثِيَابِكَ كَنْيَفًا ، وَالضَّحِكُ قَدْ ذَهَبَ بِالْمُعْتَصِمِ كُلِّ مَذْهَبٍ ، وَابْنُ الْجَنْدِ يَفْسُوفُ سَاءَ مَتَصَلًا ، وَيَقُولُ لابْنُ حَمَادٍ : قُلْتُ : لِي : لَا تَسْعَلْ أَوْ لَا تَمْخُطْ ، فَخَرَّيْتُ عَلَيْكَ ، ثُمَّ قَالَ : قَدْ نَضِجَتْ الْقِدْرُ ، وَأُرِيدُ أُخْرَى ، فَأَخْرَجَ الْمُعْتَصِمُ رَأْسَهُ مِنَ الْعَارِيَّةِ حِينَ كَثُرَ عَلَيْهِ الضَّحِكُ ، وَصَاحَ : وَيْلَكَ يَا غَلَامَ ، الْأَرْضُ : السَّاعَةَ أَمُوتُ !

قوله : «فصمنا» ، أى قطعنا وحللنا والأرأ : عيون من شريط أو غيره يُشَدُّ بها فم الخُرج أو الدِّل ، واحدها عروة . والرَّبَّاثُ : العَلَقُ ، واحدها رَيْثَةٌ ، وهو ما يثبت الإنسان ويحبسه عن أمر يريده ، وقد رَبَّثْتُكَ عن الأمر رَبَّثًا ، وَتَرَبَّثْتُ أَنَا تَرَبَّثًا ، إِذَا تَثَبَّتْ . أَلْفِينَا : أَطْرَحْنَا . اتَّقَاءُ : خَوْفٌ . الْعَابِثُ : الَّذِي يَعْثُ بِأُمُورِهِمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ فَيُفْسِدُهَا ، وَالْعَابِثُ : الْمَفْسُدُ ، وَيُقَالُ : عَثَبْتُ بِفَتْحِ الْبَاءِ عَثَبًا : خَلَطَ . وَبَكَسَرَهَا عَثَبًا : لَعَبَ وَاسْتَخَفَّ ، وَعَاثَ عَثَا : أَفْسَدَ .

«وَلَمَّا عَكِمَتِ الرَّحَالُ ، وَأَزِفَ التَّرْحَالُ ، اسْتَنْزَلْنَا كَلِمَاتِهِمُ الرَّأْيَانِيَّةَ ، لِنَجْمَلَهَا الْوَاقِيَةَ الْبَاقِيَةَ ، فَقَالَ : لِيَقْرَأْ كُلُّ مِنْكُمْ أَمَّ

القرآن، كَلَّمَآ أَظْلَّ الْمَلَوَانِ . نَمَّ لِبُقْلٍ بِلِسَانٍ خَاضِعٍ ، وَصَوْتٍ خَاشِعٍ : اللَّهُمَّ يَا مُنْجِي الرُّفَاتِ ، وَيَا دَافِعَ الْآفَاتِ ، وَيَا وَاقِيَ الْمَخَافَاتِ ، وَيَا كَرِيمَ الْمَكْفَاةِ ، وَيَا مُوَيْلَ الْعُفَاةِ ، وَيَا وَلِيَّ الْعَفْوِ وَالْمَعَاةِ ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ أَنْبِيَائِكَ ، وَمُبَلِّغِ أَنْبِيَائِكَ ، وَعَلَى مَصَاحِبِ أَسْرَتِهِ ، وَمَفَاتِيحِ نُصْرَتِهِ ، وَأَعِزَّنِي مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَنَزَوَاتِ السَّلَاطِينِ ، وَإِغْنَاتِ الْبَاغِينِ ، وَمَعَانَاةِ الْإِطَّاعِينَ ، وَعُدْوَانِ الْمَعَادِينَ ، وَغَلَبِ الْغَالِبِينَ ، وَسَلَبِ السَّالِبِينَ ، وَحِيلِ الْمُحْتَالِينَ ، وَغِيلِ الْمُغْتَالِينَ ، وَأَجِرْنِي اللَّهُمَّ مِنْ جَوْرِ الْمَجَاوِرِينَ ، ^(١) وَمُجَاوِرَةِ الْجَائِرِينَ ^(٢) ، وَسَطَوَةِ الْجَبَّارِينَ ، وَكُفَّ عَنِّي أَكْفَ الضَّاعِينَ ، وَأَخْرِجْنِي مِنْ ظُلُمَاتِ الظَّالِمِينَ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ .

عَمَكَ الرِّحَالُ ، أَي شَدَّتْ الْأَحْمَالُ بِالْعِكَامِ ، وَالْعِكَامُ مَا يَشُدُّ بِهِ فَمُ الْعِمِّمِ وَهُوَ الْعِدْلُ . وَقِيلَ : إِنْ أَصَلَ الْعِكَامُ كَلِمَةً تَرْبِطُ عَلَى فَمِ الْبَعِيرِ ، وَمِثْلُهُ اللَّجَامُ ، يُسْتَعْمَرُ لِمَا يَشُدُّ بِهِ الْمَتَاعُ ، وَيُقَالُ : عَمَكَ الْمَتَاعُ عَمَّا شَدَّدَتْهُ فِي الْعِمِّمِ ، أَوْ شَدَّدَتْهُ بِالْعِكَامِ ، وَعَمَكَ الْبَعِيرُ شَدَّدَتْ عَلَيْهِ الْعِمِّمُ ، أَوْ رَبَطَتْ الْعِكَامُ عَلَى فَمِهِ ، وَأَعَمَكَتْكَ أَعَمَّتْكَ . أَزِفَ : دَنَا وَقَرُبَ . اسْتَنْزَلْنَا : طَلَبْنَا مِنْهُ إِنْزَالَهَا ، أَي تَلَطَّفْنَا بِهِ لِيَذْكُرَهَا . الرَّاقِيَةُ : الرَّفِيعَةُ ، مِنْ رَقَى فِي الدَّرَجَةِ ، أَوْ الْمَعْوِذَةُ لَنَا ، مِنْ رَقِيتِ الْمَرِيضِ ، وَهُوَ أَشْبَهَ لِمَوَاقِفِهَا الْمَعْنَى الْوَاقِيَةِ ، وَهِيَ الْكَافِيَةُ ، لِمَا يَخَافُ مِنَ الشَّرِّ . أَظْلُّ الْأَمْرِ :

قرب ودنا وكأنه ألقى عليك ظله . الملوان : الليل والنهار ، والخاضع : الدليل ،
 وخضع خُضوعاً : أقر بالذل . والخاشع : المتواضع ، وخشع خُشوعاً : خفض
 صوته ، ورمى ببصره إلى الأرض ، والخضوع قريب منه ، إلا أن أكثر
 ما يستعمل الخشوع في الصوت والخضوع في الأعناق . الثِّرات : العظام البالية .
 الآفات : المضرات . المكافأة : المجازاة . موئل : ملجأ . العفاة : جمع عافٍ ،
 وهو سائل العفو . ولّى العفو : صاحب المغفرة . والمعافاة : المبعادة من الضرر ،
 وقد عافاه ممّا يكره وأعفاه . أنبائك : أخبارك ، والنبأ الخبر . أمرته : رهطه ،
 وأراد بالمصاييح المهاجرين ، وبالمفاتيح الأنصار . أعذني : أجزني . التزغات :
 الإفساد ، نزع الشيطان بين القوم ، أى أفسد ذات بينهم . والشيطان : البعيد
 من الخير ، من قولهم : دار شَطُون ، أى بعيدة ، ونوى شَطُون .

قال النابغة :

* نأت بُمَادَ عَنْكَ نَوَى شَطُون^(١) *

وقال نابغة بنى شيبان :

فَأَضَحَّتْ بَعْدَ مَا وَصَلَتْ بِدَارِ شَطُونٍ لَا تُعَادُ وَلَا تَعُودُ^(٢)
 نزوات : وثوب ، وقد نزا نزواً ونزواً ، وإذا وثب ، ونزا على الشيء ،
 ارتفع . إعنات : مشقة . الباغين : المتعدين ، وقد بغى عليه بغياً : تعدى عليه .
 معاناة : معاملة ومقاساة . الطاغين : المسرفين في الظلم والمعاصي ، والعادين :
 للتجاوزين الحد في الظلم . غِيل : جمع غيلة ، وهى الهلاك . والمقتال : المهلك .
 أجزني : أمني . سطوة : بطش وتهديد . الضائمين : المذلين .

(١) اللسان - شطن ، وعجزه :

* فبانة ، والفؤاد بها رهين *

(٢) ديوانه ٣٤ .

(٤ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

اللَّهُمَّ حُطِنِي فِي ثُرْبِي، وَغُرْبِي وَغَيْبِي، وَأُزْبِي وَنَجْمِي،
 وَرَجْمِي، وَتَصَرُّفِي وَمُنْصَرَفِي، وَتَقْلَبِي وَمُنْقَلَبِي. وَاحْفَظْنِي فِي
 نَفْسِي، وَنَفَاسِي، وَعِرْضِي وَعَرَضِي، وَعُدَدِي وَعُدْدِي،
 وَسَكْنِي وَمَسْكَنِي، وَحَوْلِي وَحَالِي، وَمَالِي وَمَالِي، وَلَا
 تُلْحِقْ بِي تَغْيِيرًا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ مُغْيِرًا، وَاجْعَلْ لِي مِنْكَ
 سُلْطَانًا نَصِيرًا. اللَّهُمَّ اخْرُسْنِي بِعَيْنِكَ وَعِزِّكَ، وَاخْصُصْنِي
 بِأَمْنِكَ وَمَنْعِكَ، وَتَوَلَّنِي بِاخْتِيَارِكَ وَخَيْرِكَ. وَلَا تَكِلْنِي إِلَى
 كَلَاءَةٍ غَيْرِكَ، وَهَبْ لِي عَافِيَةً غَيْرَ عَافِيَةٍ، وَارْزُقْنِي رِفَاقِيَةً غَيْرَ
 وَاهِيَةٍ. وَارْزُقْنِي مَخَاشِي اللَّأْوَاءِ، وَارْزُقْنِي بِمَوَاشِي الْآلَاءِ، وَلَا
 تُظْفِرْ بِي الْأَعْدَاءَ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ.

* * *

قوله : « اللَّهُمَّ حُطِنِي فِي ثُرْبِي » ، أى احفظني في بلدتي . أُوْبِي : رجعتي .
 نَجْمِي : سفرى في طلب الرزق . نَفَاسِي : كراهم مالى . عِرْضِي : نفسى .
 وَعَرَضِي : مالى . عُدَدِي : أهلى . عُدْدِي : آلائى ، وما أستعده . سَكْنِي :
 أهلى . حَوْلِي : قوتى . حَالِي : بالى . مَالِي : مرجعى . مَنْعِكَ : إحسانك .
 تَوَلَّنِي : كن لى وليا . تَكِلْنِي : تُخَوِّجْنِي . كَلَاءَةٍ : حفظ وحراسة . وعافية :
 عيش سالم من الآفات .

قال أبو الدرداء رضى الله عنه : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاء
 وما أعد الله لصاحبه من الثواب إذا صبر، وذَكَرَ العافية وما أعد الله لصاحبها من
 الثواب إذا شكر ، فقلت : يا رسول الله ، أعافى فأشكر ، أحبُّ إلى من أن

أُتْبِلَى فَأَصْبِر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نَحْبُ مَعَكَ الْعَافِيَةَ . غَيْرَ
عَافِيَةٍ ، أَى غَيْرِ دِرَاسَةٍ . رِفَافِيَةٍ : غَنَى مَتَّع . وَاهِيَةٍ : نَاقِصَةٌ ضَعِيفَةٌ . مَخَاشِي :
مَا يُخْشَى وَيَخَاف . اللَّأْوَاءُ : الشَّدَّةُ . أَكْفَنِي : اسْتُرْنِي . غَوَاشِي : أَى مَا يَتَغَشَّى
بِهِ ، أَى يَتَغَطَّى . الْآلَاءُ : النِّعَمُ .

* * *

نَمَّ أَطْرَقَ لَا يُدِيرُ لِحْظًا ، وَلَا يُحِيرُ لَفْظًا ، حَتَّى قُلْنَا : قَدْ
أَبْلَسَتْهُ خَشْيَةٌ ، أَوْ أَخْرَسَتْهُ غَشْيَةٌ . نَمَّ أَقْنَعَ رَأْسَهُ ، وَصَمَدَ
أَنْفَاسَهُ وَقَالَ :

أَقْسِمُ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الْأَبْرَاجِ ، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الْفِجَاجِ ، وَالْمَاءِ
النَّجَّاجِ ، وَالسَّرَّاجِ الْوَهَّاجِ ، وَالْبَحْرِ الْفَجَّاجِ ، وَالْهَوَاءِ وَالْعَجَّاجِ ،
إِنَّهَا لَمِنْ أَيْمَنِ الْعُودِ ، وَأَغْنَى عَنْكُمْ مِنْ لَابِسِ الْخُودِ ، مَنْ دَرَسَهَا
عِنْدَ ابْتِسَامِ الْفَلَقِ ، لَمْ يُشْفِقْ مِنْ خَطْبٍ إِلَى الشَّفَقِ ، وَمَنْ نَاجَى
بِهَا طَلِيْعَةَ الْغَسَقِ ، أَمِنْ لَيْلَتِهِ مِنْ السَّرَقِ .

قَالَ : فَتَلَقَّيْنَاهَا حَتَّى اتَّقَيْنَاهَا ، وَتَدَارَسْنَاهَا ، لَكَيْلًا لَا نَنْسَاهَا .

* * *

أَطْرَقَ ، أَى نَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ سَاكِنًا ، وَقَدْ قَسَرَ قَوْلُهُ « أَطْرَقَ » بِقَوْلِهِ :
« لَا يُدِيرُ لِحْظًا ، وَلَا يُحِيرُ لَفْظًا » ، فَيُدِيرُ لِحْظًا يُجِيلُ نَظْرَهُ فِي الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ ،
وَيُحِيرُ لَفْظًا : يَرُدُّ كَلَامًا ، وَالْفَشْيَةُ : أَنْ يُفَشِّيَ عَلَى عَقْلِهِ . أَقْنَعَ : رَفَعَ . صَمَدَ :
جَعَلَهَا تَصَمَدَ ، أَى تَرْتَفِعُ . الْأَبْرَاجُ ، أَى مَنَازِلُ الْقَمَرِ . الْفِجَاجُ ، أَى الْمَسَالِكُ ،
وَاحِدُهَا : فَجٌّ ، وَالْفَجُّ الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ فِي الْجَبَلِ ، وَقِيلَ : هُوَ الْمَتَّعُ بَيْنَ مَرْتَفَعَيْنِ ،

وقيل : هو الفتح بين الشَّيْثَيْن : النَّجَّاج : السَّيَال الكثير الصَّب . السراج : الشمس . الوَهاج : الوَفَاد المتلألئ ، وهو من وَهَج النار ، وهو اتقادها وحرَّها ، العَجَّاج : المصوَّت لاضطراب أمواجه . الهواء : ما بين السماء والأرض . والعَجَّاج : الغبار . والمُؤَذ : الرُّقَى . أغْنَى : أجزأ وأكفى ، والغنى الكفاية ، وأغنى فلان معنى فلان ، أى كفاه الحضور وقام مقامه . والحُوذ ، بالحاء المهملة الدُّرْع ، وينقط الحاء بيض السِّلَاح . ابتسام الفلق : ظهور الفجر . يشفق : يخاف . خطب : أمر شديد . الشَّقَى : الحمة بعد غروب الشمس . ناجى : تكلم بها سرًّا . طليعة الفسق ، أول طلوع الظلام . تلقَّناها ، أى فهمناها . أتقناها : أحكَمْنَاهَا . تدارسناها ، الدَّرْس فى كلامهم الرِّياضة والتذليل ، وطريق مدرّوس : كَثُرَ مشى الناس فيه ، فذلُّوه وأثروا فيه ، فعنى دَرَسَ القرآن أو الدعاء ، ذلَّ لسانه وراضه .

[ضروب من الأدعية المأثورة]

ونصل هذا الدعاء الذى ذكر أنه مستجاب وصدق إذا صحب الدعاء به الإخلاص ، والتضرُّع بأدعية يُنتفع بها إن شاء الله تعالى .
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرًا قال : « اللهم أنت صاحبُ فى السَّفر ، والخليفة فى الحَضَر . اللهم إني أعوذ بك من وَعْثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، ومن الحُور^(١) بعد الكُور ، ومن سوء المنظر فى الأهل والمال والولد » .

وقالت أم سلمة رضى الله عنها : مَنْ خرج فى طاعة الله تعالى فقال : اللهم إني لم أخرجُ أشيرًا ولا بَطْرًا ، ولا رياء ، ولا سمعة ، ولكنى خرجت ابتغاء

(١) فى اللسان : الحور : الرجوع ؛ يقال : حار بعدما كار ، والحور : نقصان بعد الزيادة ، لأنه رجوع من حال إلى حال ؛ وفى الحديث : « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » معناه من نقصان بعد الزيادة . وقيل : معناه من فساد أمورنا بعد صلاحها ، وأصله من نقض العمامة بعد لقيها ، مأخوذ من كور العمامة إذا انتقض ليها ، وبعضه بقرب من بعض .

مرضاتك ، واتقاء سَخَطِكَ ، فأَسْأَلُكَ بِمَحَبَّتِكَ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِكَ أَنْ تَرْزُقَنِي مِنْ
الْخَيْرِ أَكْثَرُ مَا أَرْجُو ، وَتَصْرِفَ عَنِّي مِنَ الشَّرِّ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ ... اسْتَجِيبْ
لَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى .

وقالوا : كَلِمَاتُ الْفَرَجِ عِنْدَ الْكَرْبِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ ، وَسُبْحَانَ
اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

قال جعفر بن محمد لسفيان الثوري : إِذَا كَثُرَتْ هَوْمُكَ فَأَكْثِرْ مِنْ قَوْلِ :
لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، وَإِذَا دَرَّتْ عَلَيْكَ النِّعَمُ فَأَكْثِرْ مِنْ
الْحَمْدِ لِلَّهِ الْعَالِمِينَ ، وَإِذَا أَبْطَأَ عَلَيْكَ الرِّزْقُ فَأَكْثِرْ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ .

ومن قال في ليل أو نهار : اللَّهُمَّ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَأَنْتَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي
وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا . إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ... لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ .
ومن قال : بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّهُ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، لَيْلًا أَوْ نَهَارًا أَمِنَ مِمَّا يَخَافُ .

ومن قال : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ
بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ أَمِنَ مِنْ كُلِّ غَمٍّ وَجُذَائِمٍ وَبَرَصٍ وَفَالَجٍ .

ومن قال : بِاسْمِ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، مَا شَاءَ اللَّهُ كُلُّ نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ ،
مَا شَاءَ اللَّهُ الْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدِ اللَّهِ ، مَا شَاءَ اللَّهُ لَا يَصْرِفُ السُّوءَ إِلَّا اللَّهُ ، مَنْ قَالَهَا إِذَا
أَصْبَحَ أَمِنَ مِنَ الْحَرِّ وَالْقَرَقِ .

ومن دخل على سلطان يخاف سطوته فقال : اللَّهُ أَعَزُّ وَأَكْبَرُ مِمَّا أَخَافُ وَأَحْذَرُ ،
اللَّهُمَّ رَبِّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، كُنْ لِي جَارًا مِنْ عَبْدِكَ فَلَانِ ،
وَجُورِهِ وَأَشْيَاعِهِ وَأَتْبَاعِهِ . تَبَارَكَ اسْمُكَ وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ ، وَعَزَّ جَارُكَ ، وَلَا إِلَهَ
غَيْرُكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَمِنَ مِنْ شَرِّهِ .

وقال المنصور للربيع : علىّ بجعفر ، قتلى الله إن لم أقتله ! فلما مثل بين يديه
 حرّك شفتيه ، ثم قرب وسلم فقال ، : لاسلم الله عليك يا عدو الله ، تعمل علىّ
 الفوائل في ملكي قتلى الله إن لم أقتلك ! فقال : يا أمير المؤمنين إن سليمان
 أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ، وإن يوسف ظلم فغفر ، عليهم السلام ،
 وأنت على أثر منهم ، وأحقّ من تأسى بهم . فنكس المنصور رأسه ملياً ثم
 رفع رأسه ، وقال : إلىّ أبا عبد الله ، فأنت القريب القرابة ، وأنت ذو الرحم
 الواشحة . والسلام الناحية ، القليل الغائلة . ثم صاح به يمينه ، وعانقه بشماله ،
 وأجلسه معه على فراشه ، وأقبل يسأله ويحادثه ، ثم قال : عجّلوا لأبي عبد الله
 إذنه وجائزته وكسوته . فلما خرج أمسكه الربيع وقال له : رأيتك قد حرّكت
 شفتيك فانجلى الأمر ، وأنا خادم السلطان ، ولا غنى لى عنه ، فعلنى إياه ، فقال :
 نعم ، قلت : اللهم احرسنى بعينك التى لاتنام ، واكفنى بحفظك الذى لا يرام ،
 لا أهلك وأنت رجائى ، فكم من نعمة أنعمتها علىّ قلّ عندها شكرى فلم تحرمنى ،
 وكم من بليّة ابتليت بها قلّ عندها صبرى فلم تحذنى . اللهم بك أدرأ فى نحره ،
 وأعوذ بك من شره .

ومن قال إذا سمع اللّوذن : رضيتُ بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله
 عليه وسلم نبياً ، غفرت له ذنوبه .

ومن دعاء الأعراب : قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : ما من قوم أشبه
 بالسلف من الأعراب لولا جفاء فيهم .

وقال : غيلان إذا أردت أن تسمع الدعاء فاسمع دعاء الأعراب .

وقال الأصمى : سمعتُ أعرابياً بقلاة من الأرض يقول : اللهم إن استغفارى
 إياك مع كثرة ذنوبى للأوّم ، وإن تركى الاستغفار مع معرفتى سعة رحمتك أمجز ،
 إلهى كم تتحبّب إلىّ برحمتك وأنت غنى عنى ، وكم أتبعض إليك بذنوبى وأنا

فَقِهِ إِلَيْكَ : يَا مَنْ إِذَا وَعَدَ وَفَّى ، وَإِذَا أَوْعَدَ عَفَا ، أَدْخَلَ عَظِيمَ جُرْمِي فِي عَظِيمِ عَفْوِكَ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

قال : وَسَمِعْتُ آخَرَ يَقُولُ فِي دَعَائِهِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَمَلِ الْخَاطِفِينَ ، وَخَوْفِ الْعَامِلِينَ ، حَتَّى أَتَنَعَّمَ بِتَرْكِ النِّعَمِ طَمَعًا فِيهَا وَعَدْتِ ، وَخَوْفًا مِمَّا أَوْعَدْتِ . اللَّهُمَّ أَعِزَّنِي مِنْ سَطَوَاتِكَ ، وَأَجِرْنِي مِنْ نَقَمَاتِكَ .

قال : وَدَعَتْ أَعْرَابِيَّةٌ لَابْنَ لَهَا خَرَجَ مَسَافِرًا ، فَقَالَتْ : كَانَ اللَّهُ صَاحِبَكَ فِي السَّفَرِ ، وَخَلِيفَتُكَ فِي أَهْلِكَ ، وَأَنْجَحِ طَلَبَتَكَ ، اَمْشِ مَصَاحِبًا مَكْلُوءًا ، لَا أَشْمَتَ اللَّهُ بِكَ عَدُوًّا ، وَلَا أَرَى فِيكَ لِحَبِّكَ سُوءًا .

وهذا الباب كثير ، وإنما ذكرنا من الأدعية ما جُرِّبَ واستُحْسِنَ ، والله ينفع بها آمين . قال أعرابي يصف دعوة :

وسارية لم تسر في الليل تبتغي	محلًا ولم يقطع بها اليد قاطع
سرت حيث لم تسر الركاب ولم تنخ	لورد ولم يقصر لها القيد مانع
تحل وراء الليل والليل ساقط	بأوراقه فيه سمير وهاجيع
تفتح أبواب السماء لوفدها	إذا قرع الأبواب منهن قارِعُ
إذا وفدت لم يرد الله وفدها	على أهلها ، والله راء وسامع
وإني لأرجو الله حتى كأنني	أرى بجميل الظن ما الله صانع

* * *

ثم سرنا نُزْجِي الْحُمُولَاتِ ، بِالْدُّعُوتِ ، لَا بِالْخُدَاةِ ، وَنَحْمِي الْحُمُولَاتِ ، بِالْكَلِمَاتِ لَا بِالْكَهْأَةِ ، وَصَاحِبُنَا يَتَمَهَّدُنَا بِالْعَشِيِّ وَالْعَدَاةِ ، وَلَا يَسْتَنْجِزُ مِنَّا الْعِدَاتِ ، حَتَّى إِذَا عَلَيْنَا أَطْلَالَ عَانَةِ ، قَالَ

لَنَا : الإعانة الإعانة ، فأحضرناه المعلوم والمكتوم ، وأَرَيْنَاهُ
 الْمَعْكُومَ والمختوم ، وَقُلْنَا لَهُ : اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ، فَمَا تَجِدُ فِينَا
 غَيْرَ رَاضٍ ، فَمَا اسْتَخَفَّهُ سِوَى الْخَلْفِ وَالْهَيْنِ ، وَلَا حَلِيَّ بَيْنِهِ
 غَيْرُ الْحَلِيِّ وَالْمَعِينِ . فَاحْتَمَلَ مِنْهُمَا وَقْرَهُ ، وَنَاءَ بَعَا يَسُدُّ فَقْرَهُ ،
 ثُمَّ خَالَسْنَا مُحَاسِنَةَ الطَّرَارِ ، وَانْصَلَّتْ مِنَّا انْصِلَاتُ الْفُرَارِ ،
 فَأَوْحَشْنَا قِرَاقَهُ ، وَأَذْهَشْنَا امْتِرَاقَهُ ، وَلَمْ نَزَلْ نَنْشُدُهُ بِكَلِّ نَادٍ ،
 وَنَسْتَنْخِرُ عَنْهُ كُلَّ مُغْوٍ وَهَادٍ ، إِلَى أَنْ قِيلَ : إِنَّهُ مُذْ دَخَلَ عَانَةَ ،
 مَا زَالِ الْخَانَةَ .

قوله : « نزجى » ، أى نسوق . المحولات ، بفتح الحاء : الإبل ، وبضمها
 الأحمال . الحداة : خدمة الإبل ، بمنزلة المكارين للدواب . نحى : نمنع .
 الكماة : الشجمان . يتعمدنا : يتفقدنا . يستنجز : يطلب إحضار ما وعد به .
 عانة ، بمن غير منقوطة : قرية بالجزيرة كثيرة الأعناب .

وقال امرؤ القيس :

* مِنْ خَمْرِ عَانَةٍ أَوْ كُرُومِ شِبَامِ*^(١)

وأطلالها : آثارها ، يريد أنه لما أشرف على عانة ، قال لهم : أعطوني
 ما أستمعين به . المعلوم : الظاهر . والمكتوم : المستور . والمعكوم : المجمول فى
 عِمْ ، قال يعقوب : المِمْ : نَمَطٌ تجمل فيه المرأة ذخيرتها ، أو يكون المعكوم

(١) ديوانه ١١٥ ، صدره

* أَنْفٌ كُلُّونَ دَمِ الْغَزَالِ مَعْتَقٌ*

المشدود بالمعكام ، وقد تقدّم آنفا . والختوم : المطبوع عليه ، يريد : أربناه
أنواع أموالنا . استخفّ : استحقّر . الخلف : الخفيف . الهين : الهين . حليّ :
حسن . الحليّ : ما يتحلّى به النساء . والمين : الذهب والفضة ، يريد أنه
استحقّر الخفيف القدر الهين القيمة ، مثل الإمتاع ، وشبهها فتركها ، وأعجبه
الحليّ والذهب فحملها ، أو يكون معنى « استخفّ » وجده خفيفاً ، والخلف
والهين ، يريد الخفيف عليه حمله ، الهين عليه نقله ؛ يريد الذهب والجوهر ، ويكون
قوله « حليّ بعينه » وما بعده مفسّراً ومؤكداً لاستخفّ وما بعده ، وهذا أشبه
من الأول .

وقره : حمله . ناء : نهض بثقل . خالشنا : سارقنا وتسلى عنّا . الطّار :
الذى يشقّ الجيوب ويستخرج ما فيها ، والطّار : القطع ، وقد طرّطراً ، وطّرة
الشعر منه ، لأنها مقطوعة من جلته ، مفصولة عنه . والمتنّز : الذى يحطف من
يدك الشيء بسرعة . انصلّت : انسلّ ولم يشعر به . والانصلّات : سقوط السيف
من الغمد . والفرار ، هو الزّأووق ، ويسمى الزئبق ، سمى فراراً لأنه سريع السيلان
لا يستقرّ فى موضع ، والفرار من كثر فراره . أوحشنا : أذهب أنسنا .
أدهشنا : حيرنا . امترّاه : خروجه مسرعاً ، ومرقّ السهم : خوج من القوس ،
ومن الرمية . نشده : نطلبه . مفوّ وهادٍ : مضلّ ومرشد . الحانة : بغير نقط :
بيت الخمار أو حانوته ، والحان والحانة هى الدسكرة التى ذكر ، وقال
ابن شهيد فيه :

يا رب حانٍ قد أدرت بديره خمر الصّبا مَزَجَتْ بصفوِ خُورِه^(١)
فى فتيةِ جعلوا الزّقاق تكاءهُم متصارعين تحشّعا لكثيره
يُهدى إلينا الراح كلُّ معصفر^(٢) كالخشف خفّره التّماحُ خفّره

(١) ديوانه ١١٠ .

(٢) الديوان : إلينا الراح كلّ معصفر

وَالَى عَلَى بَطْرِفِهِ وَبِسَكْفِهِ فَأَمَالَ مِنْ رَأْسِي لَمَبٌ كَبِيرُهُ
وَتَرْتَمِ النَّاقُوسُ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ فَفَتَحْتُ مِنْ عَيْنِي لِرَجْعِ هَدِيرِهِ
زَابِلٌ : فَارَقَ .

* * *

فَأَغْرَانِي خُبْتُ هَذَا الْقَوْلَ بِسَبْكِهِ ، وَالْانْسِلَالَ فِيمَا لَسْتُ
مِنْ سِلْكِهِ ، فَأَذْجَلْتُ إِلَى الدَّسْكَرَةِ ، فِي هَيْئَةٍ مُنْكَرَةٍ ، فَإِذَا
الشَّيْخُ فِي حُلَّةٍ مُمَصَّرَةٍ ، بَيْنَ دِنَانٍ وَمِعْصَرَةٍ ، وَحَوْلَهُ مُقَاعَةٌ تَبْهَرُ ،
وَشُمُوعٌ تَزْهَرُ ، وَأَسَى وَعَبْهَرٌ ، وَمِنْ مَارٍ وَمِنْ زَهْرٍ ، وَهُوَ تَارَةٌ يَسْتَبْدِلُ
الدَّنَانِ ، وَطَوْرًا يَسْتَنْطِقُ الْعَيْدَانَ ، وَدَفْعَةً يَسْتَنْشِقُ الرِّيحَانَ ،
وَأُخْرَى يُفَازِلُ الْغِزْلَانَ . فَلَمَّا عَثَرْتُ عَلَى لَبْسِهِ ، وَتَفَاوْتُ بَيْنَ
يَوْمِهِ مِنْ أَمْسِهِ ، قُلْتُ لَهُ : أَوَّلَى لَكَ يَا مَلْعُونُ ، أَلَأَنْسَيْتَ يَوْمَ
جَيْرُونَ أَفْضَحِكَ مُسْتَفْرِبًا ثُمَّ أَنْشَدَ مُطْرِبًا :

* * *

أَغْرَانِي : حَشْنِي . سَبْكِهِ : تَجْرِيهِهِ . الْانْسِلَالَ : الدَّخُولَ . سِلْكِهِ :
شَكْلَهُ ، وَانْسَلَكْتَ حَبَّةَ اللُّؤْلُؤِ : جَرَبْتُ فِي السَّلَكِ ، وَهُوَ خِيطُ النِّظَامِ . أَذْجَلْتُ :
مَشَيْتُ بِاللَّيْلِ . الدَّسْكَرَةُ ، بِنَاءٌ كَالْقَصْرِ حَوْلَهُ بِيُوتٌ يَسْكُنُهَا الْخَمَارُ وَالْحَشَمُ ،
قَالَ الْجَعْدِيُّ :

وَدَسْكَرَةٍ صَوْتُ أَبْوَابِهَا كَصَوْتِ الْمَوَاتِحِ بِالْحَوَابِ^(١)

(١) ديوانه ١٤ . الدَّسْكَرَةُ : مِنْ بِيُوتِ الْأَعَاجِمِ يَكُونُ فِيهَا الْعَرَابُ وَالْمَلَاهِي .

سبقتُ صياح فراريجمها ، صوت نواقيس لم تضرَب
برنة ذى عتبٍ شارفٍ وصهباء كالمسك لم تقطَب
المواتح : البكرات، والحوأب : اسم ماء الفراريج : الديوك عتب : أوتار .
وشارف : اسم العود ، شبهه بالشارف من الإبل ، لأنها أغن صوتاً وأطربه ،
قال متمم :

إذا شارف منهن قامت فرجعت حينئذ فابكى شجوها البرك أجمعاً^(١)
محصرة : مصبوغة بالمصرة ، وهى العصفرة قبل أن يوضع فيه الخلل ، فلونها
أصفر ، فإذا وُضع فيها الخلل احمر ما يصنع به وسمى معصفراً . والحلة : ثوبان :
إزار ورداء ، وسميت حلة ، لأنها تحل على لباسها كما يحل الرجل على الأرض .
دنان : جمع دن ، وهو نوع من الخوابي طويل الأسفل ضيقه ، ويسمى الراقود .
وهذه الحالة التى وجد عليها الحريرى الشرّ وجى بعد ذلك الترهّب الذى كان عليه
فى أول المقامة لها نظائر لرجال مشاهير بالعلم والفصل .

* * *

[وصف بعض مجالس الشراب]

حكى الثعالبي فى يقيمه^(٢) ، وقد ذكر القاضى التنوخى فقال : هو أبو القاسم
على بن محمد بن داود بن فهم ، من أعيان أهل العلم والأدب ، وأفراد ذوى الكرم
وحسن الشيم ، وكان كما قرأت فى فصل للصاحب : إن أردت فإنى سُبْحَة
ناسك ، أو أحببت فإنى تفاحة فاتك ، أو اقترحت فإنى مدرعة راهب ، أو اخترت
فإنى نخبة شارب .

وكان تقلّد قضاء البصرة والأهواز بضع سنين ، وكان المهلبى وغيره من
وزراء العراق يميلون إليه جداً ، ويُعدّونه ربحانة الندماء ، وتاريخ الظرفاء ،
يعاشرون منه من تطيب عشرته ، وتلين قشرته ، وتسكرم أخلاقه ، وتحسن

(١) المفضليات ٢٧٠ . البرك : الألف من الإبل .

(٢) البيهية ٢ : ٣٠٩ .

أخباره ، وتسير أشعاره ؛ ناظمةً حاشيتي البرّ والبحر ، وناحيتي الشرق والغرب .
 وكان من جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبيّ ، ويحتمون إليه في الأسبوع
 ليلتين ، على أطراح الحشمة والتبسّط في القصف والخلاعة ، منهم ابن قريعة
 وابن معروف والقاضي التّفوّخي^(١) وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية
 طويّ لها ، وكذلك كان المهلبيّ ، وإذا تكمل الأنس ، وطاب المجلس ، ولذّ
 السماع ، وأخذ الطرب فيهم مأخذه . وهبوا ثوب الوقار للعُقار ، وتقلّبوا في أعطاف
 العيش ، بين الخِفة والطيش ، ووُضع بين يدي كلّ واحد منهم طست من
 ذهب من ألف مثال مملوء شراباً ، فيغمس فيه لحيته ، بل ينقعها حتى تشرب
 أكثره ، ويرش بعضهم بعضاً ، ويرقصون بأجمعهم ، وعليهم مصبغات الثياب ،
 ومخائق البرم ، ويقولون كلما يكثر شربهم هرهر ، وفيهم يقول السريّ :

مجالس ترقص القضاة بها إذا انتشوا في مخائق البرم^(٢)

وإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في الترهّب والتوقّر والتحفّظ وأبهة القضاة
 وحشمة المشايخ الكبراء .

وقال في ابن معروف^(٣) : كان كما قرأته في فضل للصاحب : شجرة فضل
 عودها أدب ، وأغصانها علم ، وثمرها عقل ، وعُروها شرف ؛ تسقيها سماء
 الحرّية ، وتغذوها أرض المروّة ، وفيه يقول الصابيّ :

(١) في الأصول : « الأندرجي » ، وما أثبتته من البيّنة .

(٢) البرم : نوع من الثياب ، وبعده في البيّنة والديوان ٢ : ٣١٠ .

وصاحب يخلط المجون لنا بشيعة حلوة من الشيم
 تخضب بالراح شيبه عبثاً أنامل مثل حمرة العنم
 حتى تحال العميون شيبته شيبة عثمان ضرت بدم

(٣) هو عبيد الله بن أحمد بن معروف ، ترجم له في البيّنة ٣ : ٩٤ - ٩٦ .

أقسم بالله ما يرجى لمعروفٍ في الحادثات سوى القاضي ابن معروفٍ
ومن شعر ابن معروف :

لو كنت تدري ما الذي صنع الهوى والشوق في الجسم النحيل البالي^(١)
لهجرت هجرى واجتنبت تجنبي ووصلت من بعد النعيم وصالي
وقال القاضي التنوخي في غلام جسيم :

له في كل عضو دغص رملٍ ثقيل الجسم ذو روحٍ خفيف^(٢)
أعشق لا عشقت أخاً نحول كأي لست ذا الخلق الظريف
إذا لمسته كفي لم تلامس سوى جلدٍ على عظم ضعيف

شرب^(٣) المأمون وعبد الله بن طاهر ، ويحيى بن أكرم القاضي ، فتعامل^(٤)
المأمون وابن طاهر على سُكرٍ يحيى فغمزا به الساق ، فأسكره ، وكان بين
أيديهم رزم من ورد وريحان ، فأمر المأمون ، فشق له قبراً في الرزم وصيّر
فيه . وعمل بيتي شعر ، ودعا قينة فجلست عند رأسه ، وغنت بهما وهما :

ناديته وهو حي لا حرأك به مكفن في ثياب من رياحين
فقلت : قم ، قال : رجلي لا تطاوعني فقلت : خذ ، قال : كني لاتواتيني

فانتبه يحيى لربة العود فقال :

يا سيدي وأمير الناس كلمهم قد جاز في حكمه من كان يستقيني
لاني غفلت عن الساق فصيّرني كما تراني سليب العقل والدين
لا أستطيع نهوضاً قد وهى قدي ولا أجيب لداع حين يدعوني

(١) البيضة ٣ : ٩٦ . (٢) البيضة ٢ : ٣١٨ .

(٣) الخبر في المقد ٦ : ٣٥٤ ، ونهاية الأرب ٤ : ٩٣ .

(٤) كنا في الأصول ونهاية الأرب ، وفي المقد : فتغامز .

(٥) في الأصول : « ردم » ، وصوابه من المقد . والرزم : جم رزمة ، بالكسر ،
معها الطافات .

فانظر لنفسك في قاضٍ يكون لكم إني غدوتُ دفيناً في الترابين

* * *

والحالة التي وصف بها أبو زيد خَلَعَتِ الأُمَيْنَ عن الملك، ونقلته إلى المأمون . قال الربيع : قد الأُمَيْنَ يوماً للناس وعليه طيلسان أزرق ، وتحت لبداً أبيض ، فوقع على ثمانمائة قصّة ، فلقد أصاب فما أخطأ ، وأسرع فما أبطأ ، ثم قال : ياربيعُ أتراني لا أحسن التدبير والسياسة ، ولكنني وجدتُ شَمَّ الآس ، وشرب الكاس ، والاستلقاء من غير نعاس ، أشهى إليّ . وكذلك خلعت قبله الوليد بن يزيد ، وبعده المتوكل وغيرهم من الخلفاء والأمراء ، ممن آتت راحة النفس على تعب السياسة .

قوله : « تَهر » ، أي تسقيه بالبحار ، وهو شبه الإبريق ، وقيل : تَهر ، تغلب العقول بحسنها ، يقال : بهر بهراً ، إذا غلبه ، وبهر القمر السماء : ملأها بنوره . تَهر : تضيء . شموع : مصابيح الشمع . آس : ريحان . عَهر : نرجس ، وقيل : ياسمين ، قال عليّ رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شَمُوا النرجس ولو في اليوم مرّة واحدة ، ولو في الشهر مرّة واحدة ، ولو في الدهر مرّة واحدة ، فإن في القلب حَبّة من الجنون والجذام والبرص ، لا يقلعها إلا شَمُ النرجس » .

وقال عليّ رضي الله عنه : حَبَانِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْوَرْدِ ، وقال : « أما إنه سيَدُ ريحان الجنة بعد الآس » .

وقال أردشير بن بابك : الورد دُرٌّ أبيض ، وياقوت أحمر ، على كراسي زبرجد أخضر ، بوسطه شذور من ذهب أصفر ، له رقة الخمر ، ونفحات العطر .

[مما قيل من الشعر في وصف الأزهار]

ونذكر هنا طرفاً من المنظوم في الأزهار يليق الموضع بحول الله تعالى ، قال محمد بن عبد الله بن طاهر ملأً بقول أردشير :

كأنهن يواقيت^١ بطيف بها زمُرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظرٍ مستظرفٍ حسنٍ من خمرة مُزجت كالجمر في اللهب

وللعتمد بن عباد :

كأنما يسميننا الفضُّ كواكب في السماء تبيض^(١)
والطرق الحر في جوانبه كنهدي عذراء مسه عض

ولأبي الفضل الميكالي :

وما ضمَّ شمل الأنس يوماً كترجسٍ يقوم بعذر اللهو عن خالِع المُنذرِ
فأحداقه أحداق تبرٍ وساقه كقامة ساق في غلالله الخضرِ

ولمضد الدولة :

يا طيب رائحة من نفحة الخيرِ إذا تمزق جلبابُ الدياجيرِ
كأنما رُش بالساورد واعتبقت به دواخن ندى عند تبخيرِ
كان أوراقه في القد أجنحة حرّ وصفر وبيض من زنايرِ

ولعلّ بن بسام :

أما ترى الورد يدعو للورود على حمراء صافية في لونها صهب^(٢)
مداهن من يواقيت مركبة على الزبرجد في أفواها ذهب

وقال آخر :

نرجسة عينها محبرة لم تكتحل قط آفة الغمض

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٧ ، وانظر ديوان الماتى ٢ : ٢٣

(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٨٩ ، ونسبها إلى ابن طاهر ، وفيه : « إلى خر معتقة »

باكرها الطلّ فهي باهتة تنظر فعل السماء في الأرض
وللأسعد بن بليط :

بنفسجٍ بانت أ كف الصبا تنثره في زرقاة لا تحدّ
كأنما قطّ بمنشوره رهوس أفلام من اللازورد

وقال آخر في نور الباقيلا :

نوّارة الباقيلا إذا راق منظرها تحكي الفراشة تنقيطاً وتريشاً
كأنما هي ما حول الذبالة إذ مدّت جناحاً مكان الكفّ مرقوشاً
والباب كثير .

* * *

قوله : « مزهر » عود الفناء . يستبزل : يستسقي منها شراباً ، والمبزل النقب
في جانب الخابية تجري منه الخمر صافية ، ويبقى المكر في قعرها ، قال الأخطل :
لما أتوها بمصباح ومبزلٍ لهم سارت إليهم سطور الأجل الضاري^(١)
تدمى إذا طعنوا فيها بجائفة وفي الزجاج عتيق غير مسطار^(٢)
أراد أن الخمر خرجت خروج الدم من الأجل ، وهو عرق .

وقال ابن حصين :

حجبت عنها الذن فاستعبرت جرياً كما قوس إحليل

(١) ديوانه ١١٨ ، وشارت : سمت إليهم والضاري : العرق الذي بدأ منه الدم ، والأجل :
عرق يكون في الدواب ، وفي الناس يسمى الأكل .
(٢) الجائفة : الطئنة التي تصل إلى الجوف . والعتيق الخالص . والمسطار : الحديث .

كانها في الكأس منصبةً خيط من الفضة مفتولٌ
وقال آخر في قمع الشراب :

ولما رأى الناس فضل اللدام وخافوا على جرُمِها أن يسيلاً
تواخوا إلى شربها بينهم سبيلاً حفاظ فكنت السبيلاً

قوله : « يستنطق » ، يأمر بضرها ليُسمع صوتها يستنشق : يشم . يغازل : يلاعب . عثرت : اطلعت ، وأعثرت في معناه . لبسه : تخليطه . تفاوت : تباعد . أولى لك : كلمة تهديد معناها : قد وَايِكَ الشرَّ فاحذر . والملمون : المطرود ، ولعمرة الله : طرده ، والاستغراب : للضحك الكثير .
وعما يوافق شعره وحاله قول البيهقي^(١) :

غادني بالصَّبُوح قبل الصَّبَاح واجر في حلبة الصَّبَا والمِراج^(٢)
عاصِنِها كالجلنار إذا ما كَلَّتْ من حَبَابِها بالأفاح
في اختصاصِ التَّفاح بالطيب والخُمْرة لا في كثافة التَّفاح
خَدَمَتِها الأجسام بالطبع لَمَّا شَهِدَتْ قُرْبَها من الأرواح
فتدارك بها حُشاشة نفسى أو فحَرَكَ بها سكونَ ارتياحى
بين وردَيْنِ من بَنَانٍ وخَدَرٍ وشرابين من رُضَابِ وِراج
ونشيد مُسْتَنْبِطٍ من حديثٍ وغناء يُفْنِي عن الإِفْراح
فأَلَّتْ الحَيَاةَ ما خالطَ للعَا قَلُّ فيها فسادَه بصلاح
وله أيضاً في مثله :

زَمَنُ الوردِ أَشْرَفُ الأزمانِ وَأَوَانُ الربيعِ خَيْرُ أَوَانِ^(٣)

(١) هو عبد الواحد بن نصر ، المعروف بأبي الفرج البيهقي ، وذكره وشعره في البيهقي

٢٠٠ : ٢٣٤ .

(٢) البيهقي ١ : ٢٢٦ .

(٣) البيهقي ١ : ٢٢٨ .

أشرف الزهر زارَ في أشرف الدهر فصل فيه أشرف الإخوان
وأدركها عذراء وانتهز الـ إمكان من قبل عائق الإمكان
في كئوس كأنها زهر الخشخاش ضمت شقائق النعمان
واختدعها ^(١) عند النزال بألفاظ الثاني ومطربات الأغاني

وقال [ابن] ^(٢) وكيع في الخشخاش :

وخشخاش كأننا منه نفرى قميص زبرجدٍ عن جسمٍ دُرٍّ ^(٣)
كأفداح من البلّور صينت بأغشية من الديباج خضر
وقال آخر في شقائق النعمان :

كأن الشقائق إذ برزت غلالة دُرٍّ وثوباً أحمر
قصاع من الجمر مشبوبة بأوساطها لُمع من مُحم

لَزِمْتُ السَّفَارَ وَجِبْتُ الْفَقَارَ
وَعِفْتُ النَّفَارَ لِأَجْنِي الْفَرَحَ
وَحُضْتُ السُّيُولَ وَرُضْتُ الْخِيُولَ
لَجَرِّ ذِيُولِ الصَّبِّ وَالْمَرَحَ
وَمِطْتُ الْوَقَارَ وَبَعْتُ الْعَقَارَ
لِحَسْوِ الْعَقَارِ وَرَشَفِ الْقَدَحَ

(١) كذا في أ، ب، وهو يوافق ما في التبعة، وفي ط: « اجترعها ». وفي اللسان :
يزال الخمر وغيرها يزلا : ثقب لإناءها، واسم ذلك البزال .
(٢) تكمله من ١ ونهاية الأرب ١١ : ٢٦ .

وَلَوْلَا الطَّمَاخُ إِلَى شُرْبِ رَاحٍ
لَمَا كَانَ بَاحٍ فِى الْمُلْحِ

قوله : «السفار» : مصدر سافرت . جُبَّت : قطعت . عِفَتْ : كرهت . خضت : هزت ومشيت فيها . رُمِضَتْ : ذَلَّتْ ورَكَت . المَرَّاح : النشاط والعجب . مِطَّتْ : نَحَّيْتُ وأزلت ، ويقال : ماط وأماط : باعد ، وأيضاً باعد غيره ، والأصمعى يقول : ماط هو ، وأماط غيره . العَمَّار : المال الثابت الذى لا يُنقل . حَسَوُ : شرب . العَمَّار : الخمر . رَشَفَ : مَصَّ . الطَّمَاخ : ارتفاع النظر . باح : تكلم . والمُلْح : الكلام الحلو ، يريد أنه فعل ما ذكر ليرتاح ويشرب الخمر .

[مما ورد فى الخمر والشراب من للشعر والحكايات]

ذكر أبو محمد الحريرى فى هذا الموضع من المقامات أوصاف الخمر (وفضلها) ومنافعها ، وذهابها بالهموم والأسقام ، وذكر أنها من أفضل الأشياء وأن بيع أشرف الأعلاق فيها سداد ، وأن ترك الإصغاء فيها إلى العذل رشاد ؛ وأن كمال لذتها مع السقاة الحسان ، والتطريب بأنواع الغناء والألحان ، إلى غير ذلك مما أشار إليه ، وثبته عليه ، وأنا أسوق هنا فى وصف الخمر فصلاً من كلام الحكماء والأدباء وسائر الأفاضل من الملوك ومهرة الشعراء ، جرباً معه فى أغراضه ، حسبما فعلناه فى العاشرة فى أوصاف الفلمن ، وفى الحادية عشرة فى فضائل أهل الأديان ، وأكثرا عما دى فى هذا الفصل على اختيارات انتقيتها من كتاب قطب السرور^(١) ، وصحمت إليها ما يلائمها من غيره ، وهو فصل بديع فى بابهِ .

ذكر مؤلفه فى منافع الخمر وفضائلها قول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾^(٢) وقال تعالى فى الجنة : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ

(١) قطب السرور لأحمد بن القاسم المعروف بالنديم ، ذكره صاحب كشف الظنون ، وقال : كان حياً فى السنة ٣٤٠ .

من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين *
 وأنهار من عسل مُصَفًّى^(١) فلم يذكر الماء واللبن إلا بالسلامة من التغير، والعسل
 إلا بأنه مُصَفًّى، وجعل الخمر لذة للشاربين، فسكان هذا من التفضيل. وقال
 تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَاسٍ مِنْ مَعِينِ *
 لَا يُصَدِّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾^(٢)، فنفى عنها عيوب خمر الدنيا، وهى ذهاب
 العقل بالسكر والصداع بالخمار وذهاب المال، كما قال تعالى فى فاكهتها: ﴿لَا مَقْطُوعَةَ
 وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾^(٣)، فنفى عنها عيوب فاكهة الدنيا التى تأتى فى وقت وتقطع فى آخر
 وتمنع إلا بالثمن، وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾^(٤).

وأما ما ذكره تعالى من أن فيها منافع للناس، فإن منافعها لا تحصى كثرة،
 فمن منافعها ما يصيب الناس من أثمانها، ولو لم تنصر الأعناب لبارت على أهلها.
 ومنها صلاح الجسم لأنها تروق الدم وتفتحى اللسان، وتزيد فى الهمة، وتهون
 الرزبة، وتمد فى الأمانة، قال جالينوس: الخمر تدرّ الدم وتصفى اللون،
 وتقوى المنفعة، وتبعث النشاط. وقال أفلاطون: إنما كان النبيذ يشمر السرور،
 ويولد الضحك، ويطيب النفس لشبهه بالدم، وأنه يفعل فى الجسد إذا اعتدل
 فعله، لأنه أحمر حارّ رطب والدم أحمر حارّ رطب، فإذا صحّ جوهره، وتمت
 أجزاؤه ولدّ فى النفس السرور والضحك والنشاط.

الحارث بن كلثة. طبيب العرب: الطلاء^(٥) مصالحة للبدن ومطوية للنفس،
 تفتح له العروق أفواهاها، كما تفتح للفراخ أفواهاها للطعام.

(١) سورة محمد ١٥، ١٦.

(٢) سورة الواقعة ١٨، ١٩.

(٣) سورة الواقعة ٣٢، ٣٣.

(٤) سورة الإنسان ١٧.

(٥) الطلاء، من أسماء الخمر.

بمث قيصر إلى قُس بن ساعدة ، فسأله : أى الأشرية أفضل ؟ فقال :
 ما صفا في العين ، ولذا على الذوق ، وطابت رائحته في الأنف من شراب الكرم ، قال :
 ما تقول في مطبوخه ؟ قال : مرعى ولا كالسعدان ، قال : فما تقول في نبيذ
 الزبيب ؟ قال : ميت أحبي ، وفيه بعض المنفعة ^(٢) ، وما يكاد يحيا من مات مرة ، قال :
 ما تقول في نبيذ العسل ؟ قال : نعم شراب للشيخ للإبردة ^(٣) والمعدة الفاسدة ^(٤) .
 قال : فنبيذ التمر ؟ قال : أوساخ تدعو إليها ضرورات تدم عاقبتها في الأبدان ،
 قال : فما الذي يذهب بالهموم عند الشراب ؟ قال : جوهر فيه لا تبلغه عقول
 العباد ، قال : فما أصلح أوقات الشراب ؟ قال : أول النهار ، ألا ترى أن الدواء
 يكثر به ، والمسافر يذبح لحاجته ! لأنّ العقول أول النهار أذكي والظن أصح ،
 قال : فمن أى شيء يكون الخمار ؟ قال : من ضعف قوة الجوارح عن جذب
 ما يصعد إلى الدماغ من البخار حتى يشبه الهواء قليلا قليلا ، قال : فالصرف أفضل
 أم المزوج ؟ قال : الصرف سلطان جائر ، والمزوج سلطان عادل ، والعاذل
 مصاح ، والجائر مفسد ، قال : أفنشر به أنت ؟ قال : نعم ، ولا أبلغ ما يغير عقلي ،
 قال : ولم ؟ قال : أصونه لسؤال مثلك ^(١) .

أمر الوليد بن يزيد بحمل ابن شراعة من الكوفة ، فلما قدم عليه ، قال :
 يا بن شراعة ، والله ما أرسلت إليك ، أسألك عن كتاب الله ولا عن سنة نبيه ،
 قال : يا أمير المؤمنين لو سألتني عنهما لوجدتني حارًا ، قال : أرسلت إليك
 أسألك عن القهوة ، قال : دهقانها الحكيم وطبيبها الرفيق العليم ، فاسأل عما
 بدا لك ، قال : فأخبرني عن الماء ، قال : لا بد لي منه والكلب والخمار شر كأي فيه ،
 قال : فماتقول في اللبن ، قال : مارأيت به إلا استحجيت من أمي أطول ما أرضعتني إياه ،

(١) ط : « أحيا » ، وصوابه من ١ والاعقد .

(٢) المقد : « المنعة » .

(٣) الإبردة ، بكسر الهمزة والراء : علة من غلبة البرد والرطوبة .

(٤) إلى هنا ما أورده في المقد ٦ : ٣٣٦ .

قال : فالسويق ؟ قال : شراب الحرور والمجلان والحافر ، قال : فنبيد التمر ؟ قال : سريع الامتلاء ، سريع الانفشاش ، قال : فما تقول في نبيد الزبيب ؟ قال : حومة حاموا بها على الشراب ، فلم يصيبوه ، قال : فما تقول في الخمر ؟ قال : تلك صديقة رُوحى ، جلت عن اللثل ، تلك التي تزيد النفس إشراقاً ، قال : فأنت يا ابن شراة صديقي ، اجلس ، أى للطعام أحب إليك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ليس لصاحب الشراب على الطعام حكم ، غير أن أنفعه أدمه وأشبهه أمرؤه ، قال : فأى المجالس أحب إليك أن يكون شربنا فيه ؟ قال : ما لم تخف الشمس أن تحرقه ، أو السماء أن تفرقه ، ولا تشرب إلا على وجه السماء ، فوالله يا أمير المؤمنين ما نادى الناس أصبح من وجهها ، قال : فابرز بنا . فلم يَر بعد ذلك يشرب إلا تحت السماء^(١) .

كان أبو السائب فقيهاً ورعاً ظريفاً فسأله بعض المجان ، فقال : يا أبا السائب ما تقول في نبيد الجَر^(٢) ؟ قال : اشربه حتى تُجَر . قال : فنبيد الدن ، قال : اشربه حتى تبجن ، قال : فالداذى^(٣) ؟ قال : أحلى من العسل الماذى ، قال : فنبيد الزبيب والعسل ؟ فرفع يديه ، وقال : العظمة لله ، قال : فما تقول في الخمر ؟ قال : لا أشربها قال : ولم ؟ قال : أخاف ألا أودى شكرها فتززع منى .

قيل لأبى نواس : صف لنا الأشرية ، قال : أما الماء فيعظم خطرُه بقدر تعززه ، وأما السويق فبلغة المجلان ، وروى الظمان ، وأما العسل فنبيل المنظر ، سخيف الخبر ، وأما الخمر فهي شقيقة الروح وصديقة النفس ما ارتضعت بمزوجة ، وصرفها غير مأمون على نهك البدن وغرس السم المؤدى إلى العطب .
قالت الهفد : إن للشراب مبارك ، يزيد في الدم بحرارته ، ويكسر الباقم

(١) الخبر في نهاية الأرب ٤ : ٩٣ ، والمقد ٦ : ٣٣٦ .

(٢) الجر . جمع جرة ، وهى الإناء من الخرف .

(٣) الداذى : شراب معروف بكثرة إسكاره ، وقى المقد : أحسن من النساء .

محدثه ، ويشهى الطعام بلطافته ، وأما السكر فمحرم في كلِّ ملة ، وسبيل من سُبُل الضلالة ، واسم من أسماء الوسوسة ، قبيح الأفعال ، مذموم الأحوال .

وقالت الحكماء : من فضائل الشراب ؛ أن كلَّ ممتروب وإن راق وصفاء وحلا وعُذْب ، فأوله طيب ، ثم يعود في نقصان حتى يعود مكروها إلا الشراب ، فإنك كلما ازددت منه ازددت فيه رغبة وحُبًّا ، وكان أوسطه إليك أعجب ، وآخره أطرب ، حتى إذا سرا في العروق برقته ، وعمَّ البدن بلطافته ، ودبَّ في الأعضاء والمفاصل دبيب اللمل في نقاء الرمل ، وخادع عقلك فامتلاَّت بهجة وسروراً ، وعدت ملكاً محبوباً ، تضرب في الخلافة بأوفر سهم ، ثم أسلمك إلى القوم الذي هو حياتك وصحتك ، فاجتذبت النفس ما شاكلها من لطيفه ، وأخذ كلَّ عضو قوته من كثيفه ، ثم لا يزال الهواء يخرج بالأنفاس متصمداً ببخاره ، ويجذب ما تحت الدماغ من أسقاره ، فحينئذ تهبَّ بجذل ونشاط ، كأنما أنشِطت من رباط ، وذلك تقدير العزيز العليم .

وقالوا : الشراب مصباح الظلام ، وشفاء الأسقام ، وإذا تمشَّى في عظامك جملك خالى الذرع ؛ فسيح الباع ، رخی البال ، قليل الاشتغال ، رَحْبِ الهمة ، واسع النعمة ، فهو أخو الصبوة ، وقسيم الشهوة ، ولولم يكن من مننه عليك إلا أنه إذا مزجه بروحك ، وخلطه بدمك ، بنَّض إليك الحرص ونصبه ، والشَّرة وتعبه ، وحَبَّب إليك المروءة والسماح ، وحسَّن لك الفكاهة والمزاح .

وقالوا : الشراب يلذ لك في السفر كلذته في الحضر ، وبطيبي استعماله في الصحو ، كما يطيب في المطر ؛ فهو أصل الأذات الذي عليه تنفَّر ، وعنصرها الذي عنه تنبع ، وبه تتصل ، وإليه ترجع ، يردُّ الشيوخ في طاع الشبان ، ويدعو الشبان إلى نشاط النشوان ، وقال أبو نواس في ذلك :

ما العيش إلا في جُنُون الصَّبَا فإن تَوَلَّى فجنونُ المدام
راحٌ إذا ما الشيخ والى بها خمساً تردى برداء الفلام
فقله درّ من استنبطه ودلّ عليه ، وسقياً لمن بحث عنه واهتدى إليه ، ماذا
أثار وأى شيء أظهر !

قالوا: ومدار قوامه على اثني عشر شيئاً : المواد الثلاث ، والقوى الأربع ،
والحواس الخمس . فالثلاث : هي نسيم الهواء ، وعذوبة الماء ، ومألوف الأهواء .
والأربع هي القوة الجاذبة التي تطيب الطعام وتبرّده ، والماسكة التي تمسكه وتجذبه ،
والهاضمة التي تهديه وتنضجه ، والدافعة التي تدفع إلى كل عضو سهمه من
جوهره ، فتخرج عنه ثقله ، والحواس الخمس : البصر والسمع والشم والذوق
واللمس . وكل شيء من ذلك تدخله الزيادة والنقص فلا يستغنى عما يقويه في
حال ضعفه ، ويصفّيه من أوساخه ، فلم يجد أهل التجارب الماضون لذلك سبباً أبين
أثراً ، ولا أخفّ محملاً ، ولا أطف ديدناً في الأبدان من ماء السكرم ، فاستعملوه
لذلك استعمالاً دائماً ، فهو ريحانة النفس وترياقها ، فيُشرب في كل حين ، وينفع كل حاسة ،
وتحميد عنه النوازل والأحزان ، وحقّ للنفس^(١) أن تألفه ، وللطبيعة أن تلائمه ؛ إذ كان
حبيبها وشقيق روحها ، فتراه يحدث في النفس الشجاعة والتكرم والأناة والتجلم .
ومن علامات السكرم إذا أخذ فيه الشراب الاستحياء والتودّد واللّهو
والسرور والبذل لما في يديه ، وكسوة جليسه من أنفاس ثيابه ، وإذا بلغ المدى
في شربها توسّد يساره ، ونام حميداً كريماً .

ومن علامات اللثيم الماراة والسّقه ، وقتل الشارب والتلفت إلى العربة
وشدة الغضب ، ورمابكي وعوى عواء الذئاب ، ونبح نباح الكلاب ، فشرب
الماء محرّم مع مثل هذا ، فكيف الشراب !

(١) ط : « النفس » ، وما أثبتته من ا ، ب .

ومن فضائله أنه يلائم الطبائع المعتادة في كل زمان من فصول السنة ، يشربه
الحرور ممزوجاً فيبرده ، والمقروور صِرْفاً فيسَخِّنُه ، واليابس معتدلاً فيرطِّبُه ،
والمروطوب صِرْفاً فيجفِّفه ، فمن شربه في الصيف فيستحب له أن يشربه على
خضرة الجنان وتحت الظلال ، وعلى المياه وعلى الورد والياسمين والبنفسج
والآس والسفرجل والتفاح . وإن كان في الشتاء ، فيخلاف ذلك ، من الجلوس
في الأكثان واستعمال الكواوين ، ولبس الأحمر والمُمشق^(١) وشَمَّ قَتِيت المسك
والعنبر وللرز نجوش^(٢) .

وأما الربيع والخريف فيبين ذلك ، لأخذهما من رطوبة الشتاء وحرارة الصيف .
وإذا اجتمع مع الشراب نغم وألحان على صنوف الملاهي والعيدان ، تعاونا على
إذهاب الغموم والأحزان ، فله دَرٌّ من استنبطه ، ماذا أثار وعلى أى شيء دل !
ولولم يكن الشراب أغلب شيء على العقول ، وأقربه للقلوب ، وألطف محلا
في النفوس ، وأشد ملازمة للأجسام ، وأجمعه لمحمود الخلال حتى لا تقاربه
لذة ، ولا تساويه شهوة ، ولا تعدله خصلة من خصال الممرات - لما حملت
الأشراف وذوى العقول أنفسهم على معاقبته ، لا يردم ما ينالهم فيه عن
معاودته ، من شنيع الأقوال ولوم العذال ، فيما أنفقوا عليه من الذخائر ، وبذلوا
من الأموال .

كان بالبصرة رجل ذو ضياع فأنفق ماله في الشراب ، فباع ضيعته ، فلما
تمَّ البيع قال له المشتري : تأتيني بالعشي ، أدفع لك المال ، وأشاهدك ، فقال :
لو كنتُ ممن يرى بالعشي ما بعث الضيعة .

قال محمود بن الحسن الكاتب : بعث دارى فأصابني مثل هذا ، فقلت :

(١) المشق : المصبوغ ، وفي : « الممثل » ، وما أثبتته من ا ، ب .

(٢) المرزنوش - ويقال المرذوقش ، معرب « مردكوش » : الزعفران .

أَتَلَفْتُ مَالِي فِي الْعُقَارِ وَخَرَجْتُ فِيهَا عَنْ وَقَارِي^(١)
 حَتَّى إِذَا كُنْتُ الْكُتْبَا ب وَجَاءَنِي رَسْلُ التَّجَارِ
 قَالُوا : الشَّهَادَةُ بِالْعَشَى وَنَحْنُ فِي صَدْرِ النَّهَارِ
 فَأَجِبْتَهُمْ زِدُّوا الْكُتْبَا ب وَلَا تُعَنُّوا بَانْتِظَارِي
 لَوْ كُنْتُ أَظْهَرُ بِالْعَشَى لَمَا سَمِعْتُ بِبَيْعِ دَارِي

وقال ابن الرومي :

أَنَا أَهْوَى ذَاتَ الْخُمَارِ عَلَى الْجَنِيبِ وَذَاتَ الْوِشَاحِ وَالذَّمُّ مُجْنِبٍ^(٢)
 وَأُرَى فِي النَّبِيزِ رَأْيَ صَوَابٍ لَشِيُوخِ الْعِرَاقِ وَالْكُوفَتَيْنِ
 وَإِذَا مَا الْغَنَاءُ خَاضَ ذَوُو الْأَبْصَابِ فِيهِ اعْتَصَمَتْ بِالْحَرَمَيْنِ
 كُلُّمَا جَاءَتْ الرَّخَائِصُ فِيهِ^(٣) كَانَ أَخَذِي لَهُ بَكْلَتَا الْيَدَيْنِ

وقال المتطوي :

جَارَةٌ لِي أَجَارَهَا الْحَسَنُ مِنْ كُلِّ غَائِبٍ^(٤)
 فَهِيَ بَيْنَ النِّسَاءِ كَالْبَدْرِ بَيْنَ الْكَوَاكِبِ
 سَأَلَنِي هَلْ النَّبِيزُ حَلَالٌ لِشَارِبٍ ؟
 قُلْتُ : إِي وَالَّذِي يُرِيْبُنِيكَ دُونَ الرِّقَائِبِ
 فَاشْرَبِيهِ فَإِنْ فِيهِ لِإِحْدَى الْعَجَائِبِ
 يُنْبِتُ الْوَرْدَ فِي رِيَا ضِخْدُودِ الْكَوَاعِبِ

(١) ط : « عقارى » ، تصحيف .

(٢) الأملج : المعصد .

(٣) الرخصة : ترخيص الله للعبد فيما يخففه عليه .

(٤) ١ : « غائب » .

ولبعض المتقدمين :

من ذا يحترم ماء المُنْ خالطهُ في جوفِ خابيةِ ماء العنقايد^(١)
إني لأكره تشديد الرواة لنا فيها ويمعبنى قولُ ابن مسعودِ

وقال ابن الرومي :

أَحَلَّ العِراقُ النِّبيذَ وشربَهُ وقال: الحرامان المدامَةُ والسُّكْرُ^(٢)
وقال المجازي الشرابان واحدٌ فحَلَّتْ لنا بين اختلافهما الخمرُ^(٣)
سأخذ من قَوْلَيْهِما طرفيهما وأشربها حِلًّا ولأوازِرِ أوْزُرُ^(٤)

خرج^(٥) الحسن بن هانيء ، ومعه مُطَيِّط صاحبه ، حتى أتيا دَيْرَ
خَمَّار ، فقال الحسن لمطيط : ادخل بنا نَتَمَاجِن على هذا^(٦) الخَمَّار ، فدخلَا فسلَمَا ،
فردَّ عليهما السلام ، فقال له الحسن : أَعِنْدُكَ خمر عتيقة [ياخمار]^(٧)

قال : عندي منها أجفاس ، فأى جنس تريد؟ قال : التي يقول فيها الشاعر :

حُجِّبَتْ خَيْفَةً وَصِيْدَتْ نِجَاجَاتٍ كَجِلَاءِ العُروسِ بَعْدَ الصَّيَّانِ
وَكَانَ الْأَكْفُ تَصْبِغُ مِنْ ضَوْءِ سَنَاهَا بِالْوَرَسِ وَالزَّعْفَرَانِ

فلأله الخمار قدَحًا من خمرة صفراء ، كأنها ذهب محلول ، فشربه

(١) المقد ٦ : ٣٦٨ ، الأثرية ٤٩ .

(٢) مختارات البارودي ٣ : ٦٨ العراقى : يعنى به الإمام أباحيفه . والنبيذ : ما يذ من عصير ونحوه .

(٣) المجازى : المنسوب إلى المجاز ، ويعنى بذلك الإمامين مالكا والشافعى .

(٤) مختارات البارودي . « وأشربها لأفان »

(٥) الخبر والشعر في نهاية الأرب ٥ : ٩٨ ، ٩٩ .

(٦) نهاية الأرب : نزع بهذا الخمار .

(٧) من نهاية الأرب .

الحسن ، وقال : أحسن من هذا أريد ، فقال له الخمار : من أي جنس تريد ؟ قال :
التي يقول فيها الشاعر :

رَقَّقْتَهَا أَيْدَى الْهَوَاجِرِ حَتَّى صَيَّرَتْ جَسَمَهَا كَجِسْمِ الْهَوَاءِ
فَمِى كَالنُّورِ فِي الْإِنَاءِ وَكَالْتَا رِ إِذَا مَا تَصَيَّرَ فِي الْأَحْشَاءِ
فَلَا لَهُ الْخَمَارُ قَدْحًا مِنْ خَمْرَةٍ كَأَنَّهَا الْعَقِيقُ ، فشرِّبه ، وقال : أرفع من
هذا أريد ، قال : أي نوع تريد ؟ قال : التي يقول فيها الشاعر :

فَإِذَا حَسَا مِنْهَا الْوَضِيعُ ثَلَاثَةً سَمَحَ الْوَضِيعُ كَفَعَلَ ذِي الْقَدْرِ
فِي لَوْنِ مَاءِ الْمِزْنِ ^(١) إِلَّا أَنَّهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ كَوَاقِدِ الْجَمْرِ
فَلَا لَهُ الْخَمَارُ قَدْحًا مِنْ خَمْرَةٍ بِيضَاءِ ، كَأَنَّهَا مَاءُ الْمِزْنِ ، فشرب الحسن ،
وقال للخمار : أتعرفني ؟ قال : إني والله ياسيدي ، أنا أعرفُ الناسُ بك ،
قال : فمن أنا ؟ قال : أنت الذي يَسْكُرُ ^(٢) من غَيْرِ وَزْنٍ ، فضحك
الحسن ، وقال لطيط : ادفع إليهِ ما معك من النَّفَقَةِ ، فأعطاه مائة درهم
وانصرف ^(٣) .

وقال أبو عثمان الناجم : دخلتُ على أبي العباس عبد الله بن المعتز ، وهو
مغمور طيّب النفس ، فقال : يا أبا عثمان ، أنشدني ما شئت حتى أعارضك
بأحسن منه أو مثله ، فأنشدته لأبي نواس :

وَدَاشِقَ دَنَفٍ نَبْهَتْهُ سَجَرًا فقام للراح والتذكار مصطبحا
وَدَارَتْ الْخَمْرُ مِنْ صَهْبَاءِ صَافِيَةٍ فَمَا احْتَسَى قَدْحًا حَتَّى بَكَى فَرَحًا

(١) نهاية الأرب : « ماء القيث » .

(٢) كذا في نهاية الأرب . وفي الأصول : « سكر » .

فكّر ساعة ، وضحك وقال :

وقهوة كشعاع الشمس صافية مثل الشراب ترى في قعره شبحا
إذا تعاطيتها لم تدر من لطف راحا بلا قدح أعطيت أم قدحا

وقالوا: ما ذرا ربيع الخبز والسمور بأدفا من الشراب للمصرور والمقرور^(١) .

وقال بعضهم : كنت في مفتزة لي ، وإذا شيخ منبج على علوة معه صبي في يوم بارد ، فكنت أسمع الصبي يقول للشيخ : أعطني فروتي ، فيناوله شيئا لا أتبيّنه ، فبعثت غلامي ينظر إليه . فإذا عند الشيخ قنينة ، كلما طلب الصبي فروته سقاه قدحا .

قال : وأنشدوا لهذا الأصبهاني :

إنّا أناسٌ حسنٌ ديننا لبيعنا الآجل بال عاجل
إذا شربنا خمسة خمسة فقد لبسنا الفرو من داخل

وقال عمرو الضبابي :

أعددتُ لليل إذا الليل برّد خائبتين من طلاء قد ركد
* فطرد الهمّ وتكفيك الصرّد *

وقال آخر :

إذا هبت الأرواح فاجعل دثارها إذا التحف الأنوامُ دكن المطارف
ثلاثة أرتال شرابا معتقا تكن آمنا منها ولست بخائف
فإن دثار الرء من تحت جلده أخف وأذن من دثار الملاخف

(١) المصرور ، من الصر ، بالكسر ، وهو شدة البرد والمقرور ، من القر ، بالضم ، وهو البرد أيضا .

قال الجاحظ : جَاسَتْ عَجُوزٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَى فُتَيَّانٍ يَشْرَبُونَ ، فَسَقَوْهَا قَدْحًا فَطَابَتْ نَفْسُهَا ، ثُمَّ سَقَوْهَا آخَرَ فَاحْمَرَّ وَجْهُهَا وَضَحَكَتْ ، ثُمَّ سَقَوْهَا قَدْحًا ثَالِثًا ، فَقَالَتْ : خَبِرُونِي عَنْ نِسَائِكُمْ بِالْعِرَاقِ ، أَيُشْرَبُ مِنْ هَذَا الشَّرَابِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَتْ : زَيْنَ وَرَبَّ الْكُمَيْةِ ، وَاللَّهِ لَا يَدْرِي أَحَدُكُمْ مَنْ أَبُوهُ ^(١) .

وَسُقِيَ أَعْرَابِيٌّ قَدْحًا مِنْ شَرَابٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ ، فَخَرَّكَتْهُ الْأَرِيحِيَّةُ ، فَسَأَلُوهُ عَنْهَا ، فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هِيَ ! غَيْرَ أَنِّي أَرَأَيْتُمْ تُحِبُّبُونَ إِلَيَّ وَأَرَأَيْتُمْ أَسْرَبُ بِكُمْ ، وَمَا وَهَبَ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا .

وَمَرَّ أَعْرَابِيٌّ بِقَوْمٍ يَشْرَبُونَ ، فَدَعَاوَهُ ، فَزَلَّ وَعَقَلَ بِعَيْرِهِ . وَشَرِبَ مَعَهُمْ ، فَلَمَّا أَخَذَ مِنْهُ الشَّرَابَ ، قَامَ إِلَى بَعِيرِهِ فَفَحَّرَهُ ، وَشَوَى لَهُمْ مِنْ كَبِدِهِ وَسَنَامِهِ ، ثُمَّ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ يَتَغَنَّى :

عَمَّلَانِي إِنَّمَا الدُّنْيَا عِلَالٌ وَاسْقِيَانِي ، عَمَلًا بَعْدَ نَهْلٍ
بَادِرًا بِاللَّهِ يَوْمًا صَالِحًا وَدَعَانِي مِنْ عِتَابٍ وَعَدَلٍ
وَانْشَلَا مَا اغْيَرُ مِنْ قَدَرَيْنِ كَمَا وَاسْقِيَانِي أَبْعَدَ اللَّهِ الْجَلِّ

وَقَالَ إِسْحَاقُ الْمَوْصِلِيُّ : سَقَيْتُ أَعْرَابِيًّا نَبِيذًا ، فَقَالَ : مَا عَلَى هَذَا شَيْءٌ ، يُطَيِّبُ النَّفْسَ ، وَيَطْرُدُ الْحُزْنَ ، وَيَمْنِي الْخَيْرَ ، وَيَعْدُ الْغَنَى ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

أَلَا خُذْهَا كَمَا الزَّعْفَرَانِ رَمَتْهَا بِالنَّحْوِ يَدُ الزَّمَانِ
تَصَوَّغَ إِذَا عَلَاهَا الْمَاءُ طَوْفًا مِنْ الْيَاقُوتِ فَضَّلَ بِالْجَمَانِ
وَتَرَكَ مَنْ أَرَادَ الشَّرْبَ مِنْهَا صَحِيحَ الْجَسْمِ مِنْ كَسِيرِ اللِّسَانِ
كَأَنَّ الشَّمْسَ طَالَعَةً بِكَفِّي إِذَا أَخَذَتْ زَجَاجَتَهَا بِقَانِي

وَمَرَّ الْفَرَزْدَقُ بِالْحَكَمِ بْنِ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجَارُودِ ؛ فَاسْتَسْقَاهُ مَاءً ، فَقَالَ : هَلَّا

لبناً يا أبا فراس؟ قال : ذلك إليك ، فلأله عُسًا من خمر ، وأمر فحُلِبَتْ عليه
لَقْعَةً ، فصَبَعَتْ الرَّغْوَةَ فوق الشراب ، وأتاه به ، فشربه حتى صَكَ بِالْعُسِّ جَبْهَتَهُ ،
وانتفخت أوداجُهُ ، واحمَرَّت عَيْنَاهُ ، فمَسَحَ سِهَامَهُ ، وقال : جزاك الله خيراً ،
فإنك ما زلت تُخْفِي الصَّدَقَاتِ وَنِعْمًا هِيَ !

ودخل الأخطل على عبد الملك ، فقال : ليت شعري ، ما يجيبك من إدمان
الخمر ، وأولها التذطيب والسكرانة ، وآخرها السكر والسفاهة ! فقال : واسكن
بينهما حالة ما يسرني بها مُلْكُكَ ، هذا نظمه الشاعر ، فقال :

إن يكن أول اللدام كريهاً ويكن آخر اللدام صداعاً
فلها بين ذا وذاك هنةٌ وضئفها بالسرور أن يستطاعاً

وأُشْد ابن قتيبة لأبي محجن الثقفي :

إذ مت فادفني إلى جنب كرمٍ تروى عظامي بمد موتى عروقه^(١)
ولا تدفني بالفلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

قال : فأخبرني مَنْ رأى قبره بإرمينية ، أنه بين شجرات الكروم ، والفتيان
يشربون عندها ، وينشدون شعره ، وإذا جاء قدحه صبّوه على قبره .

ومنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل الشام شرب الخمر . فقال شاعرهم :

ألم تر أن الدهر يَمْزُجُ بِالْفَتَى ولا يملك الإنسانُ صَرْفَ المقاديرِ
صبرت ولم أجزعُ وقدمات إخوتي وما أنا عن شُرْبِ اللِّدَامِ بصائرِ
رماها أمير المؤمنين بحتفها فخلّاها بيبكون حول المآصيرِ

ورأى ذؤيب اللسلي خراً أهرقها السلطان ، فقال :

يا تقوى لِمَا أتى السلطانُ لا يكن للذي أهانوا هوانُ

(١) نهاية الأرب ٤ : ٩١ ، واللمعة ٦ : ٣٥٠ والأشربة ٢٤ .

سكبوا في التراب من حلب الكروم عصاراً كأنها الزعفران
سكبت في مكان نحسٍ لقد صا دف سعد السعود ذاك المكان
كيف صبري عن بعض نفسي وهل يصبر عن بعض نفسه إنسان !

ولما أنهمك الوائد بن يزيد في الشراب والتبذل مع القدماء ، اجتمع وجوه
بني أمية ، فلاموه وعنفوه ، فقال لهم اسمعوا ما عندي :

أشهد الله والملائكة الأبرار والعابدين أهل الصلاح
أنني أشتى السماع وشرب الرّاح والعض في الحدود الملاح
والنديم الكريم والخادم الفارسي على بالأقداح
وظريف الحديث والكعب اللطيفة ترنج في سموط الوشاح

انصرفوا ، فيئسوا منه ، فديرُوا في إفساد دولته .

ودخل على المأمون عمرو بن مسعدة ورجل من الفقهاء ، وبين يديه جام
زجاج فيه رطل شراب ، فدّ به يده المأمون إلى الرجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ،
والله ما شربتها ناشئاً فلا تسقنيها شيخاً ، فردّ يده إلى عمرو ، فأخذها منه ، وقال :
الله الله يا أمير المؤمنين ، إني آليت في الكعبة ألا أشربها ؛ ففكر طويلاً
والكأس في يد عمرو ، ثم قال :

رُدّا على الكأس إنكما لا تعلمان الكأس ما تجدي
لو دُفّما ما ذقت ما مزجت إلا بدمعكم من الوجد
ما مثل نعمها إذا اشتملت إلا اشتمال فم على خد
خوفتاني الله ربكمما وكخيفتيه رجاؤه عندي
إن كتما لا تشربان معي خوف العقاب شربتها وحدي

وقال الحسن بن هاني وهو الإمام في الحمريات :

ساعٍ بكأسٍ إلى ناسٍ على طربٍ كلاهما عجبٌ في مَنْظَرٍ عجبٍ^(١)
قامت ترينى ، وأمر الليل مجتمعٌ صبحاً تولد بين الماء والعنب
كأن صغرى وكبرى من فواقهما حصباء درّ على أرض من الذهب
وله أيضاً :

قال ابْنِي الصِّباح قلت له اتشد حسبي وحسبك ضوءها مصباحاً^(٢)
فسكبتُ منها في الزُّجاجة شربةً كانت له حتى الصُّباح صباحاً
من قهوة جاءتك قبل مزاجها عُطْلاً فألبسها المزاج وشاحاً
شقُّ البُزال^(٣) فزادها فكأنها أهدتُ إليك برمجها تفاحاً
فأنتك في صور تداولها البلى فأزالهن وأثبت الأرواحاً

وقال ابن المعتز :

ونارٍ قد حنَّها سراعاً بِسُجْرةٍ متى ما بُرِّقَ مالا عليها توقد^(٤)
يجول حباب الماء في جنباتها كما جال دمعٌ فوق خد مورِدٍ

وقال ابن وكيع :

وصفراء من ماء الكروم كأنها - فراق عدوٍّ أو لقاء صديقٍ^(٥)
كأن الحباب المستدير بطوقها كواعب دُرٍّ في سماء عقيق
الطُّوق : حاشية الكأس .

وقال ابن المعتز في الحباب وتشبيهه له أحسن من تشبيهه بجميعة :

(٢) ديوانه ٢٥١ .

(١) ديوانه ٢٤٣

(٣) بزل الحمر : ثقب إناءها ، وذلك للوضع اسمه البزال .

(٤) ديوانه ٢ : ٣٧ .

(٥) بئمة النهر ١ : ٣٢٩ .

أَسْتَقِي مَخْدَرَةَ الدُّنَا نَسْلَافٍ خَيْرٍ قَرَقَفًا^(١)
رَأَمًا تَخَالُ حَبَابَهَا دُرًّا يَحُولُ مَجُوفًا

وقال الحسن :

بَنَتْ عَشْرَ لَمْ تَعَايِنُ غَيْرَ نَارِ الشَّمْسِ نَارًا^(٢)
ثُمَّ سَحَّتْ فَأَدَارَتْ فَوْقَهَا طَوْفًا فِدَارًا
كَاقْتِرَانِ الدَّرِّ بِالْدَّرِّ صَفَارًا وَكِبَارًا
فَإِذَا مَا اعْتَرَضَتْهُ الْعَيْنُ مِنْ حَيْثُ اسْتَدَارًا
خِلَّتَهُ فِي جَنَبَاتِ الْكَأْسِ وَأَوَاتٍ صَفَارًا

وله أيضاً في مثل ذلك :

وَالْكَأْسُ أَهْوَاهَا وَإِنْ رُزِئَتْ بَلَغَ الْمَعَاشَ وَقَلَّتْ فَضْلِي^(٣)
ذَخِرَتْ لِأَدَمَ قَبْلَ خِلْقَتِهِ فَتَقَدَّمَتْهُ بِمُخْطَاةِ الْقَبْلِ
فَأَتَاكَ شَيْءٌ لَا تَلَامِسُهُ إِلَّا بِحَسَنِ غَرِيزَةِ الْعَقْلِ
فَإِذَا عَلَاهَا الْمَاءُ أَلْبَسَهَا تَمَشًّا كَمَثَلِ خِلَافِ الْحَجْلِ
حَتَّى إِذَا سَكَنْتَ جَوَانِحُهَا كَتَبْتَ بِمَثَلِ أُكَارِعِ النَّمْلِ
خَطِينَ^(٤) مِنْ شَيْءٍ وَمَجْتَمِعٍ غُفْلٍ مِنَ الْإِعْجَامِ وَالشَّكْلِ

وقال ابن المعتز :

كَأَنَّ فِي كَأْسِهَا وَالْمَاءُ يَقْرَعُهَا أُكَارِعُ النَّمْلِ أَوْ نَفْسُ الْخَوَاتِيمِ^(٥)

(١) ديوانه ٢ : ٨٧

(٢) هو الحسن بن هاني ، ديوانه ٢٧٤

(٣) ديوانه ٣١١ ، وفيه : « والراح أهواها » .

(٤) الديوان : « سطرين » .

(٥) ديوانه ٢ : ٦٢

وقال حبيب :

صُيِّبَتْ وِراضُ الْمَرْجِ سَيِّئُ خَلْقِهَا	فَعَمَلَتْ مِنْ حُسْنِ خُلُقِ الْمَاءِ ^(١)
خَزَقَاءُ يَلْعَبُ بِالْمَقُولِ حَبَابِهَا	كَتَلَاعِبِ الْأَفْعَالِ بِالْأَسْمَاءِ
وَضَعِيفَةٌ ، فَإِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً	قَتَلَتْ ، كَذَلِكَ قُدْرَةُ الضَّعْفَاءِ
وَكُنَّ بِهِجَتِهَا وَبِهَجَةٍ كَأْسُهَا	نَارُ وَنُورُ قَيْدَا بُوعَاءِ
أَوْ دُرَّةٌ يَبِضُّاءُ بَكَرَتْ أَطْبَقَتْ	حَبْلًا عَلَى يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءِ

وقال ابن لبّال :

وَمَدَامَةٍ لَبِسَتْ غِلَالَةَ نَرْجِسٍ	وَتَنَفَسَتْ فِي الْكَأْسِ أَيْ تَنَفَسِ
بَاكِرَتِهَا وَالْوَرْدُ يَوْقِظُهُ النَّدَى	وَتَبِلَ خَدَّيْهِ عَيُونُ النَّرْجِسِ
وَالشَّمْسُ تَنْظُرُ مِنْ وَرَاءِ غَمَامَةٍ	لَبِسَتْ مِنَ الْكَافُورِ أَحْسَنَ مَلْبَسِ
نَبَتْهَا بِيَدِ الزَّاجِ فَأَصْبَحَتْ	تَرْنُو إِلَى بَاعِينَ لَمْ تَنْعَسِ
وَتَوَرَّدَتْ حَتَّى تَوْقَدَ كَأْسُهَا	فَحَسِبْتُهَا فِي الْكَفِّ جَذْوَةً مَقْبَسِ

وَلَا كَانَ سَاقِ	دَهَائِي الرِّفَاقِ
لِأَرْضِ الْعِرَاقِ	بِحَمْلِ السَّبِيحِ

فَلَا تَمُضِبِينَ	وَلَا تَعَجِبِينَ
وَلَا تَعْتَبِينَ	فَعُذْرِي وَصَحِّ

وَلَا تَعْجَبْنَ لِشَيْخِ ابْنِ
بِعْنَى أَغْنَى وَدَنْ طَفَحَ

فَإِنَّ الْمُدَّامَ تُقَوَّى الْعِظَامُ
وَتَشْفَى السَّقَامُ وَتَنْفَى التَّرْحُ

قوله : « دَهَائِي » ، أى تشيطنى ومكرى . السَّيِّحُ : جمع سبحة ، وقد تقدّمت .
تَصَخَّبْنَ : ترفعنّ صوتك بالصياح . تَعْتَبْنَ : تلومنّ . وضح : ظهر . ابْنُ : أقام .
مَعْنَى : منزل : أَغْنَى : كثير الأشجار ، فإذا هَبَّتِ الرِّيحُ فيها سمعت لها غُفَّةً ،
ومن هذا قولهم : رَوْضَةٌ غَنَاءُ ، لأن صوت الرِّيح يخرج من بين أشجارها ،
وعشبا أغنى .

وَمَنْ فُسِّرَ بِأَنَّ الذَّبَابَ يَعْنَى فِيهَا ، فَهُوَ صَحِيحٌ فِي الْمَعْنَى فَاسِدٌ فِي التَّصْرِيفِ ،
لأنَّ يَعْنَى أَصْلُهُ (غ ن ي) وَأَغْنَى أَصْلُهُ (غ ن ن) فَيُرِيدُ بِالْمَعْنَى الْأَغْنَى مَنْزِلًا
كثِيرَ الْأَشْجَارِ .

وفُسِّرَ بَعْضُهُمْ كَثِيرَ الْأَهْلِ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى .

طَفَحَ : امتلأ خمرًا ، الْمُدَّامُ : الخمر . وقوله : « تُقَوَّى الْعِظَامُ » ، وَتَشْفَى السَّقَامُ
قَدْ تَجَاوَزَ هُنَا قَوْمٌ حَتَّى جَعَلُوهَا مِنَ الْعَاهَاتِ ؛ قَالَ الْأَيْبِيُّ — وَيُرْوَى
لِلْأَبِيِّ نَوَاسَ :

وَمَقَمَدٍ قَوْمٍ قَدْ مَشَى مِنْ شَرَاءِ بِنَا وَأَعْمَى سَقِينَاهُ ثَلَاثًا فَأَبْصَرَ

كُمَيْتٍ كَانَ الْعَنْبَرُ الْوَرْدَ رِيحُهَا إِذَا شَمُّهَا الْحَانِي مِنَ الدَّنِ كَبْرًا
تَوَقَّدُ فِي أَيْدِي السَّقَاةِ كَثُوسُهَا إِذَا مَا رَأَاهَا صَائِمُ الْقَوْمِ أَفْطَرَا

وقال آخر :

أَبَا هَاشِمٍ هَلْ لِي سَبِيلٌ إِلَى التِّي أَرَى شَرْبَةً مِنْهَا قَوَامًا لِأُخْذَبِ
قوله : « وتنفى الترح » ، أى تزيل الحزن .

وقال الحسن بن هانئ في أن الغمر تزيل الحزن والهَمَّ :

دَعْ عَنْكَ لَوْحِي فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءُ وَدَاوُنِي بِأَلْتِي مِنْهَا بِنَى الدَّاءِ^(١)
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانَ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ
قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا وَاللَّيْلَ مَعْتَكِرُ فَظَلَّ مِنْ وَجْهَهَا فِي الْبَيْتِ لِأَلَاءُ
وَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً كَأَنَّمَا أَخَذُوهَا بِالْعَقْلِ إِغْفَاءُ
رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى لَا يَلَامُهَا لَطَافَةٌ وَجَفَاً عَنِ شَكْلِهَا الْمَاءُ
فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لِمَازَجَهَا حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارُ وَأَضْوَاءُ

وقال البحتري :

فَاشْرَبْ عَلَى زَهْرِ الرِّيَاضِ يَشْوِبُهُ زَهْرُ الْخُلْدُودِ وَزَهْرَةُ الصَّبَاءِ^(٢)
مِنْ قَهْوَةِ تَنْسِيِ الْمُمُومِ وَتَبَعْتَ الشَّوْقَ الَّذِي قَدْ ظَلَّ فِي الْأَحْشَاءِ
يَخْفَى الزَّجَاجَةُ لَوْنُهَا ، فَكَأَنَّهَا فِي الْكَأْسِ قَائِمَةٌ بَغِيرِ إِمْنَاءِ

وقال حبيب :

بِمَدَامَةِ يَغْدُو الْفَتَى لِكُثُوسِهَا حَوْلًا عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ^(٣)

(١) ديوانه ٢٣٤ ، وروايته « ودَاوُنِي بِأَلْتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاء »

(٢) ديوانه ٦

(٣) ديوانه ٣ .

راح إذا ما الراح كن مطيها كانت مطايا الشوق في الأحشاء
عنبتة ذهبية سبكت لها ذهب العاني صاغة الشمراء

* * *

وأصنى الشروز إذا ما الوفور

أماط سُورُ ال حيا وأطرح

وأخلى القرام إذا المستهام

أزال اكيتام ال هوى وافتضح

فبح بهواك وبرذ حشاك

فزند أساك به قد قدح

وداو الكلام وملّ الهموم

بينت الكرو م التي تقترح

وخص الغبوق بساق يسوق

بلاء المشوق إذا ما طمع

* * *

قوله : «أماط» ، أى أزال . أطرح : رمى بها ، وهذا منتزع من قول عليّ

ابن الخليل :

لا تكمل اللذات إلا بالقيان وبالبحور

هتك الستور فإنما آل اللذات في هتك الستور

فدع العواذل لا يقفن عليك من دون الصدور
واعلم بأنك راجعٌ حقاً إلى ربِّ غفور

قوله : «الغرام» ، شدة الحب . المستهام : الذي حمله الحب على أن يهيم ، أى
يذهب ولا يدري أين يتوجه . افتضح : اشتهر ، يقول : أصفى ما يكون السرور
إذا أزال الوقور ثياب الحياء وأطرحها عنه ، وأحلى ما يكون العشق إذا أزال
العاشق الكتم وشهر نفسه به ، ومن هذا قول أبي نواس :

ألا فاستنى خجراً وقل لي هي الخمرُ
ولا تستقني سراً إذا أمكن الجهر^(١)
وبئح باسم من تهوى ودعني من الكنى
فلا خير في اللذات من دونها ستر

قوله : «زند أساك» ، الزند : الذي يقدح به النار ، والأسى : الحزن ، يقول :
برد قلبك بذكر من تهوى ، فإنك إن رمت كتمه قدح به زند حزنك .

ونحو هذا ما يحكى أن أبا الفضل الدارمي ، كان له هوى بغلام ، فإذا رآه
أنكر حبه ، والغلام يعرف شدة وجدّه به ، فدمعت يوماً عينا أبي الفضل ،
فقال له الغلام : دمعك شاهد عليك ، فقال :

وهبني قد أنكرت حبك جملةً وآليت أني لا أروم محطها
فن أين لي في الحب جرح شهادة سقامي أملاها ، ودعني خطها !

(١) ديوانه ٢٧٣ ، بعده هناك :

فعيش الفتى في سكرة بعد سكرة فإن طال هذا عنده قصر الدهر
وما النمن إلا أن تراني صاحباً وما النعم إلا أن يتفعني السكر

وقال المتنبي :

وكانم الحب يوم البين منتهك^(١) وصاحب الدمع لا تخفى سرائره^(٢)
والشعر في هذا كثير ، وكله تبع لقول العباس بن الأحنف :

لا جَزَى الله دمع عَيْنِي خَيْرًا وجزى الله كلَّ خير لسانِي^(٣)
نَمَّ دمعِي فليس يَكْتُمُ شَيْئًا ورأيت اللسانَ ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طيًّا فاستدَّوا عليه بالعنوان

أما الاشتهار الذي ذكر فإنما يأخذه به أهل التماجن ومن لا بال له ، وأما
أهل المروءات والتصاؤون ، فغايتهم إعلام المحبوب بشأنهم ، وكتمه عن الناس ،
وذلك شديد ، ولا يقوم به إلا من كمل عقله ، وأما أن يكتمه عن محبوبه
كحكاية أبي الفضل ، فأشدُّ أحوال هذا الباب أن يكون لمحوبك أصحاب يألفهم
ويألفونه ، فيعلمون بشأنك كما فعل أبو الأصمغ بن رشيد المرتكبي ، أنشدنيه
الفتية أبو الحسن بن زرقون :

أبا قاسم إن قَسَمْتُ الهَوَى كُتُوسًا فَظَيَّ أَوْفَى الكُتُوسِ
وبين جُفُونِكَ يا قَاتِلِي وبين فُؤَادِي حَزْبُ البُسُوسِ
وَبَيْنَ الجَوَانِحِ نارُ الجوى كما قد سمعت بنار الجُوسِ
أَسَارِقُكَ اللحظ في خَفِيَّةٍ كما يتناول قَيْدُ الشُّمُوسِ
فهما بَدَوْتُ ومهما رنَوْتُ فشغل العيون وشغل النفوسِ
سُرُرت به بين أصحابه فخذوا اللحاظ وهزُّوا الرؤوسِ
وهذا على خطرة فَذَّةٍ فكيف لو أنى نويت الجلوسِ

(١) ديوانه ٢ : ١١٥

(٢) ديوانه ٢٨٢ ، نهاية الأرب ٨ : ١٤٤ .

قوله: « داو الكلوم » ، يريد جراح قلبه من أنكد الدهر ، ولذلك اتبعه .
بـ « سل الموم » ، لأنه في معنى « داو الكلوم » ، وهذا كقول العطوى :

أعجبتن أن أناخ بي الدهر فخاصمته إلى الأقداح
لا تذاد الموم أنشبن أظفا رّا حداداً شرب ماء قراح
أحمد الله صارت الكأس نأسو دون إخواني الثقات جراحى

قوله : « تقترح » تتمنى . الغبوق : شرب العشى ، والمسوق : الحب .
وطمح : ارتفع بالنظر ، يقول : خُصّ شرابك بالعشى مع غلام حسن يسقيك
وبييت معك على شرابك ، ويكون لإفراط حسنه ، يجلب عذاب العاشق
إذا نظره .

ومما قيل في السقاة ووصف الخمر من الشعر المستحسن قول أبي نواس :
إذا عبّ فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا^(١)
ترى حينما كانت من البيت مشرقاً وما لم تكن فيه من البيت مغرباً
يدور^(٢) بها ساق أغنّ ترى له على مستدار الخلد صدغاً معرباً
سقانى ومنانى بعينيه منية فكانت إلى نفسى ألدّ وأعجباً
وقال ابن الرومي فأحسن :

ومنهف كملت محاسنه حتى تجاوز منية النفس
تصبو الكئوس إلى مرآشفه وتضج في يده من الحبس
أبصرته والكأس بين قمـ منه وبين أنامل خمس
فكأنها وكان شاربها قمر يقبل عارض الشمس

(١) ديوانه ٢٤٤

(٢) الديوان : « يدور » .

وقال ابن المعتز :

ظبيٌ مُخْلِى من الأحزان أودعني ما يعلم الله من حُزنٍ ومن قَلَقٍ^(١)
كانه وكان الكأس في يده هلال أول شهر غاب في شَفَقٍ^(٢)

وقال أيضاً :

ياحسن أحمد غادياً أمس بدمامة صفراء كالورس^(٣)
وكان كفيه تقسم في أقداً حِناً قطعاً من الشمس
ولأبي طالب الرِّفاء في معنى آخر :
لها في كفت شارها شِعَاعٌ تطرف منه مبيضُ البَتَانِ

ولأبي بكر الخالدي :

تُومِي إِلَيَّ بِأَطْرَافِ مَطَرٍ فيها خضابان للعُتَابِ والعُنبِ
فهذا في انتقال مُخْرِتِهَا لِأَصَابِعِ حَابِسِهَا ، فإذا انتقلت لَحْدَ شَارِبِهَا حدث للشعرَاءُ
في ذلك معنى بديع من صنع البديع يستقى المطابقة ، وهو الوصف بالغروب والطلوع ،
وقال في ذلك الطليق المرواني :

أَصْبَحَتْ شَمْسًا وَفَوْهَ مَغْرِبًا وَيَدُ السَّاقِ الْحَيِّ مَشْرِقًا
فإذا ما غربت في فَمِهِ أطلعت في الحَدِّ مِنْهُ شَفَقًا
ولأبي مطروح بن فتوح :

صهبا تغرب إن بدت من كفه في فيه ثم تلوح في وَجَنَاتِهِ
وقال غيره :

بَدَرٌ بَدَا يَشْرَبُ شَمْسًا بَدَتْ وَجِدَهَا فِي الْحَسَنِ مِنْ جَدِّهِ
تغرب في فيه ولكنها من بعد ذا تطلع في خَدِّهِ

(١) ديوانه ٢ : ٥٥ .

(٢) ديوانه ١٨ .

(٣) الديوان : « هلال نَمٍّ ونجم غاب في شَفَقٍ » .

وقال آخر :

أقول والكأس على فيه وقد صوبها كالكوكب الصائب
ذا كوكبٌ يغرب في كوكبٍ وبلي على الطالع والغارب !

* * *

رجعنا إلى ذكر السقاة - قال ابن المعتز :

تدور علينا الكأس من كفٍ شادنٍ له لحظ عين يشتكى السقم مدنف^(١)
كأن سلاف الخمر من ماء خدّه وعنقودها من شعره الجعد يُقطفُ
وقال أبو بكر الخالدي :

أهلاً بشمس مُدامٍ من يدي قمرٍ تكامل الحسن فيه فهو نَيّاهُ
كأن حمرتها إذ قام يمزجها من خدّه اعتصرت أومن ثنياهُ
في وجه فلٍ ورينجانٍ تراح له مِنّا قلوبٌ وأبصارٌ وتهوَاهُ
الترجس الغض عيناها وطُرتُهُ بنفسج ، وجنى الورد خدَاهُ

ولابن الزقاق :

وساقٍ يحثُ الكأسَ وهي كأنما تلاًلأ منها مثل ضوءٍ جبينه^(٢)
سقاني بها صرف الحُميا عشيّةٍ وثني بأخرى من رحيق جفونه
هضم الحشا ذو وَجَنَةٍ عَنْدَمِيّةٍ تربك قطاف الورد في غير حينه
فأشرب من يمانه ما فوق خدّه وألثم من خدّيه ما في يمينه

وقال الخوارزمي :

وصفراء كالدينار بنتُ ثلاثة شمال وأنهار ودهر محرم^(٣)
مَسْرَةٌ محزونٍ وعذر مُعزٍ بدٍ وكنز مجوسي وقتنة مسلم
بدور بها ظبي تدور عيوننا على عينه من شرط يحيى بن أكرم

وقال ابن المعتز :

وندامى فى شباب وشيب أتلقت مألهم نفوس كرام^(١)
 بين أقداهم حديث نضير^ه وهو سحر وما سواه كلام^ه
 وغناء يستعجل الرّاح بالرا ح كما تاح فى الغصون الحمام^ه
 وكان السقاة بين الندامى ألفت بين الشطور قيسام^ه

* * *

وشاد يشيد بصوت تيمد^ه
 جبال الحديد له إن صدح^ه
 وعاص النصيح الذى لا يبيع^ه
 وصال المديح إذا ما سمح^ه
 وجل فى المحال ولو بالمحال^ه
 ودع ما يقال وخذ ما صلمح^ه
 وفارق أباك إذا ما أباك^ه
 ومُدَّ الشباك وصد من سنع^ه
 وصاف الخليل وناف البخيل^ه
 وأول الجميل ووال المنع^ه
 ولذ بالمتاب أمام الدهاب^ه
 فنن دق باب كريم فتح^ه

* * *

قوله : « شادِر » ، أى مغنٍ . يُشيد : يتغن غناءه ويحكه . تميل : صدح : رفع صوته بالغناء ، والصداح : الصوت الشديد ، يقول : وأحضر الخمرَ مغنياً تميل الجبال لحسن غنائه ، وهذا مثل ما حكى المنجم ، قال : حكى لى أن إبراهيم بن المهدي ، كان أحسن الناس غناء ببهان ، وذلك أنى كنت أراه فى مجالس أُلُفَاء مثل المؤمنين والمعتصم يُغنى المغنون ، فإذا ابتداء هو لم يبق أحدٌ من الفنان والمتصرفين وأصحاب الصناعات والمهن الصغار والكبار ، إلا وقد ترك ما فى يده ، وصار بأقرب موضع يمكنه أن يسمعه ، فلا يزال مصغياً إليه ، لاهياً عما كان فيه ما دام يغنى ، فإذا أمسك وغنى غيره رجعوا إلى أشغالهم ، ولا برهان أقوى من شهادة الفطرة ، واتفاق الطبائع على الميل إليه مع اختلافها فى غير ذلك .

وقال منصور بن المهدي : غنى أخى إبراهيم الأمين يوماً فقال :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأخرى تداويتُ منها بها
لكى يعلمَ الناسُ أنى امرؤ أتيت الفتوة من بابها

وكان الأمين مشرفاً على حمر الوحش ، وهو خمور ، وكان من عادته ألا يشرب وهو خمور ، فاستوى جالساً وطرب ، وقال : أحسنت والله يا عم . وأحييت لى طرباً . وغنى بومئذ على أشد طبقة ينتهى إليها ، وما سمعت مثله قط ، وقد رأيت منه شيئاً عجيباً ، لو حدثتُ به ما صدقته ، كان إذا ابتداء يغنى أصغت الوحش ، ومدت أعناقها ، ولم تزل تدنو منه ، حتى تضع رءوسها على الذئب الذى كنا عليه ، فإذا سكت نزعنا ، حتى تنتهى إلى أبعاد غاية يمكنها التباعد فيها عنا ، وجعل الأمين يعجب من ذلك .

قوله : « يديح » ، أى يجعله له مباحاً ، يقول : اغص من يعضدك فى وصل المليلح متى سمح بوصله .

وكان أعرابي قد طال تمشقه لجارية ، فقيل له : ما كنت صانعاً لو ظفرت بها ، ولا يرا كما غير الله ؟ قال : إذا والله لا أجعله أهون الناظرين ، لكنني كنت أفعل بها ما كنت أفعله بمحضرة أهلها ، شكوى وحديث عذب ، وإغراض عما يسخط الرب ، ويقطع الحب ، فإن تَلَقَّى وصال المليح ، إذا سمح بمثل هذا فعصيان النصيح واجب ، وأكثر الناس يرى أن الظفر بالعشوق يُسقط نصف عشقه ، وأن الفكاح يُفسد الحب :

وقال المأمون :

وما الحبُّ إلا قُبلةٌ	وغز كَفَّ وَعَضُدُ
وكتبَ فيها رُقَى	أُنقِذُ من نَفَثِ العَفَدِ
مَنْ لم يكن ذا حَبَّة	فإنما يَبْغِي الولَدَ
ما الحبُّ إلا هَكَذَا	إن نُكِّحَ الحبَّ فَسَدَ

وقال حبيب في نقيضه وأجاد :

وقالت نكاحُ الحبِّ يفسد شكله وكم نكحوا حُبًّا وليس بفسادٍ^(١)

وقالت أم الضحَّاك الحاربية :

شفاء الحب تقبيل وَصَمٌ	وجرَّ بالبطون على البُطونِ
ورَهْرَهْرُ تَهْمَلُ العِيناتِ منه	وأخذُ بالمناكبِ والقروُنِ

وقال الحسن :

إذا هجع النِّيامُ نخلٌ عني وعمن كان أبصِّلح للديبِ^(٢)

(١) ديوانه ١٣

(٢) ديوانه ٢٥

فإني عالم فطنٌ أريبٌ ولم يخبرك مثلُ فتى أريبٍ
ألدُّ الفعل تأخذه سروراً بمنح الحب أو منع الرقيب
وبعد هذا ما يفتح ذكره ، وشعر الحسن يكثر في هذا الباب .

وقال ابن الأبار رحمه الله - وذكر أنه فعل بمحبوبه وبرقيقه :

فوثبنا على الفزال وثوباً وديناً على الرقيب ديباً
فهل أبصرت أو سمعت بصبٍ ناك محبوبه وناك الرقيباً

وقال ابن بسام : لقد ظرّف ابن الأبار ، واستهتر ما شاء وقدر ، وأظنه
لو قدر على إبليس الذي تولى له هذا المذهب لدبّ عليه .

وابن المعتز كنى ولم يصرح ، فقال :

فكان ما كان مما لست أذكره فطنٌ خيراً ولا تسأل عن الخبر^(١)
أين ما قدمناه لابن الأبار من قول الآخر في ضده :

ومنعمٍ غض القطافِ عذبٌ لَمَاهُ للارتشافِ
فوردتُ جنةً نحره ونعيمها دُونَ اقْتِطَافِ
وعصيتُ سلطان الهوى وأطعت سلطان العفافِ

وقال ابن الأبار أيضاً :

ومعرض بالنصن في حركاته تسلُّ القلوب الغفوة من لحظاته
عاطيته كأساً كأنَّ مُلَافِها مِن ريقه للمسول أو وجناته
وأطعتُ سلطان العفاف تكريماً والمرء مجبول على عاداته

وقال الشريف الرضى فأحسن :

بِتَنَا ضَجِيعِينَ فِي ثَوْبِي هَوَى وَتَنَى
وَبَات بَارِقَ ذَاكَ النَّعْرِ يُوْضِحُ لِي
وَبَاتت الرِّيحُ كَالْغَيْرَى تَجَاذِبُنَا
وَأَكْتَم الصَّبْحُ عَنْهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ
قَعَمْتُ أَنْفَضُ بُرْدًا مَا تَعْلَقُهُ
يَلْفَنَا الشَّوْقُ مِنْ فَرْقٍ إِلَى قَدَمٍ^(١)
مَوَاقِعَ اللَّثَمِ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
عَلَى الْكَتِيبِ فَضُولَ الرِّيطِ وَاللَّعَمِ
حَتَّى تَكَلَّمَ عَصْفُورٌ عَلَى عِلْمٍ
غَيْرُ الْعَفَافِ وَرَاءَ الْغَيْبِ وَالْكَرَمِ

وقال ابن فرج الجاني :

وَطَائِعَةُ الْوَصَالِ صَدَدَتْ عَنْهَا
بَدَتْ بِاللَّيْلِ سَافِرَةٌ فَبَاتَتْ
وَمَا مِنْ لَحْظَةٍ إِلَّا وَفِيهَا
فَلَكْتُ الْهَوَى جَمْعَاتٍ شَوْقِي
كَذَاكَ الرَّوْضُ مَا فِيهِ لِمَثْلِي
وَلَسْتُ مِنَ السَّوَاءِ مِنْ مَهْمَلَاتٍ
وَمَا الشَّيْطَانُ فِيهَا بِالْمُطَاعِ
دَيَّاجِي اللَّيْلِ سَافِرَةٌ الْفِنَاعِ
إِلَى قَتَنِ الْقُلُوبِ لَنَا دَوَاعِ
لَأَجْرِي فِي الْعَفَافِ عَلَى طِبَاعِي
سَوَى نَظَرٍ وَشَمٍّ مِنْ مَتَاعِ
فَاتَّخَذَ الرِّيَاضَ مِنَ الْمَرَاغِي

وقال أيضا فأحسن :

بَأَيِّهَا أَنَا فِي الشُّكْرِ بَادِي
سَرَى لِي فَازْدَهَى أُمْلَى ، وَلَكِنْ
وَمَا فِي النُّومِ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ
كَأَنَّهُ لَمَّا عَفَّ فِي الْيَقَظَةِ جَرَى عَلَى عَادَتِهِ فِي النُّومِ ، وَهَذَا مِنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :
أَشْكُرُ الطَّيِّفَ أَمْ شُكْرَ الرُّقَادِ
عَفْتُ فَلَمْ أَنْلَ مِنْهُ مَرَادِي
جَرَيْتُ مِنَ الْعَفَافِ عَلَى اعْتِيَادِي
وَيَعْصِي الْهَوَى فِي طَيْفِهَا وَهَوْرَاقِدُ
يُرْدُ يَدَا عَنْ ثَوْبِهَا وَهُوَ قَادِرُ

وهذا أملك شهوة من التّامى ، وإن كان قد أحسن حيث يقول :

إني لأصرف طرقي عن محاسنها تكرموا كفى الكف عن لعم^(١)
ولا أهمّ ولي نفس تنازعني أستغفر الله إلاّ ساعة الحلم

وقال ابن طباطبا :

يقظانه ومنامه شرّع كل بكل منه مشقه
إن هم في حلمٍ بفاحشة زجرته عفته فينتبه

أخذه السرى^(٢) ، فكتب إلى صديق له ، وكان اتهمه بعلام بعثه إليه :

أما بكر أسأت الظن فيمن سجيته التمتع والخلاف
وخفت عليه في الخلوات منى ولم يك بيننا حال تخاف
جفوت من الصّبأ ما ليس بجنى وعفت من الهوى ما لا يعاف
فلو أنى هممت بقبح فعل لدى الإغفاء أيقظني التعاف

قوله : «جُل» ، تصرف . المِحَال : المَكْر . لُد : تعلق وتستر . المِحَال :
الباطل ، وما لا يمكن ثبوته . ودع ما يقال ، أى لا تلتفت إلى مَنْ ينقصك
باتّباع لذّاتك ، وخذ ما يوافقك ويصلح بك .

وهذا رأى من اشتهر بالجون كالخسن في قوله :

دع عنك ما جدّوا به وتبطل وإذا لقيت أخا الحقيقة فاهزل^(٣)
لا تركب من الذنوب خيسها واعد إذا قاربتها للأنبيل
وخطيئة تفلو على مُستأمرها يأتيك آخرها بطعم الأوّل

(١) هو السرى الرفاء ديوانه ٢ .

(٢) ديوانه ١٨٣

(٣) - شرح مقامات الحريري ج ٢)

حَلَّتْ لَاحِرَجٍ عَلَى حَرَامِهَا وَلَرَبَّمَا حَلَّتْ غَيْرَ مُحَلِّلٍ

وقال ابن وكيع:

لا تنبلن من الرشيد كلامه وإذا دعاك أخو الفواية فاقبل^(١)
ودع الترهّب والتجمل للورى فالعيش ليس يطيب للمتعجل

وقال أيضاً:

فارتد بمذك عنتى ووقارى وخلعت فى طرق المجون عذارى^(٢)
لا تأمرنى بالتستّر فى الهوى فالعيش أجمع فى ركوب العار
لا تسكرن علىّ إن أخا الحيجا برىم بقرب الصاحب المكثار

قوله: «أباك»، أى تمتع منك. سنع: تيسر، يقال: سنع الشئ سنعاً، وإذا تيسر صاف الخليل، أى أخلص الود لصاحب. ناف: باعد. أول الجميل: ألصق المعروف بمن يستحقه، وقد أولانى فلان المعروف: ألصقته بى، وجعله بينه وبينى. وقيل معنى «أولانى» مَسَكْنِي، من قولهم: هذا ولّى المرأة، أى مالك أمرها. وقيل: معناه عضدنى به وقوّانى، من قولهم: بنو فلان ولاية على بنى فلان، أى يعينونهم ويعضدونهم، وقيل: أولانى: أنعم على، من الألاء، وهى النعم، واحداها إلى وألى، والأصل ولىّ وولّى، أبداً من الواو المكسورة همزة، على حدّ «إسداد»، وأبداً من الواو المفتوحة همزة على حدّ أحد وامرأة أناة. والى المنح: تابع العطايا. أمام الذهاب: قدّام الموت، يقول: إذا شخت وأيتت الموت، فاضرب باب التوبة، فإنه يُفْتَح لك إذ كلّ كريم بابُه يفتح.

(٢) اليتيمة ١: ٣٣٤.

(١) اليتيمة ١: ٣٤٢.

(٣) اليتيمة: «الهذير».

ابن عباس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْمَصْلَى يَقْرَعُ بَابَ الْمَلِكِ،
حِوَانَهُ مَنْ يَدَاوِمُ قَرَعَ الْبَابَ يَوْشَكَ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ»، وَاللَّهُ تَعَالَى أَكْرَمَ الْكَرَمَاءِ،
جَوَابُهُ بَابُ التَّوْبَةِ. وَقَالَ الْأَلْبِيرِيُّ:

فَلَا زِمَ قَرَعَ بَابَ التَّوْبِ دَأْبًا فَإِنْ لَزِمَهُ سَبَبُ الدَّخُولِ^(١)

فَقُلْتُ لَهُ: بَخْرٍ بَخْرٍ لِرِوَايَتِكَ، وَأُفٍّ وَتَفٍّ لِنَوَايِتِكَ،
فَبِاللَّهِ مِنْ أَى الْأَغْيَاصِ عَيْصُكَ، فَقَدْ أَفْضَلَنِي عَوِيصُكَ؟ فَقَالَ:
مَا أَحَبُّ أَنْ أَفْصِحَ عَنِّي، وَلَسَكِنْ سَأَكُنِّي..

أَنَا أَطْرُوفَةُ الزَّمَانِ وَأَعْجُوبَةُ الْأُمَمِ
وَأَنَا الْحَوْلُ الَّذِي اخْتَالَ فِي الْعُرْبِ وَالْعَجَمِ
غَيْرَ أَنِّي ابْنُ حَاجَةٍ هَاضِمَةُ الدَّهْرِ فَاهْتَضَمَ
وَأَبُو صَبِيحَةٍ بَدَوَا مِثْلَ لَحْمٍ عَلَى وَضْمٍ
وَأَخُو الْعَيْلَةِ الْمُغِيلِ إِذَا احْتَالَ لَمْ يُيْلَمِ

قوله: «بَخْرٍ بَخْرٍ»، أى عجب عجب وتثقل وتخفف، وهى كلمة تقال
عند الإعجاب بالشئ.

أَفٍّ وَتَفٍّ، الْأَصْمَى: الْأَفَّ وَسَخَ الْأَذَانِ، وَالتَّفُّ: وَسَخُ الْأُظْفَارِ،
ثُمَّ اسْتَعْمَلَ ذَلِكَ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ يُضْجَرُ مِنْهُ.

وقال غيره : الأَفّ : القلّة ، مأخوذ من الأفّ وهو القلّة ثم نُسِقَ الثّف عليه ، ومعناه كعناه ، ويقال : لمن يُدعَى عليه بالخبيّة : أَفّ وتُفّ لك . وقال ابن الأنبارى : إذا أفردت أَفّ ، ففيها عشرة أوجه : ففتح الفاء ، وكسرها وضمتها على قياس مُدّ ؛ وثلاثتها بالتثنية على قياس وئيل ، فنصبه على الدعاء ، ورفعها بالابتداء ، وخفضه على التشبيه بالأصوات كمة وصه ، وأفّ كعد ، وأفّى بضم المهمزة منصوب على الدعاء ، وأفّى بإضافته إلى نفسه ، وأفّ بضم المهمزة وسكون الفاء تشبيهاً بالأدوات ، نحو : هل وبل .

غوايتك : ضلالتك . الأعياص : الأصول ، والعيص : بيت الأسد ، يريد : من أى القبائل والبلاد . أعضنى : صعب علىّ . عويصك : صعب أمرك ومشكله . أفصح : أبين . أكنى أوزى ، أى أدلّ على نفسى بكلام خفى . أطروفة : غريبة . الحول : الكثير الحيلة . هاضه : كسره . اهتضم : ظلم ونقص . الوضم : خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم . والعيلة : الفقر ، وعال الرجل يعيل عيلة ، إذا افتقر ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ .

وقال الشاعر :

وما بدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيلُ
والمعيل : الكثير العيال ، وقد أعال يعيل .

[مما قيل فى الخضاب]

قوله : «الريب» ، أى لريبة . مسودوجه الشيب ، تبه به على قوله فى أوّل اللقمة : «ميسمه ميسم الشبان» يريد أنه خضّب شبيهه وتشبه بالفتيان ، والخضاب مباح والتدليس مكروه . قال النجى صلى الله عليه وسلم : «غيروا هذا الشيب» .

وكان أبو بكر رضى الله عنه يَخْضِبُ بِالْحِنَّاءِ وَالسَّكَمِ ، وجاء النهى عن الخضاب بالسواد . وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يكون في آخر الزمان قوم يَخْضِبُونَ بهذا السواد كحواصل الحمام ، لا يرمحون رائحة الجنة » .

ومن كلام المولدين : الخِضَابُ تَذَكُّرَةُ الشَّبَابِ .
الخضاب أحد الشبائين .

وقال مالك بن أسماء بن خازجة لجاريه له : قومي اخضبي رأسي ولحيتي ،
فقلت : دعني ، قد عييت مما أرقمك ، فقال :

عَيَّرْتَنِي خَلْقًا أَبْلَيْتُ جِدَّتَهُ وهل رأيتِ جديداً لم يُعْدُ خَلَقًا !

وقال آخر :

أليس عندك شكرٌ لَلَّتِي جَعَلْتَ
ما أبيضَ من قَادِمَاتِ الرُّؤْسِ كَالْحَمَمِ-
وجَدَدْتُ مِنْكَ مَا قَدْ كَانَ أَخْلَقَهُ طولُ الزمانِ وصرفُ الدهرِ والقِدَمِ-

وقال آخر :

وقائلةٌ تقولُ وقد رأيتُني ترَقَّعَ عَارِضَايَ مِنَ الْقَتِيرِ
عليك الخضِبُ علَّكَ أَنْ تُدَايِنِي إلى بيضٍ ترى منهنَّ حُورِ
فقلتُ لها: المشيبُ نذيرٌ عُمُرِي ولستُ مسوداً وجهَ النَّذِيرِ

وقال عبدان الأصبهاني :

في مشيبي شماتةٌ لِإِدَايَني وهو نَاعٍ مِنْهُنَّ لِحْيَاتِي

وبعيب الخضاب قوم وفيه
لا ومن يعلم السرائر مني
إنما رُمْتُ أن يغيَّب عني
هو ناعٍ إلى نفسي ومن ذا
لي أنسي إلى حضور وفاتي
ما تطلبتُ خلة الغانيات
ما ترينيه كل يوم مراتي
سرّه أن يرى وجوه النعاة !

وقال آخر :

بكرت تحسّن لي -وَادَ خِضَابِي
وإذا أديم الوجّه أخلفه البلى
ماذا الذي يبدى عليك خضابه
لو كان ذاك يعيدني لشبابي
لم يُنتفع فيه بحسن خضاب
وخلاف ما يرضيك في الأثواب !

وقال ابن عبدربه :

إذا فصل الخضاب بكى عليه
كان حمامةً بيضاء ظلت
ويفرح كلما وصل الخضاباً
تقاتل في مفارقة غراباً

وقال ابن الرومي :

يأتيها الرجل السود شعره
أقصر فلو سودت كل حمامة
كها يعدّ به من الشبان
بيضاء ماعدت من الغريبان

وأملح منه قول الآخر :

قالت خضبت الشيب ثم أتيتنا
فأجبتها لم أخضب لك إنما
تبغى لدينا بالخضاب وداداً
شئبي صبغت على الشباب حداداً

وما أحسن ما قال ابن هانيء الأندلسي :

بنتم فلولا أن أغير لمتي
عبثاً وألقاكم على غضاباً^(١)

لَخَضِبْتُ شَيْبًا فِي مَفَارِقِ لَيْتِي ^(١) وَمَحَوْتُ مَحْوَ النَّفْسِ مِنْهُ كِتَابًا ^(٢)
 وَخَضِبْتُ مُبْيِضَ ^(٣) الْخَدَّادِ عَلَيْكُمْ لَوْ أَنَّي أَجِدُ الْبَيَاضَ خِضَابًا
 وَإِذَا أُرِدْتَ عَلَى الْمَشِيبِ وَفَادَةً فَاجْعَلْ مَطْيِكَ دُونَهُ الْأَحْقَابَا
 فَلَتَأْخُذَنَّ مِنَ الزَّمَانِ حَمَامَةً وَلَتَذْفَعَنَّ إِلَى الزَّمَانِ غُرَابَا

قال الراوي : فَعَرَفْتُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ أَبُو زَيْدٌ ذُو الرِّيبِ وَالْغَيْبِ ،
 وَمُسَوِّدَ وَجْهِ الشَّيْبِ ، وَسَاءَ نِي عُظْمُ تَمَرُّدِهِ ، وَقُبْحُ تَوَرُّدِهِ ، فَقُلْتُ
 لَهُ بَلِيسَانَ الْأَنْفَةِ ، وَإِذْلالِ الْمَعْرِفَةِ : أَلَمْ يَأْنِ لَكَ يَا شَيْخَنَا أَنْ تُقْلِعَ
 عَنِ الْخَلْأِ ! فَتَضَجَّرَ وَزَمَجَرَ ، وَتَنَكَّرَ وَفَسَكَّرَ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّهَا لَيْلَةٌ
 مِرَاحٍ لَا تَلَاحِ ، وَنَهْزَةٌ شُرْبٍ زَاحٍ لَا كِفَاحٍ . فَعَدَّ عَمَّا بَدَأَ ،
 إِلَى أَنْ تَتَلَقَّى غَدَا ، فَقَارَقَتْهُ فَرَقًا مِنْ عَرَبْدَتِهِ ، لَا تَعْلَقُا بَعْدَتِهِ ،
 وَبِتُ لَيْلَتِي لَا بِسَاحِدَادِ النَّدَمِ ، عَلَى ثَقَلِي خُطَا الْقَدَمِ ، إِلَى ابْنَةِ
 الْكَرَمِ لَا الْكَرَمِ ، وَعَاهَدْتَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَلَّا أُخْضَرَ بَعْدَهَا
 حَانَةٌ تَبَازٍ ، وَلَوْ أُعْطِيتُ مُلْكُ بَغْدَادٍ ، وَأَلَّا أُشْهَدَ مَعْصَرَةَ الشَّرَابِ ،
 وَلَوْ رُدَّتْ عَلَيَّ عَصْرُ الشَّبَابِ .

ثُمَّ إِنَّا رَحَلْنَا الْعَيْسَ ، وَقَتَ التَّغْلِيْسِ ، وَخَلَلْنَا بَيْنَ
 الشَّيْخَيْنِ وَإِبْلِيسَ .

(٢) الديوان : « شَبَابَا » .

(١) الديوان : « فِي عَذَارَى كَاهِبَا »

(٣) الديوان : « مُسَوِّدَ » .

قوله : « تمرد » ، تشيطنه ، وتمرد إذا كثر شره ، والمريد : الخبيث الذي لا يطاق مكره تورده : إنيانه بما لا يحل ، وأصل التورّد قصد الماء الأنفة : الغضب .
 بأن : يحين ويقرب . الخنا : الفساد . تضجّر . اشتد غضبه . زجر : تكلم بما لا يفهم . تنكّر : تغيّر على ، ونكّر نفسه كأنه لا يعرفني . مراح : طرب ونشاط . تلاح : مشاقمة . نهزة : فرصة وغنيمة . كفاح : قتال . فعدّ : اصرف وارك . فرقا : فرعا . عز بدته : شره وشغبه . الحداد : ثياب الحزن . الخطأ : جمع خطوة ، وهي ما بين القدمين . نباذ : خمار . عصر : زمان . رحّلنا العيس : جعلنا على الإبل رحالها . التفليس : الخروج في العّاس ، وهي الظلمة التي بين طلوع الفجر والشمس .

وأظن أنه بنى هذه المقامة على حكاية لأبي دلّامة ، حكى الأصمّهاني^(١) أن موسى بن داود الهاشمي^(٢) عزم على الحج ، فقال لأبي دلّامة : اخجّج معي ولك عشرة آلاف درهم ، فقال : هاتها ، فدفعها إليه ، فأخذها وهرب إلى السواد ، وجعل ينفقها هنالك في شرب الخمر ، فطلبه موسى فلم يقدر عليه ، وخشى فوت الحج ، وخرج . فلما شارف القادسية إذا هو بأبي دلّامة خارج من قرية إلى أخرى وهو سكران ، فأمر بأخذه وتقييده ، وطرح في محل بين يديه ، فلما سار غير بعيد أقبل على موسى ونادى :

يا أيّها الناس قولوا أجمعون معاً :	صلى الإله على موسى بن داود
كأنّ ديباجتي خديّه من ذهب	إذا بدا لك في أثوابه الشّود
إني أعوذ بداوّد وأعظمه	من أن أكلف حجّاً يابن داود
خبرت أن طريق الحج معطشة	من الشّراب وما شربني بتصرّيد ^(٣)
والله ما في من أجرٍ فطلبه	ولا الثناء على ديني بمحمود

(١) الأدهاني ١٠ : ٢٤٦ .

(٢) هو ابن عم أبي العباس السفاح ، وكان والياً على المدينة .

(٣) صرد شربه : قطعه .

فقال موسى : ألقوه عن الحمل ، لعنه الله ، فألقى وعاد إلى موضعه بالسَّواد
حتى أنفق المال .
وقال آخر :

ألم ترني وبشاراً حَجَجْنَا وكان الحج من خير التَّجَارَةِ
خرجنا طالبين سفرٍ بعيدٍ فمال بنا الطريق إلى زُرَّارَةِ
فآب الناس قد حجَّجوا وبرُّوا وأبنا موقرين من الخسارَةِ
وقال أبو نواس في الحج :

وقائل : هل تريد الحج قلت له : نعم ، إذا فَنَيْتَ لَدَاتُ بَغْدَاذِ
وكيف بالحج لي مادمت مُنْفَهِسًا في يَدِ قَوَادَةِ أَوْ بَيْتِ نَبَاذِ
قوله : « وخلينا بين الشيخين أبي زيد وإبليس » من قول الحسن :
بُتْ وإبليس إلى الصبح في كلِّ الذي يؤثمني خَصْمِي
وانظر هذا في الثامنة والأربعين ، والله أعلم .

المقامة الثالثة عشرة وتعرف بالبغدادية

حدّث الحارث بن همام ، قال : ندوت بضواحي الزوراء ،
مع مشيخة من الشعراء ، لا يعلّق لهم مبارٍ بغير ، ولا يجرى معهم
مبارٍ في مضمار ، فأفضنا في حديث يفضح الأزهار ، إلى أن نصفنا
النهار . فلما غاض دُرّ الأفكار ، وصبت النفوس إلى الأوكار ،
لمخنا عجوزاً تُقبل من البعد ، وتحضر إحضار الجرد ،
وقد استتلت صبية أنحف من المغازل ، وأضعف من
الجوازل ، فما كذّبت إذ رأتنا ، أن عرّتنا ، حتّى إذا
ما حضرتنا قالت :

* * *

ندوت ، أى خرجت ، ويقال: ندت الإبل تند وإذا خرجت من المشرب.
ترعى فيما قرب منه ، وهو الذى قصد ، لأنه أراد أنه خرج مع أصحابه خارج
البلد يستريحون ثم يرجعون . والضواحي : المواضع البارزة للشمس .

* * *

[الزوراء]

والزوراء ، هى فى الجانب الشرقى من بغداد ، وسميت زوراء لازورار قبلها ،
أى لانحرافها . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : « تكون مدينة بين الفرات ودجلة يكون فيها ملك

بني العباس ، وهى الزوراء يكون فيها حرب مُفِظَةٌ تُسَبَّى فيها النساء ، وتُذَبِّح فيها الرجال كما يُذبح الغنم .

والزوراء هى بغداد ، ويقال لها الزوراء ، ومدينة السلام ، ومدينة المنصور ، وبغداد وبغداد وبغدان وبغدان وبغدام وبغدام وبغداد - عن الفراء .

وبعضهم يقول : تفسيره بستان رجل ، فَبَغْ بستان ، ودَاد رجل . وقيل : بَغْ صنم ، وداد عطية وإنما اختلفت العرب فى لفظها إذ لم تكن من كلامها ، ولا اشتقاق لها من لغتها ، وأشهر لغاتها بغداد ، بدالين وبغدان ، بالنون . وكان الأصمعى رحمه الله لا يقول ببغداد ، وإنما يقول مدينة السلام ، لأنَّ بَغْ عندهم اسم صنم ، وداد عطية بالفارسية فكأنها عطية الصم . وبناها المنصور ، وبمَث رجالا يطلبون له موضعاً يَبْنِي فيه مدينة ، فطلبوا فلم يجدوا ، حتى جاء ينزل فنزل على البرِّ الذى فى الصَّراة ، فقال : هذا موضع أَرْضاه ، تأتيه الميرة من الفُرات ودِجْلَة والصَّراة ، فوجَّه حينئذ الصَّنَاع من الشَّام والمَوْصِل والكوفة وواسط والبصرة ، فابتدئت سنة خمس وأربعين ومائة .

وقال محمد بن أبى سهل : لما أراد المنصور بناء بغداد ، أمرنى أن آخذ الطالع ، فأخذنا طالعها ، فكان المشتري ، فأخبرته بما تدلُّ عليه النجوم من طول بناؤها وكثرة عمارتها ، ثم قلت : وخَلَّةٌ أخرى يا أمير المؤمنين ، نجدها على ما تدلُّ عليه النجوم ... لا يموت فيها خليفة ، فرأيته يتبسَّم ، وقال : الحمد لله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقيل لرجل : كيف رأيت بغداد ؟ فقال : الأرض كلها بادية وبغداد حاضرتها .

ابن جبير^(١) : بغداد هى المدينة العتيقة ، ولم تزل حَضْرَة الخلافة العباسية

(١) رحلة ابن جبير ١١٦ ، مم تصرف واختصار .

وقد ذهب رسمها^(١) ووسمها ، وهى بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء
 الحوادث عليها ، والتفات أعين النواصب إليها كالطلل الدارس ، والأثر الطامس ،
 أو تمثال^(٢) الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ، ويستدنى من
 المستوفز الغفلة والنظر ، لإدراجها التى بين الشرقىة والغربىة منها كالمرآة الجلوّة
 بين صفحتين ، أو العقد^(٣) المنتظم بلبتين ، فهى تردها فلا تظلم ، وتطلع [منها]^(٤)
 فى مرآة صقيلة فلا تصدأ . والهواء المنتظم يتولد بين هوائها ومائها ، فهى معروفة
 بفتن الهوى ، إلا أن يفهم الله منها . وكنتا سمعنا أن هواء بغداد يُنبِت
 السرور فى النفس ، ويبعث دائماً على الانبساط والأنس ، فلا تسكاد تجد فيها
 إلا جذلان طرباً ، وإن كان نازح الدار مغترباً ، حتى حلت بقربة وزيران ،
 وهى على مرحلة منها ، فلما فتحنا نوافح هوائها ، وقعنا الغلة ببرد مائها ، أحسنا
 من أنفسنا على حال وحشة الانفراد دواعى من الإطراب ، واستدعنا بواعث
 فرح كأنه فرحة الغائب بالإياب ، وهفت بنا محركات من الأنس ذكرتنا معاودة
 الأحباب فى عصر الشباب ، هذا للغريب النازح الوطن ، فكيف الوافد فيها
 على أهل وسكن !

سَنَى اللهُ بَابَ الطَّاقِ صَوْبَ غَمَامَةٍ وَرَدَّ إِلَى الْأَوْطَانِ كُلَّ غَرِيبٍ

وبغداد جانبان : شرقى وغربى ودجلة بينهما . فأما الجانب الغربى فقد عمه
 الخراب ، واستولى عليه ، وهو كان المعمور أولاً ، ولكنه مع خرابه يحتوى
 على سبع عشرة محلة ، كل واحدة منها مدينة مستقلة ، لها الحمايمان والثلاثة ، وصلاة

(١) ابن جبير « ولم يبق إلا شهير رسمها » .

(٢) ط : « المثال » وما أثبتته من ابن جبير .

(٣) ط : « والعقد » وما أثبتته من ابن جبير .

(٤) من ابن جبير .

الجمعة في ثمان منها ، وأكبرها القرية ، وهي على شطّ دجلة ومقربة من الجسر ، ثم الكرخ ، وهي مدينة مشهورة ، ثم محلة باب البصرة ، وهي مدينة بها جامع المنصور ، وهو كبير عتيق البنيان ، ثم الشارع وهي مدينة ، وهذه الأربع أكبر المحلات ، والوسيلة بين دجلة وبين نهر يتفرّع من الفرات ، وينصب في دجلة ، يجرى فيها جميع المداين التي يسبقها الفرات . وعلى بابها نهر آخر منه ينصب في دجلة .

ومنها العتائية ، وهي مدينة يصنع فيها الثياب العتائية ، وهي حرير وقطن مختلفات الألوان ، وأسماء سائر المحلات يطول ذكرها ، وأمّا الشرقية فهي محدثة وهي حافلة الأسوار ، عظيمة الترتيب ، تشمل من الخلق على بشر كثير لا يحصيهم ، إلا الذي أحصى كل شيء عددا . وبالشرقية محلة الرصافة ، وبها كان باب الطاق المشهور على الشطّ ، وبازائها محلة كبيرة تعرف بقبر أبي حنيفة رحمه الله ، فيها قبة سامية في الهواء بيضاء ، فيها قبر الإمام أبي حنيفة ، وبالتقرب منها قبر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله .

وحمامات بغداد لا تحصى ، أخبرني بعض أسيائها ، أن فيها اليوم ألفي حمام ، وأكثرها مطلية بالقار ، مسطحة به ، فيجئ للناظر فيها أنهار خام أسود صقيل ، وأكثر حمامات هذه الجهة على هذه الصفة ، لكثرة القار عندهم ، وشأنه عجيب ، لأنه منبّع عين بين البصرة والكوفة ، يصير القار في جوانبها كالصلصال ، فيجرى ويحلب ، وقد انعقد فسبحان خالقه !

وبغداد من المدارس نحو الثلاثين ، ما منها مدرسة إلا كالقصر العظيم ، وأعظم النظامية . وبساتين بغداد وحدائقها بالقرية ، ومنها تجلب الفواكه للشرقية ، والعادة أبدأ أن يكون بين الشرقية والغربية جسران لجواز الناس ، ومع ذلك فن يعبر بينهما من الناس في الزوارق لا يحصى ، وذلك لكثرة الناس ،

وزوارقها لا تحصى ، والناس ليلاً ونهاراً من معاينة العبور فيها في نزهة متصلة رجالاً ونساء .

وبالجملة فشان هذه البلدة أعظم من أن يُوصف ، وأين هي اليوم مما كانت عليه ! هي اليوم داخلة تحت قول حبيب :

* لَا أَنْتِ أَنْتِ وَلَا الدَّيَارُ دِيَارُ^(١) *

ثم ذكر ابن جبير أهلها فذمهم بكل عيب ؛ من الكبرياء وبيع الربا ، ثم استثنى فقهاءها ووعاظها .

* * *

[وصف الشعراء]

قوله : « مع مشيخه من الشعراء » ، قال الخليل في مدح الشعراء : هم أمراء الكلام بصرفونه أنى شاءوا وجأز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى ، وتقييده ومدّة مقصوره وقصر ممدوده ، والجمع بين لغاته والتفريق بين صفاته .

وسئل غيرهم عنهم ، فقال : ما ظنك بقوم الاقتصاد محمود إلا منهم ، والكذب مذموم إلا بينهم !

وقال آخر : إياكم والشاعر ، فإنه يطلب على الكذب مثوبة ، ويقرع جليسه بأدنى كلمه .

وقال بعض الظرفاء يذمهم :

الكُلبُ والشاعر في رتبةٍ	بالت أنى لم أكن شاعراً !
هل هو إلا باسطٌ كفه	يستمطر الوارد والصادراً
والله لولا حُرقاتُ الهوى	ما كنتُ إلا رجلاً تاجراً

وقال ابن الرومي :

يقولونَ ما لا يفعلونَ مستبّةً من الله مسبوبةٌ بها الشعراء

(١) ديوانه ١٤٤ ، وبقيّة :

* خَفَّ الْهَوَى وَتَوَتَّ الْأَوْطَارُ *

وقال أيضاً :

للناس فيما يكلفون مغارمٌ عند الكرام لها قضاء ذمام-
ومغارم الشعراء في أشعارهم إنفاق أعمارٍ وهجرٌ منام
وجفاء لذاتٍ ، وهجر مكاسبٍ لوخولت حُرست من الإعدام
ونشأغلٌ عن ذكر ربٍّ لم يزل حسن الصنائع ، سابغ الإنعام
قوله : « مبار » ، أى معارض . مضمار : طلق . مبار : مجادل . أفضنا :
اندفعنا . يفضح : يكشف عيوبها . شبه الجماعات في الآداب بالخيال الجباد
في الطلق لا يلحق غبارها مَنْ يجاريها ، وجمل حديثهم بحسن تفننه يفضح
الأزهار متى قرن بها .

* * *

[مجلس للشعراء]

ونجعل تفسيراً لهذا المجلس الموصوف باجتماع الشعراء ماحدث به دِغبل^(١)
أنه اجتمع هو ومسلم بن الوليد وأبو الشَّيْص وأبو نُوَّاس ، وهؤلاء مشيخة شعراء
عصرهم ، فقال لهم أبو نواس : إن مجلسنا هذا قد اشتهر باجتماعنا فيه ، ولهذا اليوم
ما بعده فليأت كل امرئ منكم بأحسن ما قال فلينشده ، فأنشد أبو الشَّيْص :

وَقَفَّ الهوى بي حيث أنتِ فليس لي متأخراً عنه ولا متقدماً
أجدُ اللامة في هواك لذبةً حباً لذكرِكِ فليعلمني اللومُ
أشبهت أعدائي ، فصرت أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنيئني فأهنتُ نفسي صاغراً مامن يهونُ عليكِ ممن بكرمُ

فجعل أبو نواس يفتجب من حسن الشعر ، حتى ما كاد ينقضى عجه .

ثم أنشد مسلم أبياتا منها :

فأقسم أنسى الدّاعيات إلى الصّبا فقد خانتها العين والستر واقع^(١)
فقطت بأيديها ثمارَ نخورِها كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامعُ

قال دعبل : فقال لي أبو نواس : هات أبا عليّ وكأني بك قد جئت بأمّ
القلادة .. لاتعجبى يا سلم ، فأنشدته :

أين الشبابُ وأيّةُ سلكا أم أينَ يُطلبُ؛ ضلّ أم هلكا^(٢)
لاتعجبى يا سلم من رجلٍ ضحك المشيبُ برأسه فبكي
يأليت شمري كيف صبرُكا يا صاحبيّ إذا دمي سُفكا^(٣)
لا تطلبا بظلامتي أحدا قلبي وطرفي في دمي اشتراكا
ثم سأله أن ينشدنا فأنشد :

لاتنبك كيلي ولا تركنْ إلى هندٍ

واشربْ على الورد من حمراء كالورد^(٤)

كأسا إذا انحدرت في حلقِ شاربها وجدتُ مُحرّتها في العين والحدّ
فالخرُّ ياقوتةً ، والكأس لؤلؤة في كفٍّ جاريةٍ ممشوقة القدّ

(١) ديوانه ٢٧٣ ، وفيه : « فأقسمت أنسى » .

(٢) ديوانه : ١١٧

(٣) بعده في الديوان .

يا سلم ما بالشيب منقصة لاسوقة مُبني ولا ملكا
قصر النواية عن هوى قري وجد السبيل إليه مُشتركا
وغدا بأخرى عن تطلُّبها صبّا يُطامن دونها الحسكا

تَسْقِيكَ مِنْ عَيْنِهَا خَرًّا وَمِنْ يَدِهَا
خَرًّا ، فَمَالِكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدِّ
لِي سَكْرَتَانِ وَلِلنَّدَمَانِ وَاحِدَةٌ
شَيْءٌ خُصِصَتْ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَخُدِي

فلما بلغ هذا البيت، قاموا فسجدوا له ، فقال: أفعلتموها ! والله لا أكلّم
ثلاثاً ولا ثلاثاً ولا ثلاثاً ! ثم قال : تسعة في هجر الإخوان كثير ، وفي بعضها
استصلاح للفاسد ، وعقوبة على المفوة . ثم التفت إلينا وقال : أعلمتم أن حكيمًا
عُقب على حكيم ، فكتب المعتوبُ عليه إلى العاتب: يا أخي ، إن أيام العمر أقلُّ
من تحمّل الهجر ، نظمَ ذلك الشاعر فقال :

العمرُ أقصرُ مدَّةً من أن يَحِقَّ بالعتابِ
أو أن يكدرَ ما صفا منه بهجرٍ واجتنابِ

وقال ابن طاهر :

إلى كمّ يكون الصّدُّ في كلِّ ساعةٍ ولمْ لا تملّين القطيعةَ والهجرة ؟
رويدك إنَّ الدهرَ فيهِ بقيةٌ لتفريقِ ذاتِ البينِ فانتظري الدهرَ

وقال آخر :

ولقد علمت فلا تكن متجنِّيًا أن الصدود هو الفراقُ الأوّلُ
حسبُ الأحبة أن يفرّقَ بينهم ريبُ الزمانِ فما لنا نستعجلُ !

وقال القاضى عبد الوهاب :

لا تتمجّل قطيعي فكفى يوماً بهذا الدهرِ بيننا مقطع^(١)

عَمَّا قَرِيبٍ تَجِيءُ فُرْقَتُنَا نَمَّتْ لَا مُلْتَقَى وَلَا جَمْعٌ
وَأَخَذَهُ الْكُلَّ مِنْ جَمِيلٍ: (١)

ولعلَّ أَيْامَ الْحَيَاةِ قَلِيلَةٌ فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَقْبُنَا وَيَطُولُ!

قوله: « نصفنا » ، أى بلفظنا نصفه . غاض : جَفَّ . درَ الأفكار: كلامها ،
والدَّرَ : اللَّابَنَ ، استعارة لما يتولد من الذهن . صَبَتْ : مالت . الأوْكار: البيوت
هنا . لحنا : أبصرنا . تُحْضِرُ : تَجْرِى . الْجُرْدُ : الخليل القصيرة الشعر . استتلت :
جعلتهم تلوها يقبعونها . انْخَفَ : أَقْلَحَا . الجوازل : فراخ الحمام ، واحدها
جَوْزَل . عَزَتْنَا : قصدتنا .

* * *

حَيَّا اللَّهُ الْمَعَارِفَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَارِفٌ ؛ اَعْلَمُوا يَا مَالِ
الْأَمَلِ ، وَثَمَالَ الْأَرَامِلِ ، أَنِّي مِنْ سَرَوَاتِ الْقَبَائِلِ ، وَسَرِيَّاتِ
الْعَقَائِلِ ، لَمْ يَزَلْ أَهْلِي وَبَعْلِي يَحْلُونَ الصَّدْرَ ، وَيَسِيرُونَ الْقَلْبَ ،
وَيُعْطُونَ الظَّهْرَ ، وَيُولُونَ الْيَدَ . فَلَمَّا أَرْدَى الدَّهْرُ الْأَعْضَادَ ، وَفَجَعَ
بِالْجَوَارِحِ الْأَكْبَادَ ، وَانْقَلَبَ ظَهْرًا لِبَطْنِي ، نَبَا النَّاضِرُ ، وَجَفَا
الْحَاجِبُ ، وَذَهَبَتِ الْعَيْنُ ، وَفُقِدَتِ الرَّاحَةُ ، وَصَلَدَ الزَّيْنُدُ ،
وَوَهْنَتِ الْيَمِينُ ، وَضَاعَ الْبَسَارُ ، وَبَانَتْ الْمَرَافِقُ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا
ثَنِيَّةٌ وَلَا نَابٌ ، فَمَدَّ اغْبَرَّ الْعَبَشُ الْأَخْضَرَ ، وَازْوَرَّ الْمَحْبُوبُ

(١) البيت لسعيد بن حميد ، من قصيدة له في زهر الآداب ٥٦٣ ، ٥٦٤ .

الْأَصْفَرُ ؛ وَاسْوَدَّ يَوْمِي الْأَبْيَضُ ، وَابْيَضَ فَوْدِي الْأَسْوَدُ ، حَتَّى
رَمَى لَنَا الْمَدُّهُ الْأَزْرَقُ ، فَحَبَّذَا الْمَوْتُ الْأَثْمَرُ . وَتَلَوِي مَنْ
تَرَوْنَهُ فِيهِ فَرَّارُهُ ، وَتَرَجَّاهُ اضْطِرَّارُهُ ، فَصَنَوِي بُغْيَةَ أَحَدِهِمْ
ثُرْدَةً ، وَقُصَّارِي أُمْنِيَّتِهِ بُرْدَةً . وَكُنْتُ آلَيْتُ إِلَّا أَبْدُلَ الْحُرَّ
إِلَّا لِلْحُرِّ ، وَلَوْ أَنِّي مِتُّ مِنَ الضَّرِّ . وَقَدْ نَاجَتْنِي الْقُرْوَانَةُ ، بَأَن تُوْجَدَ
حِنْدَكُمُ الْمَعُونَةُ ، وَأَذَنْتْنِي فِرَاسَةَ الْخُوبَاءِ ، بِأَنكُمْ يَنَابِيعُ الْحَبَاءِ ،
فَنَضَّرَ اللَّهُ أَمْرًا أَبْرَأَ قَسَمِي ، وَصَدَّقَ تَوَسُّمِي ، وَنَظَرَ إِلَيَّ بِعَيْنٍ يُقْذِيهَا
الْجُودُ ، وَيُقْذِيهَا الْجُودُ .



للمعارف الأول : الوجوه ، واحدها معروف . قال للشاعر :

متلثمين على معارفنا ثلثي لمن حواشي المصعب

وإن لم يكن معارف ، أي وإن كنت لا أعرفهم . مآل : مرجع ، وقد
آل يؤل أولاً ومآلاً ، إذا رجع . والآمل : الراجي . وثمال : غياث وملجأ .
الأرامل : المساكين ، يعقوب : هن جماعة الرجال والنساء ، ويقال لهم : أرامل ، وإن
لم يكن فيهم نساء . ويقال : جاءت أرملة من رجال ونساء محتاجين ، ويقال للرجال
الضعفاء لمحتاجين : أرملة ، وإن لم يكن فيهم نساء . وأرمل القوم : فني زادم ، وواحد
الأرامل أرملة ، وإنما قيل للفاقة زوجها : أرملة ، لأن أمرها يشول إلى
الضيعة والحاجة . سرّوات : سادات ، واحدها سرّاة ، والسري : السيد الكبير

ذو المروءة ، والسرور : المروءة ، وقد سرى سروراً وسروراً : جمع السخا
والفضل ، قال امرؤ القيس :

• وأما عليه سرّاءُ الفضلِ • (١)

وأنشد يعقوب :

إن السرى هو السرى بنفسه وابن السرى إذا سرى أمرهما (٢)

قال ثعلب : السرى فى كلامهم : الرفيع ، مأخوذ من السّرة ، وسرة كل شيء : أعلاه ، وشرىات : سيدات . العقائل : كرائم النساء ، تريد أن أباهن وأمهات من السّادات . البعل : الزوج ، وبعل الرجل بمؤلة : تزوج . الصدر : مقدّم المجلس . القلب : قلب العسكر ، والعسكر خمسة أقسام : مقدّمة ، وساقة ، وميمنة ، وميسرة ، وقلب ، وهو محلّ الملوك ، أرادت أن قرابتها منهم . يُمطون : يهبون . الظّهر : الإبل بأوقارها ، وأمطاء : أعطاه دابة يركب مطاها ، أى ظهرها . يؤلون اليد : يهبون النعمة . أردى : أهلك . الأعضاء : جمع عَصْد وهو غليظ الذراع الذى بين المرفق والمنكب . فجع : أحزن ، وجاء بفجعة ، وهى الرزية يفتجع عليها الجوارح : عوامل الجسد كاليد والرجل والعين ، تريد أن الدهر إذا أهلك أهلها فكانه قطع جوارحها فتعطلت منفعتها . انقلب : تحوّل . ظهر البطن : كناية عن الخلاف ، أى بعد أن كان مستقيماً انقلب . نبا : ارتفع ولم يستقر . الناظر : مَنْ ينظر عليها . الحاجب : من يحجبها ويسترها . والعين : الذهب . الراحة : الدّعة والسكون . صلّد : لم يورنارا ، وأرادت انقطاع الخير عنها . وهنت : استرخت . اليمين : القوّة . بانت : ذهبت وبُعدت . المرافق :

(١) ديوانه : ٢٢٨ ، صدره :

• فلها مقلدوها ومقلتها •

(٢) السان - سرى .

مَنْ كَانَ يَرْتَقِ بِحَيَاتِهِ وَمَنْعَمَتِهِ ، وَالْمَرَاتِقِ : كُلِّ مَا ارْتَقَتْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَغَيْرِهِ .
ثَلَاثَةٌ : صَغِيرَةٌ مِنَ الْإِبِلِ . وَنَابٌ : مَسْنَةٌ .

وهذا الكلام كله استعارة كما تقدم في الإبرة والمرود ، لكنه كنى هنا
بالجوارح والأعضاء عمن كان يستعين به من القرابة على الدهر ، ومعاني
الأعضاء بيّنة إلا الراحة ، فإنها بطن الكف : والزند : طرف عظم الساعد ، والثنية
والناب صريحتان ، ونبا الناظر : لم ينم ، وجفا الحاجب : لم يرسل الجفن على
العين فتنام ، كما قال بشار :

نَدَيْتُ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيزِ حَتَّى كُنَّ جَفُونُهَا عَنْهَا قِصَارًا^(١)

وقال التّهامي :

قَصُرَتْ جَفُونِي أَمْ تَبَاعَدَ بَيْنَهَا أَمْ صَوَّرَتْ عَيْنِي بِلَا أَشْفَارٍ^(٢)
قوله : « أَغْبَرَتْ » ، أى علته غُبْرَةٌ . والأخضر : الناعم . أزور : أقبض .
الأصفر ، هو الدينار . الفؤد : ناحية الرأس بين الأذن والجبهة ، وهذا من
قول أعرابي ذكر مصيبته فقال : مصيبة والله تركت سود الرؤوس بيضاء ، وبيض
الوجوه سوداً ، وهونت المصائب بعدها .

وقال عبد الله بن الزبير الأسدي :

رَمَى الْخَدَّانِ نَسْوَةَ آلِ حَرْبٍ بِمَقْدَارِ سَمْدَنْ لَهُ سُمُودًا
فَرَدَّ شَعُوزَهُنَّ السُّودَ بِيضًا وَرَدَّ وَجُوهَهُنَّ الْبَيْضَ سَوْدًا

وقال التّهامي :

تَسُودُ الشَّمْسُ مِنَّا بَيْضًا أَوْجِهَنَا وَلَا تَسُودُ بَيْضَ الْعَذْرِ وَاللَّحْمِ

وكانَ حالمًا في الحكمِ واحِدَةً لو احتكما من الدنيا إلى حَكَمِـ
قوله : « رثي » بكى وأشفق . العدوُّ الأزرق : أراد الروم وهم أعداءُ
العرب . والموت الأحمر : الشديد ، ومنه الحُسْنُ أحمر ، أي مَنْ أَحَبَّ الحُسْنَ
احتمل للشقة . وفي الحديث : كنّا إذا احمرَّ البأس اتقينا برسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فلم يكن أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه ، فعمناه اشتدَّ ، وقيل : معنى
الموت الأحمر : القتل ، وقد قال الأخطل :

* أن قد أتيج لمنَّ موتٌ أحمرُّ * (١)

يريد قتل الثور الكلاب ، وتقدّم في المقامة قبل هذه ، فلنا فيه من الدم
مُتَمِّ أحمر ، وهو الأظهر من مقصد الحريري ، لأنه علّق غيره من الصفات
باللون مثل العدوُّ الأزرق ، والروم زرق العيون ، فكذلك الموت الأحمر .

أبو عبيدة : الموت الأحمر أن يتغيّر بَصَرُ الرجل من الهول ، فيرى الدنيا
في عينيه حمراء ورداء ، والموت الأغبر : هو الموت جوعاً ، لأنه يغيّر في عينيه كلَّ
شئ ، والموت الأسود هو الموت في غُتّة الماء ، والموت الأبيض هو موت العافية ،
قال الخطابي : الموت الأبيض ، أي فجأة ، لأنه يأخذ الإنسان ببياض لونه .
قوله : « تَلَوِي » ، أي خَلَنِي وإلى جانبي . عينه : شخصه . مُرَّارُهُ : معرفته ،
أي شخصه يعرفكم بحاله ، والعرب تقول : عينه مُرَّارُهُ للشئ تعرفه إذا أبصرته ،
والفرّ في البهائم . كشف أسنانها حتى يعرف ما لها من السنّ . ووقع في المقامات
مُرَّارُهُ بضم الفاء ، وكذا في نواذر أبي عليّ ، ووقع في النسخ العِتاق من الأمثال
لأبي عبيد : مُرَّارُهُ ، بكسر الفاء ، وأنشد أبو علي :

* هو الحبيب عينه مُرَّارُهُ *

(١) ديوانه ٢٣١ ، وصدره :

* أضيماً وهزّ لَهْنٌ رُحْمِي رأسه *

وفسره قال : نظرك إليه يُغنيك عن قومه لتجبره ، وهما لفتان : فراره وفراره .

قوله : « ترجمانه » المتكلم عنه ، يريد أن صفة لونه تخبرك أنه جائع .
 قصوى : غاية . بُغية : طلب . وقصارى أمنيته ، أى منتهى ما يتمناه وغايته .
 بُردة : ثوب ، أى أقصى ما يُطلب ما يأكل وغاية ما يمتنى ما يلبس . آليت :
 حلفت . أبذل الحر : أهين الخلد ، الحر : الكثير المروءة : ناجتني : حدثتني .
 القرونة : النفس . المونة : ما يستعان به ، آذنتني : أعلمتني . فِراسة الحوباء :
 فطنة النفس . الينابيع : جمع ينبوع ، وهو ما يخرج من الماء وينبع . الحباء :
 العطاء . أبر . راعى وأكرم . توشى : نظرى وظنى . يُقذيها : يحمل فيها
 القذى ، والجود : الشح .

وقال بعضهم في ذم التشكى إلى الخلق :

لأشتكى ضُرِّي إلى النّاس س وهم من أعلم
 إن إلهاً مسراً بالضرّ جواذ منعم
 أشكو الذى برحمتى إلى الذى لا يرحم

الكستجى ، قال : أملتُ حتى لم يبق في منزلى إلا جارية ، فدخلت دار
 المتوكل ، فلم أزل متفكراً ، فحضرني بيتان ، فأخذت قصبةً ، وكتبت على
 الحائط الذى كنت إلى جانبه :

الرّزقُ مقسومٌ فأجِلٌ فى الطّلبِ يأتى بأسبابٍ ومن غير سببٍ
 فاسترزقِ الله فى الله غنى الله خير لك من أبٍ حدبٍ

فركب المتوكل في ذلك اليوم ، وجعل يطوف على الحجر ، ومعه الفتح
 ابن خاقان ، حتى وقف على البيتين ، وقال : مَنْ كتب هذا ؟ وقرأها الفتح له ،

فاستحسهما ، وقال : مَنْ كان في هذه الحجرة ؟ فقيل : الكستجى ، فقال :
أغفلنا وأسأنا إليه ، فأمر لي بيدرتين .

وقال محمد بن مخلد الكاتب : لزمْتُ أبا الحسن عليّ بن محمد بن الفرات .
أعدو وأروح إلى بابه ، لا أحظى بطائل ، ولا أصل إلى تصريح ولا نائل ،
حتى كرهت نفسي ، فرأيت هاتفاً في المنام يقولُ لي :

بأيها المكثّر في المطالبِ : اهجرْ تصاريفَ أُمّي الكواذِبِ
إذا أتى وقت القضاءِ الغالبِ بادرِ الحاجة كف الطالبِ
فتركت المسير إليه ، فلم يمض لي أسبوع حتى تقلّد حامد بن العباس الوزارة ،
فقلّدني كتابته ، فتابت حالي .

* * *

قال الحارثُ بن همام : فهِمْنَا لِبِرَاعَةِ عِبَارَتِهَا ، وَمُلِحْ اسْتِعَارَتِهَا ،
وَقُلْنَا لَهَا : قَدْ فَتَنَ كَلَامُكَ ، فَكَيْفَ إِحْلَامُكَ ! فقالت : أَفَجَرُ الصَّخْرِ ،
ولا فخر ، فقلنا : إِنْ جَعَلْتَنَا مِنْ رُؤَاكِ ، لم نبخل بمواساتك ،
فقالت : لَأَرِيَنَّكُمْ أَوَّلًا شِعَارِي ، ثُمَّ لَأَرُوِيَنَّكُمْ أَشْعَارِي .
فأبرزت رُذْنَ دِرْعِ دَرِيْسٍ ، وَبَرَزَتْ بِرْزَةَ عَجُوزٍ دَرْدَيسٍ ،
وَأَنشَدَتْ تقول :

أشكو إلى الله اشتكاء المريض ريبَ الزّمان المتعدّي البغيض
يا قوم إني من أناس غنوا دَهْرًا وَجَفَنُ الدَّهْرِ عَنْهُمْ غَضِيضُ
فخارهم ليس له دافع وصيُتهم بين الورى مُستفيضُ

كانوا إذا ما نجمةً أُعَوِّزَتْ في السَّنةِ الشَّهْبَاءِ رَوْضًا أَرِيضُ
تُشَبُّ للَسَّارِينَ نِيرَانُهُمْ وَيُطْعَمُونَ الضَّيْفَ لِحَا غَرِيضُ
مَا بَاتَ جَارٌ لَهُمْ سَاغِبًا وَلَا لِرَوْعٍ قَالَ: حال الجريضُ

قوله «هنا»، أى تحيّرنا . البراعة : الفصاحة . عبارتها : سياق كلامها .
مُلَحَّ استعارتها ، يريد ما استعارته من تسمية الأشخاص بأسماء الأعضاء . إلحامك :
نسجك الشعر . يفجّر الصَّخْرَ ، أى يُخرج من الحجر الماء ، ومن البخيل العطاء .
مواساتك : صلتك ، وأصلها أن تجعل صاحبك أسوة نفسك . شعارى : ثوبى
اللاصق بجسمى ، سُمِّيَ شعاراً لأنه يلى شعر الجسد ، والظَّهَار : الثوب الذى يظهر
للميئون ، والدُّنَّار : الثوب الذى بينهما . رُذُن : كم . درع : قميص . دريس . خلق
برزت : ظهرت . دَرْدَيس : داهية . ريب : جور . غَنُوا : أقاموا . غَضِيض :
منكسر . صِيَتَهُمْ : ذكركم الحسن ، وهو من الصوت ، فلما كسرت الصاد أُصِيرَ
على وزن الذَّكَرِ ومعناه ، وانقلبت واوه ياء . مستفيض : متحدث به مشهور .
نُجْعة : مرعى . أعوزت : فقدت . الشَّهْبَاء : التى أجذبت فلامطر فيها ، ولا
عُشْب . والرَّوْض : الموضع الكثير العشب . أريض : متسع . تشب : توقد .
للسارين : للماشين بالليل : غريض : طرى . ساغبا : جائعا . الرَّوْع : الفرع .
الجريض : الفصّ بالريق عند الموت . حال : منع ، أى لا يقول جارهم حال الموت
دون الأمن .

[أصل المثل : حال الجريض دون القريض]

ووفد عبيد بن الأبرص على الزمان الأكبر ، وهو ابن الشقيقة وبانى

اغلورنق ، فامتدحه فوصله وأكرمه ، وكان له يوم نعيم ويوم يؤس في السنة ،
فورد عليه في يوم يؤسه ، فقال له : ما أخرجك ، ثكلتك أمك ! فقال : حضور
أجلى ، وانقطاع أملى ؛ وكان مَنْ لقيته يوم يؤسه لم يخلصه من الموت شيء .
فاستنشد :

• أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ • ^(١)

فقال له : حال الجربض دون القريض ، فعزم عليه أن ينشد ، فأنشده :
أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ عَيْبِدُ فَاَلْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ
ثم قال له : اختر ، إن شئت أخرجت نفسك من الأكل ، وإن شئت من
الأجل ، وإن شئت من الوريد ، فقال عبيد :
خَيْرَتْنِي بَيْنَ سَحَابَاتٍ عَادَ فَرِدْتُ مِنْ يَوْسِكِ شَرَّ الرَادِ
وكان قتل النعمان لعبيد سبب قطعه يوم يؤسه ، فلم يفعله بعد ^(٢) .

• • •

فَقِيضَتْ مِنْهُمْ صُرُوفُ الرَّدَى بِحَارَ جُودٍ لَمْ نَحْلُهَا تَفِيضُ
وَأَوْدَعَتْ مِنْهُمْ بَطُونُ الثَّرَى أَسَدَ التَّحَايِ وَأَسَاةَ الْمَرِيضِ
فَحَمَلَى بَعْدَ الْمَطَايَا الْمَطَا وَمَوْطَنِي بَعْدَ الْبَقَاعِ الْحُضِيِّضِ
وَأَفْرَخَى مَا تَأْتَلَى تَشْتَسْكِي يَوْسَالَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَمِيضِ

(١) ديوانه : ١٠ وبقية :

• فَالْعَطَبَاتُ فَالذُّنُوبُ •

(٢) ديوانه ٤٥ ، وبعده هناك :

حَفَّتْ لَهُ مَنِيَّةٌ نَكَدُ وَحَانَ مِنْهَا لَهُ وَرُودُ

إذا دَعَا القَانَتْ في لَيْلِهِ مولاه نادَوْه بدمعٍ يفيضُ
 يَارَازِقَ النَّعَابِ في عَشْرِهِ وجَاوَزَ العَظْمَ الكَسِيرَ المِهْيَاضُ
 أَتَيْحَ لَنَا اللّهُمَّ مَنْ عَرَضُهُ مِنْ دَنَسِ الدَّمِ نَقِيٌّ رَحِيضُ
 يَظْفِي نَارَ الجُوعِ عَنَّا وَلَوْ بِمَذْقَةٍ مِنْ حَازِرٍ أَوْ نَخِيضُ
 فَهَلْ فَتَى يَكشِفُ مَا نَابَهُمْ وَيَعْنُمُ الشُّكْرَ الطَوِيلَ المَرِيضُ
 فَوَالَّذِي تَعْنُو النَوَاصِي لَهُ يَوْمَ وَجُوهُ الْجَمْعِ سَوْدٌ وَيَبِضُ
 لَوْلَاهُمْ لَمْ تَبْدُ لِي صَفْحَةٌ وَلَا تَصْدَيْتُ لِنَظْمِ القَرِيضُ

* * *

قوله : « غَيِضَتْ » ، أى أذهبت . والصروف : الطوارى تَصْرِفُكَ مِنْ
 حَالٍ إِلَى حَالٍ . لَمْ أَخْلَعْ : لَمْ أَحْسِبْهَا . أَوْدَعَتْ : ضَمَّت . الذرى : التراب .
 التَّحَامَى : الحماية والمَنعة ، ومحاميته : تباعدت منه وتمنعت عليه . أساة : أطباء ؛
 المطايا : الإبل . المطا : الظهر . تحملى : ما أحمل عليه أثقالى . تقول : صرتُ
 أحملُ على ظهري بعد أن كان محملى ظهور الإبل . اليفاع : الارتفاع من الأرض .
 الحضيض : أسفل الجبل . ما تأتلى : تقصّر . بؤساً : ضرّاً . وميض : لمعان .
 القانت : للعابد ، والقنوت . طول القيام : يفيض : يملأ العين حتى تفيض بالدمع .
 النعاب : فرخ الغراب ، اختصه من الطير لأنهم يزعمون أنه يخرج من بيضته
 أبيض الزغب ، فبواه الذَّكَرُ فيستريب فيضرب أثناءه ، وينقرها حتى تفرطاًرة
 فيطير خلفها ويتركه ، فيقيض الله له ذباباً يطيرُ حول عينيه ، فيفتح منقاره
 ليشردّها ، فتدخل في حلقه ، فيتغذى بها حتى يسود ريشه ، فحينئذ يرجع إليها
 أبواه ، فيكتمان تربيته . ويارازق النعاب ، من دعاء داود عليه السلام . المهيض :

الذى انكسر بعد الجبر . أُنخ : قدر . رحيض : مفسول . مذقة : جُرعة . حازر . لبن حامض شديد الحموضة . والحبيض : اللبن يُمزج بالماء ، ويمحرك ، والمخض التحريك ليخرج زبدته ، وإذا طال مكث الحبيض واشتدت حموضته سمي حازراً . ناهم : نزل بهم . العريض : الواسع العرض . تعنو : تذلل . النواصي : شعر مقدم الرأس . صفحة : ناحية العنق . تصديت : تعرضت . التريض : الشعر .

* * *

قال الراوى : فوالله لقد صدقت بأبياتها أعشار القلوب ، واستخرجت خبايا الجيوب ، حتى ما حبا من دينه الامتياع ، وارتاح لرفدها من لم نخله يرتاح . فلما افعو عم جيها تبرأ ، وأولاهها كل منابرنا ، تولت يتلوها الأصاغر ، وفوها بالشكر فاغر ، فاشرابت الجماعة بعد ممرها ، إلى سبرها ، ليتلووا مواقع برها . فكفلت لهم باستنباط السر المرموز ، ونهضت أفقوا أثر العجوز ، حتى انتهت إلى سوق مغتصة بالأنام ، مختصة بالزحام ، فانغمست في الغمار ، واملست من الصبية الأغمار ، ثم عاجت بخلو بال ، إلى مسجد خال ، فأماطت الجلباب ، ونفضت النقاب ، وأنا ألمحها من خصاص الباب ، وأرقب ما استبدى من العجاب .

* * *

قوله : « صدعت » : شقت : أعشار : قطع : خبايا : ما خبيء فيها من الدراهم .
 ماحها : أعطها . دينه : عادته . الامتياح : طلب المعروف ، يريد مشيخة الشعراء
 الذين قد مرّ ذكرهم ، وعيش الشعراء إنما هو من الاستجداء والطلب ، ومعلوم
 أنه من كانت عادته أن يأخذ لا يعطى في الغالب شيئاً ، ولذلك قال : من لم نخله
 يرتاح ، أى من لم نحسب أنه يهتزّ للمطاء ، وقد ارتاح ، إذا اهتزّ للكرم
 وللمطاء ولذلك قال حبيب :

لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ أَحْمَقَ لَحِيَّةٍ مِنْ سَائِلٍ يَرْجُو النَّدى مِنْ سَائِلٍ
 وقال آخر :

لَمَوْتُ الْفَقْرِ خَيْرٌ مِنَ الْفَقْرِ لِلْفَقْرِ وَلِلْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ سُؤَالِ الْبَخِيلِ
 لِعَمْرُكَ مَا شِئَ لَوَجْهِكَ قِيَمَةٌ فَلَا تَلْقَ مَخْلُوقًا بِوَجْهِ ذَلِيلِ
 وَلَا تَسْأَلَنَّ مَنْ كَانَ يُسْأَلُ مَرَّةً فَلِلْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ سُؤَالِ سَتُولِ

وحدث عيسى بن عمر النحوى ، قال : قدمت من سفر ، فدخل على
 ذو الرمة الشاعر ، فعرضت عليه أن أعطيّه شيئاً ، فقال : أنا وأنت تأخذ
 ولا تعطى .

ومدح أبو الشمقم مروان بن أبى حفصة فقال له : يا أبا الشمقم ، أنت
 شاعر وأنا شاعر ، وغابتنا جميعاً السؤال .

وكان بشار يعطيه في كل سنة مائتى درهم ، فأتاه مرّة ، فقال : هلمّ الجزية
 يا أبا معاذ ، فقال : وَيَبْرَكَ ! أَجِزِيَةٌ هِيَ ؟ قال : هو ما تسمع ، فقال له بشار
 يمازحه : أنت أفصح مني ؟ قال : لا ، قال : فأعلم ؟ قال : لا ، قال : فأشعر ؟ قال :
 لا ، قال : فلم أعطيك ؟ قال : لثلاث أهجوك ، قال : إن هجوتنى هجوتك ،
 قال أبو الشمقم : أو كذا هو ؟ اسمع :

إني إذا ما شاعرٌ هجائيُّ أدخلت في إست أمه علانيَّة
 بشار يا بشار وأراد أن يقول : يا بن الزانية ، فأمسك بشار بقمه ،
 وقال : أراد والله أن يشتمني . ثم دفع إليه مائتي درهم ، وقال : لا تسمعن منك
 هذا الصبيان .

ولقيتُ بسِجْلَماسة شاعرَها وعينها الحاج أمدحتر ، وكان له شعر رائق ،
 فخذتُ عنه أنه قصده يوماً قتي شاعر يستجديه بشعر ، فوقع الحاج تحت شعره :
 نحنُ بزاةُ الناسِ لا نصاؤُ مَنْ كان ذا فهمٍ بنا يصْطادُ
 ثم كتب له ، قطعة من شعره ، وقال له : اقصد بها فلانا فإنه يصطك
 بما يرضيك ، فعلم المقصود بالشعر بنية الحاج ، فوصله بما أَرْضاه .

وعد أبو نواس أبا الطفيل الشاعر وعداً فآلح عليه ، فقال :
 وأخرسَ ولاجمٍ وغادرٍ ورائحٍ رجاءَ نَوَالٍ لو يُمانُ بِمُجودٍ
 وإني وإياه كعربانٍ يصطلي من الطَّلِّ ناراً غير ذات وقودٍ
 زَوَيْتُ له وجهاً قَطُوباً عن الندى وألبسته من وعدِه بوعيدٍ
 فإن كنت لاعن سوءِ فعلِكَ مُقْلِعاً فدونك فاستظهِرْ بنعل حديدٍ
 فمندی مَظْلٌ لا يطير غرابهُ مطير ولا يدعى له بوليـدٍ

قوله : « افمومع » ، امتلاً ، وافمومعلُ بنيت للبالغة . تبرأ : ذهباً . أولاهها :
 أعطاها . البر : الإكرام . فاغر : منفتح . اشرأبت : تطلمت ، وتقول :
 اشرأب الرجل ، إذا مدَّ عنقه لينظر . سَبَرها : اختبارها . تبَلُو : تختبر ، يريد
 أن الجماعة أرادت أن تعرف : هل أوقعتُ إكرامها فيمن يستحقه أم لا . كفلت
 خَمِنت . استنباط : استخراج . للرموز : الخفي . نهضت : تقدّمت للشئ
 أقفو : أتبع . منتعته : متلثة . انغمست : غابت ودخلت . النهار : كثرة الخلق

وجماعتهم التي تفر الأرض ، أي تغطيها ، وردّه ابن الانباري وجعله من خطأ
 العامة ، وقال : إنما تقول العرب دخل في ثمار الناس ، بالخاء ، وهو جمعهم ،
 إذا استتر بهم ، ومنه الثمار لتغطية الرأس ، ومنه الحجر . وقال يعقوب : هو كل
 ما استتر به الإنسان من شجر أو غيره ، فإن كان من شجر خاصة فهو الصّراء ،
 وحكى بعضهم ثغاراً ، جعله من غمر الماء الشيء ، إذا غطاه . قوله : أمّلت :
 افلكت بسهولة ، والامّلاس : أن يسقط الشيء من يدك ولا تشعر به . الأغار :
 الجهال . عاجت : مالت . بخلاً بال ، أي خالية منفردة . أماطت : أزال .
 الجلباب : ثوب أوسع من الثمار يتجلبب به ، أي يلتف فيه ، والجلباب كاللحفة
 للمرأة ، والرداء للرجل . نصّت : نجت وجرّدت : النقاب : ما يغطي به الوجه .
 ألحها : أنظرها . خصاص : فرّج ، يريد به من شقوق الباب .

فلما انسرت أهبة الخفر ، ورأيت محمياً أبي زيد قد سقر ،
 غهمت بأن أهجم عليه ، على ما أجرى إليه ، فاسألني اسئلنا
 المتمردين . ثم رفع عقيرة المتمردين ، واندفع ينشد :

يا ليت شعري أدهري	أحاط علماً بقدري
وهل دري كنه غوري	في الخدع أم ليس يدري
كم قد قمزت بينه	بجيتي وبكري
وكم برزت بعرف	عليهم وبكري
أصطاد قوماً بو عظ	وآخرين بشفر
وأستفز بخل	عقلاً وعقلاً يحتر
وتارة أنا صخر	وتارة أخت صخر

ولو سَأَلْتُ سَبِيلًا مَأْلُوفَةً طُولَ عَمْرِي
لَخَابَ قِدْحِي وَقَدْحِي وِدَامَ عُسْرِي وَخُسْرِي
فَقُلْ لِمَنْ لَأَمَ : هَذَا عُذْرِي فَدُونِكَ عُذْرِي

• • •

انسَرَّتْ : زالت ، ويروى : بفصل سرت عن إن ، ومعناه إن أزالته بالهمزة -
والمنفصل فعل العجز ، والتصل فعل الأهبة ، وهي العُدَّة ؛ يريد لما أن أزالته
عنها هيئة لباسها التي استقرت بها عنا كان الخفر وهو الحياء يمنعها أن تكشف
وجهها حتى نعرفها . محيا : وجه . سفر : انكشف . أهجم : آخذه على غفلة .
أعنفه : أفتيح فعله . اسلنقى : صار على ظهره . المتمردين : الشياطين ومن لا يرحى
صلاحه . عقيرة : صوت . المغردين : المطربين بالغناء ، والعقيرة بمعنى معقورة ،
أى جارحة مقطوعة . كان رجل قطعت إحدى رجلتيه فرفعها ووضعها على
الأخرى ، ورفع صوته فقبل لكل من رفع صوته : قد رفع عقيرته .

قوله : « يا ليت شعري » معناه : ليت درأيت وفطنتي ، ومعنى الشاعر في
كلامهم الفطن العالم ، وسُمي شاعراً ، لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره . وأجاز
الفرءاء : ليت شعري أباك ما صنع ، على معنى : ليتنى أعلم أباك ما صنع ، وأنشد :
ليت شعري مسافر بن أبي عمرو وليت يقولها الحزون

ومعناه ليتنى أعلم مسافراً .

وقال آخر :

تَحَرَّ الشَّيْبُ لِيَحْتِي تَحْمِيرًا وَحَدَا بِي إِلَى الْقُبُورِ الْبَعِيرًا
ليت شعري إذا القيامة قامت ودُعِيَ بالحساب أين المصير

قال ثعلب : المصير منصوب بشعري ، أى ليتنى أعلم المصير أين هو ، والبعير منصوب بمدا ، أى وحدا الشيب للبعير إلى القبور بى . كنه : حقيقة . غورى : آخر أمرى ، وأصل الغور : قعر الحرجة والمنخفض من الأرض . قمرت : غلبت وخدعت . مكرى : خداعى . أستفز : استخف وأخدع ، واستفزه من كذا : أخرجه منه ، والخل كناية عن الشر ، والخمر كناية عن الخير ، هذا على مذهب العرب . وكانت الخمر أجلاً ما عندهم ، ويقولون : ما عنده خل ولا خمر ، أى ما عنده شر ولا خير ، وإذا فسدت الخمر عندهم صارت خللاً ، وقد قال فى ألقاه :

وما شئ إذا فسدًا تحوّل غيّه رشداً

يريد أن الخمر إذا فسدت ، صارت خللاً ، فبعد أن كانت حراماً رجعت حلالاً ، وزال تأثيرها فى العقول .

صخر : هو ابن الشريد ، وأخته الخنساء ، فأراد أنه مرّة رجل ، ومرّة أخرى امرأة .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أربعة لعنوا فى السماء : رجل خلقه الله ذكراً فقأنث ، وامرأة خلقها الله أنثى فذكّرت ، تشبّه بالرجال . والذى يضل الأعمى ، ورجل حصّور ؛ ولم يحمل الله حصّوراً إلاّ يحمي بن زكريا عليهما السلام .

وأما صخر ، فهو ابن عمرو بن الحارث بن الشريد بن رباح^(١) ، من بنى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان . وكان فى جماله أجمل رجل فى العرب ، وسند ذكر لمة من أخبار صخر وأخته الخنساء فى القامة الأربعين لمن شاء الله تعالى .

(١) ابن : « رباح » .

سلكت سبيلاً : دخلت طريقاً . مألوفة : مكروبة ملتزمة . قَدَحِي : سهمي .
قَدَحِي : ضربني بالزناد . عسري : قسري . خسري : ضد ربحي ، والخسر :
النقص ، يريد : لو مشيت على طريقة واحدة أبدا لخسرت وخبت . دونك ، أى خذ .

* * *

قال الحارثُ بن هَمام : فَلَمَّا ظَهَرْتُ عَلَى جَلِيَّةٍ أَمْرِهِ ، وَبَدِيعَةٍ
إِمْرِهِ ، وَمَا زَخْرَفَ فِي شِعْرِهِ مِنْ عُذْرِهِ ، عَلِمْتُ أَنَّ شَيْطَانَهُ
الْمَرِيدَ ، لَا يَسْمَعُ التَّفْنِيدَ ، وَلَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا يَرِيدُ . فَثَنَيْتُ إِلَى
أَصْحَابِي عِنَانِي ، وَأَبْثَثْتُهُمْ مَا أَثْبَتَهُ عِيَانِي ، فَوَجَّعُوا لَضَيْعَةِ
الْجَوَازِزِ ، وَتَعَاهَدُوا عَلَى مَحْرَمَةِ الْمَجَازِزِ .

* * *

جليّة : ظاهرة . بديةة : غريبة . إمرة : دهائه وعجبه . زخرف : زين .
للمريد : العارى من الخير إنما هو شر كله . التنفيد : اللوم ، وفندت فعله ، إذا
عبته . ثنيت : عطف ، وتقول : جاء ثانياً عنانه ، إذا بلغ مراده ولم يجهد نفسه .
أبثثتهم : أخبرتهم . أثبته : حققه . عيان : معاينتي . وجَّعوا : غضبوا . الجواز :
العطايا . تعاهدوا : تحالفوا . محرمة : منع وحرمان .

المقامة الرابعة عشرة وهي المكيّة

حكى الحارث بن تمام ، قال : نهضتُ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ ، لِحَاجَةٍ
إِلَى السَّلَامِ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ بِعَوْنِ اللَّهِ التَّفَثَ ، وَاسْتَبَحْتُ الطَّيِّبَ
وَالرَّفَثَ ، صَادَفَ مُوسِمُ الْخَلِيفِ ، مَعْمَانُ الصَّيْفِ ، فَاسْتَظْهَرْتُ
لِلضَّرُورَةِ ؛ بِمَا يَبْقَى حَرُّ الظَّهِيرَةِ ، فَبَيْنَا أَنَا تَحْتَ طِرَافٍ ، مَعَ
رُقُقَةِ ظِرَافٍ ، وَقَدْ حَمَى وَطَيْسُ الْخَصْبَاءِ ، وَأَعَشَى الْمَجِيرُ عَيْنَ
الْحَزْبَاءِ ، إِذْ هَجَمَ عَلَيْنَا شَيْخٌ مُتَسَمِّعٌ ، يَتْلُوهُ فَنَّى مُتَرَعِّعٌ ،
فَسَلَّمَ الشَّيْخُ تَسْلِيمَ أَدِيبٍ أَرِيبٍ ، وَخَاوَرَ مَحَاوِرَةَ قَرِيبٍ لَا غَرِيبٍ ،
فَأَعَجَبْنَا بِمَا نَثَرُ مِنْ سَمَطِهِ ؛ وَعَجَبْنَا مِنْ انْبِسَاطِهِ قَبْلَ بَسْطِهِ ،
وَقُلْنَا لَهُ : مَا أَنْتَ ؟ وَكَيْفَ وَلَجْتَ وَمَا اسْتَأَذَنْتَ ؟

نهضت ، أى تقدمت ، وسمي النهوض تقدماً لسرعة الحركة ، وسمي
للمنصور بغداد مدينة السلام ، لأن دجلة يقال لها وادى السلام ، ونهر السلام ،
وأضاف الحجة إلى الإسلام لأنها أحد أركانه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« بنى الإسلام على خمس » ، والحج أحدها . التفت : ما يلزم الحاج من ترك
الطيب وحلاق الشعر . والرث : النكاح . استبحت : استطلعت . الموسم :
الموضع الذى يجتمع فيه الناس من عيد أو سوق . الخيف : موضع بمكة .
معمان : شدة الحر . استظهرت : استمددت ، تقول : قد استظهر للشيء

بكذا إذا استمدَّ له ، وقد تقدَّم آنفاً للحسن :

* فدونك فاستظمر بنعل حديد *

بقى : يمنع . الظهيرة : حرّ نصف النهار ، فيقول : بسبب ضرورة الحرّ جعلت على نفسى سِتْرًا يمنع عنى حرّ الشمس . طِراف : قُبّة من جلد . ظراف : جمع ظريف ، وهو النّيبيل المهذب . حمى وطيس الحصباء : اشتدَّ حرّ الجنادل لمن وطئها ، وأصل الوطيس التنور يحمى فيطبخ فيه . أعشى : أعمى . المهجير : حرّ نصف النهار . الحزباء : دويبة تستقبل الشمس وتدور معها ، وانظرها فى المقامة السادسة والثلاثين ، وقال المعرى :

وهجيرة كالهجر موجُ سَرايها كالبحر ليس لسانه من طُحلب^(١)
أوفى بها الحزباء عودى منبر للظُّهر إلا أنه لم يخطب
فكانه رام الكلام ومسه عى فأسعده لسانُ الجندب
وقال أيضاً فى نحوه :

وساحرة الأقطار يحنى سرايها فتصلب حرباء برياً على جذع^(٢)

قوله : « هجم » أى دخل على غفلة . متسمع : هَرِم متقارب الخطو . مترعرع : شاب متزايد ، وترعرع الفلام ، أى أخذ فى الزيادة فى طوله وخِائفته ، والترعرع : الشباب . أريب : عاقل . حاور : راجع الكلام . نثر من سمطه ، أبدى من كلامه ، وأصل السَّمَط خيط الجواهر . انبساطه : دالّته ، وهذا الكلام أصله فى البساط ، تقول : بسطته فانبسط ، فلا يكون الانبساط مطاوعاً إلا بعد الشروع فى البسط ، يقول : فهذا الشيخ انبسط علينا قبل أن نبسطه ،

(١) سقط الزند ١١٣٢ .

(٢) سقط الزند ١٣٥١ .

أى دلّ علينا قبل أن نجعل له السبيل فى ذلك . وما يستحسن من المنظوم هنا قول ابن كناسة :

فى انقباض وحشة فإذا لاقيتُ أهل الوفاء والكرم^(١)

أرسلتُ نفسى على سجيّتها قفلت ما قلت غير محشم

قال إسحاق الموصلى : أنشدني ابنُ كناسة هذين البيتين ، قفلت له :
وددت أنى سبقتك إليهما وينقص من عمرى سنتان .
ولجت : دخلت .

* * *

فقال : أما أنا فعافٍ ، وطالبُ إسمافٍ ، وسِرُّ ضرّى غير
خافٍ ، والنظرُ إلى شفيعٍ لى كافٍ ، وأما الانسياب ، الذى علق به
الارتياب ، فما هو بمُجاب ، إذ ما على الكرماء من حجاب ،
فسألناه : أننى اهتدى إلينا ، وم استدلّ علينا ؟ فقال : إن
الكرام نشرّا ثم به فحجّاه ، وتُرشدُ إلى روضه قوحاته ، فاستدللتُ
بتأرج عَرَفِكُمْ ، على تبلّج عُرْفِكُمْ ، وبشّرَنى تضوّعُ رَنَدِكُمْ ،
بحسن المنقلبِ مِنْ عندِكُمْ . فاستخبرناه حينئذ عن لبائته ، لتكفل
بإعائته .

* * *

عاف : طالب معروف . إسماف : قضاء حاجتى . الشفيع : الطالب لغيره ،

يقول : لست أحتاج إليكم مع ظهور سرّي لشفيح ، لأنّ نظركم إلىّ يغني عن
عن الشفيح . كافٍ : مغنٍ عن غيره . الانسياب : الدخول بسهولة ، وقد تقدّم
أصله في الأولى . الارتياح : الشكّ والإنكار . عجاب : مبالغة في عجب .
أتى : كيف . نشرّا تيمّ به نفعاته : طيبا تفوح روائحه وأنفاسه . ترشد :
تدلّ وتهدي . فوّحاته : روائحه العطّرة . والعرف : الرائحة الطيبة ، وتأرجحها :
تحركها ، وتأرجّ الطيّب : فاح . تبلّج : ظهور . عرفكم : معروفكم ؛ ولاحظ
الحريرى في هذا قول العرجيّ :

يوم يقول الرسول قد أذنت فأت على غير رقبة فلج^(١)
أقبلت أهوى إلى رحالم أهدى إليها بريحها الأريج

قالوا : يستدل بالطيب على الملوكة في المواطن التي يكون الناس فيها غير
معروفين ؛ فمن ذلك الحمام ومعرك الحرب ، ومثل هذا الوطن الذي ذكر
الحريرى في الحج إذا حلّ ، قالوا : والطيب دليل لا يكذب ونمّام لا يفسد ،
والطيب : غذاء الرّوح ، والنفحات الذكية : نشاط النفس ، فهو طابّ وطيب ،
وقال ابن البوّاب :

إذا أبصرتك العين من بُعد غاية فأوقعتُ شكافيك أثبتك القلبُ
ولو أنّ ركبا يَمْوُك لقادم نسيمك حتى يستدلّ بك الركب
وقال السرى الموصلى :

حُلِيّه ونسايه وعنبره كلّ ينم عليه أو يراقبه
فلست أدري إذا ما سار في أفق شمائل الأفق أذكى أم جنائبه

(١) الشعر والشعراء ٥٥٨ ، قال : « ويقال : إن الجعفر بن الزبير » .

وقال ابن سكرة :

أهلاً وسهلاً بمن زارت بلا عِدَّةٍ تحت الظلام ولم تحذر من القَسَسِ^(١)
تسترت بالدجى عمداً فما استترت وناب إشراقها ليلاً عن القَبَسِ
ولو طواها الدجى عني لأظهرها برق الأثاث وعطر النحر والنفس
وأخذه المعتمد بن عباد فقال :

ثلاثة منعنا من زيارتها خوف الوشاة، وخوف الحاسد الخفي
ضوء الجبين ووسواس الخلي وما تحوى معاطفها من عنبر عبق
هب الجبين بفضل الكم تستره والخلي تنزعه ، ما حيلة العرق !

فقال : إن لي مارباً ، وفتاى مطلباً ، فقلنا : كلاً المرامين
سيقتضى ، وكلاً كما سوف يرضى ، ولكن الكُبر الكُبر ، فقلنا :
أجل ، ومن دحى السبع الثُبر ، ثم وثب للمقال ، كالمُنشَط من
العقال ، وأنشد :

إني امرؤٌ أبدعُ بي بعدَ الوجى والتَّعبِ
وشقَّتِي شاسِعَةٌ يقصُرُ عنها خَبِي
وما ممي خردلةٌ مطبوعةٌ من ذهبِ

فجِئْتِي مُنْسَدَّةٌ وَحَيْرَتِي تَلْعَبُ بِي
 إِنِ ارْتَحَلْتُ رَاجِلًا خِفْتُ دَوَاعِيَ الْعَطَبِ
 وَإِنْ تَخَلَّفْتُ عَنِ الرُّفْقَةِ صَاقَ مَذْهَبِي
 فَزَفَرْتَنِي فِي صُعُدٍ وَعَبَّرْتَنِي فِي صَبَبِ
 وَأَنْتُمْ مُنْتَجِعُونَ الرَّاجِي وَمَرَمَى الطَّلَبِ
 لَكُمْ مِنْهُلَّةٌ مِنْهُلَّةٌ وَلَا أَنْهَالَ الشَّعْبِ
 وَجَارَكُمْ فِي حَرَمٍ وَوَفَرَكُمْ فِي حَرَبِ
 مَا لَازِمُ مُرْتَاعٍ بِكُمْ فَيَخَافُ نَابَ النُّوبِ

• • •

قوله : « مَارَبًا » ، أى حاجة . المرامين : المطالبين . الكُبر الكُبر ، أى
 قَدِّمُوا الأَكْبَر .

ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : أمرنى جبريل عليه
 السلام أن أقدم الأَكْبَر .

أجل : نعم . دحا : بسط . السبع الغبر : الأرضين . المذشط :
 المحلول . عقال : قيْد البعير ، وعَقْدَتُهُ بَأَنْشُوطَةٍ ، أى عقْدته عقْدَةٌ تنحلُّ
 بجَذْبَةٍ أو بجَذْبَتَيْنِ ، وقولهم : بثر نَشُوطٌ ، إذا كان دلوها يخرج بجَذْبَةٍ أو
 جَذْبَتَيْنِ ، وتسمى عامَّةً عقْدَةُ الْأَنْشُوطَةِ اللَّتَى . أبْدِعْ بى : أى عَطَيْتْ نَاقَتِي ،
 يقال : أَبْدِعْ بِالرَّجُلِ إِذْ كَلَّتْ إِبْلُهُ أو عَطَيْتْ . وفى الحديث : إِنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : احْمَلْنِي فَإِنِ أَبْدِعَ بِي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
 « ما عندى ما أحملك عليه ولكن اذهب إلى فلان فقل له يحملك » ، فأتاه فحمله

فرجع إليه فأخبره ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ أَجْرٌ فَاعِلِهِ » . قوله : « الوجى » : وجع الحافر من الحَفَى . شَقَّتْ شَاسَعَةً : سَقَرْتَنِي بِمِيدَةٍ - خَبَيْتَنِي : مَشَيْتَنِي ، وَخَبَبَ الْفَرَسَ خَبَبًا ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْعُدُوِّ دُونَ الْإِسْرَاعِ . الْخُرْدَلُ : حَبٌّ مَعْرُوفٌ فِي نِهَايَةِ الصَّمَرِ . مَطْبُوعَةٌ : مَصْنُوعَةٌ . مَسْدُودَةٌ : مَغْلَقَةٌ . الْعَطَابُ : الْهَلَاكُ . تَخَلَّفْتُ : تَأَخَّرْتُ . مَذْهَبِي : طَرِيقِي . زَفَرْتَنِي فِي صُؤْدٍ : نَفَسِي فِي ارْتِفَاعٍ . عَبَرْتَنِي فِي صَبَبٍ : دَمَعِي فِي انْحِدَارٍ . الْمُنْتَجِعُ : الْمَوْضِعُ الْخَصِيبُ الَّذِي يُنْتَجَعُ لِلْعَرَى ، يَقُولُ : مَوْضِعَكُمْ خَصِيبٌ وَأَنْتُمْ كِرَامٌ فَمَنْ طَلَبَ مِنْكُمْ رِزْقَهُ وَجَدَهُ . هُأَكُم : عَطَايَاكُمْ . مِنْهَلَةٌ : مَنْصَبَةٌ . لَاذٌ : تَسْتَرٌ وَلَجَأٌ . مَرْتَاعٌ : خَائِفٌ . الثُّوبُ : جَمْعُ نَائِبَةٍ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ ، وَهِيَ الدَاهِيَةُ ، وَجَعَلَ لَهَا نَائِبًا بِجَازَا وَجَنَسَ بِهِ ، وَأَصْلُ النَّابِ لِلسَّبْعِ .

* * *

وَلَا اسْتَدِرَّ أَمَلٌ	حِبَاكُمُ فَمَا حُمِي
فَانْمَظِفُوا فِي قِصَّتِي	وَأَحْسِنُوا مُنْقَلَبِي
فَلَوْ بَلَوْتُمْ عِيشَتِي	فِي مَطْعَمِي وَمَشْرِبِي
لَسَاءَكُمْ ضُرِّي الَّذِي	أَسْلَمَنِي لِلْكَرْبِ
وَلَوْ خَبَرْتُمْ حَسْبِي	وَنَسَبِي وَمَذْهَبِي
وَمَا حَوَتْ مَعْرِفَتِي	مِنَ الْعُلُومِ النُّخَبِ
لَمَا اعْتَرَنَكُمْ شُبُهَةٌ	فِي أَنْ دَائِي أَدَبِي
فَلَيْتَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ	أَرْضِضْتُ تُذَيَّ الْأَدَبِ

فقد دهاني شؤمه وَعَقْنِي فِيهِ أَبِي

* * *

استدّرّ : طلب الدّرّ وهو اللبن . آمل : راج . حياءكم : عطاءكم . انعطفوا : ميلوا . منقلبي : مرجعي ، يقول : عساكم أن تشفقوا عليّ وتميل قلوبكم بالرحمة إليّ حتى يحسن منقلبي من عندكم . بلوتم : جرّبتهم . أسلمني : تركني . الكرب : المموم . خبرتم : اخترتم . حسبي : شرفي . والحسب آباء أشراف بحسب أو أفعال كريمة . مذهبي : طريقي . خوت : جمعت . النخب المختارة . اعترتكم : قصدتكم . شبهة : شكٌ وحيرة . دهاني : أهلكني وضرّني . شؤمه : نحسة . عقني : قطعني وأساء إليّ بتعليمه ، فهو يقطّير بأدبه .

[حِرْفَةُ الْأَدَب]

والتّطوُّير بالأدب مذهب قديم متداول ، وقد أشار إليه ابن قتيبة في صدر أدبه :

وقال عمرو بن شُبّة : من أعجب العجب ثلاثة مقارنة لثلاثة : الحِرْفَةُ للأدباء ، وتباعد المال عن الظرفاء ، وإقبال الدنيا على الذّوكر .
وقيل للحسن البصري رحمه الله : لِمَ صارت الحِرْفَةُ مقرونة مع العلم ، والثروة مقرونة مع الجهل ؟ فقال : ليس كما قلتم ، ولكن طلبتم قليلا في قليل فأعجزكم ، طلبتم المال وهو قليل في أهل العلم وهم قليل ، ولو نظرتم إلى مَنْ تحارّف من أهل الجهل لوجدتمهم أكثر ؛ وقال الحمدوني :

ما زددتُ من أدبي حرفاً أسرَّ به إلّا تزيّدت حرفاً تحته شومُ
كذا المقدم في حذق بصنمته أني توجه فيها فهو محرومُ

وقال أبو إسحاق الصَّابِي .

إذا جمعت بين امرأين صناعةً فأحببت أن تدري الذي هو أحقُّ
فلا تنفقد منهما غيرَ ما جرتُ به لهما الأرزاق حين تفرقُ
فحيث يكون النقص فالرزق واسعُ وحيث يكون الفضل فالرزق ضيقُ

أخذه عبد الملك بن وهبون ، فقال :

يمزّ على العلياء أنيَّ خاملٌ وإن أبصرت مني خودَ شهابِ
وحيث ترى زند النجابة واريًا فثمَّ ترى زند السَّعادة كابي

وقال أبو إسحاق الصَّابِي :

قد كنت أعجب من مالى وكثيره وكيف تغفل عنه حرقةُ الأدب^(١)
حتى اتنت وهى كالفصبي تلاحظني شزراً فلم تبق لي شيئاً من النَّشَبِ
واستيقنت أنها كانت على غلطٍ فاستدركته وأفضت بي إلى الحربِ
الضَّبِّ والنون قد يُزجى اجتماعهما وليس يُرَجَى اجتماع المال والأدبِ

وقال علي بن بسام يَرثي عبد الله بن المعتز ، على ما كان بينهما من العداوة :

لله درك من مَيتٍ بمضيعةٍ ناهيك في العلم والآداب والحسبِ^(٢)
ما فيه «لَوْ» ولا «ليت» فتتصَّه وإعما أدركته حرقةُ الأدبِ

(١) ينمة الدهر ١ : ٢٤

(٢) نمار القلوب ١٩٢

وكان ابن المعتز قام على المقنذر ، فلما ظفر به أَمَرَ فَرُجِيَّ في صهريج فيه ماء في شدة البرد فمات . ومن عجائب الدنيا أَنَّ أباه المعتز لما خُلِعَ عن الملك أدخل حماماً ، وأغلق عليه فمات من حره .

وكما نَفَّوْا أَنَّ يجتمع المال والفهم في الغالب ، كذلك نَفَّوْا أَنَّ يجتمع النجاة في الولد والوالد في الغالب ، قال الشاعر .

إذا أطلع الدهر حُرّاً ليدياً فكُنْ في ابنه سيئ الإعتقادِ
فلست ترى من نجيب نجيباً وهل تلد النار غير الرمادِ !

ولما أوجع الفقر والحرمان القاضي عبد الوهاب ^(١) لأجل أدبه على ما شرطوا في الأدب ، تَمَنَّى الكفاف ولزوم العلم إلى الممات ، فقال :

يَا هَفَ نفسى على شيئين لو مُجِعا عندى لكنت إذاً من أفضل البشر
كفاف عيش كفاً ذلّ مسألة وخدمة العلم حتى ينفضى عمرى
فلما فتح عليه باب الرزق مات ، على ما يأتى ذكره ، فسبحان من أنفذ حكمه في خلقه كيف شاء !

* * *

فقلنا له : أما أنت فقد صرّحتَ أيّاتك بفاقتك ، وعطبتَ
اقتك ، وَسَمَّطَيْكَ ما يوصلُكَ إلى بَلَدِكَ ، فما مأربة وَلَدِكَ ؟
فقال له : قُمْ يَا بُنَيَّ كما قام أُمُوك ، وَفَهْ بما في نَفْسِكَ لا فضَّ
فوك . فهضَ نهوضَ البطلِ للبرازِ ، وَأَصْلَتَ لِسَانَا كَالْمَغْضَبِ
الْجَرَّازِ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

يا سادة في المعالي لَهْمُ مَبَانٍ مَشِيدَةٍ

(١) هو عبد الوهاب بن نصر بن أحمد الفقيه المالكي ، ذكره في المرقبة العليا ٤٠-٤٣ .

وَمَنْ إِذَا نَابَ خَطْبُ
وَمَنْ يَهُونُ عَلَيْهِمْ
أُرِيدُ مِنْكُمْ شَوَاءٌ
فَإِنْ غَلَا فِرْقَاكَ
أَوْ لَمْ يَكُنْ ذَا وَلَا وَذَا
فَإِنْ تَمَذَّنَ طُرًّا
فَأَحْضِرُوا مَا تَسْتَى
وَرَوْجُوهُ فَنَفْسِي
وَالزَّادُ لَا بَدَّ مِنْهُ
وَأَنْتُمْ خَيْرُ رَهْطٍ
أَيْدِيكُمْ كُلَّ يَوْمٍ
وَرَأْحَكُمْ وَأَعْيَلَاتٍ
وَبُنَيْتِي فِي مَطَاوِي
وَفِي أَجْرٍ وَعُقْبَى
وَلِي نَتَائِجُ فِكْرِ

قَامُوا أَبَدَفَعِ الْمَكِيدَةَ
بَذَلُ الْكَنُوزِ الْعَتِيدَةَ
وَجَزْدَقًا وَعَصِيدَةَ
بِهِ تُوَارَى الشَّهِيدَةَ
فَشَبَعَةً مِنْ ثَرِيدَةَ
فَمَجُوعَةً وَنَهْيِيدَةَ
وَلَوْ شَطَطِي مِنْ قَدِيدَةَ
لَمَّا يَرْوِجُ مُرِيدَةَ
لِحَالَةٍ لِي بَعِيدَةَ
تُدْعَوْنَ عِنْدَ الشَّدِيدَةَ
لَهَا أَيْادٍ جَدِيدَةَ
شَمَلِ الصَّلَاتِ الْمَفِيدَةَ
مَا تَرْفِدُونَ زَهِيدَةَ
تَنْفِيسِ كَرْبِي هَمِيدَةَ
يَنْفُضَحْنَ كُلَّ قَصِيدَةَ

* * *

قوله : « صرَّحت » : بينت . فافتك : ففرك ، وتصريح أبياته بمطب ناقتة هو قوله ، « أبداع بي » المتقدم ، وفي معناه : أن أعرابية خرجت إلى الحج ، فلما كانت ببعض الطريق عطبت ناقتها ، فرفعت يديها إلى السماء وقالت :

يأربَّ أَخْرَجْتَنِي مِنْ يَتِيٍّ إِلَى يَتِيٍّ ، فَلَا يَتِيٍّ وَلَا يَتِيٍّ ! قَوْلُهُ : « نَمَطِيكَ »
 نَمَطِيكَ مَطِيَّةٌ . مَأْرَبَةٌ : حَاجَةٌ . فُهُ : تَكَلَّمَ . فَضَّ : كَسَّرَ . نَهَضَ : تَقَدَّمَ .
 أَصْلَتْ : جَرَّدَ . الْعَضْبُ الْجُرَازُ : السِّيفُ الْقَاطِعُ . مَشِيدَةٌ : مَرْتَفَعَةٌ . نَابَ خَطْبٌ :
 قَصَدَ أَمْرٌ شَدِيدٌ . وَالْمَكِيدَةُ ، هِيَ الْمَكِيدُ ، وَكُلُّ مَا يَكَادُ بِهِ فَهُوَ مَكِيدَةٌ .
 وَقَامُوا بِدَفْعِهَا : اقْتَدَرُوا عَلَيْهَا ، يَقُولُ : إِذَا قَصِدُوا بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَكِيدُوا بِهِ
 اقْتَدَرُوا عَلَى دَفْعِ الْمَكِيدِ وَاسْتَفْتَوْا بِمَنْ يَرِيدُ ضَرْمَهُمْ . الْعَتِيدَةُ : الْحَاضِرَةُ
 الْمَذْخُورَةُ . رُقَاقٌ : خَبْزُ رَقِيقٍ . تَوَارَى : تَغَطَّى . الشَّهِيدَةُ : الشَّاةُ الْمَشْوِيَّةُ ،
 وَقَلَّمَا يُوْكَلُ لَحْمُهَا إِلَّا بِالرُّقَاقِ ، وَرَبَّمَا سَمَّوْا الْمَرْبِيسَةَ شَهِيدَةً ، وَأَنشَدُوا
 فِي ذَلِكَ :

هَلَمُوا إِلَى مَنْ عُدَّتْ طَوْلَ لَيْلِهَا بِأَضْيَقِ سَجْنٍ فِي الْجَحِيمِ تَسْعَرُ
 وَقَدْ جَلَدُوهَا الْخَدَّ وَهِيَ بَرِّيَّةٌ فَسَيَرُوا إِلَى دَفْنِ الشَّهِيدَةِ تُؤْجَرُوا

وَقِيلَ : الشَّهِيدَةُ الدُّجَاجَةُ الْمَحْشُوءَةُ ، وَقِيلَ : السَّمَكَةُ الْمَحْشُوءَةُ . طَرًّا : جَمِيعًا .
 عَجْوَةٌ : نَوْعٌ مِنَ التَّمْرِ الطَّيِّبِ . وَالنَّهْيَةُ : الزُّبْدَةُ ، وَالتَّمْرُ بِالزُّبْدِ شَيْءٌ يَلْدُ
 عِنْدَهُمْ أَكْلَهُ . تَسَنَّى : حَضَرَ . شَطَى : قَطَعَهُ . رَوَّجُوهُ : عَجَّلُوهُ . وَلَا بَدَّ مِنْهُ ،
 أَيْ قَدْ وَجِبَ عَلَيْهِمْ فَاتَّزَمُوهُ لِي ، تَقُولُ : لَا بَدَّ مِنْ كَذَا ، مَعْنَاهُ قَدْ أُلْزِمْتُهُ
 نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ وَاجِبًا عَلَيَّ ، مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ : قَدْ أَبَدَ الرَّجُلُ النَّوْمَ ، وَأَبَدَ
 الْفَرَامِي الْوَحْشَ ، إِذَا أُلْزِمَهُ الْخُتْفُ ، قَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ :

فَأَبَدَهُنَّ حُتُوفَهُنَّ فَهَارِبٌ بِذَمَائِهِ أَوْ بَارِكٌ مُتَجَمِّعٌ^(١)

قَوْلُهُ : « أَيَّادٍ » : أَيْ نَعَمْ . رَاحِكُمْ : أَسْمَاحُكُمْ . وَأَصْلَاتُ شَمَلُ الصَّلَاتِ :
 أَيْ تُؤَلَّفُ وَتُصَلُّ مُتَفَرِّقُ الْعَطَايَا وَالنَّوَادِ . بَغِيَّتِي : إِرَادَتِي . مَطَاوِي

(١) ديوان الهذليين ١ : ٩ الذماء : بقية الروح : متجسم : لاسق بالأرض قد صرع .

ما ترقدون . مطاوى الثوب : معاطفه وما يطوى منه . وترقدون : تمطون ، وتقدير البيت : بقيت زهيدة أى قليلة فى مطاوى عطاياكم ، أى ما طلبتكم منكم قليل فى أثناء ما تهبون . قوله : « وفى أجر » : عن أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَطْعَمَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ طَعَامًا وَافَقَ بِهِ شَهْوَتَهُ أُدْخِلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » . وفى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص « من أطعم أخاه خبزاً حتى يشبعه وسقاه ماء يرويه أبعد الله من النار سبع خنادق » . تنفيس : تفريج وترويح ، يقول : عاقبة تفريج همى لمن فرجه محمود للأجر الذى فيها ، والثناء بشعرى عليه ، وعلى هذا رتب : « ولى نتائج فكر » : وهى أشعاره الحسان . يفضحن : يشهرن عيوبها ، يقول : إذا أنشدت شعرى افتضحت قصائد الشعراء وتنقصت .

* * *

قال الحارث بن همام : فلما رأينا السَّيْلَ يُشْبِهُ الْأَسَدَ ، أَرْحَلْنَا الْوَالِدَ وَزَوْدَنَا الْوَلَدَ ، فَقَابَلَا الصَّنْعَ بِشُكْرِ نَشْرٍ أَرْدَيْتُهُ ، وَأَدْيَا بِهِ دَيْتَهُ . وَلَمَّا عَزَمَّا عَلَى الْإِنْطِلَاقِ ، وَعَقَدْنَا لِلرَّحْلَةِ حُبُّكَ النُّطَاقَ ، قُلْتُ لِلشَّيْخِ : هَلْ ضَاهَتْ عِدَّتُنَا عِدَّةَ يَعْقُوبَ ، أَوْ هَلْ بَقِيَتْ حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ ! فَقَالَ : حَاشَ لِلَّهِ وَكَلَّا ، بَلْ جَلَّ مَعْرُوفُكُمْ وَجَلَّى ، فَقُلْتُ لَهُ : فَدِنَّا كَمَا دِنَّاكَ ، وَأَفِدْنَا كَمَا أَفَدْنَاكَ أَيْنَ الدَّوِيرَةِ ، فَتَدَّ مَلَكْتُنَا الْخَيْرَةَ !

* * *

السَّيْلُ : ولد الأسد . أرحلناه : أعطيناه راحلةً يركبها . الصنع : الفعل الجليل . نشراً أرديته : ، استمارة لنشر الشكر . أديا : أعطيا . ديته : ، حقه ، يقول : جعلا شكرها حقاً لبرنا ومكافأة لصلتنا ، وكأن المال للهوب قد استهلكه الآخذ له ، فإن شكر عليه فالشكر الواهب هو دية ماله المالك . وإنما أراد

قول النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ نَشَرَ معروفًا فقد شكره ، ومن ستره فقد كفره » .

[من الأقوال حكيمة في الشكر]

وفي حديث جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَعْطَى شَيْئًا فوجد فليجبر ، ومن لم يجد فليُثنِ به ، فإن أثنى عليه فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره » .

وفي حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : « مَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ ، ومن أتى إليكم معروفًا فكافئوه ، فإن لم يجد أحدٌكم فليدعُ له حتى يعلم أنه قد كافأه » .
وقالوا : إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطُل لسانك بالشكر .

وما أحسن قول حبيب في نشر الشكر وذم ستره .

لنَّارُ نارِ الشَّوقِ في كَبَدِ الفَتَى	والبين يُوقِدُهُ هَوًى مَسْمُومٌ ^(١)
خَيْرٌ لَهُ مَنْ أَنْ يَخَامِرَ قَلْبَهُ ^(٢)	وهوَاهُ معروفٌ امرئٌ مَكْتُومٌ
سَرَقَ الصَّنِيعَةُ فَاسْتَمَرَّ مُلْعَنًا ^(٣)	يدعُو عليه النَّسَائِلُ المَظْلُومُ
أَوْ قَنَعَ المَعْرُوفَ وَهُوَ كَانَهُ	قَرُّ الدَّجَى إِلَيْنِي إِذَا لِلثِّيمِ
مُثْرٍ مِنَ المَالِ الَّذِي مَلَكَتْنِي	أَعْنَأَقَهُ وَمِنَ الوَفَاءِ عَدِيمٌ ^(٤)
فَأَرْوَحُ فِي بُرْدَيْنِ لَمْ يَسْحَبِيهِمَا	قَبْلِي فَتَى وَهِيَ النِّفَى وَاللَّوْمُ

(١) ديوانه ٣٠١ ، وفيه : « لَنَارُ »

(٢) الديوان : « صدره » .

(٣) الديوان : « بلعنة » .

(٤) مَثَر : دو مال .

ومن ملح الأعراب ؛ أن أعربيًا لصًا أخذ الحجاج ، فضربه سبعاً تسوط ، وهو يقول عند كل سوط : شكراً يارب ، ف قيل له : والله ما يمنع الحجاج من تركك إلا كثرة شكرك ، أما سمعت الله يقول : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾^(١) !
فأنشأ الأعرابي يقول :

* يارب لا شكر فلا تزدني أسأت في شكرك فاعف عني *

* باعد ثواب الشاكرين مني *

ومرّ بشار برجل قد رحمته بغلة فسقطه مكسوراً ، وهو يقول : الحمد لله والشكر لله ، فقال : استزده يزدك من هذه النعم .

وسياتى نوع آخر من الشعر في الشكر بحول الله تعالى .

* * *

قوله : «حُبُّكَ النِّطَاق» : النِّطَاق وَلِلنُّطْقَةِ : ما يُشَدُّ عَلَى وَسْطِكَ كَالْحِزَامِ .
وَالْحُبُّكَ : خِيوط أو شَرَك يُشَدُّ بِهَا النِّطَاق ، وأراد أنهما تحزّما للارتحال ، ويقال : حبكت الشيء حبكاً : شدّدته ، واحتبكت إزارى : شدّدته . والمحبوك : المفقول ، وحبكته : شدّدت قتله ، والحبُّك : الطرائق في السماء من أثر النّجم ، والحبُّك أيضاً : التّكسير الذى يـكون فى الرمل والشّعر والماء .

ضاهت : شابهت . عدتنا : ما وعدناك به من الرّاحة ، ولا بنك من الزاد .

* * *

[عرقوب المضروب به المثل]

عرقوب : رجل^(٢) من العماليق يضرب به المثل في إخلاف الوعد ، وقصّته أنّه أتاه أخ له يسأله شيئاً ، فقال له : إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعهما ، فلما أطلعت أتاه فقال له : دعها حتى تصير بلحاً ، فلما أبلحت أتاه ، فقال له : دعها حتى تصير زهواً^(٣) ، فلما أزهرت قال له : دعها حتى تصير رطّبا ، فلما أرطبت قال له :

(١) - سورة إبراهيم ٧ (٢) - مجمع الأمثال ٢ : ٣١١

(٣) - الزهو : البسر الملون .

دَعَا حَتَّى تَصِيرَ تَمَرًا ، فَلَمَّا أَتَمَرَتْ عَمِدَ إِلَيْهَا عَرَقُوبٌ مِنَ اللَّيْلِ لَخَذَهَا ،
وَلَمْ يَعْطِهِ شَيْئًا .

وقيل : عرقوب هو ابن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ويقول بنو سعد : هو ممتا .
وقيل : هو من الأوس والخزرج ، قال علقمة :

وَقَدْ وَعَدْتُكَ مَوْعِدًا لَوْ وَفَّتْ بِهِ كَمَوْعِدِ عَرَقُوبِ أَخَاهُ يَيْثَرُ^(١)
وَقَالَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ :

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عَرَقُوبٍ لَهَا مِثْلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ^(٢)

* * *

وقال عبد الله بن عمر : خَلَفَ الْوَعْدُ ثَلَاثَ النِّفَاقِ . وَحَاجَةُ نَفْسٍ يَعْقُوبُ :
خَشْيَةُ الْعَيْنِ عَلَى بَنِيهِ حِينَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَفَرَّقُوا عَلَى الْأَبْوَابِ ، وَلَا يَدْخُلُوا مِنْ
بَابٍ وَاحِدٍ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي غَايَةِ الْجَمَالِ وَكَمَالِ الْخَلْقِ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى :
﴿ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبُ قَضَاهَا ﴾^(٣) ،
وَأَرَادَ الْحَرِيرِيُّ : هَلْ بَقِيَتْ لَكَ حَاجَةٌ لَمْ تَقْضِهَا ؟ فَقَالَ : حَاشَ اللَّهُ ، أَيْ
مَعَاذَ اللَّهِ .

ابن الأنباري قولهم : حاشي فلانا ، معناه أستثنيه ، وأخرجه من المذكورين .
الفرء : هو من حاشيت أحاشي ، ويقال : قام القوم حاشي عبد الله
بالنصب والخفض ، وحاشي لعبد الله ، وحاش وحشي ، وخفض ما بعدها
بإضمار اللام لكثرة محبتها حاشي ، كأنها ظاهرة ، أو تقول : أضيفت حاشي
إلى عبد الله ، لأنه أشبه الاسم لما لم يأت معه فاعل .

كلًا : معناها الزجر ، أي ليس الأمر كما تظن . جُلَّ : عَظُمَ ، وَهُوَ مِنْ

(٢) ديوانه ٨ .

(١) ديوانه ١٣٣ .

(٣) سورة يوسف ٦٨ .

الجلل ، والجليل هو العظيم ويكون في غير هذا اليسير وهو من الأضداد .
جلى : سبق معروفكم كل معروف ، والجلّى من الخليل : السابق .

دنا : جازنا . أين الدويرة ؟ سأله أين تسكن من البلاد . ملكتنا :
غلبتنا ، يقول : قد التبس علينا أمرك وتحيرنا فيه .

* * *

فَتَنَفَّسَ تَنَفُّسَ مَنْ أَدَّكَرَ أَوْطَانَهُ ، وَأَنشَدَ وَالشَّهيقُ
يُطْعِمُ لِسَانَهُ :

سَرُوجِ دَارِي وَلَكِنْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْهَا
وَقَدْ أَنَاخَ الْأَعَادِي بِهَا وَأَخْنَوْا عَلَيْهَا
فَوَالَّتِي سِرْتُ أُنْبِي حَطَّ الذُّنُوبِ لَدَيْهَا
مَارَاقَ طَرَفِي شَيْءٌ مَذْغِبْتُ عَنْ طَرَفِهَا

ثم غرورقت عيناه بالدموع ، وأذنت مداميه بالهموع ،
فكره أن يستو كیفها ، ولم يملك أن يكفكفها ، فقطع إنشاده
المستحلى ، وأوجز في الوداع وولى .

* * *

تنفّس : ردّد النفس إلى الجوف بصوتٍ ورفعهُ إلى صدره ، والتنفّس :
خذ الشهيق ، وهو ردّ النفس إلى الجوف بصوت . يلغم : يلوى ويعقل ، ويقال :
سأله عن كذا فأتلغم ، أى ما توقّف ولا تابث ولا أبطأ ، فإذا ذكرت للغريب
بلده وهو على بعد منه تنفّس وتلّغ . أناخ : أقام ونزل . أخنوا : أفسدوا

وأتوا على خرابها . والتي بينى خط الذنوب إليها هي مكة . خطاً : إلقاء وإزال .
لديها : عندها ، أى إذا حج ودعا الله خط ذنوبه عنه .

وفي حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .
راق : أعجب . طرفتها : جهتها . اغرورت : امتلأت . آذنت : أعلنت .
المموع : السيلان . يستوكفها : يستدرها ويحريها . يكفكفها : يردّها .
المستعذب : المستعذب . أوجز : اختصر .

* * *

[من أقوالهم فى الحنين إلى الأوطان]

ومما ينتظم بهذا الموضع من ذكر الأوطان والتشوق إليها قول رقاعة بن
عاصم الفقعسى ، وأنشدها البكرى لامرأة من طي :

ألم تعلمي يادارَ بكجاء أنتى إذا أخصبت أو كان جدبا جنابها^(١)
أحب بلاد الله ما بين منعج إلى وسلى أن يصوب سحابها
بلاد بها نيطت على تمانى وأول أرض مس جلدى ترابها

قال على بن عبد الكريم النصيبى : أتانى ابن الرومى بقصيدته التى يمدح
فيها سليمان بن عبد الله بن طاهر ، وقال لى : أنصفنى وقل الحق : أيما أحسن ،
قولى فى الوطن :

ولى وطن آليت ألا أبيعته وألا أرى غيرى له الدهر مالكا^(٢)
عهدت به شرخ الشباب ونعمة كذمة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم مارب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهد الصبا فيها فحنوا لذلك

(١) زهر الآداب ٦٨٢ ، اللالى ٢٧٢ ، الكامل ٢ : ٢٨٠ .

(٢) ديوان المعانى ١٨٩ زهر الآداب ٦٨٢ .

أو قول الأعرابي : أحب بلاد الله ... الأبيات ، قلت : بل قولك لأنه
ذكر الوطن ومحبه ، وأنت ذكرت حب الوطن والملة في ذلك .

وقال ابن الرومي ينشوق إلى بغداد :

بلدٌ صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد^(١)
فإذا تمثل في الضمير رأيتُ وعليه أغصان الشباب تميد

أخذه من قول أعرابي ينشوق إلى بلده :

ذكرتُ بلادِي فاستهلّتْ مدايمي بشوقٍ إلى عهد الصبا المتقادم
حنفْتُ إلى ربيع به اخضرَّ شاربِي وقُطِعَ عَنِّي قَبْلَ عَقْدِ التَّمائمِ

وقال إسحاق الموصلي :

أتبكي على بغدادٍ وهي قريبةٌ فكيف إذا ما ازددت عنها غدا بُعداً
لعمرك ما فارقتُ بغدادَ عن قَلِيٍّ لو أنا وجدنا من فراقٍ لها بُدّاً
كفى حزناً أن رحت لم أستطع لها وداعاً ولم أحدث لساكنها عهداً
وأنشدني شيخنا أبو بكر السلاوي ، وكان يزعم أنهما لأخي الحريري ،
وقد أحسن قائلهما كائناً من كان :

طيب الهواء ببغدادٍ يورقني شوقاً إليها وإن عاقت مقاديرُ
فكيف أصبر عنها اليوم إذ جمعتُ طيب الهواءين بمدودٍ ومقصورُ

المقامة الخامسة عشرة وهي الفرضية

أخبر الحارث بن همام قال : أرقت ذات ليلة حالكة الجبابر هامية الرباب ، ولا أرق صبّ طرد عن الباب ، ومني بصدّ الأخباب ، فلم تزل الأفكار يهجن هني ، ويجلن في الوسوس وهني ، حتى تمنيت ليضخ ماء انبت ، أن أرزق سميراً من الفضلاء ، ليقتصر طول آيلتي الللاء ، فما انقضت منيتي ، ولا أغضت مقلي ، حتى قرع الباب قارع ، له صوت خاشع ، فقلت في نفسي : لعل غرس التمني قد أنمر ، وليل الحظ قد أقمر ، فهضت إليه عجلان ، وقلت من الطارق الآن ! فقال : غريب أجته الليل ، وغشيه السيل ، ويبتني الإيواء لاغير ، وإذا أسحر قدّم السير .

* * *

أرقت : سهرت ولم أنم ، وفي حديث زيد بن ثابت : شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرقاً أصابني ، فقال : « قل اللهم غارت النجوم ، وهذأت العيون ، وأنت حي قيوم ، لا تأخذك سنة ولا نوم ، يا حي يا قيوم ، أهدني ليلى ، وأنم عيني » . فقلتها فأذهب الله عني ما كنت أجده .

حالة الجبابر : سوداء التوب . هامية الرباب : سائلة السحاب ؛ يريد

أن الليلة مظلمة ممطرة . صبّ : عاشق . طَرَدَ : نفى . مُنَى : ابتلى . صَدَّ : هجر .
الافكار: أحاديث النفس . يَهْجُن . يُحَرِّكُن . ويَجْلُن : يصرفن ، والوساوس
الفكر المقلقة . وَهْمِي : بالى وخاطرى ، وقال ابن شهيد فى نحو هذه الليلة :

ولربّ ليلٍ للهموم تسدّتْ أسْتَارُهُ فمحا الضياءَ بستورِهِ^(١)
كالبحر يضرب موجُهُ فى موجِهِ^(٢) صعبٌ عَلَى الْعُبَّارِ وَجُهُ عبورِهِ
طاولتُهُ من عَزَمَتِي بتصيرِ^(٣) أثبتُّ هُمى فى قرارة كورِهِ
وبراحة من همى ذُو كَرَّةٍ^(٤) عَمَدَتُ تَذَا كَرْنِي بطبع ذكيره
فردّ إذا انبعثت دياجى جُبُجِهِ هَوَلًا عَلَى خبطت فى ديجوره
حتى بدا عبد العزيز لناظري أُملى ، فزَقْتُ الدُّجى عن نوره^(٥)

وليلة الحريرى ضدّ ليلة ابن رشيق فى قوله :

ومن حسنات الدهر عندى ليلة من العمر لم تترك لأَيَّامِنَا ذَنْبًا^(٦)
خلونا بها نفى القَدَى عن عبونا بلؤلؤة مملوءة ذهبًا سَكْبًا
ومِلْنَا اتّقبيل الخلدود ولثمها كيل جياع الطَّيْرِ تَلَقَّطَ الْحَبَا^(٧)

قوله : « تمنيت » . ابن الأنبارى : فى معناه قَدَرْتُ وأُحِببت أن يصير إلى ،
وهو من المنى وهو القَدَر ، يقال : منى الله لك ماتحبه بِمَنْيِهِ منياً ، أى قدره لك .
لمضئ ، أى لخرقة . عاينت : شاهدت ، ويروى « عانيت » أى قاسيت . سميراً :

(١) ديوانه ١١٧ ، يدح عبد العزيز بن المؤمن .

(٢) الديوان : « وجهه فى وجهه » .

(٣) الديوان : « بمضير » .

(٤) الديوان : « ذو ذكره » .

(٥) ط : « فزقت الرجا » ، والصواب من ب والديوان .

(٦) معجم الأدباء ٣ : ٧٢ ، والتنف ٨ .

(٧) التنف : « كمثل جنوح » .

صاحباً يُسرّ معه . يقصر : يردّها قصيرةً بأنسه وحديثه . الليلاء : الشديدة الطويلة السواد ، ولابن الزقاق في مثل هذا السمير :

ربّ ليلٍ أنجفتُ فيه بأنسي من سمير زَفٍّ الحديثِ عروساً^(١)
فاجتنيما مما يحدّث زهراً واغتبنا من خلقه خندريسا
واثنى الليل بفضل الصبح حسناً والدرارى بفضلن فيه الشموسا
ولئن كان لم يحلّ عن دجاء فلقد عاد فحمة آبنوساً

قوله : « أغمضت مقلتي » ، نامت عيني . قرع : ضرب . خاشع : لين . أثمر : طلع ثمره . الحظ : البخت . أقر : صار فيه قر ، يقول : لعلّ يخبّي قد زال نحسه وأقبل سعده ، إذ وجدت ما تمنيت . نهضت : تقدّمت . الطارق : الآتي بالليل . أجنّه : ستره . غشيه : غطّاه . الإيواء مصدر آويت الرجل ، إذا أنزلته على نفسك وضممته ، وتقول : أويته وآويت بمعنى واحد . أسحر : دخل في وقت السحر ، يريد أنه لا يطلب غير البيت وينصرف في السحر .

* * *

قال : فلما دلّ شعاعه على شمسهِ ، ونمّ عنوانه بسِرِّ طرُسه ،
وعلمت أن مُسامرتَه غنمٌ ، ومُساهرتَه نُمٌ ، ففتحت الباب بابتسامٍ ،
وقلت ادخلوها بسلامٍ ، فدخلَ شخصٌ قد حنى الدّهر صعدتهُ ،
وبلّل القطر بُردتهُ ، فحيا بلسانٍ غضبٍ ، وبيانٍ عذبٍ ، ثم شكر
على تلبية صوته ، واعتذر من الطروق في غير وقته ، فدأبتهُ
المصباح المتقدِّ ، وتأمّلته تأملَ المنتقدِ ، فألفيته شيخنا أبو زيد بلا

رَيْبٍ ؛ وَلَا رَجْمٍ غَيْبٍ ، فَأَخْلَلَتْهُ مَحَلٌّ مِّنْ أَظْفَرِنِي بِقُصْوَى الطَّلَبِ
وَتَقْلَنِي مِنْ وَقْدِ الْكَرْبِ ، إِلَى رَوْحِ الطَّرَبِ . ثُمَّ أَخَذَ يَشْكُو الْأَيْنَ
وَأَخَذَتْ فِي كَيْفَ وَأَيْنَ ، فَقَالَ : أَبْلَعْنِي رَيْقِي ، فَقَدْ أَتَمَعْنِي طَرِيقِي ،
فَطَنَنْتُهُ مُسْتَبْطِنًا لِلسَّغَبِ ، مَتَكَاسِلًا لِهَذَا السَّبَبِ ، فَأَحْضَرْتَهُ مَا يُخَضِّرُ
لِلضَيْفِ الْمَفَاجِي ، فِي اللَّيْلِ الدَّاجِي .

* * *

الشَّعَاعُ : مَا يَبْدُو لَكَ مِنَ الشَّمْسِ إِذَا ظَهَرَتْ كَالْخِيَالِ . نَمَّ : أَفْشَى السَّرَّ :
وَالطَّرَسُ : الْكِتَابُ . الْعَنْوَانُ : مَا يَكْتُبُ عَلَى ظَهْرِهِ ، يَرِيدُ أَنْ كَلَامَ الطَّارِقِ
دَلَّ عَلَى مُرَادِهِ . وَلِلْمَسَاهِرَةِ ، هِيَ الْمَسَاهِرَةُ . غُثْمٌ : غَنِيمَةٌ . نَعْمٌ : نَعْمَةٌ . بِسْلَامٌ ،
أَيُّ بِسْلَامَةٍ وَأَمْنٍ . قَوْلُهُ : « صَعَدَتْهُ » ، الصَّعْدَةُ : الرَّمْحُ الطَّوِيلُ ، وَكُنِيَ بِهِ
عَنْ الْقَامَةِ . بَرْدَتُهُ : ثَوْبُهُ . عَضْبٌ : قَاطِعٌ . تَلْبِيَّةٌ : قَوْلِي لَهُ : لَبَّيْكَ . الطَّرُوقُ :
الْحُجَى بِاللَّيْلِ . دَانِيَتُهُ : قُرْبَتُ مِنْهُ . تَأَمَّلْتُهُ : نَظَرْتُهُ . الْمُنْتَقِدُ : الْحَرْبُ لِلدِّرَاهِمِ ،
أَيُّ نَظَرْتُهُ بِعَيْنِ الْمُبَاحَثَةِ ، أَلْفَيْتُهُ وَجَدْتُهُ . رَيْبٌ : شَكٌّ . رَجْمُ الْغَيْبِ : رَمَى
الظَّنَّ . أَظْفَرَنِي : مَدَّ كُنْيِي . قُصْوَى : غَايَةٌ ، وَهِيَ مُؤْنُثُ الْأَقْصَى أَيْ الْأَبْعَدِ .
وَقْدُ الْكَرْبِ . حَرَقَةُ الْهَمُومِ : رَوْحُ الطَّرَبِ : رَاحَةُ السَّرُورِ . الْأَيْنُ : التَّعَبُ
كَيْفَ : سَوْأَلٌ عَنْ حَالٍ . وَأَيْنَ : سَوْأَلٌ عَنْ مَكَانٍ ، أَيْ سَأَلْتُهُ كَيْفَ حَالُكَ ،
وَمِنْ أَيْنَ جِئْتَ . أَبْلَعْنِي رَيْقِي ، أَيْ لَا تَكْثُرْ عَلَيَّ السَّوَالُ فَيَمْجَلْنِي جَوَابَكَ
عَنْ بَلْعِ رَيْقِي . السَّغَبُ : الْجُوعُ ، وَقَدْ سَغَبَ وَسَغِبَ جَاعٌ . الدَّاجِي : الْمَظْلَمُ .

* * *

فَاتَقَبَّضَ انْتِقَبَاضَ الْمُحْتَشِمِ ، وَأَعْرَضَ إِعْرَاضَ الْبَشِمِ ، فَسَوَّتْ

ظَنًّا بِامْتِنَاعِهِ ، وَأَحْفَظَنِي حُمُولُ طِبَاعِهِ ، حَتَّى كَدْتُ أُغْلِظُ لَهُ فِي
الْكَلَامِ ، وَالسَّمْعُ بِحُمَةِ الْمَلَامِ ، فَتَبَيَّنَ مِنْ لِمَحَاتِ نَاطِرِي ، مَا خَامَرَ
خَاطِرِي ، فَقَالَ : يَا ضَعِيفَ الثِّقَةِ ، يَا أَهْلَ الْمَقَّةِ ، عَدُّ مَا أْخْطَرْتَهُ
بِالْآنَ ، وَاسْتَمِعْ إِلَى لَا أَبَالَكَ أَفَقُلْتُ : هَاتِ ، يَا أَخَا التَّرَهَاتِ ،
فَقَالَ : اعْلَمْ أَنِّي بَتُّ الْبَارِحَةِ حَالِيفِ إِفْلَاسٍ ، وَنَجِيٍّ وَسَوَاسٍ ، فَلَمَّا
قَضَى اللَّيْلُ نَحْبَهُ ، وَغَوَّرَ الصُّبْحُ شُهُبَهُ ، غَدَوْتُ وَقْتُ الْإِشْرَاقِ ،
إِلَى بَعْضِ الْأَسْوَاقِ ؛ مُتَّصِدِيًّا لِيَصِيدَ يَسْنَعُ ، أَوْ حُرِّيًّا يَسْمَعُ ،
فَلَحَظْتُ بِهَا تَمَرًا قَدْ حَسَّنَ تَصْفِيفَهُ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ مَصْفِيفَهُ ، فَجَمَعَ
عَلَى التَّحْقِيقِ ، صِفَاءَ الرَّجِيحِ ، وَقَنُوءَ الْعَقِيقِ ، وَقُبَالَتِهِ لِبْنَا قَدْ بَرَزَ
كَالْإِبْرِيزِ الْأَصْفَرِ ، وَاجْمَلَى فِي اللَّوْنِ الْمَزْعُفَرِ ، فَهُوَ يُشْنِي عَلَى طَاهِيهِ ،
بِلسَانِ تَنَاهِيهِ ، وَيَصُوبُ رَأْيَ مُشْتَرِيهِ ، وَلَوْ نَقَدَ حَبَّةَ الْقَلْبِ فِيهِ .

* * *

الْحَدِثُ : السُّتْحَى هُنَا . أَعْرَضَ : نَحَى وَجْهَهُ ، وَتَحْقِيقُهُ : وَلَّى عُرْضَهُ ، أَيْ .
جَانِبَهُ . الْبِشْمُ : الْكَسِيلُ مِنَ الشَّعْبِ وَقَدْ بَشِمَ بِشْمًا : مَرَضَ مِنْ كَثْرَةِ الْأَكْلِ .
سَوَّتَ ظَنًّا : سَاءَ ظَنِّي ، وَظَنًّا الْمَنْصُوبُ عَلَى التَّمْيِيزِ فَاعِلٌ فِي الْمَعْنَى ، مِنْ بَابِ تَنْقَبَأَ
شَحْمًا . أَحْفَظَنِي : أَغْضَبَنِي . حُمُولُ طِبَاعِهِ : تَغْيِيرُ أَخْلَاقِهِ . مُحَمَّةُ الْمَلَامِ : سَمَّ
الْمَتَابَ . أَلْسَمَهُ : أَقْرَصَهُ بِأَسَانِي ، وَلَسَمْتَهُ الْمُقَرَّبَ : ضَرَبْتَهُ بِإِزْرَتِهِ .

لِمَحَاتِ نَاطِرِي ، أَيْ خَطَرَاتِ عَيْنِي . خَامَرَ خَاطِرِي . خَالَطَ فِكْرِي . الْمَقَّةُ :
الْحَبُّ . عَدُّ ، أَيْ أَصْرَفَهُ عَنْ نَفْسِكَ . التَّرَهَاتِ : الْعَجَائِبُ ، وَأَيْضًا الْأَبَاطِيلُ ،

وأصلها الطرق الصفار المنتشبة عن الطريق الأعظم . حليف إفلاس : ملازم فقر .
نجى : محدث . ولما كانت الوسوس تشغل بال الإنسان وتجمله يتحدث وحده
جعل نفسه محدثاً لها . قضى نجبه : تم وانقضى ، وقضى الرجل نجبه : مات .
والنعب : النذر . وغور : غيب . شبهه : نجومه . والإشراق : ارتفاع الشمس
وصفاؤها . الأسواق : جمع سوق ، وسميت سوقاً ، لأن الأشياء تساق إليها ،
وتساق منها ، أولأن سوق الناس تكثر فيها . والشوق : جمع ساق ، والسوق
بالفتح : مصدر سقت ، وبالضم الاسم . متصدياً : متعرضاً .

يسنح : يعرض من جهة اليمين ويزاد بياناً عند ذكر السانح والبارح .
يسمح : يجود . لحظت : نظرت ، ولحظي : أضيق عيني ، أى أبصرت بضيق عيني .
تصفينه ، أى جملة صفاً واحداً ، وصففت الشيء : جعلته صفاً واحداً مضموماً .
المصيف : زمن الصيف . الرحيق : الخمر . قنوء : حمرة . العقيق : خرز أحمر .

عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« تختموا بخواتيم العقيق فإنه لا يصيب أحدكم غم مادام عليه ذلك » والألبأ : أول .
مايحلب من اللبن وهو لم ينضج . برز : ظهر . الإبريز : الذهب الخالص .
المزعفر : المصبوغ بالزعفران .

ويروى : « المصفر » ، وهو المصبوغ بالمصفر . وطاهيه : طابخة : تنأيه .
غايته وكأله ، يقول : هذا الألبأ بحسن صنعته وجودة طبعه كأنه يثنى للمشتري على
طابخه وإن لم يكن له لسان ، فكأله في الحسن وجودته في الصنعة قام له مقام
الإنسان ، ويستى هذا الكلام بلسان الحال قال الشاعر :

ولسان نعمتك التى قلدتنى بالشكر أبلغ من لسان بيانى

وقال المتنبي :

تُنشدُ أثوابنا مدائحَهُ بالسن ما لهنّ أفواه^(١)
إذا مررنا على الأصمّ بها أغنته عن مسميه عَيْنَاهُ^(٢)
أخذه من قول نصيب :

فماجوا فائنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب^(٣)
وقال أبو العتاهية :

أيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد !
وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنه واحد
وفيه في كلّ تسكينة وتحريكة في الوري شاهد

وقال الفضل بن عيسى الرقاشي : سل الأرض : من غرس أشجارك ،
وشقّ أنهارك ، وجنّى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً .

(١) ديوانه ٤ : ٢٦٥ وفي شرحه : « قال أبو الفتح : يخلم عليهم ثياباً تنشد مدائحهم فيه ، بالسن ما لهنّ أفواه تقعم لبدنها ، والأصم يستغنى برؤيتها عن صوتها ، فقد اجتمع فيها الحسن والقصة . قال المروسي : هذا كلام من لم ينظر في معاني الشعر ، ولم يرد الكثير فيه ، وكنت أربأ بأبي الفتح عن مثل هذا القول ؛ ألم يسمع بقول نصيب :

فماجوا فائنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

ولم يكن للحقائب قسمة ، وإنما أراد أنهم يرونها ممثلة ، وكذلك أراد المتنبي بالسن خالعه وأثوابه ، فبها الناس عياناً ، فعملون أنها من هداياه ، فكانها قد أثنت عليه ، وأنشدت مدائحها بالسن لا تتحرك في أفواه ، لأنها لا تنطق في الحقيقة ، وإنما يستدل بها على جوده ؛ فكانها أخبرت ونطقت .

(٢) الأصم : الذي لا يسمع ، والمسمعان : الأذنان .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٨٣ ، وقبله هناك :

أقولُ لربِّ صاكرينَ لقيتهم قفا ذات أوْشالٍ ومولاكَ قاربُ
قفوا خبرونا عن سليمان إنني لمعرفه من أهل ودان طالبُ

ومنه سؤال العرب للمنازل الخالية والديار الدارسة ، وقال شاعرهم :
 وأجهشتُ للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رأيته^(١)
 وأذريت دمع العين لما رأيته ونادى بأعلى صوته فدعاني
 فقلت له أين الذين عهدتهم حواليك في أمن وخصب زمان
 فقال مضوا واستودعوني ديارهم ومن ذا الذي يبقى على الحدَثان!^(٢)

التوباد^(٣) : جبل بنى عامر ، وجوابه لهذا الشاعر بالمعنى ، فجعله لفظياً مجازاً ،
 وهذه الحالة الدالة التي سماها الجاحظ في أقسام البيان النُّصبة ، قال الجاحظ :
 جميع أصناف الدلالة على المعاني من لفظ أو غيره خمسة لا تنقص ولا تزيد ،
 أولها اللفظ ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم النُّصبة ، والعقد : أخذ العدد في
 الأصابع^(٤) .

قوله : « تقد » أى أعطى تقدماً ، وهو المال الحاضر . حبة القلب : سواده .

* * *

فأسرتنى الشهوة بأشطانها ، وأسلمتني العيمة إلى سلطانها ،
 فبقيتُ أخيرَ من صَبٍّ ، وأذهلَ من صَبٍّ ، لا وُجدَ يُوصِلُنِي
 إِلَى نَيْلِ الْمُرَادِ ، وَلَذَّةِ الْإِزْدِرَادِ ، وَلَا قَدَمٌ يُطَاوِعُنِي عَلَى الذَّهَابِ ،
 مَعَ حُرْقَةِ الْإِثْبَابِ ، لَكِنِ حَدَانِي الْقَرَمُ وَسَوْرَتُهُ ، وَالسَّغْبُ
 وَفَوْرَتُهُ ، عَلَى أَنْ أَنْتَجِعَ كُلَّ أَرْضٍ ، وَأَقْتَنَعَ مِنَ الْوَرْدِ بِبَرَضٍ ،
 فَلَمْ أَزَلْ سَحَابَةَ ذَلِكَ النَّهَارِ ، أَذِلِّي دُنُوِي إِلَى الْإِنِّهَارِ ، وَهِيَ لَا تَرْجِعُ

(١) ياقوت ١ : ٢٢٤ ، مع اختلاف في الرواية .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٧٦

(٣) ط : التوباد ، صواب في ١ ، ب وياقوت .

بَيْلَةٍ ، وَلَا تَجْلِبُ نَقَمُ غُلَّةٍ ، إِلَى أَنْ صَفَتِ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ ،
وَضَعُفَتِ النَّفْسُ مِنَ اللُّغُوبِ ، فَرُحْتُ بِكَبِدِ حَرَى ،
وَانْتَنَيْتُ أَقْدَمُ رَجُلًا وَأَوْخَرُ أُخْرَى .

* * *

أُسرَتِي : رِبَطَتُنِي كَالْأَسِيرِ . أَشْطَانُهَا : حَبَالُهَا . أَسْلَمَتُنِي : تَرَكَتُنِي . الْعَيْمَةُ :
شَهْوَةُ اللَّبَنِ . وَسُلْطَانُهَا : قُدْرَتُهَا وَغَلْبَتُهَا ، يَرِيدُ أَنْ الشَّهْوَةُ إِلَى اللَّبَنِ قَهَرَتْهُ حَتَّى
تَرَكَتُهُ مُسْتَسْلِمًا لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ .

[الضَّبُّ وَبَعْضُ طَبَاعِهِ]

الضَّبُّ : يَشْبَهُ الْحِرْذُونَ ، وَهُوَ حِرْذُونَ الصَّحْرَاءِ وَإِذَا فَارَقَ جِجْرَهُ لَمْ يَهْتَدِ
إِلَيْهِ فَيَتَحَيَّرُ . فَيَجْعَلُ حَجْرًا عِنْدَ جِجْرِهِ وَاقِفًا لِيَهْتَدِيَ بِهِ ، إِذَا أَزَالَهُ الصَّائِدُ
تَحَيَّرَ ، فَجَاءَ فَأَخَذَهُ ، وَرَبَّمَا قَتَلَهُ بِذَلِكَ الْحَجَرِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

وَمَنْ الضَّبُّ ذُو دَهْيٍ وَمَكْرٍ كَمَا الْيَرْبُوعِ وَالذَّنْبِ اللَّامِينِ^(١)
يَرَى مِرْدَاتِهِ مِنْ رَأْسٍ مِيلٍ وَيَأْمَنُ سَيْلَ بَارِقَةِ هَتُونِ^(٢)
وَيُدْخِلُ عَقْرَبًا تَحْتَ الذَّنَابِي رَوَاغَ الْفَهْدِ مِنْ أَسَدٍ كَيْنِ

جَعَلَ الذَّنْبُ لَمَعِينًا ، لِأَنَّ مَنْ رَأَاهُ صَاحٍ عَلَيْهِ . وَمِرْدَاتِهِ : حَجَرَهُ ، وَالْعَقْرَبُ
يَعْدُهُ الضَّبُّ لِلصَّائِدِ إِنْ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جِجْرِهِ ، وَأَخَذَ بِذَنْبِهِ ، لَسَعْتَهُ الْعَقْرَبُ ،
وَرَبَّمَا أَكَلَ الْعَقْرَبُ وَتَرَكَ مِنْهَا وَاحِدًا فِي بَابِ جِجْرِهِ لِلصَّائِدِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :
وَأَخْذَعُ مَنْ ضَبٍّ إِذَا جَاءَ حَارِشٌ أَعْدَلَهُ عِنْدَ الذَّنَابَةِ عَقْرَبًا^(٣)

وَالضَّبُّ ، يَوْصَفُ بِالضَّلَالِ وَقَالُوا فِي بَيْتِ الْمُتَنَبِّ :

لَقَدْ كَعَبَ الْبَيْنُ الْمُشْتَّ بِهَا وَبَى وَزَوْدُنِي فِي السَّيْرِ مَازُودًا لُضْبًا^(٤)

(١) الْحَيَوَانُ ٦ : ٤٥ . (٢) الْمِرْدَاةُ : الصَّخْرَةُ الَّتِي يَرْمِي بِهَا .

(٣) الْحَيَوَانُ ٦ : ٥٣ ، الْكَامِلُ ١ : ٢٧١ ، (أَسْعَتُهُ) : الْمِيدَانُ ١ : ١٣٩ .

(٤) دِيَوَانُهُ ١ : ٦٠

أراد أنه زودنى للضلال عن وطنى ، الذى خرجت منه ، فما أوفق للعود
إليه ، والاجتماع مع الحبيب .

وقال الواحدى يقول : جعل البين زادى زادَ الضب ، والضب لا يتزود
فى المفازة ، ومعناه : فارقت الحبيب من غير وداع ولا التقاء يكون لى زادا
على البعد . ويقال أيضا : أخدع من ضب ، وذلك أنه يطمع الصائد فى
نفسه ، فإذا حنق عليه خدع فى جحره ، ومنه أخذ معنى الخداع .

ويقال فيه : إنه أعق من ضب ، وذلك أنه يأكل أولاده ، ويكنى أبا الحسل
ويسمى ولده الحسل . وأمثال العرب به كثيرة . ويزعمون أنه كان حَكَمًا فى الدواب
فى الزمان ، الذى كانت فيه الحيوان تتحكم . وعنه يروون : فى بيته بؤى
الحكم ، يعنى نفسه . وفيه خواص ليست فى الحيوان ، تزعم العرب أنه لا يشرب
الماء ، وإذا أخذه العطش صعد ربوة واستقبل الريح ، وأنه طويل العمر .
ويقولون : إنه أحيامن ضب ، يريدون أن حياته لا تكاد تنقضى ، وأنه لا يسط
له سن ، وأنه أطول الدواب دما ، وإذا ذبح يبقى زمانا ، وحينئذ يموت ، وأن
له ذكرين ولأنتاه فرجين .

* * *

« أذهل من صب » : أى أشغل قلبا من عاشق ، ووساوس العشق أفضت
ببعض العشاق إلى الجنون . وجُد : غنى ، وقد وجدت وجدا ، أى كثر مالى
والازدرداد : كثرة الأكل ، وزردت للطعام وازدردته إذا ابتلعه ،
الانتهاب : اشتعال نار الجوع . حدانى : ساقنى . القرم : شهوة اللحم ، وأراد
به شهوة الأكل . سَوَّرته : شدته . وفوزة السغب : غليان الجوع . أتنجع :
أمشى فى طلب ما آكل . والورد : الحظ من الماء . والبرص : قليل الماء .
سحابة ذلك النهار ، أى طوال ذلك النهار ، كما تقول : بياض يومى ، أى يومى
كله ، أى لم يزل طول يومه يستجدى فلم يُعط شيئا . تقع غلة : إرواء عطش
صفت : مالت . اللغوب : الفشل . حرّى : ماتمبه . اثنتيت : رجعت .

[مقامة البديع الحجاجية]

أطال أبو محمد هذه المقامة حتى كادت تثقل على السامع ، وللبديع فيما يتعلق بمعناها مقامة بتراء فلوزيد في البديعية وقصر في الحرية لاعتدلتنا .
وها أنا أذكر البديعية هنا بجملتها ؛ لرشاققتها وخففتها .

قال عيسى بن هشام : كنتُ ^(١) ببغداد عام الجماعة ، فدفعت إلى جماعة قد نظمهم ^(٢) سلك الثريا ، وكلهم يطلب شيئاً ، وفيهم ذولنغ ^(٣) في لسانه وقلج في أسنانه ^(٤) ، فقال : ما خطبك ؟ فقلت : حالات لا يُفْلِح صاحبهما ، فقير كدُهُ الجوع ، وغريب ليس يمكنه الرجوع ، فقال ^(٥) ، أي التلمتين تريد ^(٦) سداها ؟ فقلت : الجوع ياسيدي ، وقد بلغ مني ^(٧) مبلغه ، فقال : ماتقول في رغيغ ، على خِوان ^(٨) نظيف ، وتقبل قطيف ^(٩) ، على لون لطيف ^(١٠) ، وخردل حرّيف ^(١١) ، إلى شواء صفيف ^(١٢) ، يقربه إليك من لا يماطلاك ^(١٣) بوعد ، ولا يعذبك بصدّ . [ثم يعلّك بعد ذلك بأقداح ذهبية ، من راح عَيْبِيَّة] ^(١٤) ، أذاك أحب إليك أم أوساط محشوة وأكواب مملوءة ، وأُنقال ^(١٥) معدّدة ، وفرش

(١) مقامات البديع من ١٦٢ ، ١٦٣ (٢) المقامات : « ضمهم » .

(٣) اللاتع والائتة : أن يبدل بعض الحروف بعض .

(٤) القلج : تباعد ما بين الأسنان .

(٥) المقامات : « فقال الغلام » .

(٦) المقامات : « تقدم سرها » . والثلمة : أصل الشق في الحائط ونحوه .

(٧) المقامات : « مبلغا » .

(٨) الخوان : المائدة .

(٩) المقامات : « وبقل » ، والقطيف : المقطوف .

(١٠) المقامات : « إلى خل ثقيف » وأصل اللون : الدقل . وهو نوع من النخل .

(١١) الخردل : حب شجر معروف . والحريف : الذي له لدعة في اللسان .

(١٢) الشواء : اللحم المشوى (١٣) المقامات : « من لا يماطلك » .

(١٤) من المقامات . (١٥) الأُنقال : جمع نقل ، وهو ما ينقل من الخمر .

منضدة، [وأنوار مجودة] ^(١) ومُطَرَّبٌ مُجِيدٌ، له من الغزال عين وجيد، فإن
لم تُرد هذا ولا ذلك، فاقول في لحم طيرى ^(٢)، وسماك بحرى، وباذنجان
مقلّى، وراح نقيّ، وتفتح جنّى، ومضطجع وطىّ، على حذاء نهر جارٍ،
وبركة ذات ثرثار.

قلت: أنا عبد الثلاثة، قال: وأنا خادمها لو حضرت ^(٣)، قلت من
أى الحجرات ^(٤) أنت؟ قال:

من ربة الإسكندرية ^(٥) من نبهة فيهم زكية
سَخِفَ الزَّمان وأهلُه فركبتُ من سَخَفِ مَطِيَّة

* * *

وبينا أنا أسمى وأقعد، وأهبُّ وأركد؛ إذ قابلنى شيخٌ
يتأوّه آهة التَّكلان، وعيناهُ تهملان، فما شغلنى ما أنا فيه
من داء الذَّيب، والخلوى المذيب، عَنْ تماطى مداخلته، والطَّمع
فى مخائله، قلت له: يا هذا، إنَّ لبُكائك سِرًّا، ووراء تحرُّكك
لشراً، فأطلعننى على بُرحائك، واتخذنى من نصحاءك، فإنك ستجد
منى طبّاً آسياً، أو عوناً مواسياً، فقال: والله ما تأوّهى من عيشٍ
قات، ولا من دهرٍ افتات، بل لا تقراضِ العلم ودرؤسه، وأقول
أقماره وشموسه، قلت: وأى حادثة نجمت، وقضية استعجمت

(١) من مقامات الهمداني.

(٢) المقامات: «طرى»

(٣) المقامات: «لو كانت» (٤) المقامات: «الخرابات»

(٥) المقامات: «أنا من ذوى الإسكندرية»

حَتَّى هَاجَتْ لَكَ الْأَسْفُ ، عَلَى قَدَرٍ مِّنْ سَلَفٍ . فَأَبْرَزَ رَقْعَةً مِّنْ
كَمَتِهِ ، وَأَقْسَمَ بِأَيِّهِ وَأُمِّهِ ، لَقَدْ أَنْزَلَهَا بِأَعْلَامِ الْمَدَارِسِ ؛ فَمَا امْتَازُوا
عَنِ الْأَعْلَامِ الدَّوَّارِسِ ، وَاسْتَنْطَقَ لَهَا أَحْبَارَ الْمُحَابِرِ ، فَخَرَسُوا وَلَا
خَرَسَ مَسْكَنُ الْقَابِرِ ، فَقُلْتُ : أَرَيْنَهَا فَلَدَلِّي أُنْغِي فِيهَا ، فَقَالَ :
مَا أَبْعَدْتَ فِي الْمَرَامِ ؛ فَرَبَّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ . ثُمَّ نَاوَلَنِيهَا ، فَإِذَا
الْمَكْتُوبُ فِيهَا :

* * *

قوله : « أَسْمَى » ، أَيْ أَمْشَى مُسْرِعًا . أَهَبَ وَأَرَكِدَ : أَتَمَحَرَّكَ وَأَسْكَنَ ،
أَرَادَ أَجْرَى وَأَقْفَ ، وَأَصْلُ الْمَهْبُوبِ وَالرَّكُودِ لِلرَّيْحِ . يَتَوَجَّعُ وَيَقُولُ :
آه ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَزِينِ . آهَةُ الشَّكْلَانِ : تَوَجَّعُ الْفَاقِدِ لِأَحْبَابِهِ . تَهْمَلَانِ :
تَسِيلَانِ ، وَدَاءُ الذُّبِّ : هُوَ الْجُوعُ ، وَالذُّبُّ أَصْبَرُ النَّبْيَاعِ عَلَى الْجُوعِ وَأَعْفَى ،
وَإِذَا اقْتَرَسَ شَاةٌ أَكَلَ مِنْهَا شَبْعَةً وَتَرَكَ سَائِرَهَا وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهَا ، وَعَافَهُ إِنْ
أُرْوِجَ ^(١) . الْخَوَى : خَلَوَ الْجَوْفُ مِنَ الطَّعَامِ . الْمَذِيبُ : الْمَذْهَبُ اللَّحْمِ وَالْقَوَى .
التَّعَاطَى : تَنَاوَلَ مَا لَا تَحِبُّ . وَمَدَاخِلَتُهُ : مَعْرِفَةُ سِرِّهِ . مَخَانِلَتُهُ : مَخَادَعَتُهُ .
تَمَحَرَّقَكَ : تَوَجَّعَكَ . وَالْبُرْهَاءُ : الْأَشْدَّةُ وَالْمَشَقَّةُ . طَبَا : حَادَقًا . آسِيَا : طَبِيبًا .
مَوَاسِيًا : مَعِينًا ، وَالْمَوَاسَاةُ تَكُونُ بِالنَّفْسِ أَوْ بِالْمَالِ ، وَيَشَاكِلُ كَلَامَهُ
قَوْلُ الشَّاعِرِ :

وَلَا بَدَّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذِي مَرُوءَةٍ يُوَاسِيكَ أَوْ يَسْلِيكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ

اِفْتَاتَ : ظَلَمَ وَجَاوَزَ الْحَدَّ . انْقِرَاضَ : انْقِطَاعَ . دُرُوسُهُ : مَحْوُهُ . أَقُولُ :

(١) أَرْوَجُ : أَصْبَحْتُ لَهُ رَاحَةً .

مَفِيب ، وَكَتَنَى بِالْأَقْمَارِ وَالشَّمُوسِ عَنْ مَشَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ ، وَبَأْفَوْهُمْ عَنْ هَلَاقِهِمْ ،
 قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :
 «مَوْتُ الْعَالَمِ مَصِيبَةٌ لَا تَجْبَرُ ، وَتُؤَلِّمُ لَا تُتَسَدِّ ، وَنَجْمٌ طَمَسَ ، وَمَوْتُ قَبِيلَةٍ أَيْسَرُ
 مِنْ مَوْتِ عَالَمٍ » . حَدَّثَتْهُ : فَازَلَهُ وَأَمَرَ حَدَّثَ . نَجَمَتْ : ظَهَرَتْ . قَضِيَّةٌ : قِصَّةٌ .
 اسْتَعْجَمَتْ : أَشْكَلَتْ . هَاجَتْ : حَرَكَتْ . الْأَسْفُ : الْحُزْنُ . سَلَفٌ : مَاتَ .
 وَذَهَبَ . أَعْلَامٌ : مَشَاهِيرُ ، وَأَصْلُهَا الْجِبَالُ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مَجَاهِيلِ الْأَرْضِ .
 الْمَدَارِسُ : جَمْعُ مَدْرَسَةٍ ، وَهِيَ الْحَاضِرُ الَّتِي يَدْرُسُ فِيهَا الْعِلْمُ . امْتَاذُوا : افْتَرَقُوا .
 وَالْأَعْلَامُ الدَّوَارِسُ : الْجِبَالُ الْمُفْقَرَةُ الْخَالِيَةُ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالْعِمْرَانِ . اسْتَنْطَقَ :
 اسْتَخْبَرَ ، وَسَأَلَهُمْ أَنْ يَنْطَقُوا وَيَجِيبُوا عَنْهَا . أَحْبَارٌ : عُلَمَاءٌ . خَرَسُوا : سَكَتُوا .
 أَغْنَى : أَقْرَبَ وَأَنْفَعَ . الْمَرَامُ : الطَّلَبُ .

* * *

[أصل المثل : رُبَّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ]

رَبِّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ^(١) ، أَيْ قَدْ يَصِيبُ الْغَرَضَ مَنْ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ بِالرَّامِيَةِ ،
 وَهُوَ مِثْلُ ، قَالَه حَكِيمُ بْنُ عَبْدِ يَعْمُوثَ النَّقَرِيُّ ، وَكَانَ حَكِيمٌ مِنْ أَرْجَمَى النَّاسِ ،
 فَأَقْسَمَ يَوْمًا لَيَعْقِرَنَّ ^(٢) وَلَا يَدُّ ، فَخَرَجَ وَمَعَهُ قَوْسُهُ فَرَمَى وَلَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا ، فَبَاتَ لَيْلَهُ
 بِأَسْوَأِ أَحَالٍ ، وَفَعَلَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ كَذَلِكَ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ لِقَوْمِهِ : مَا أَنْتُمْ
 صَانِعُونَ ، فَإِنِّي قَاتِلُ الْيَوْمِ نَفْسِي إِنْ لَمْ أُعْقِرِ الْيَوْمَ مِهَاقَةً ؟ فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ : يَا أَبَتِ
 احْمِلْنِي مَعَكَ ، أُرِيدُكَ ، فَقَالَ : وَمَا أَحِلُّ مِنْ رَعِيشٍ ، هَلِ ، جَبَانٍ فَشَلٍ ، فَاطْلُقْنَا فَإِذَا
 هُمَا بِمِهَاقَةٍ فَرَمَاهَا فَأَخْطَأَهَا ، ثُمَّ مَرَّتْ بِهِ أُخْرَى ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ مَطْعَمٌ : يَا أَبَتِ نَاوِلْنِي
 الْقَوْمَ ، فَضَضَبَ أَبُوهُ وَهَمَّ أَنْ يَلُؤَّهُ بِهَا ، فَقَالَ لَهُ مَطْعَمٌ : أَحْمَدُ بِجَهْدِكَ ، فَإِنْ

(١) الفباخر ١٤٣ ، مجمع الأمثال ١ : ٢٩٩ .

(٢) الفباخر : « ليدجن » .

سهي سهُمُكَ ، فناولهُ القومُ من ، فرمى مطعم فلم يخطيء ، فقال عند ذلك حكيم : رَبِّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ، وَقَالَ :

رَمَاهَا مَطْعِمٌ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ بِمَسِّ الْقَوْمِ لَمْ يَخْطِءْ صِلَاهَا
وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ آلَى عَلَيْهَا فَلَمْ تَبْدُرْ أَلَيْتَهُ مَرَاهَا

* * *

أَيُّهَا الْعَالَمُ الْفَقِيهُ الَّذِي فَاقَ ذَكَاءَ فَمَا لَهُ مِنْ شَبِيهِ
أَفْتِنَا فِي قَضِيَّةٍ حَادٍ عَنْهَا كُلُّ قَاضٍ وَحَارٍ كُلُّ فَقِيهِ
رَجُلٌ مَاتَ عَنْ أَخٍ مُسْلِمٍ حَرٍّ تَقَى مِنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ
وَلَهُ زَوْجَةٌ لَهَا أَيُّهَا الْحَبْرُ أَخٌ خَالِصٌ بِلَا تَمْوِيهِ
فَحَوَتْ قَرْضَهَا وَحَازَ أَخُوهَا مَا تَبَقَّى بِالْإِرْثِ دُونَ أَخِيهِ
فَاشْفِنَا بِالْجَوَابِ عَمَّا سَأَلْنَا فَهُوَ نَصٌّ لَا خَلْفَ يَوْجُدُ فِيهِ

فَلَمَّا قَرَأْتُ شِعْرَهَا ، وَلَحِثْتُ سِرَّهَا ، قُلْتُ لَهُ : عَلَى الْحَبِيرِ
سَقَطَتْ ، وَعِنْدَ ابْنِ بَجْدَتِهَا حَطَطَتْ ، إِلَّا أَنِّي مُضْطَرُّمُ الْأَحْشَاءِ ،
مُضْطَرٌّ إِلَى الْمَشَاءِ ؛ فَأَكْرِمْ مِثْوَايَ ، ثُمَّ اسْتَمِعْ فِتْوَايَ ؛ فَقَالَ :
لَقَدْ أَنْصَفْتَ فِي الْأَشْرَاطِ ؛ وَتَجَافَيْتَ عَنِ الْإِشْتِطَاطِ ؛ فَصِرْ مَعِيَ
إِلَى مَرْبَعِي لِنَنْظُرَ بِمَا تَبَتَّنِي ، وَتَنْقَلِبَ كَمَا يَنْبَغِي . قَالَ : فَصَاحَبْتُهُ
إِلَى ذَرَاهِ ، كَمَا حَكَّمَ اللَّهُ . فَأَدْخَلَنِي بَيْتًا أُحْرَجُ مِنَ التَّابُوتِ ، وَأَوْهَنُ
مِنْ نَيْتِ الْمَنْكَبُوتِ ، إِلَّا أَنَّهُ جَبَرَ ضَيْقَ رَبِّهِ ، بِتَوْسِعَةِ ذَرْعِهِ ،
فَحَكَمَنِي فِي الْقِرَى ، وَمَطَايِبِ مَا يَشْتَرَى ؛ فَقُلْتُ : أَرِيدُ

أَزْهَى رَاكِبٍ عَلَى أَشْهَى مَرْكُوبٍ ، وَأَنْقَعَ صَاحِبٍ مَعَ
أَضْرَ مَضْخُوبٍ .

* * *

قوله : « فاق » ، أى فضل . ذكاء : حدة ذهن . حاد : مال .

قوله : « رجل مات عن أخ . . . » ، البيت .

فائدة ذكر الأخ ، إثبات النسب ، لأن الأجنبي لا يرث ، وفائدة ذكر
المسلم أن أهل دينين لا يتوارثان ، وفائدة ذكر الحر أن العبد لا يرث الحر ،
وأما المتقى ، فما لقيت من أشياخنا من تبه عليه ، حتى حدثني به الفقيه
أبو العباس الليثي ، عرف بالحضار ، فقال فائدة لطيفة ، وهي التحرز من قاتل
العمد ، لأنه لا يرث وليه ، فأراد أن موجبات التوارث قد كملت لهذا الوارث ،
ومع هذا لم يرث أخاه .

والخبير : العالم . تمويه : شك وكذب . حوت : حازت . الإرث : لغة في
الورث ، وهو بالهمز بدل من الواو . لحت : أى نظرت ، واللمحة نظرة غير
متمكنة . ابن بجدة : عالم سرها ، ويقال : بجدة في المكان إذا أقام به ، والمقيم
بالموضع عالم به . وقيل : أصله من قولهم : فلان من أهل التجد ، أى من أهل
البادية ، وهم العلماء باللسان على ما وضع . حططت : نزلت ، والخبير : عالم
الخبير ، وهذه أمثال للعالم بحقيقة الشيء . مضطرم : متقد . مشواى : منزلى ،
وأكرمت مشواى الضيف ، إذا أحسنت نزلهم ووطأت له . فتواى : ما أفتيك به .
الاشتراط . والشرط بمعنى . تجافيت : تباعدت . الاشتطاط : مجاوزة الحد .
مربعى : منزلى . تنظفر : تفوز ، وأصله من الظفر ، كأنه إذا ظفر بشيء أنشب
أظفاره فيه . تنقلب : ترجع . ذراه : منزله ، وكل ما كان من حائط وشبهه
ذرى . أخرج : أضيق . أوهن : أضعف . جبر : أصلح . توسعة ذرعه :

سعة خلقه واحتماله . القَرَى : طعام الضيف . مطايب : جمع طيب ، على غير قياس . أزهى : أعجب ، والزَّهو الكِبَر ، وكانوا يصففون التمرة على اللبأ عند بيمة ، فيريد بالراكب التمر وبالركوب اللبأ ؛ لأنهم يشقون التمرة ويفترفون بنصفها من القَدَح الذى فيه اللبأ . ويريد : بأنفع صاحب التمر ، وبأضر مصحوب اللبأ ، وهذا يوافق قول الأعرابى :

ألا ليتلى خبراً^(١) من التمر واللبأ وخيلاً من البرنى فرسانها الزبد
فأطلب فيما بينهنَّ شهادة بموت كريم لا يمد له لحدٌ

والبرنى من أفضل التمر ، وقال مُحمَّد الكلبي :

أكلت الضباب فعاقتها وإنى لأهوى قديد الغنم
وركبت زبداً على تمرٍ فنعم الطعام ونعم الأدم

والعرب تقول : على التمرة مثلها زبداً ؛ وقيل فى تفسيره بالعكس ، لأن الأطباء يقولون : إن التمر مضرٌ سريع المفن ، يولد السدَّاد ، ويقولون أيضاً : إنه حارٌ رطب ملين للبطن يولد المنى ، فيقابل ضرره نفعه ، وكفى لنا أنه قوتٌ يُكتفى معه بأدنى الطعام ، وفيه قوة زائدة ، وبالجملة فاللفظ مشكل ، وما وجدت من يحقِّقه .

ويُستملح من كلام الحريرى أنه أراد بالراكب وبأنفع صاحب التمر ، لأنه قدَّمه فى التفسير حين قال : لملك تعنى ابنة نُخَيْلَة ، مع لبأ سخيلة ، وليس فى الأبيات المتقدمة شاهد على اللبأ ، لأن حكم الزبد للزوجة ، وتعلقه بالتمر غير حكم اللبأ ، فبالحرى يقرن اللبأ بالتمر إذا شئت ، وجعله أضرَّ مصحوب لأنه لبن لم ينضج ، والنار تقطع بعض ضرره .

(١) ط : « خبرا » تصحيف ، صوابه من ا ، ب .

(٢) السداد : داء يسد الأنف ، ويمنع نسيم الريح .

وقال الفجديهي: أزهى راكب التمر، أى أحسن منظراً وأكثر حمرة، وأشهى مركوب اللبأ، وجعل التمر راكباً واللبأ مركوباً، لأن التمر يُجْتَنَى من رموس النخل، فهو كالراكب، ولأن اللبأ يضع تمرات فوق اللبأ والرائب، ليزيد رغبة المشتري فيه. وجعل التمر أنفع صاحب، لا كغذاء العرب به عن جميع المطعومات، حتى يبقى أحدهم دهرأ لا يأكل إلا التمر، ولا يضره ذلك، وجعل اللبأ أضر مصعوب، لأنه يؤلّد الصفراء.

وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها: إنا كنا آل محمد صلى الله عليه وسلم نمكث شهراً لا نستوقد ناراً؛ إن هو إلا الأسودان: الماء والتمر.

وقال صلى الله عليه وسلم: «بيت لا تمر فيه جياع أهله».

والعرب تستحسن أكل الزبد مع التمر، قال سفيان الثوري: ما رأيت أحسن من زبدة على إزادة.

وقال معاوية لعبد الرحمن بن أبي بكر: أى اللقمة أطيب؟ قال: تعضوضه عليها مثلها زبدأ، والإزاد نوع من التمر، والتعضوض تمر أسود.

وقالوا: ما أكلنا تمرأ أحمد من التعضوض، أى أشد حلاوة، وتأوه زائدة.

فأفكر ساعة طويلة، ثم قال: لعلك تعني بذت نخيلة، مع لبأسخيلة، فقلت: إياها عنيت، ولأجلها تعنيت، فمنهض نشيطاً، ثم ربحض مُستشيطاً، وقال: اعلم أصلحك الله، أن الصدق نباهة، والكذب عاهة؛ فلا يحملنك الجوع الذى هو شعار الأنبياء، وحلية الأولياء.

على أن تلحق بمن مانَ ، وتخلقَ بالخلق الذي بجانب الإيمان ،
فقد تجوع الحرّة ولا تأكل بشدينها ، وتأبى الدنيّة ولو اضطرت
إليها . ثم إنى لست لك بزبون ، ولا أغضي على صفقة مغبون ، وهأنا
قد أندرتك قبل أن ينهتك السّترُ ، وينعقد فيما بيننا الوترُ ، فلا تُبلغ
تدبّر الإنذار ، وحذار من المكاذبة حذار .

* * *

قوله : «سخيلة» ، السخيلة : ولد الشاة ذكراً كان أو أنثى . تعنيت : تعبت .
وقال أعرابي : أنا أشتهى ثريدة دكّاء من الفلفل ، رَقطاء من الحمص ،
ذات جناحين من اللحم ، لها جناحان من الفواق ، فأضرب فيها كما يضرب وليّ
السوء في مال اليتيم .

وقال رجل لأعرابي : ما يسرني لو بتّ ضيفاً لك ، قال : لو بتّ ضيفاً لي
أصبحت أبطن من أمك قبل أن تلدك بساعة .

قيل لأشعب : ما تقول في ثريدة مغمورة بالسمن ، مشقفة باللحم ؟ قال :
فأضرب كم ؟ قالوا : تأكلها من غير ضرب . قال : هذا ما لا يكون ، ولكن
لم أضرب أو أتقدم على بصيرة ؟

وقيل لمزبد - وقد أكل طعاماً كظاً^(١) : قته ، فقال : وما فيه ! خبز نقي ،
ولحم جدى طري ، امرأته طالق لو وجدت قيثاً لأكلته .

قوله : «نهض» ، تقدّم للمشى . نشيطاً : أى خفيفاً ، وهى من الأنشوطه .
ربض : نزل . مستشيطاً : شديد الغضب . نباهة : رفعة . عاهة : آفة وعيب .

(١) ط : « فكه » ، وما أثبتته من العقد ، والخبر فيه : قيل لمزبد المديني ، وقد أكل
طعاماً كظاً : قى ، قال : أقيّ خبزاً قثياً ، ولحم جدى ! امرأته طالق ، لوجدتهما قيثاً لأكلته .

شعار : علامة ، وشعار المؤمنين في الحرب « لا إله إلا الله » ، أى علامتهم ، والأنبياء عليهم السلام منزّهون عن شهوات المطامع .

أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نور الحكمة الجوع والتباعد من الله الشَّبَع ، والقُرْبَة إليه حَبّ المساكين والدنو منهم . لا تشبعوا فتطفثوا نور الحكمة من قلوبكم ، ومن بات يصلى في خِفة من الطعام ، بات حُور العين حوله حتى يصبح » .

أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : ما أحوجك إلى الجلوس ؟ قال : الجوع ، فبكيت ، فقال : لا تبك ، فإن شدة القيامة لا تصيب الجائع إذا ما احتسب .

قوله : « حلية » : صفة يتحلون بها . وتتخلق : تتطّيع . يجانب : يباعد . وأشار لقوله صلى الله عليه وسلم ، قيل : أيسكون المؤمن كذاباً ؟ قال : لا .

عمر رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ صريح الإيمان عبدٌ حتى يدع المزاح والكذب والمرء ، وإن كان محققاً » .

وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : اتقوا الكذب ، فإن الكذب يجانب الإيمان .

[أصل المثل : تجوع الحرّة ولا تأكل نديها]

قوله : « تجوع الحرّة ولا تأكل نديها » ، أى لا ترضع^(١) لبنها بالأجرة ، ثم تأكلها ، وهو مثل يضرب للذى لا يمنعه من صيافته شدة فقره ، وهذا المثل للحارث بن سليل الأسدي ، وكان خطب إلى علقمة بن خصة الطائي - وكان شيخاً - فقال علقمة لامرأته : اختبرى ما عند ابنتك^(٢) ، فقالت : أى بنتية ، أى الرجال

(١) جهرة الأمثال ١ : ٢٦١

(٢) اسمها الزباء ، كما في الجهرة والميدان .

أحبُّ إليك؟ السَّكَلُ الجَحْجَاحُ الواصلُ المِيتَاحَ ، أم الفَتَى الوضَّاحَ ، الذَّهولُ الطَّمَّاحُ ؟
 قالت : بل الفَتَى ، قالت : إن الفَتَى يُعِيرُكَ ، وإن الشَّيْخَ يُعِيرُكَ ، قالت : يا أُمَّاهُ إن
 الفَتَى شديدُ الحِجَابِ ، كثيرُ العِتَابِ ، يا أُمَّاهُ أخشى من الشَّيْخِ أن يَدْنُسَ ثِيَابِي
 وَيُبِيلَ شَبَابِي ، وَيُسَمِّتَ بِي أَتْرَابِي . فلم تزل أُمُّها بها حتى غلبتها على رأيها .
 فتزوَّجها الحارثَ ، ثم ارتحل بها إلى أهله ، وإنه لجالسٌ ذاتَ يومَ بفناء قُبَّتِهِ ،
 وهى إلى جانبه إذ أقبل شبابٌ من بنى أسدٍ يمتلجون ، فنفست الصَّعْدَاءُ ثم
 بكَّت ، فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : مالى ولا شيوخ ، الناهضين كالفرخ ،
 من كل حوقل فنيخ ؟ فقال : تَكَلَّتْكِ أُمُّكَ ! تجوعُ الحرَّةُ ولا تأكل بشديها ،
 ثم قال : وأبيكَ لربِّ غارةٍ شهديها ، وسبَّيةٍ أردقها ، وخمرة شربتها ، فالحقى
 بأهلك ، فلا حاجة لى فيك .

قولها : « الجَحْجَاحُ » : السيدُ السَّمْعُ . والمِيتَاحُ : الكثيرُ المعروف ، ويُعِيرُكَ
 يتزوَّجُ عليك ، ويُعِيرُكَ : يُمِيرُكَ ، ويمتلجون : يتصارعون . والحوقل : اللِّسَنُ ،
 والفنيخ : الضَّعيفُ الرَّخْوُ . وقول العامة : لا تأكل نديها ، أى لا تأكل لحم الندى
 خطأ لا وجه له ، ويجوز على حذف مضاف تقديره أجزَّ نديها أو ثمنها ، أو
 يكون على الجواز ، كأنها إذا أكلت أجزهما فقد أكلتهما ، ونحوه قول الشاعر :

إذا صبَّ ما فى القمب فاعلم بأنَّه دم الشَّيْخِ فاشرب من دم الشَّيْخِ أو دَعَا

يريد رجلاً أخذاً إبلاً فى دبة أبيه ، فيقول له : إذا شربت لبنها فكأنك
 تشرب دم أبيك .

قوله : « وتأتى الدتية ولو اضطرت إليها » : أى تتمتع من إتيان الفعل
 الدتية ، ولو أُلجئت إليه . والزَّبُونُ : الذى يغلب فى المعاملات ، فعُولُ بمعنى
 مفعول ، لأنه بزىن أى يدفع عن استكمال حقه .

أَغْضَى : أَسَدَلَ جَفَنِي ، أَيْ لَا أَسْكُتُ لَكَ عَلَى الْخُدَاعِ . أَنْذَرْتُكَ : نَبَّهْتُكَ .
يَنْهَيْكَ : يَنْقُطِعُ . الْوِترُ : الْعِدَاوَةُ ، وَقِيلَ : الْفَرْدُ ، فَيَكُونُ مَعْنَى : « يَنْعَقِدُ بَيْنَنَا
الْوِترُ » ، أَيْ يَرْتَبِطُ . وَتَرَى بَوْتَكَ ، أَيْ شَخْصِي بِشَخْصِكَ فِي هَذِهِ الْمَعَامَلَةِ ،
أَوْ عِدَ لِلضَّارِبَةِ مَعَكَ إِنْ خُدَعْتَنِي . تُلْغُ : تَتْرُكُ . الْإِنْذَارُ : التَّحْذِيرُ . حَذَّارُ ،
أَيْ احْذَرُ وَخَفْ .

* * *

قُلْتُ : وَالَّذِي حَرَّمَ أَكْلَ الرُّبَا ، وَأَحَلَّ أَكْلَ اللَّبَاءِ ،
مَا فَهْتُ بَزُورٍ ، وَلَا دَلِيلُكَ بِغُرُورٍ ، وَمَسْتَخْبِرُ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ ،
وَتَحَمُّدُ بَذْلِ اللَّبَاءِ وَالْتِمَرِ . فَهَشَّ هَشَاشَةَ الْمَصْدُوقِ ، وَانْطَلَقَ
مُنْذَرًا إِلَى السُّوقِ ، فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ أَقْبَلَ بِهِمَا يَذْلَحُ ،
وَوَجْهَهُ مِنَ التَّعَبِ يَكْتَلِحُ ، فَوَضَعَهُمَا لَدَيَّْ ، وَضَعَ الْمُتَنُّ عَلَى ،
وَقَالَ : اضْرِبِ الْجَبِشَ بِالْجَبِشِ ، تَحْظَ بِلَذَّةِ الْعَيْشِ . فَحَسَرَتْ
عَنْ سَاعِدِ النَّهْمِ ، وَحَمَلَتْ حِمْلَةَ الْفِيلِ الْمَلْتَمِمْ ، وَهُوَ يَلْحَظُنِي
كَمَا يَلْحَظُ الْحَنَقُ ، وَيُودُّ مِنَ الْغَيْظِ لَوْ اخْتَنَقَ ، حَتَّى إِذَا
هَلَقَمْتُ النَّوْعَيْنِ ، وَغَادَرْتُهُمَا أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ ، أَفْرَدْتُ حَيْرَةً فِي
إِظْلَالِ النَّبَيَاتِ ، وَفِكْرَةٍ فِي جَوَابِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ قَامَ ،
وَأَخْضَرَ الدَّرَاةَ وَالْأَقْلَامَ ، وَقَالَ : قَدْ مَلَأَتِ الْجِرَابَ ، فَأَمِلِ
الْجَوَابَ ، وَإِلَّا فَهَيْئًا إِنْ نَسَكَلْتَ ، لَاغْتَرَامَ مَا أَكَلْتَ ،

فَقُلْتُ لَهُ : مَا عِنْدِي إِلَّا التَّحْقِيقُ ، فَاصْبِرِ الْجَوَابَ ، وَبِاللَّهِ
التَّوْفِيقَ .

* * *

الربا : البيع الفاسد .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من
أكل درهما من ربا ، فهو مثل ثلاث وثلاثين زنية ^(١) ، ومن نبت لحمه من
السُّحْتِ فالنار أولى به » .

فُتِ : نطقت . زور : باطل . دَلَيْتُكَ بغرور : ، يريد أنه لم يعرَّ به بل
صدَّقه . سَتَجَبِر : ستَجَرَّب . هَش : اهْتَزَّ . المصدوق : الذى أخبر بالصدق .
مَغْذًا : مسرعًا ، وقد أَغْذَى إِغْذَاذًا ، إِذَا أَسْرَعَ . يَدْخُلُ : يَتَنَاقَلُ فى المَشْيِ ، وَدَلَّجَتْ
الدَّابَّةُ بِالْحَمْلِ دُلُوحًا ، وَالسَّحَابُ بِالمَاءِ . نَهَضَتْ بِهِ ثَقِيلًا . يَكْلَحُ : يَعِيشُ . المَعْتَنَ :
الْمُتَفَضِّلُ . اضْرَبَ الْجَيْشَ بِالْجَيْشِ ، أَيْ اخْلَطَهُمَا عِنْدَ أَكْلِكَ لهُمَا . تَحْظُ : تَسْعُدُ .
حَسَرْتُ عَنْ سَاعِدٍ ، أَيْ شِمَرْتُ عَنْ ذِرَاعٍ . الزَّهْمُ : الكَثِيرُ الشَّهْوَةِ وَالْحَرَصِ
عَلَى الْأَكْلِ . الْمَلْتَهَمُ : الْمَبْتَلَعُ لِمَا وَجَدَ . يَلْحَظُنِي : يَنْظُرُنِي بِطَرَفِ عَيْنِهِ . الْحَفِيقُ :
الْمُفْتَاطُ . وَحَنْقٌ حَنْقًا : اشْتَدَّ غَيْظُهُ . هَلَقَمْتُ : ابْتَلَعْتُ بِسُرْعَةٍ . غَادَرْتُهُمَا : تَرَكْتُهُمَا .
أُتْرَأَ بَعْدَ عَيْنٍ ، أَيْ بَعْدَ أَنْ كَانَ الطَّعَامُ مَرِيئًا ابْتِلَعْتَهُ فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ أَثَرِهِ الْإِنَاءُ .

* * *

[مشاهير أهل الزرد]

ويليق بهذا الموضع أن نذكر فيه ما شهر من مغربات الزرد^(١) ، قال الشاعر في أكله :

فتضرب خمسَ كفك في ثريدٍ بِلَقْمٍ^(٢) منك منكش الذهابِ
 كأن دويبه في الخلق لما يُهمهم صوتُ رعدٍ أو سحابِ

وقال آخر :

إذا غرّد المصفر طار فؤاده وليتّ حديد الباب عند الثرائد^(٣)

وقال آخر :

لم تر عني آكلامه^(٤) يضرب باليسرى معاً واليمين
تلعب بالقضعة أطرافه لعب أخى الشطرنج بالشاهين
فمن مشاهير أهل الزرد هلال بن أسمر^(٥) المازني ، وهو من شعراء الدولة
الأُموية ، ذكر الأصمعي أنه كان عظيم الخلق شديداً قوياً .

(١) الزرد : سرعة ابتلاع الطعام.

(۷) ب: «یا کل»

(٣) التراث : جمع ثريدة ، وهى ما يهشم من الخبز ويبل بماء القدر

(۱) ب: « غبره » .

(٥) ط : « أسعد » تحريف ، صوابه من ا ، ب ؛ وللهال هذا ترجمة في الأغاني .
٥٢:٣ - ٧٥ - ؛ قال أبو الفرج : « شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية ، وأخته قد
أعرك الدولة العباسية ، وكان رجلا شديدا ، عظيم الخلق أكلوا معدودا في الأكلة » .

قال أبو عمرو بن العلاء : لم أكن أراه حياً ، بل رأيته ميتاً ، فما رأيته على سرير أطول منه .

فل هلال : جمْتُ مرَّةً ، ومعى بعير لى ، فنحرتَه فأكلته إلا ماجملته منه على ظهري ، ثم أردت جماع امرأتى ، فلم أقدر ، فقالت : كيف تصلُ إلىَّ وبيننا بعير^(١) !

وحدَّث شيخ من بنى مازن ، قال : أتاني هلال ، فأكل جميع ما في بيتنا ، فبعثنا إلى الجيران نستقرض الخبز منهم ، فلما رأى اختلافنا ، قال : كأنكم أرسلتم إلى الجيران : «عندكم سويق^(٢) ؟ فأتيتهم بجراب طويل فيه سويق وبرنية^(٣) فيها نبيذ ، فصب السويق كله ، وصب النبيذ ، وازدرد السكل^(٤) .

ومر على رجل من بنى مازن بالبصرة ، ومعه زورق رطب^(٥) ، قد ساقها من بستانه ، فجلس على زورق منها صغير ، مغطى ببارية^(٦) فقال : آكل من رطبك ؟ قال : نعم ، قال : ما يكفيني ؟ قال : ما يكفيك ، فجلس على الزورق يأكل التمر إلى أن اكتفى ، فسَلَت البارية فإذا الزورق مملوء نوى^(٧) .

(١) الأغاني ٣ : ٦٨ ، في خبره من المعتمر بن سليمان ؟ قال المعتمر في آخر الخبر : فقلت له : كم تكفيك هذه الأكلة ؟ قال : أربعة أيام .

(٢) السويق : دقيق الحطة .

(٣) البرنية : لبناء من خرف .

(٤) الخبر في الأغاني ٣ : ٦٩ ، وفيه : « فصب السويق كله ، وصب عليه النبيذ حتى أتى على السويق والنبيذ كله » .

(٥) الأغاني ، : « رطبا في زواريق » .

(٦) البارية : الحسير المنسوج ، وجمعه البوارى .

(٧) الخبر في الأغاني ٣ : ٦٩ .

وقال صدقة بن عبدالله^(١) المازني : أولم^(٢) على أبي لما تزوجت ، فعملنا عشر جفان ثريداً من جزور ، فكان أول^(٣) من جاءنا هلال ، فقدّمت إليه جفنة فأكلها ، ثم أخرى حتى أتى على عشر جفان ، ثم استسقى ، فأتى بقرية من نبيذ ، فوضع طرفها في شدّقه ، فأفرغها في جوفه ، ثم خرج ، فاستأنفنا عمّل الطعام ، ومن أعجب ما أكله مائتا رغيف بمكوك^(٤) بلّح .

وكانت شبعته تكفيه خمسة أيام . وكان لا يقاومه أحد في النجدة .

ومنهم سليمان بن عبيد الملك ، ذكر المسعودي^(٥) أن شبعه^(٦) كانت كل يوم مائة رطل بالعراقي ، وكان ربما أتاه الطبّاخون بسفّافيد فيها الدجاج ، وعليه جبة الوشي ، فبحرصه على الطعام ، كان يدخل يده في كُمّه ثم يقبض على الدجاجة ، وهي حارة فيفصاها .

قال الأصمعيّ : ذكرت ذلك لارشد ، فقال : قاتلك الله ! ما عرفك بأخبارهم ! لقد كنت أرى الدّسم في أكمام جبابه ، ولا أدري ماسببه ، حتى حدثتني^(٧) . وكسائي منها جبة .

وخرج يومان الحمام وقد اشتد جوعه [فاستعجل الطعام ولم يكن فرغ منه]^(٨) فأمر أن يقدّم ما لحق من الشواء ، ولم يكن فرغ من الطعام شيء ، فقدم

(١) الأغاني : « صدقة بن عبيد المازني » .

(٢) أولم على أبي : عمل لي وليلة واجبي .

(٣) كذا في ب ، وهو يوافق ما في الأغاني ، وفي ط : « فأول من جاءنا » .

(٤) المكوك : مكيال يسع ساعا ونصفا ، والخبر في الأغاني ٣ : ٧٠ .

(٥) مروج الذهب ٣ : ١٨٥ .

(٦) الشبع من الطعام : ما يكفيك منه .

(٧) المسعودي : « عرضت على جباب بني أمية ، فظفرت إلى جباب سليمان وإذا كل

جبة منها في كمها أثر كأنه أثر دهن ، فلم أدر ما ذلك حتى حدثتني بالحديث » .

(٨) تسكلة من لمسعودي .

إليه عشرون خروفاً ، فأكل أجوافها مع أربعين رُقاقة ، ثم قدّم الطعام ، فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل^(١) .

قال الشمردل وكيل عمرو بن العاص رضى الله عنه لما قدم^(٢) سليمان الطائف ، دخل بستانيّ هو وعمر بن عبد العزيز ، وأيوب ابنه ، فجال في البستان ساعة ، ثم قال : ناهيك بمالكم هذا مالاً ! ثم ألقى صدره على غصن شجرة ، وقال : ويلك يا شمردل ! عندك شيء تطعمني ؟ فقلت : بلى عندي جدّي ، كانت تغدو عليه بقرة وتروح [عليه^(٣)] أخرى ، قال : عجّل به ويحك ! فأتيته به كأنه عُسْكَة سمن ، فأكله وما دعا^(٤) عمر ولا ابنه حتى إذا بقي الفخذ قال : هلمّ أبا حفص ، قال : إني صائم ، فأتى عليه ، ثم قال : ويلك أعندك شيء ؟ فقلت : سبع^(٥) دجاجات هنديات كأنهن رِثْلان^(٦) النعام ، قال : عجّل بهنّ ، فأتيته بهنّ ، فكان يأخذ برجل الدجاجة فيلقى عظامها بفيه ، فلما فرغ منهنّ قال : ويلك ! أعندك شيء ؟ فقلت : حريرة^(٧) كأنها قرّاضة ذهب ، فقال : عجّلها ، فأتيته بها ، فجعل يشربها شرباً ، فلما فرغ تجشأ فكَانَما صاح في جُبّ ، ثم قال : يا غلام أفرغت^(٨) من غدائي ؟ قال : نعم : فقدّم إليه ثمانين قدراً ، فأكثر ما أكل من قِدر ثلاث لقمات ، وأقل ما أكل لقمة ، ثم مسح يده ، واستلقى على فراشه ، وأذن للناس ، وصُفّت الموائد ، فأكل معهم فما أنكرت من أكله شيئاً .

(١) المسودى ٣ : ١٨٥ .

(٢) الخبر في العقد ٦ : ٣٠١ .

(٣) من ب ، والعقد

(٤) ط : « ما دعا ابنه ولا عمر » ، والصواب ما أنبته من ب والعقد

(٥) العقد « خمس دجاجات » .

(٦) الرثلان : جمع رأل ، وهو فرخ النعام .

(٧) الحريرة : دقيق طليخ بلبن وسمن .

(٨) أى هل آمنت إعداده ؟ كأنه جعل ما التهمه من قبل مقدمة لغدائه .

وسبب وفاته أن نصرانياً أتى بزنبيل مملوء بيضا ، وآخر مملوء تيناً ، فقال :
قَشِّرُوا، فجعل يأكل بيضة وتينة ، حتى أكل الزنَّيبَين ، ثم أتوه بقِصَّة مملوءة
مُحاً بسكر ، فأكله فاتحيم ، فمات .

ومهم عمرو بن معد يكرب ، دخل على عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ،
فقال : من أين أقبلت يا أبا ثور ؟ فقال : من عند سيّد بنى مخزوم ، أعظمها
هامّة ، وأقلها ملامّة ، وأفضلها حلماً ، وأقدمها سلماً ، قال : مَنْ هو ؟ قال :
سيف الله وسيف رسوله خالد بن الوليد ، قال : فأى شئ صنعت عنده ؟ قال : أتيتُه
زائرًا فدعاني بقعبٍ وفرسٍ وثورٍ ، فقال له عمر : وأبيك إن في هذا لشبعا ، قال : لى
أولك ؟ قال : لى ولك ، قال : لى ، فما تقول يا أمير المؤمنين ، إنى لآكل الجذع
من الإبل ، أتتقيه عظماً عظماً ، وأشرب الشنّ من اللبن رائباً أو صريفاً ^(١) .

* * *

قوله : « أفردت » . سكت وخضعت . مالبت : ماتمّلت . الجراب : وعاء
الزاد ، وأراد بطنه . أملّ ، يقال : أمليت عليه إذا ألقيت عليه ما يكتب ، وأمّلت
قمة ، وقيل : الأصل أمّلت ، فأبدل من اللام ياء . نسكت : انقطعت .

* * *

قل لمن يلغز المسائل إننى كاشفٌ سرّها الذى تحفيه
إنّ ذا الميت الذى قدّم الشر عَ أخا عِرسِهِ على ابن أبيه
رجلٌ زوّج ابنه عن رضاهُ محمّاة له ، ولا غزو فيه

(١) الشنّ : القربة ، والرائب : اللبن الممخوض ، والصريف : اللبن ساعة يحلب .
(١٢ - شرح مقامات الحررى - ٢)

ثمَّ مات ابنه وقد علقت منه فجاءت بابن يسر ذويه
 فهو ابن ابنه بغير مرأ وأخو عزمه بلا تمويه
 وابن الابن الصريح أدنى إلى الجدد وأولى بإرثه من أخيه
 فلذا حين مات أوجب للزوجة ثمن الترات تستوفيه
 وحوى ابن ابنه الذى هو فى الأصـ

ل أخوها من أمها باقية
 وتخلّى الأخ الشقيق من الإز ث وقلنا يكفيك أن تبكيه
 هاك منى الفتيا التى يحتذوها كل قاض يقضى وكل فقيه

* * *

لاغرّو : لاعجب . علقت : حملت . ذويه : قرابته ، وأضاف « ذوى » إلى
 المضمر ، وهى لغة قليلة ، ومنعها بعضهم ، وجوزها جماعة من أئمة اللغة .
 وقال أبو على الفارسي : اللهم صلّ على محمد وذويه ، تحلّوا « ذوى » على
 الأصحاب .

الأزهرى : سمعت غير واحد من العرب ، يقول : كنّا مع ذوى عمرو ،
 يعنى مع أصحاب عمرو ، وهو كثير فى كلام قيس ومن جادهم .
 وقال الحريرى فى الدرة^(١) : ويقولون : رأيت الأمير وذويه ، فيهمون فيه ،
 لأن العرب لم تنطق بذى ، الذى يعنى صاحب إلّا مضاناً إلى اسم جنس ، كقولك :
 ذو مال وذو نوال ، فأما إضافته إلى الأعلام أو إلى أسماء الصفات المشتقة من

الأفعال فلم تُسمع بحال ، ولهذا لَحْنٌ من قال : صلى الله على محمد وذويه ، وكما لم يقولوا : ذو^(١) أبي ولا ذو أمي ، واقتصروا على إضافته إلى الجنس ، ولهذا لم يرفع السببي لأنه ليس بمشتق [من فعل]^(٢) ، فلا يقال : سررت برجل ذي مال أخوه ؛ وتصحيحه ذو مال أخوه^(٣) ، لأن النكرة تختص بأن توصف بالجملة^(٤) .

* * *

قوله : « مرأى » جدال . تمويه : كذب . للصريح : الخالص . أدنى : أقرب .
للثراث : اللال للوروث . حوى : حاز . تحلى : خرج بلا شيء . هلك : خذ . يحذنها :
يتبعها ويعمل بها .

وتقريب هذا اللفز أن تقول : رجل وابنه وامرأة وابنتها ، تزوج الرجل البنت ، والابن الأم ، فمات الابن ، وقد حملت منه الأم ، فوضعت غلاماً ، فكان للرجل ابن ابنه ، ولزوجته أخاً لأم ، ثم مات الرجل وترك أخاً فورثت زوجته الثمن ، وأخوها من أمها الباقي ، لأنه ابن ابن الميت ، وهو يجب الأخ ، كما كان يحببه الابن لو كان حياً .

ومثله قول الآخر :

وقائلة أوصي الفداءَ فإنني أرى الموت قد حطت لديك ركايبه
فقلت وقد راع الفؤادَ مقالها وضاعت به خوف الحمام مذهبها
لك الثمن إن حانت وفاتي فريضة وسائر ما يبقى فصنوك صاحبه

جوابه :

تعلم فإن العالم أكبر ملبس لمن شرفت أخلاقه ومذهبها

(١) القدرة : « كما لم يقولوا : ذو عالم ولا ذو ظريف ؟ لم يقولوا : ذوهي ولا ذوامير ،
وقصروا ذا على إضافته إلى الجنس » . (٢) من ذرة الفواس .
(٣) ذرة الفواس : « أبوه » . (٤) ذرة الفواس ٨٥ .

حليّة هذا أمّها زوجة ابنه فذلك والإلغاز جمّ عجائبه
فإن ابنه صنّوْ زوجته ومنّ يقرّ بعرف العلم تعلّو مراتبه
فميراثها ثمنٌ وللصنّو ما بقي كذلك يقضى من تعالت مناقبه

وللتقدّم للسؤال في هذه المسألة عبد الملك بن مروان ، وذلك أنه وقف به رجلٌ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا تزوّجت امرأةً ، وزوّجتُ ابني من أمّها ، فامدّدنا بشيء نستعين به . فقال له : إن أخبرتني كيف يدّعي ابنُ كلٍّ واحدٍ منكما لابن صاحبه ، فأنا أرفدُك ، وإلا فلا أعطيك شيئاً . فقال له الرجل : فسَلْ عن ذلك كاتبك وصاحب شُرطَتِكَ ، فإن أجاباك ، فما تعاطيه لي ، فادفعه إليهما ، وإلا فأنا أعذر . فسألها فلم يعرفاً ذلك ، فابتدر رجلٌ من آخر الصفوف ، وقال له : أرايتَ إن أخبرتك ، أتعطيني ما ذكرتَ للسائل؟ فقال له : نعم ، فقال ابن الأب عمّ ابن الابن وابن الابن خال ابن الأب ، فوصله .

فهذا أخفّ أمراً في الظاهر من التّوارث الذي فرض الحريريّ ، وأشكّل في المعنى .

* * *

قال : فلما أثبتَ الجوابَ ، واستثبتُ منه الصّوابَ ، قال لي : أهلكَ والليل ، فشمرَ الذّيلَ ، وبادرَ السّيلَ ، فقلت : إني بدارِ غُرْبة ، وفي إيوائى أفضلُ قُرْبة ، لاسيّما وقد أغدَفَ جُنْحُ الظّلامِ ، وسَبَّحَ الرّعدُ في النّمام ، فقال : اغرُبْ عافاك الله إلى حيث شئت ، ولا تطمّع في أن تبيت ، فقلت . ولم ذاك ، مع خلوّ ذراك ؟

قال : لِأَنِّي أُنْعَمْتُ النَّظَرَ ، فِي التَّقَامِكِ مَا حَضَرَ ، حَتَّى لَمْ
تَبْقَ وَلَمْ تَذَرْ ، فَرَأَيْتُكَ لَا تَنْظُرُ فِي مَصْلَحَتِكَ ، وَلَا تَرَاعِي
حِفْظَ صِحَّتِكَ ، وَمَنْ أَمِنَ فِيهَا أَمَعَتْ ، وَتَبَطَّنَ مَا تَبَطَّنْتَ ،
لَمْ يَكِدْ يُخْلَصُ مِنْ كِطَّةٍ مُدْنِفَةٍ ، أَوْ هَيْضَةٍ مُتْلِفَةٍ ،
فَدَعَنِي بِاللَّهِ كِفَافًا ، وَاخْرُجْ عَنِّي مَا دُمْتُ مَعَايَ ، فَوَالَّذِي يُحْيِي
وَيُمِيتُ ، مَالِكٌ عِنْدِي مَيِّتٌ .

فَلَمَّا سَمِعْتُ أَلَيْتَهُ ، وَبَلَوْتُ بَلَيْتَهُ ، خَرَجْتُ مِنْ يَتِيهِ
بِالرَّغْمِ ، وَتَزَوَّدَ النِّعَمُ ، تَجَوَّدَنِي السَّمَاءُ ، وَتَخَبَّطُ بِي الظُّلُمَاءُ ،
وَتَنْبَعْنِي الْكِلَابُ ، وَتَقَاذِفُ بِي الْأَبْوَابُ ، حَتَّى سَاقَنِي إِلَيْكَ
لُطْفُ الْقَضَاءِ ، فَشَكَرًا لِيَدِهِ الْبَيْضَاءِ !

* * *

قوله : « أَثَبَّتْ » صحَّح . استثبت ، أى وجده ثابتاً . أهلك والليل ، كلام
للعرب ، كأنه قال : بادِرْ أهلك قبل الليل ، وتحقيق المعنى في ذلك أنه عطف الليل
على الأهل ، وجعلهما مبادرين ، ومعنى المبادرة مسابقتك الشيء ، كقولك :
بادرت زيدا المنزل كأني سابقته إليه ، وكان الليل والرجل المحاطب يتسابقان إلى
أهل الرجل ، فأمره الأمر أن يسابق الليل إليهم ، ليكون عندهم قبل الليل .
شمر الذيل ، أى ارفع ساقك ، واستعد للمشي . إيوائى : ضجى . قُرْبَةً : مأْيَة تَرْب
يه من أعمال البر . أعْدَف : أسبل وأرسل ، ومنه قول عنتره :

إِنْ تُغْدِي فِي دُونِي الْقِنَاعَ فَإِنِّي طَبْتُ بِأَخْذِ الْقَارِسِ الْمُتَلْتِمِ (١)
وَلَمَّا قِيلَ لِلْغُرَابِ غُدَّافٌ لِسَبُوحِ رِيْشِهِ .

وَقَالَ رُوْبِيَّةٌ يَخَاطِبُ أَخَاهُ : (٢)

* نُبِتَ مِنْ جَنَاحِكَ الْغُدَّافِي *

جُنَّحَ الظَّلَامِ : مِيلَهُ ، وَجَنَّحَ اللَّيْلُ جَنُوحًا ، وَأَجْنَحَ : مَالٌ ، وَهُوَ مِنَ الْجَنَاحِ
وَكَانَ الطَّائِرُ إِذَا عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ طَيْرَانِهِ ، فَيَرْجِعُ يَطِيرُ إِلَى جِهَةِ جَنَاحِهِ ، قِيلَ لَهُ :
جَنَّحَ ، ثُمَّ اسْتَعِيرَ فِي اللَّيْلِ وَغَيْرِهِ ، كَمَا قِيلَ : نَسَّكَبَ عَنْ طَرِيقِهِ ، هِيَ مِنَ الْمُنْكَبِ ،
كَأَنَّهُ قَالَ : مَالٌ بِمَشِيهِ إِلَى جِهَةِ مَنْكِبِهِ .

سَبَّحَ : صَوْتٌ . النَّهَامُ : السَّحَابُ . اغْرُبَ : غَبَّ وَابْعَدَ . ذَرَاكَ : مَنْزَلَكَ .
أُنْعِمْتَ : بَالَفْتَ . تَرَاعَى : تَحَفَظَ . أَمْعَنَ : كَثُرَ ، وَتَقُولُ : أَمْعَنُ لِي بِحُجِّي ،
اعْتَرَفَ بِهِ وَأُظْهِرَهُ ، مَأْخُوذٌ مِنَ الْمَاءِ الْمَعِينِ ، وَهُوَ الْجَارِي الظَّاهِرُ .

الْفَرَاءُ : الْمَعِينُ مِنَ الْمَاعُونِ ، أَوْ مَفْعُولٌ مِنَ الْعِيُونِ .

تَبَطَّنَ : مَلَأَ بَطْنَهُ . كِفْطَةً : امْتَلَأَ الْبَطْنَ . مَدَنَفَةً : مَمْرُضَةً . هَيْضَةً : انْطِلَاقَ
الْبَطْنِ بِالْقِيِّ وَالْإِمْسَالِ . كِفَافًا : مَسَالَةً ، أَيْ كَفَّ عَنِ شِرْكٍ وَخَيْرِكِ . مَعَافَى :
سَالِمًا مِنَ الْآفَاتِ .

(١) المعلقة - بشرح التبريزي ٢٥٦ ؛ قال: الإغْداف: لإرخاء القناع على الوجه . والطَّبُّ :
الحافِظُ . ورواه : « المستلثم » والمستلثم : الذي قد لبس اللأمة ؛ وهى الدرع .
(٢) اللسان - غُدْف ، وروايته .

* رُكِّبَ فِي جَنَاحِكَ الْغُدَّافِي *

وَبَعْدَهُ :

* مِنَ الْقُدَّاحِ وَمِنْ الْخَوَافِ *

أَتَيْتُهُ : يَمِينُهُ . بَلَوْتُ : خَبِرْتُ وَشَاهَدْتُ . الرَّغْمُ : الدَّلَالَةُ . تَجَوَّدَنِي : تَمَطَّرَنِي .
وَالسَّمَاءُ : الْمَطَرُ هُنَا .

وَتَذَكَّرْتُ بِهَذِهِ الْحَالَةِ خُرُوجِ السَّلَامِيِّ مِنْ دَارِ الشَّرِيفِ الرُّضِيِّ فِي عَشِيَّةٍ
مَاطِرَةٍ ، فَأَعْطَاهُ كِسَاءً اسْتَتَرَ بِهِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَنْزِلِهِ كَتَبَ إِلَيْهِ بِقَصِيدَةٍ :

منها : (١)

وَدَّعْتُ دَارَكَ وَالسَّمَاءَ تَجَوَّدَنِي بِيَدِ الْغَنَامِ فَلَا يَكُنْ بِكَ مَا بِي (٢)
مَا كُنْتُ إِلَّا جَنَّةً فَارْقَتْهَا كَرِهًا فَضُبَّ عَلَى سَوَاطِينِ عَذَابٍ (٣)
وَرَأَيْتُ غَالِيَةَ الطَّرِيقِ وَمِسْكَةً طَيِّبًا مَعْدًا لِي عَلَى الْأَبْوَابِ
وَحَيَّ كَسَاؤُكَ لَا عَدَمْتُ مُعِيرَهُ دُرَاعَتِي وَعِمَامَتِي وَجِبِّي (٤)
فَوَلَيْتُ يَابِحَ السَّمَاحَةِ كُسُوتِي وَوَلَيْتُ أَخُوكَ الْغَيْثُ بَلَّ ثِيَابِي
فَوَصَلْتُ أَشْكُرُ ذَا وَأَشْكُو ذَا وَبَالَ
عَيْنَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّسَكُّبِ

وَقَالَ آخِرُهَا حَسَنٌ :

وَعِمَامَةٌ نَثَرَتْ دُمُوعًا عِنْدَمَا نَثَرَ النَّسِيمُ جُجَانَهَا تَسْبِيكًا
تَهْدِي السَّقُوفَ جَانَهَا مَتَفَرِّقًا وَتَمُدُّهُ عِنْدَ السَّقُوفِ سُلُوكًا

وَقَالَ ابْنُ شَهِيدٍ فَأَحْسَنُ :

وَمَرْتَجِزٍ أَلْتَقَى بِذِي الْأَمَلِ كَلْكَلًا وَحَطَّ بِجُرْعَاءِ الْأُبَارِقِ مَا حَطَّ (٥)
سَعَى فِي قِيَادِ الرِّيحِ يَسْمَحُ لِلْعَبَا فَأَلْقَتْ عَلَى غُبْرِ التَّلَاعِ بِهِ مِرْطَا

(١) من قصيدة ذكرها صاحب البيتية في ٢ : ٣٨٢ - ٣٨٤ ، ومطلعا :

ما زال بي مهر الشيبية جاحجا حتى حملت على المشيب الكبابي

(٢) البيتية : « فلا أرى بك ما بي » .

(٣) ط : « صوب حذابي » ، تصحيف .

(٤) ديوانه ١٢١ .

وما زال يروى التّرب حتى كسا الرّبا

درانك ، والغيطان من نسجه بسطاً

وعنت له ريح تساقط قطره كما نثرت حسناء عن جيدها سبطاً

قوله : « تخبط » أى تجعلنى أمشي فيها على غير هدى . تتقاذف : تترامى

وتتطارح ، وجعل الأبواب يرميه بعضها على بعض ، لما كان يقرعها ولا تفتح له .

لطف القضاء ، أى رفق قدر الله وقضائه . يده البيضاء : نعمته الكريمة ،

وتقول : لفلان على يد بيضاء أى نعمة ، وجمعها أياد .

[مما قيل في شكر النعمة]

قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من

أهدى إلى قوم نعمة فلم يشكروها له استجيب له فيهم » .

قال عبد الله بن المبارك : أقبل نصر بن سيار : فقال : اللهم إني أهديت

إلى بسام نعمة فلم يعذلني بشكرها ، فاجعل موتهم قتلاً بالسيف . فبلغني أنه قتل منهم سبعون رجلاً .

وقال أبو نواس وأتى بمعنى بديع :

قد قلت للعباس معتذراً من ضعف شكره ومعتزفاً^(١)

أنت امرؤ جَلَّلتني نعمة

أوهت قوى شكرى فقد ضَعُفنا

فإليك بعد اليوم تقدمة لا قوتك بالتصريح مكنتها

لا تحدثن إلى عارفة^(٢) حتى أقوم بشكر ماسلفنا

(١) ديوانه ٧١ .

(٢) الديوان : « لامتدين » .

أعترضه الناشئ في معناه فقال :

إن أنت لم تحدثْ إليَّ يداً حتى أقوم بشكر ماسلماً
لم أحظَّ منك بنائلٍ أبداً ورجعت بالحرمان منصرفاً

وقال طريح :

طلبت ابتغاء الشُّكرِ فيما صنعت بي
فقصَّرتُ مغلوباً وإني لشاكِرُ
وقد كنت تعطيني الجزيلَ بدايةً وإني لما استكثرتُ منك لحاقِرُ
فأرجع منبوطاً وترجع بالتي لها أوَّلٌ في المكرمات وآخِرُ

وقال آخر :

رهنت يدي بالشكر في شكر برّه
وما فوق شكرى للشكور مَزِيدُ
ولو أن شيئاً يستطاع استطاعته ولكنَّ ما لا يستطاع شديد

وقال إبراهيم بن العباس الصولي :

فلو كان للشكر شخص يبينُ إذا ما تأمله الناظرُ^(١)
لثَلَّتهُ لك حتى تراه فتعلم إني امرؤٌ شاكرُ
وهذا الباب من الشكر وإن وفينا حقه هنا يأتي متفرقاً في الكتاب .

* * *

[البطنة وقولهم فيها]

ولما ذكر البطنة وخطرها ، وأنها أوجبت عليه خروجه من منزل ضيفه على الحالة التي وصف ، أردنا أن نصلها بما يشاكلها .

ومما جاء في ذم البطنة من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يشتري غلاماً وضع بين يديه تمرأ ، فإن أكل كثيراً قال : ردّوه ، فإن كثرة الأكل من الشؤم .

وقيل للتشترى : الرجل يأكل في اليوم مرة ؟ قال : أكل الصديقين ، قيل : فمرتين ؟ قال : أكل المؤمنين . قيل : فثلاثاً ؟ قال : قل لأهلك يبنوا لك مقاماً .

ويصح أن يكون الرجل وصافاً لبطنه وفرجه ، وإن من المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهي .

وقال عمرو بن العاص لمعاوية رضي الله عنهما يوم الحسكين : أكلتوا الطعام ، فوالله ما بطن قوم قط إلا فقدوا بعض عقولهم ، وما مضت عزيمة رجل بات بطناً .

وقال بعض الحكماء : لكل شيء صدأ وصدأ القلوب شيع البطون .

عزم المتعصم يوماً على الاصطباح ، وأمر ندماءه أن يطبخ كل واحدٍ منهم قِذراً ، فدخل عليه غلام ابن أبي دواد ، فقال المتعصم : الساعة يأتي ابن أبي دواد ، فيقول : فلان الهاشمي ، وفلان القرشي والأنصاري ، فيقطعنا بجوانحه عما عزمنا عليه ، وأنا أشهدكم أني لا أمضي له يومى هذا حاجة ، فلم يتم الكلام إلا والحاجب يستأذن به ، فقال جلسائه : كيف ترون ؟ فقالوا : لا تأذن له ، فقال : سوأة لكم ! الحمى سنة أهون على من ذلك ، ودخل فما هو إلا أن سلم وجلس

وتكلم حتى ضحك المعتصم ، وسفر وجهه إليه ، ثم قال : يا أبا عبد الله ، لقد طبخ كل واحد من هؤلاء قِدرًا ، وقد جعلناك حكمًا في طبخها ، قال : فليحضر كل واحد قدره وآكل ، ثم أحكم فيها . فوضعت بين يديه ، فأكل من أول قِدر أكلًا كثيرًا ، فقال المعتصم : هذا ظلم ، قل : وكيف ذلك ؟ قال : لأنني أراك أُمعنت في هذا اللون ، وستحکم لصاحبه ، فقال : على أن آكل من القُدور كلها مثله ، قال : شأنك ، فأكل ثم قال : أمّا هذه فقد أجاد طبّاخها ، إذ قلل خلمها وكثّر زيتها ، ثم أكل من كل قِدرٍ كذلك ، ووصف القُدور كلها بصفات حسنة مُرَّبَّها أصحابها ، ثم قُدِّمَ الطعام ، فأكل مع القوم كما أكلوا ، أنظف أكل وأحسنه ، وهو يحدّثهم بأخبار الأكلة في صدر الإسلام ، كما عايناه وعبد الله ابن زياد ، والحجاج وسليمان بن عبد الملك . وعن أكلة دهره مثل مَيْسرة التمار ، ودَوْرَق النصاب ، وحاتم الكيال ، وإسحاق الحمّامي .

فلما رفعت الموائد قال له المعتصم ، وقد أطر به حديثه : ألك حاجة يا أبا عبد الله ؟ قال : رجل من أهل بيتك ، وطنه الدهر ، وغير حاله ، قال : ومن هو ؟ قال : سليمان بن عبد الله ، قال : قدّر له ما يصلحه ، قال : خمسون ألفًا ، قال : قد أخذت ذلك له ، قال : ولي حاجة أخرى ، ثم ذكر ثلاث عشرة حاجة لا يرده عن شيء منها ، ثم قام خطيبًا ، فقال : عمرك الله يا أمير المؤمنين طويلاً فعمرك^(١) تُخَصِّبُ جَنّات رعيّتك ، ويلين عيشهم ، وتنمو أموالهم ، ولازلت ممعًا بالكرامة والسلامة ، مدفوعاً عنك حوادث الأيام وغيرها ، ثم انصرف . قال المعتصم : هذا والله يترى الملك بمثله ، ويتنهج بقربه ، أمارأيت كيف دخل ، وكيف تكلم ، وكيف أكل ، ثم انبسط في الكلام ، وكيف طاب به أكلنا ، ما برؤ هذا عن حاجته إلّا لئيم الأصل ، والله لو سألتني في مجلسي هذا ما قيمته

عشرة آلاف ألف ما رددته عنها ، وأنا أعلم أنه يكسبني في الدنيا حداً ، وفي الآخرة ثواباً .

وفيه يقول أبو تمام :

لقد أنست مساوئ كلِّ دهرٍ محاسنُ أحمد بن أبي دُوَادٍ^(١)
وهذه الحكاية تنظم في حكايات أهل الزرد المتقدمين في المقامة ، وقد احتوت على رجال موصوفين بذلك ، ختمنا بها الباب .

* * *

فَقُلْتُ لَهُ : أَحَبُّ بِلِقَائِكَ الْمُنَاحِ ، إِلَى قَلْبِي الْمُرْتَاحِ ، ثُمَّ
أَخَذَ يَفْتَنُ فِي حِكَايَاتِهِ ، وَيُشْمِطُ مُضْحِكَاتِهِ بِمَكَايَاتِهِ ، إِلَى أَنْ
عَطَسَ أَنْفُ الصَّبَاحِ ، وَهَتَفَ دَاعِي الْفَلَاحِ ، فَتَاهَبَ لِجَابَةِ
الدَّاعِي ، ثُمَّ عَطَفَ إِلَى وَدَاعِي ، فَوَقَّتُهُ عَنِ الْإِنْبَعَاثِ ،
وَقُلْتُ : الضِّيَافَةُ ثَلَاثُ ، فَنَاشَدَ وَحَرَجَ ، ثُمَّ أَمَّ الْمَخْرَجَ ، وَأَنشَدَ
إِذْ عَرَجَ :

لَا تَزُرْ مَنْ تَحِبُّ فِي كُلِّ شَهْرٍ
غَيْرَ يَوْمٍ وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ
فَاجْتَلَاءَ الْهَلَالِ فِي الشَّهْرِ يَوْمٌ

ثُمَّ لَا تَنْظُرُ الْعُيُونُ إِلَيْهِ
قال الحارث بن همام : فَوَدَّعْتُهُ بِقَلْبٍ دَاخِي الْقُرْحِ ، وَوَدَدْتُ
لَوْ أَنَّ لِي لَتَى بَطِيئَةُ الصَّمِيعِ .

* * *

قوله : « أحبب » ، تعجب معناه : ما أحب لقاءك إلى قلبي . المتاح : المقدّر ،
واللراتاح : المهتزّ طرباً . يفتنّ : ينوّع . وبشّط : يخلط . أنفه : أوله ، وجعل
للمصباح أنفاً عاطساً مجازاً لما كان يدفع ظلمة الليل . هتف : صاح . داعى الفلاح ،
هو اللؤذّن . والفلاح : البقاء . تاهب : استعد . عُمته : حبسته . الانبعاث :
النهوض .

وذكر أن الضيافة ثلاث : لأنه جاء في حديث أبي شريح الخزاعي رضي الله
عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر
فليكرم ضيفه » . وجائزته يوم وليلة ، والضيافة ثلاث ، ولا يحل له أن يتوكل
عنده حتى يخرج به ، فما أنفق عليه بعد ثلاث فهو صدقة .

أبو عبيدة : جائزته يوم وليلة ، أي يعطى الضيف بعد إكرامه ثلاثة أيام
ما يجوز به يوماً وليلة ، يقال : أسف بجائزة وجيزة ، وجوزة ، أي قدر ، يجوز به
السافر من منهل إلى منهل .

ومن ملح باب الضيافة ، قال اللبرّد : أضاف رجل رجلاً فأطال المقام حتى
كرهه ، فقال الرجل لامرأته : كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه ؟ فقالت له : ألق
بيننا شراً حتى نتحاكم إليه ، ففعل ، فقالت المرأة للضيف : بالذي يبارك لك في
غدوك غداً ، أيثا أظلم ؟ فقال : والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهراً ما أعلم .

ونزل بصري على مدني ، وكان صديقاً له ، فألح عليه في الجلوس ، فقال
للمدني لامرأته : إذا كان غداً فإني أقول لضيفنا : كم ذراع يقفز فأقفز ، فإذا قفز
فأغلقي الباب خلفه ، فلما كان من الغد ، قال له المدني : كم قفزك يا أبا فلان ؟
قال : جيد ، فعرض عليه أن يقفز معه ، فأجاب به ، فوثب المدني من داره إلى
خارج أذرعاً ، وقال للضيف : ثب أنت ، فوثب للضيف إلى داخل الدار

ذراعين، فقال له : وثبت أنا إلى خارج الدار أذرعاً ، وأنت إلى داخلها ذراعين ،
فقال الضيف : ذراعان من الدار خير من أربع إلى « برآ » .

الأزهري : برآ مولدة .

قوله : « ناشد » حَلَف . حَرَّج : وكَدَّ يمينه ، أى لا يقيم ، والحرَج :
الإثم .

ابن الأنباري : تَحَرَّج فلان عن كذا ، أى تَدَيَّنَ وضيق على نفسه ، والحرَج
عندهم الضيق . أمّ : قصد . عَرَّج : التوى عن الباب منصرفاً . اجتلاء : نظو .
القرُح : الجرح ، وأنشد الثعالبي في هذا المعنى ، قال :

عليك بإقلال الزيارة إنهم إذا كثرت كانت إلى المجر مسلكا
فإني رأيت النيث يسأم دائماً ويسأل بالأيدى إذا هو أمسكا
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « زر غيباً تزدد حباً » .

نظمه الشاعر فقال :

إذا شئت أن تُقَلَى فزر متواتراً وإن شئت أن تزداد حباً فزر غيباً
وقالوا : قلة الزيارة أمان من اللالة .

وقالوا في ضده : ترك الزيارة سبب القطيعة .

وقال علي رضي الله عنه : الصبر من كرم الطبيعة ، والمن مفسدة الصنعة ،
وترك التعاهد للصديق يكون داعية القطيعة .

وقال عبد الصمد بن المعذل في ضده هذا : وأن يحافظ على الصداقة بظهر
الغيب ، ويمدح إبراهيم بن الحسن :

بأمن فدت نفسه فحسبى وقد جعلت له وقاء لمن يخشى وأخشاه
أبلغ أخاك وإن شطَّ المزمار به لمأى وإن كنت لا ألقاه ألقاه

وإنَّ طرفَ موصول برؤيته وإن تباعد عن مشواى مشواهُ
الله يعلم أنى لست أذكره وكيف يذكره مَنْ ليس ينساهُ
لا شيء مما نرى إلا له شبهة وما لكم آل إبراهيم أشباهُ
عذراً فهل حسن لم يُنعمِ حسنٌ وهل فتى عدلت جدواه جدواهُ

قال أبو العتاهية :

أقلل زيارتك الصديق ولا تطلْ إنيانَه فتلجَّ في هجرانِه^(١)
إنَّ الصديق يلج في غشيانَه لصديقه فيلجَّ في عصيانَه
حتى تراه بعد طول سروره وكأنه متبرِّمٌ بمكانِه
وإذا تولَّى عن صيانَةِ نفسه رجلٌ تُنقصَ واستُخفَّ بشانِه

وإفراط البرِّ بالصاحب داع إلى كثرة الإخجال، ومانع من العودة بعد الانفصال .

وكتب ابن عمار إلى ابن زريق ، وقد عتب عليه ، أن اجتاز ببلده ولم يلقه
هذه الأبيات :

لم يلو عنك عفاى سلوةً خطرتْ ولا فؤادى ولا سمى ولا بصري
لكن عدتني عنكم خجلة عرَضتْ كفانى العذر منها بيت معتذر
لو اختصرتم من الإحسان زركمُ والعذبُ يهجر للإفراط في التحصر^(٢)
ضمن ابنُ عمار هذا البيت أحسن تضمين ، وهو للمعري ، وما قيل في

(١) ديوانه ٣٣٢ ؛ وفيه : « حدث رجاء مولى صالح الشهرزورى ، قال : كان أبو العتاهية صديقا لصالح الشهرزورى ، وآانس الناس به ، فبأله أن يكلم الفضل بن يحيى في حاجة له ، فقال له صالح : لست أكلمه في أشباه هذا ، ولكن حلنى ماشئت فى مالى : فانصرف عنه أبو العتاهية ، وأقام أياما لا يأتيه ، ثم كتب إليه : « أقلل زيارتك الصديق .. » الأبيات فلما قرأ الأبيات قال : سبحان الله ! أتخرجنى لمنى لياك شيئا ؟ تعلم أنى ما ابتذلت نفسى له ، ونفسى مودتى ، ومن دون ما بينى وبينك ما أوجب عليك أن تعذرنى . وذكر نهرأ بعده .
(٢) سقط الرند ١٢٠ ، والمحصر : البرد .

المعجز عن الشكر أحسن منه ، والإقلال بمنع تلاقي الأحباب ، ويحطّ من هم
ذوى الأحساب ، فإنه إذا لم يكن عندك ما تقدّم بين يدى ضيفك أو زائر
تمنيت إذا حلّ بك ألاّ تراه .

وقال حبيب :

وسَيَّانٍ عِنْدِي صَادِفُوا إِلَى مَطْعَمًا أَعَابَ بِهِ أَوْ صَادِفُوا إِلَى مَقْتَلًا^(١)

وقال ابن الجدي :

وإِنِّي لَصَبٌّ بِالتَّلَاقِ وَإِنَّمَا يَصْدُ فَوَادِي عَنْ مَعَاذِ بَرَكِ الْعَسْرِ^(٢)
أَذُوبُ حَيَاءٍ مِنْ زِيَارَةِ صَاحِبٍ إِذَا لَمْ يُسَاعِدْنِي عَلَى بَرِّهِ الْوَفْرِ
وَفِي الْمَقَامَةِ الَّتِي تَلَى هَذِهِ فَنُثْنٍ مِنَ الزِّيَارَةِ ، تَقِفُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

* * *

(١) ديوانه .

(٢) فَلَائِدُ الْمُقْبَانِ . .

المقامة السادسة عشرة وتعرف بالمغربية

حكى الحارثُ بن همام ، قال : شهدتُ صلاةَ المغرب ،
في بعض مساجدِ المغرب ، فلما أدَّيْتُها بفضْلِها ، وشَفَعْتُها بنفْلِها ،
أخذ طَرَفِي رَفَقَةً قد انتبذُوا ناحِيَةً ، وامتازُوا صَفْوَةً صافيةً ،
وهم يتعاطونَ كأسَ المناقفةِ ، وَيَقْتَدِحُونَ زِنَادَ المُبَاحِثَةِ ،
فرغبتُ في مُحَادِثَتِهِمْ ، لكلمةٍ تستَفَادُ ، أو أدبٍ يُستَرَادُ ،
فسمعتُ إليهم ، سَمَى المتطفلُ عليهم .

* * *

أدَّيْتُها : تَمَّتْها . شَفَعْتُها : رَوَّجْتُها ، يريدُ أَنَّهُ صَلَّى الفريضةَ ، ثم صَلَّى النافلةَ
بفضْلِها ، يريدُ أَنَّهُ صَلَّىهَا في الجماعةِ ، وهي أَفْضَلُ من صلاةِ الفَذِّ . انتبذوا :
اهتردوا ، وصاروا إلى جهةٍ وزاويةٍ من المسجدِ . وامتازوا : انفصلوا . صفوة :
خياراً . يتعاطون : يعطى بعضهم بعضاً . المناقفة : الحادثة . يقتدحون ، أى
يضرِبونها ويستخرجون نَارَها . المباحثة : المناظرة في العلم .

* * *

[المتطفل وأصل اشتقاقه]

المتطفل : الآنى إلى الطعام من غير أن يُدْعَى ، وهو الوارث ^(١) عند العرب .

(١) الوارث : الواغل .

وتُطْفَلُ : تشبه بِطُفيل العرائس ، وهو طُفيل بن دلال الدارمي ، يسمّى طفيل بالأعراس ، وطُفيل العرائس ، لكثرة دَوْرَانِه على حضورها ، ومشاهدته لها ، والأكل منها ، من غير أن يُدعى إليه ، واسمه مشتقٌّ من الطُّفْل ، وهو إقبال الليل على النهار .

أبو عمرو : الطُّفْل : الظلمة .

ابن الأعرابي : ويقال للطفيلي اللعموظ ، والجمع اللعاميظ^(١) .

وطُفيل من بنى عبد الله بن غطفان ، كان يأتي الأعراس ولم يدع . ومسكته بالكوفة ، وكان يقول : ودِدْتُ أَنْ الكوفة بركة مُصهرجة ، فلا يخني عليّ فيها دخان ، فُسب إليه كل من يتطفّل ، نسبة مذهب لانسب ، والتطفّل من أخلاق الثّام، وسجايا الأوغاد ، ومنهى عنه في الشرع .

ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ دُعِيَ فلم يُجب فقد عصى الله ورسوله ، ومن دخل على غير دعوى دخل سارقاً وخرج مُفيراً » .

عائشة رضى الله عنها : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من دخل على قوم لطعام لم يدع فأكل دخل فاسقاً ، وأكل حراماً » .

* * *

[من أخبار الطفيليين]

ونسوق هنا فصلاً للطفيليين ، يكون في هذه المقامة بمنزلة فصل الأكلة في المقامة التي قبل هذه لأن حالتها متقاربة .

(١) في اللسان : اللعمظ : الشهبان الحريص ، ورجل اعطة ولعموظة ؟ وهو المرء

التهم .

فمن ذلك ما يحكى عن بشار الطفيلي أنه قال : رحلتُ يوماً إلى البصرة ، فلما دخلتها قيل لى : إنَّ هنا عريفاً للطفليين يبرِّم ، ويكسوم ويرشدم إلى الأعمال ويقاسمهم . فسرت إليه فبرَّني وكساني ، وأقت عنده ثلاثة أيام ، وله جماعة يصيرون إليه بالزَّلاَّت^(١) فيأخذ النصف ، ويعطيه النصف ، فوجهني معهم في اليوم الرابع ، فحصلت في وليمة ، فأكلت وأزلت معي شيئاً كثيراً وجئت به ، فأخذ النصف ، وأعطاني النصف ، فبعت ما وقع لى بدراهم ، فلم أزل على هذه الحالة أياماً ، ثم دخات يوماً على عرس جليل ، فأكلت وخرجت بزَّلة حسنة ، فلقيني إنسان فاشترأها بدينار ، فأخذته وكنمته ، وكنمت أمرها . فدعا جماعة من الطفيليين ، فقال : إن هذا البغدادى قد خان ، فظنَّ أنى لا أعلم ما فعل ، فاصفعوه وعرفوه ما كنمنا ، فأجاسونى شئت أم أبيتُ ، وما زالوا يصفعونى واحداً بعدواحد ، فيصفعنى الأول منهم ، ويشمَّ يدى ، ويقول : أكل مضيرة^(٢) ، ويصفعنى الآخر ويشمَّ يدى ، ويقول : أكل كدا ، ويصفعنى الآخر ، حتى ذكروا كلَّ شيء أكلته ، ما غلطوا بشيء منه ، ثم صفعنى شيخٌ منهم صفقة عظيمة ، وقال : باع الزَّلة بدينار ، وصفعنى آخر ، وقال : هات الدِّينار ، فدفعته إليه ، وجرَّدنى الثياب التى أعطانيها ، وقال : اخرج يا خائن فى غير حِفْظ الله . فخرجت إلى بغداد ، وحلفت ألا أقیم ببلد فيه طفيلية يعلمون الغيب .

وزيد هنا أن نذكر بعض ما اشتهر من حكايات طفيلية البصرة ، إذ هم أحذق خلق الله فى باب التطفيل :

بعث المأمون^(٣) فى طلب عشرة من زناذقة البهْمرة ، فجُمِعُوا فرأهم طفيلي ،

(١) قال فى القاموس : الزَّلة : امم لا تحمل من مائة صديقك أو فريك ، عراقية أو عامية .

(٢) المضيرة : مرقة تطبخ باللبن .

(٣) الخبر ٦ : ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

فمضى معهم ، فأدخلوا في سفينة ، فدخل معهم ، وجيء بالقيود ، فقيّد معهم ، فقال أحدهم : يا طفيلي إلى هنا ، فأقبل عليهم فقال : فديتكم ، أي شيء أتم ؟ فقالوا له : بل أنت ، مَنْ أنت ؟ وهل أنت من أصحابنا ؟ قال : والله ما أعرفكم ، غير أنني طفيلي ، خرجت من منزلي ، فرأيت منظراً جميلاً ، وِنعمة ظاهرة ، فقلت : شيوخ وكهول وشبان ، ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع ، فدخلت وسطكم كلّي أحدكم إلى هذا الزورق ، فرأيت قد فرّش وهدّ ، ورأيت سفراً^(١) مملوءة فقلت : نزّهة إلى بعض البساتين والقصور ، إن هذا اليوم يوم مبارك ، فزدت ابتهاجاً ، فجاء هذا الموكل بكم فقيّدكم ، فطارعتني فما الخبر ؟ فضحكوا وفرحوا به ، وقالوا له : قد حصلت في الإحصاء ، نحن مانيّة على مذهب ماني ، القائل بالنور والظلمة ، نسير إلى المأمون ، فيسألنا عن مذهبنا ، ويدعونا إلى التوبة . ويظهر لنا صورة ماني ، ويأمرنا أن نتقلّ عليها ، ونبرأ منها ، فن فعل نجاً ، وإلا قُتل ، فإذا دعيت فأخبره باعتقادك ، وللطفيلي مداخلات وأخبار فاقطع سفرنا بها . فكان ذلك . فلما دخلوا على المأمون ، دَعاهم بأسمائهم وامتنحهم فأمرّ عليهم بالسيف ، وتأخّر الطفيلي وقد استوعب العدة ، فسأل الموكّكين بهم ، فقالوا : وجدناه معهم ، فجئنا به ، فقال له : ما خبرك ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، امرأته طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئاً ، إنما أنا رجل طفيلي ، ثم قصّ قصته معهم .

فضحك المأمون كثيراً ، ثم أظهر الصورة ، فلعنوا وبرئ منها ، ثم قال : أعطوها لي حتى أسلح عليها ، والله ما أدرى ماماني ! أنصراني أم يهودي أم مسلم ؟ فقال المأمون : يؤدّب على فرط جهله وتفيله ومخاطرته بنفسه ، فقال : يا أمير المؤمنين بحياتك ، إن كنت ولا بدّ عازماً ، فاجعل السيّاط كلّها على بطني ، فهو الذي حملني على هذا القَرَر . فماد إلى الضحك ، فاستوهبه منه إبراهيم

(١) السفر : جمع سفرة ، وهي في الأصل : طعام المسافر .

ابن المهدي بحديث في تطفيله يذكر في خبر إسحاق الموصلي ، فوجهه له ، وأجاز الطفيلي بجائزة سنّية .

كان إبراهيم بن المدبر عاملاً على البصرة ، وكان له سبعة ندماء لا يأنسُ بغيرهم ، وكلُّ واحد منهم منفرد بعلم من العلوم . وكان طفيلي يعرف بابن درّاج ، من أكمل الناس أدباً ، وأخفهم رُوحاً وأشدّهم في كلّ مليحة اختفائاً . فاحتال ودخل في جملة الندماء ، فخرج إبراهيم ، فرآه فقال لحاجبه : قل لهذا الرجل ، ألك حاجة ؟ فسقط في يد الحاجب ، وعلم أن الحيلة تمت عليه ، وأنه لا يرضى ابن المدبر من عقوبته إلا بقتله ، فمرّ بجرجليه ، فقال له : يقول لك الأستاذ : ألك حاجة ؟ فقال : قل له : لا ، فأدخله عليه ، فقال : فأى شيء أدخلك ! أأنت طفيلي ؟ فقال : نعم أصلحك الله ! فقال : إن الطفيليّ يحتمل على دخوله على الناس بخصال ، منها أن يكون لاعباً للشطرنج أو بالزرد ، أو ضارباً بالعود ، أو بالطنبور ، فقال : أيدك الله ، إننا لما ذكرنا في الطبقة العليا ، فقال لبعض الندماء : لاعبه بالشطرنج ، قال : أعزّك الله ، فإن قُدرت^(١) ؟ قال : أخرجناك ، قال : وإن قُمرت ، قال : أعطيناك ألف درهم ، فقال : أحضرها فإن في حضورها قوة للنفس ، فلعبا بالشطرنج ، فغلب الطفيلي ، ومدّ يده لأخذ الدراهم ، فقال الحاجب : أعزّك الله ، ذكر أنه في الطبقة العليا ، وإن فلانا غلامك يغلبه ، فأحضر الغلام فغلبه ؛ فقالوا له : انصرف ، فقال : أحضروا الزرد ، فتوعب به فغلب ، فقال الحاجب : لكن بوابنا فلان يغلبه ، فأحضر البواب فغلبه ، فقيل له : اخرج ، قال : فالعود ؟ فأعطى عوداً ، فغضب فأصاب ، وغنى فأطرب ، فقال الحاجب : ياسيدي إن في جوارنا شيخاً يعلم القيان ، هو أحسنُ منه ، فأحضر إليه ، فكان أطيب منه ، فقيل له : اخرج ، فقال : فالطنبور ؟

(١) قُمرت بالبناء المعجول : غلبت .

فَضْرَبَ ضَرْبًا لَمْ يُرَ أَحْسَنُ مِنْهُ ، فقال الحاجب : إِنَّ فَلَانًا الْمُحْتَكِرَ أَطِيبُ مِنْهُ ، فَأَحْضَرَ فَكَانَ أَحْذَقَ مِنْهُ ، فقال ابنُ الدُّبَيْرِ : قد تَقَصَّيْنَا لَكَ بِكُلِّ جِهْدٍ ، فَأَبَتْ حَرْنُوكَ إِلَّا طَارَحَكَ ، فقال : يَا سَيِّدِي ، بَقِيتُ مَعِيَ فَائِدَةٌ حَسَنَةٌ ، فقال : وَمَا هِيَ ؟ قال : تَأْمُرُ أَنْ يَحْضُرَ قَوْسٌ بِنْدَقٍ مَعَ خَمْسِينَ بِنْدَقَةً مِنْ رِصَاصٍ ، وَيَقَامُ هَذَا الْحَاجِبُ فَأَرْمِيهِ فِي دُبُرِهِ ، فَإِنْ أَخْطَأَنِي بَوَاحِدَةٍ ، فَاضْرِبْ عُنُقِي ، فَضَجَّ الْحَاجِبُ . وَوَجَدَ ابْنَ الدُّبَيْرِ شِفَاءَ نَفْسِهِ فِي عَقُوبَتِهِ ، فَأَمَرَ بِخَشْبَتَيْنِ ، وَشَدَّ الْحَاجِبَ فَوْقَهُمَا . وَأَعْطَى الْقَوْسَ ، فَرَمَاهُ بِخَمْسِينَ بِنْدَقَةً ، فَمَا أَخْطَأَ دُبُرَهُ بَوَاحِدَةٍ مِنْهَا .

وَحُلَّ الْحَاجِبُ وَهُوَ يَتَأَوَّهُ لِمَا بِهِ ، فقال له الطفيليُّ : يَا صَفْعَانُ ، هَلْ عَلَى بَابِ الْأَمِيرِ مَنْ يَحْسُنُ مِثْلَ هَذَا ؟ فقال له الحاجب : يَا قَرْنَانُ إِذَا كَانَ الْبُرْجَاسُ ^(١) اسْتَقَى فَلَا يَحْسُنُ أَحَدٌ مِثْلَكَ .

قال : وَذَهَبَ الضَّحِكُ بِابْنِ الدُّبَيْرِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ كُلٌّ مَذْهَبٌ ، ثُمَّ أَعْطَاهُ أَلْفَ دَرَاهِمٍ وَانْصَرَفَ .

صَحِبَ طِفْلِيٌّ رَجُلًا فِي سَفَرٍ ، فَلَمَّا نَزَلُوا بِيَعُضِ الْمَنَازِلِ ، قَالَ لَهُ الرَّجُلُ : خُذْ دَرَاهِمًا وَأَمْشِ .^{١٠} تَرَلْنَا لِمَا . فقال له الطفيليُّ : قُمْ أَنْتَ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَنَمِيبٌ ، فَاشْتَرِ أَنْتَ . فَمَضَى الرَّجُلُ ، فَاشْتَرَاهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ الرَّجُلُ : قُمْ فَاطْبِخْهُ ، فقال : لَا أَحْسِنُ ، فَعَامَّ الرَّجُلُ ، فَطْبِخْهُ ، ثُمَّ قَالَ الرَّجُلُ لِلطَّفِيلِيِّ : قُمْ فَاتْرِدْ ، فقال : وَاللَّهِ إِنِّي لَكِسْلَانُ ، فَتَرَدَّ الرَّجُلُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : قُمْ فَاعْتَرِفْ ، قال : أَخْشَى أَنْ يَنْقَلِبَ عَلَى ثِيَابِي ، فَغَرَفَ الرَّجُلُ حَتَّى ارْتَوَى الثَّرِيدَ ، فقال له : قُمْ الْآنَ فَكُكِلْ ، قال : نَعَمْ إِلَى مَتَى هَذَا الْخِلَافُ أَقْدَ وَاللَّهِ اسْتَحْيَيْتَ مِنْ كَثْرَةِ خِلَافِكَ . وَتَقَدَّمَ فَأَكَلَ .

(١) البرجاس ، بالضم : غرض في الهواء يوضع على رأس رمح .

وقال طفيل العرائس : ليس في الأرض أكرم من ثلاثة أعواد : عصا موسى عليه السلام ، وخوان الطعام ، ومنبر الخليفة .

ومن وصيته لأصحابه : إذا دخلتم عرساً ، فلا تلتفتوا إلى الملامى ، وتخيروا المجالس ، وإن كان العرس كثير الزحام ، فليمض أحدكم ولا ينظر في عيون الناس ، ليظن أهل الرجل أنه من أهل المرأة ، وأهل المرأة أنه من أهل الرجل ، وإن كان البواب فظاً وقبحاً ، فليبدأ به فليأمره ولينمه من غير عنف ، ولكن بين النصيحة والإدلال .

وقال بُنان الطفيلي : التمكن على المائدة خير من ثلاثة ألوان .

وسئل بنان : هل تحفظ من كتاب الله تعالى شيئاً ؟ قال : نعم ، آية . قيل : وما هي ؟ قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ آتِنَا غَدَاءَنَا ۚ ﴾^(١) قيل : أتحمفظ شيئاً من الشعر ؟ قال : بيتاً واحداً ، قيل : ماهو ؟ قال :

نزوركم لا نسكا فيكم بجفوتكم^(٢) إن الكريم إذا ما لم يُزر زارا^(٣)

وبعد :

يُقَرَّب الشوق داراً وهي نازحة^(٤) من عاج الشوق لم يستبعد الدار
وقال أبو الورد الحماكي في طفيلي :

طفيلي يؤم الخبز أتى يراه ولو يراه على يفاع
ولا يروى من الأخبار إلا : « أجيب ولو دعيت إلى كراع »

(١) - سورة الكهف ٦٢ .

(٢) - للعباس بن الأحنف ، المقدم ٦ : ٢٢١ .

وقال طفيلي أيضاً :

نحن قومٌ إذا دعينا أجَبْنَا ومتى نفس يدعُنَا التَّطْفِيلُ^(١)
ونقلُ علما دُعينا فجبنا وأتانا فلم يجدنا الرسولُ
وأقبل طفيليُّ إلى طعام لم يدعَ إليه ، فقال صاحب الطعام : مَنْ دعاكَ ؟
فأَنشده :

دعوتُ نفسي حين لم تدعني فالجدُّ لى لا لك فى الدعوة^(٢)
وكان ذا أحسنَ من موعدٍ يُخلفُهُ يدعُو إلى الجفوةِ
ودخل طفيليُّ فى صنيع رجل من القبط ، فقال له : مَنْ أرسل إليك ؟ فأنشأ
يقول :

أزورك لا أ كافيكم بجفوتكم إن الحب إذا ما لم يزر زارا
قال : « زرزارا » ، ليس ندرى مَنْ هو ؟ اخرج من بيتي !

وقال آخر فى طفيلي كوفى :

زَرَعْنَا فلما سَلَّمَ الله زرعنا وأوفى عليه مِنْجَلٌ لِحصاد^(٣)
بُلينا بكوفى حليفَ مجاعةٍ أضَرَ علينا من دَبِّي وجراد^(٤)
وحدث آدم الطويل ، قال : دخل حانوتى غريب يأكل شيئاً من الطعام
فتقدّم سائل ، فقلت له : ما أَكثر تردّدك إلىَّ ! فقال الغريب الذى فى الحانوت :
لعله كما قال الشاعر :

(١) المقد ٦ : ٢١٤ .

(٢) عيون الأخبار ٣ : ٢٣٢ ، المقد ٦ : ٢١٢ .

(٣) عيون الأخبار ٣ : ٢٣١ ، المقد ٦ : ٢١٤ .

(٤) ط : د ربا ، وما أثبتته من ب والمقد ، والدين : الجراد الصغير .

لو طبخت قدر بمطمورة أوفى ذرّاً قصر بأعلى الثُّمُورِ
و كنت بالصين لو افيتها يا عالم الغيب بما في القدور !

حكى اللبرّد قال : كان بالبصرة طفليّ مشهور ، وكان ذا أدب و ظرف ،
فمرّ بسكة النخع بالبصرة على قوم عندهم وليمة ، فاقتحم عليهم ، وأخذ مجلسه مع من
دُعِيَ ، فأنكره صاحب المنزل فقالوا له : لو تأنيت أو صبرت يا هذا قبل الدخول
حتى يؤذن لك ، كان أحسن لأدبك ، وأعظم لقدرك ، وأجلّ لمروءتك ؛ فقال :
إنما اتّخذت البيوت ليدخل فيها ، ووُضعت الموائد ليؤكل عليها ، والحشمة
قطيعة ، واطراحها صلة .

وجاء في الآثار : صل مَنْ قطعك ، وأعطِ مَنْ منعك ، وأحسنْ إلى مَنْ
أساء إليك .

وأنشد :

كلّ يوم أدور في عرصة الدار رأشُمُ الثُّمَارِ شمّ الذبابِ
فإذا ما رأيت آثار عرسٍ أو دخاناً أو دعوة الأصحابِ
لم أعرج دون التّحتم لا أرهب شماً أولكزة البوابِ
مستهيماً بمنّ دَخَاتُ عليه غير مستأذنٍ ولا هيّابِ
ذاك أهنا من التّكلف والفُرْمِ م وشمّ البقال والقهّابِ

كان بالبصرة طفليّ يكنى أبا سلمة ، وكان إذا بلغه خبر وليمة ، لبس لبسَ
القضاة ، وأخذ ابنه معه ، عليهما القلائس الطّوال والطّيالسة ، فيتقدم أحدهما
فيدق الباب ، ويقول : افتح يا غلام لأبي سلمة ، ثم لا يلبث حتى يلحقه الآخر ،

فيقول : افتح وبلك ! قد جاء أبو سلمة ، وبتلوها ، فإن لم يعرفهم البواب فتح لهم ، وإن عرفهم لم ياتفت إليهم ، ومع كل واحد منهما فهرٌ مدوّر يسوونه كيسان ، فينتظرون مَنْ دُعِيَ ، فإذا جاء وفتح له طرحوا الفهر في المتبة ، حيث يدور الباب ، فلا يقدرون على إغلاقه فيهمجون ويدخلون .

فأكل أبو سلمة يوماً على بعض الموائد لقمةً حارةً من فالودج ، وبلدها بشدة حرارتها ، فتجمعت أحشاؤه ، فمات على المائدة ، فقال عبد الصمد بن المعدل يرثيه :

أحزان نفسي عني غير منصرمة

وأدمى من جفون العين منسجمة

على صديقٍ ومولى لي فُجِعت به ما إن له في جميع الصالحين له

كم جفنةٍ مثل دور الحوض مَترعة كوماً جاء بها طبّاخها رذمه

قد كللتها شحوم من قلايتها ومن سنامٍ جزورٍ عبطة سَفيمة

غيبت عنها فلم تعلم لها خبراً لفي عليك وعو لي يا أبا عَلمة

ولو تكون لها حياً لما بعدت يوماً عليك ولو في جاحم حُطمة

قد كنت أعلم أن الأكل يقتله

لكنتي كنت أخشى ذاك من تُخمة

إذا تعمم في شبليته ثم غداً فإن حوزة مَنْ يأتيه مصطامه

وقلت لهم : أَتَقْبَلُونَ نَزِيلًا يَطْلُبُ جَنَى الْأَشْمَارِ ، لَا جَنَى الثَّمَارِ ، وَيَبْنِي مِلْحَ الْحَوَارِ ، لَا مِلْحَاءَ الْحَوَارِ ، فَحَلُّوا لِي الْحَبَا ، وَقَالُوا : مَرْحَبًا مَرْحَبًا ، فَلَمْ أَجْلِسْ إِلَّا لَمَحَّةَ بَارِقِ خَاطِفٍ ، أَوْ مُنْقَبَةِ طَائِرٍ خَائِفٍ ، حَتَّى غَشِينَا جَوَابٌ ، عَلَى عَاتِقِهِ جَرَابٌ ، فَحَيَّانَا بِالْكَلِمَتَيْنِ ، وَحَيَّا الْمَسْجِدَ بِالتَّسْلِيمَتَيْنِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أُولَى الْأَلْبَابِ ، وَالْفَضْلِ الْأَلْبَابِ ، أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ أَنْفَسَ الْقُرْبَاتِ ، تَنْفِيسُ الْكُرْبَاتِ ، وَأَمْتَنَ أَسْبَابِ النِّجَاةِ ، مُوَاسَاةُ ذَوِي الْحَاجَاتِ . وَإِنِّي وَمَنْ أَحَلَّنِي سَاحَتَكُمْ ، وَأَتَّاحَ لِي اسْتِمَاحَتَكُمْ ، لَشَرِيدٍ مَحَلٍّ قَاصٍ ، وَبَرِيدٍ صَبِيحٍ خَاصٍ ، فَهَلْ فِي الْجَمَاعَةِ مَنْ يَفْتَأُ عَنَّا حُمَيَّا الْمَجَاعَةِ ؟ فَقَالُوا لَهُ : يَا هَذَا ، إِنَّكَ حَضَرْتَ بَعْدَ الْعِشَاءِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فَضْلَاتُ الْعِشَاءِ ، فَإِنْ كُنْتَ بِهَا تَنَوُّعًا ، فَمَا تَحْدُ فِينَا مَنُوعًا ، فَقَالَ : إِنَّ أَخَا الشَّدَاثِ ، لَيَقْنَعُ بِلَفَافَاتِ الْمَوَائِدِ ، وَنَفَاضَاتِ الْمَزَاوِدِ . فَأَمَرَ كُلَّ مِنْهُمْ عَبْدَهُ ، أَنْ يُزَوِّدَهُ مَا عِنْدَهُ .

* * *

قوله : « نَزِيلًا » أى ضيفًا . الْأَشْمَارُ : المذاكرة بالليل . وَجَنَاهَا : مَا يُجَنَّى مِنْ فَوَائِدِهَا . يَبْنِي : يَطْلُبُ . مِلْحَ الْحَوَارِ : مِلْحُ الْكَلَامِ ، وَالْحَوَارِ : مَرَاجِمَةُ الْقَوْلِ . مِلْحَاءُ الْحَوَارِ : لَحْمُ سَنَامِ الْفَصِيلِ . الْحَبَا : جَمْعُ حَبْوَةٍ ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ لَيْسَ لَهَا فِي الْبَوَادِي حَيَّاطَانِ تَسْتَنْدُ إِلَيْهَا فِي مَجْتَمَعِهِمْ ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَقِيمُ

ركبته في جلوسه ، فيضع عليها أو يدير بهما ثوباً ، ويمقد عليهما يديه ،
ويستريح إليهما ، ويقوم ذلك له مقام الاستناد ، فيقال لذلك التمدد : الخبوة ،
فأراد أنهم حلوا له الحباً إكراماً له . لحمة بارق : لمة برق . خاطف : يخطف
العين بسرعة فيمنعها النظر . نغبة : جرعة . غشينا : دخل علينا فجأة . جواب :
قطاع للأرض بمشيه . العاتق : ما بين المنكب والمنق . جراب : وعاء للخبز .
الكلمتين : سلام عليكم . التسليمتين : سلامه عند الدخول وسلامه من
الركعتين . وتحية المسجد : أن يركع الداخل فيه ركعتين ، وقيل : التسليمتين .
تسليمة من صلاة المغرب وتسليمة من الركعتين اللتين بعدها . الألباب : الأذهان .
الألباب : الخالص . أنفس : أرفع . القرُّبات : ما يُتقرب به إلى الله عز وجل ،
واحدها قربة . الكرُّبات : المهموم . تنفيسها : تفرجها وإزالتها . أمتن : أقوى
وأغلظ . التَّجاة : التخلص . مُواساة : جعلك لهم أسوة نفسك . ساحتكم :
موضعكم . أتاح : قدر . استباحتمكم : اجتداءكم والطلب منكم . شريد : منفر ،
والشريد : الهارب . قاص : بعيد . بريد : رسول . خاص : جياع . يَنفَأ :
يكسر . مُحَيَّا الجماعة : حِدَّة الجوع . فضلات : بقايا . لُفَاطَات : ما يلفظ منها ،
أى يطرح . نُفَاضَات : ما يُنفَض من بقية الزاد .

ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل ما يسقط
من الخوان نقي عنه الفقر ، وعن ولده الحق » .
وللزاد : أوعية الزاد .

* * *

فَأَعَجِبَهُ الصَّنْعُ ، وَشَكَرَ عَلَيْهِ ، وَجَلَسَ يَرْقُبُ مَا يَحْمَلُ
إِلَيْهِ ، وَثَبَّنَا نَحْنُ إِلَى اسْتِثَارَةِ مُلَحِّ الْأَدَبِ وَعُيُونِهِ ، وَاسْتِنْبَاطِ
مَعْنِيهِ مِنْ عُيُونِهِ ، إِلَى أَنْ جُلْنَا فَمَا لَا يَسْتَحِيلُ بِالْإِنْعَاسِ ، كَقَوْلِكَ :

مَنَّا كَيْبَ كَاسٍ . فِتْدَاعِينَا إِلَى أَنْ نَسْتَتِجَ لَهُ الْأَفْكَارَ ، وَتَفْتَرِعَ مِنْهُ
الْأَبْكَارَ ، عَلَى أَنْ يَنْظُمَ الْبَادِيُّ ثَلَاثَ جَوَانِتٍ فِي عِقْدِهِ ، ثُمَّ
تَتَدَرَّجُ الزِّيَادَاتُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَيَرْبِّعَ ذُو مِيمَتِهِ فِي نَظْمِهِ ، وَيَسْبِغَ
صَاحِبُ مِيسْرَتِهِ عَلَى رَغْمِهِ .

قال الراوى : وكنا قد انتظمنا عِدَّةً كأصابعِ الكفِّ ، وتَأَفَّفْنَا
أُلْفَةً أَصْحَابِ الْكَهْفِ .

* * *

الصنع : الجليل . وقوله : « وجلس يرقب » ، وقال قبل هذا : « فلم أجلس
إلا لمحبة بارق » ، وقال في الثامنة والعشرين ، « وجلس حتى خُتِمَ نَظْمُ النَّاذِينَ »
وأكثر ما صرف الجلوس في مقاماته من قيام .

وقال في الدِّرَّة^(١) : « يقولون للقائم : اجلس ، والاختيار على ما حكاها الخليل ،
أن يقال إن كان قائماً : اقم ، ولن كان نائماً أو ساجداً : اجلس . وَعَلَّلَ
بعضهم هذا الاختيار بأنَّ القعود هو الانتقال من علو إلى سفلى ، ولهذا قيل
لمن أصيب برجله : مُقْعَدٌ ، وإن الجلوس من سفلى إلى علو ، ومنه قول عمر بن
عبد العزيز رضى الله عنه :

قُلْ لِلْفِرْزَدَقِ وَالسَّهَابَةِ كَاسِمِهَا إِنْ كُنْتَ تَارِكُ مَا أَمَرْتُكَ فَاجْلِسْ
أَيُّ أَقْصَدَ نَجْدًا .

وكان عمر والياً على المدينة فقال للفِرْزَدَقِ : إِنْ كُنْتَ تَلْزِمُ الْعُقَافَ ، وَإِلَّا
فَاخْرُجْ إِلَى نَجْدٍ .

وحكى أبو عبد الله بن خالويه : قال دخلتُ على سيف الدولة بن سحران يوماً ، فلما مَنَّتْ بين يديه قال : أقعد ، ولم يقل : اجلس ، فتبينت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب وإطلاعه على أسرار كلام العرب .

والذى نظر هو الوجه ، ولهذا جعله على الاختيار ، ولم يجعله من اللعن ، إلا أنه لقرب المعنيين ، يجوز أن يكون قد استعمل جلس في المقامات ، من القيام .

* * *

يرقب : ينظر ويحرس ثبنا : رجفنا . استنارة : استخراج . مُلح : ما يملح به من الكلام . عيونه : محتاره . استنباط : استخراج . معينه : ماؤه الصافي . عيونه : جمع عين الماء . وكنى بالعين والعين عن الكلام والقلوب . جُلْنَا : تصرفنا . يستحيل . يتغير . الانعكاس : قراءة اللفظة من آخرها . ساكب : صاب . تداعينا : دعا بعضنا بعضاً . نستنتج : نستدعى منها النتائج وهو الولد . الأفكار : جمع فكر ، وجعل ما يبيده الفكر من الكلام فتاجاله . نقرع : نفتض . مُجَانَات : جمع مُجَانَة ، وهى حبة تعمل من فضة كالدرّة ، تتدرّج : تتمشى . يربّع : يصنع أربع جهانات . ذو ، بمعنى صاحب . يستع : يصنع سبعا . رَغْمه : إكراهه وإذلاله . انتظمنا : اجتمعنا . تألفنا : تصاحبنا وانضم بعضنا إلى بعض ، ومنه ألفت الكتاب . والألفة : الصحبة والاجتماع . والكهف : الغار . وأصحابه قصتهم معروفة .

* * *

[قصة أصحاب الكهف]

قال ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ مَا يَفْلَحُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ^(١) : أنا من أولئك القليل ، وهم مكسلينا ويمليخا ، وهو المبعوث بالورق إلى المدينة ، ومرطونس

وسارينوس ويوانس وكفشطيوس وقطينوسيوسوس، وهو الراعى، والكلب اسمه قِطْمِير وهو أتردون الكروى وفوق القلاطى .

وقال أبو شبل: بائنى أن من كتب هذه الأسماء فى شىء ووضع فى الحريق سكن الحريق .

وذكر الطبرى^(١) أنهم كانوا فى أيام الطوائف على دين عيسى ابن مريم ، وكانوا فى حكم ملك للروم يُسمى دقيانوس يعبد الأصنام ، فبلغه عن القتيبة مخالفتهم لدينه ، فطلبهم فهربوا منه ، فاجتازوا براءى غم ، فاتبعهم بكلبه ، فعلموه دينهم ، وصاروا إلى ربهم ، فأوام الليل إلى كهف ، فقالوا : نبئت هذا الليلة ثم نصبح فنرى رأينا ، فضرب الله على آذانهم فناموا ، وتبعهم الملك فوجدهم فى الكهف ، فلم يُطق أحد منهم دخوله ، فبنى عليهم باب الكهف ، ففتحه الرعاء بطول الزمان ، فأقاموا فيه ما ذكر الله تعالى ، ثم أحياهم الله تعالى بعد ثلثمائة وتسع ، فشكوا : هل ناموا يوماً واحداً أو بعضه ؟ ثم مسحهم الجوع ، فبعثوا أحدهم بورق يشتري لهم طعاماً ، ووصوه أن يحترز حتى لا يشعر بهم أحد ، فبدل عليهم فيجملوا إلى الملك الذى فرثوا منه أمس فيما ظنوا ، فيرجمهم أو يرجعوا إلى دينه ، فلما أتى باب المدينة ، أنكر أن تكون هى التى خرج منها أمس فى ظنه لأنها تغيرت بمرور زمان بعد زمان عليها ، فأنكر أهلها . ثم أخرج الدراهم ليشتري طعاماً ، فقال له البائع : من أين لك هذه الدراهم ؟ وأمسكه ، فقال : خرجت أمس مع أصحاب لى فارّين من هذا الملك ودينه ، فبقنا فى كهف ، وأصبحنا اليوم ، فأرسلونى لأشتري لهم طعاماً ، فاستر علينا ، فحمله الرجل إلى ملك المدينة يسمع منه ، وكان ملكاً صالحاً ، فقص عليه القصة ، فركب الملك فى جملة من الناس ليطلعوا على أمرهم ، فدخل على أصحابه ، فوجدهم قد عادوا إلى نومهم ، فضرب الله على أذنه معهم ، فدخل الناس فوجدوا أجساماً لا يفكرون

منها شيئاً ، وكانهم مستيقظون يكلمونهم ، غير أنها بغير أرواح ، فقال لهم الملك :
هذه آية الله إليكم ، فبنوا عليهم مسجداً يصلون فيه .

* * *

فابْتَدَرَ لِعَظَمَ مَحْتَى ، صَاحِبُ مَيْمَتِي ، وَقَالَ : لَمْ أَخَاطَلْ .
وَقَالَ مُيَاَمِنُهُ : كَبُرَ رَجَاءُ أَجْرِ رَبِّكَ . وَقَالَ الَّذِي يَلِيهِ :
مَنْ يَرْبُّ إِذَا بَرَّ يَنْمُ . وَقَالَ الْآخِرُ : سَكَتَ كُلٌّ مِنْ نَمِّ
لَكَ تَكْسٍ .

وَأَفْضَتِ النَّوْبَةُ إِلَيَّ ، وَقَدْ تَمَّيَّنَ نَظْمُ السَّمْطِ السَّبَاعِيِّ عَلَيَّ .
فَلَمْ يَزَلْ فِكْرِي يَصُوغُ وَيَكْمُرُ ، وَيُشْرِي وَيُعْسِرُ ، وَفِي
ضِمْنِ ذَلِكَ أَسْتَطْعِمُ ، فَلَا أَجِدُ مَنْ يُطْعِمُ ، إِلَى أَنْ رَكِدَ النَّسِيمُ ،
وَحَصَّحَصَ التَّسْلِيمُ ، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي : لَوْ حَضَرَ السَّرُوجِيُّ هَذَا
الْمَقَامَ ، لَشَفَى الدَّاءَ الْعَقَامَ ، فَقَالُوا : لَوْ نَزَاتِ هَذِهِ بِإِيَّائِي ، لَأَمْسَكَ
عَلَى يَأْسٍ . وَجَعَلْنَا نُفَيْضُ فِي اسْتِصْمَاهَا ، وَاسْتِنْلَاقِ بَابِهَا ،
وَذَلِكَ الزُّورُ الْمُعْتَرِي يَلْحَظُنَا لِحَظَ الْمَزْدَرِيِّ ، وَيُوَلِّفُ الدَّرَرَ
وَنَحْنُ لَا نَدْرِي .

* * *

قوله : « اعظم محنتي » لعظم بليتي .

* * *

لَمْ : من الوم . مَلَّ : من الملل . كَبُرَّه : عَظَّمَ الكبير ، وقَدَّمه على نفسه .

يَرْبُ : يَصْلَح . بَرَّ : أَكْرَم . يَنْمُ : يَزِيد خَيْرُهُ ، وترتفع منزلته .
وَنَمَى الشَّيْءُ يَنْمُو وَيَنْمُو نَمَاءً ، وَنَمَوًا وَنَمِيًّا : زَادَ ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : نَمَيْتُ حَدِيثَ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ أَنْمِيهِ ، إِذَا بَلَغْتَهُ عَلَى وَجْهِ الْإِصْلَاحِ وَطَلَبِ الْخَيْرِ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « قَالُوا خَيْرًا أَوْ نَمَى خَيْرًا » أَيْ أَبْلَغَ خَيْرًا ، أَوْ رَفَعَهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ رَفَعْتَهُ فَقَدْ نَمَيْتَهُ . وَرَوَايَةُ ابْنِ ظَفَرٍ : « مَنْ يَرْبُ إِذَا بَرَّ يَنْمَى » ، أَيْ إِذَا كَانَ الْبَرُّ مِنَ النَّاسِ يَمْشِي بِالنَّمِيَةِ فَمَنْ يَرْبُ فَعَمَلًا جَمِيلًا وَيَصْلَحُهُ .

تَكْسٍ : تَكُنْ كَيْسًا ، وَالْكَيْسُ : النَّاقدُ فِي أُمُورِهِ ، وَقِيلَ الْعَاقِلُ .
أَفْضَتْ : وَصَلَتْ . النَّوْبَةُ : الدَّوْلَةُ . السَّمَطُ : الْخِيَطُ يُعْقَدُ فِيهِ اللَّوْلُؤُ .
يَصُوعُ : يَصْنَعُ . يُثْرِى وَيَغْسُرُ ، أَيْ يَسْتَفْنِي وَيَفْتَقِرُ ، أَيْ يَكْثُرُ الْكَلَامُ مَرَّةً وَيَقَلُّ أُخْرَى .

وَفِي ضَمْنِ ذَلِكَ ، أَيْ فِي أَثْنَائِهِ وَفِي مَدَّتِهِ . اسْتَطْعِمَ : أَطْلَبَ طَعَامًا ، هَذَا أَصْلُهُ ، وَتَقُولُ : أَطْعَمْتُ الْفَارِيَّ إِذَا وَقَفَ فَفَتَحْتُ عَلَيْهِ وَأَفْتَيْتَهُ . وَاسْتَطْعِمَهُوْ ، إِذَا اسْتَدْعَى ذَلِكَ . عَلَى رِضَى اللَّهِ عَنْهُ : إِذَا اسْتَطْعِمَ الْإِمَامَ فَأَطْعَمُوهُ ، أَيْ إِذَا أَرْتَجَّ عَلَيْهِ فَأَفْتَحُوا لَهُ .

رَكَدَ النَّسِيمُ : سَكَنَتِ الرِّيحُ ، يَعْنِي كَلَامُهُ . حَصْحَصَ : تَبَيَّنَ . التَّسْلِيمُ : الْإِقْيَادُ ، أَيْ انْقَدَتْ لِلْعَجْزِ عَنِ الْإِنْيَانِ بِهَا .

المقام : الموقف . العقام : الشديد الذى لا يؤثر فيه الدواء ، بمنزلة الرحم (١٤ - شرح مقامات الحريري - ٢)

العقيم ، التي لا تؤثر فيها النظفة فلا تلد .
إيأس ، تقدّم ذكره . وإيأس : ضدّ الطمع .

ولما ذكر هنا إيأساً وبأساً ، نذكر فصلاً ذكره في الدرة على اللفظين ، قال : ^(١) ويقولون : أشرف فلان على الإيأس من طلبه ، فيهمون ^(٢) كما وهم أبو سعيد السكري ، وكان من جلة النحويين ، وأعلام العلماء المذكورين ، فقال : إن إيأساً سُمّيَ بالمصدر ، من أيس ، وليس كذلك - ^(٣) وإنما إيأس عند المحققين مصدر آسيئته ، أى أعطيته ، والمصدر منه الأوس ، ومنه المواساة ، فكأنهم سمّوا إيأساً بمعنى تسميتهم عطاء ^(٤) . ووجه الكلام أن يقال : أشرف على اليأس ، لأن أصل الفعل منه يئس على فعل ، قال الله تعالى : ﴿ قَدْ يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ ^(٥) . وإنما أيس بتقديم الهمزة فقلوب من يئس واستدل شيخنا أبو القاسم بن الفضل ^(٥) النحوى على صحة ذلك بأن لفظة يئس ، تساوى لفظة اليأس ، الذى هو الأصل فى نظم الصيغة ، فتكون الياء مبدوءاً بها والهمزة مثنىً بها بخلاف تنزلهما فى أيس ، فلهذا حكم على أيس أنها مقلوبة من يئس ، والمقلوب لا يتصرف تصرف الأصل ولا يكون له مصدر .

نفيض : نندفع بالكلام . المعتري : القاصد . يلحظنا : ينظرنا بطرف عينه . استحقاراً منه لنا . المزدرى : المحتقر . يؤلف : يجمع . الدرر : جواهر الكلام .

* * *

(١) درة الفواص ١١٦ .

(٢) الدرة : فيوهمون .

(٣-٣) ساقط من درة الفواص .

(٤) سورة الممتحنة ١٣ .

(٥) الدرة : « أبو القاسم الفضل بن محمد النحوى » .

فَمَنَا عِثْرٌ عَلَى افْتِضَاحِنَا ، وَنَضُوبٍ ضَحَضَاحِنَا ، قَالَ : يَا قَوْمَ ، إِنَّ
 مِنَ الْعَنَاءِ الْعَظِيمِ ، اسْتِيلَادَ الْعَقِيمِ ، وَالْإِسْتِشْفَاءَ بِالسَّقِيمِ ، وَفَوْقَ كُلِّ
 ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ ، وَقَالَ : سَأُنُوبُ مَنَا بَكَ ، وَأَكْفِيكَ
 مَا نَابَكَ ؛ فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَنْثُرَ ، وَلَا تَعُثِرَ ، فَقُلْ مُخَاطِبًا لِمَنْ ذَمَّ الْبُخْلَ ،
 وَأَكْثَرَ الْعَدْلَ : لُذُّ بِكُلِّ مُؤَمِّلٍ ، إِذَا لَمْ يَمْلِكْ وَمَلَكَ بَذَلٌ . وَإِنْ أَحْبَبْتَ
 أَنْ تَنْظِمَ ، فَقُلْ لِلَّذِي تُعْظَمُ :

أُسْ أَرْمَلًا إِذَا عَرَا وَازِعَ إِذَا الْمَرْءُ أَسَا
 أَسْنِدُ أَخَا نِبَاهَةٍ أَبْنِ إِخَاءَ دَنَسَا
 اسْلُ جَنَابَ غَاشِمٍ مَشَاغِبِ إِنْ جَلَسَا
 اسْرِ إِذَا هَبَّ مَرًّا وَارْمِ بِهِ إِذَا رَمَا
 اسْكُنْ تَقَوَّ قَعَمَى يُسْعِفُ وَقْتُ نَكْسَا

* * *

عِثْرٌ : أَطْلَعُ . افْتِضَاحِنَا : اِسْتِهَارُنَا بِالْمَجْزُ . نَضُوبٍ ضَحَضَاحِنَا : جَفُوفٌ
 هَائِنًا الْقَلِيلُ . الْإِسْتِيلَادَ : طَلَبَ الْوَلَدُ ، يَقُولُ : إِنَّ مَنْ تَعَبَ النَّفْسَ طَلَبَ فَائِدَةَ
 مِنْ ذَهْنٍ كَلِيلٍ وَقَرِيحَةٍ جَامِدَةٍ . نَابَكَ : نَزَلَ بِكَ . تَنْثُرُ : تَقُولُ نَثْرًا . لُذُّ : اسْتَعْرِ
 بِهِ وَالْجَأُ إِلَيْهِ . مُؤَمِّلٌ : مَرَجُوٌّ لِفِعْلِ الْخَيْرِ . لَمْ : جَمَعَ الْمَالُ . بَذَلٌ : تَكْرَمَ عَلَى
 غَيْرِهِ ، وَهَذَا اللَّفْظُ مِنَ الْمَعْكُوسِ فِي النَّثْرِ بَدِيعٌ ، فَمَا ظَنَنْكَ بِهَذَا النَّظْمِ الرَّفِيعِ الْقَدِيِّ
 أَرْدَفَهُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ مِنْ أَشْرَفِ حَسَنَاتِهِ ، رَحِمَهُ اللَّهُ !

قوله : « أُسْ » أَعْطَى ، وَالْأَوْثُسُ : الْعَطِيَّةُ . أَرْمَلًا : فَقِيرًا أَفْنَى زَادَهُ . عَرَا :

قصد . ارفع : احفظ الصحبة . أسأ : أتى بسوء ، وأصله الهمز أساء فسبّل الهمزة ، يقول : **إِنْ قَصَدَكَ قَيرَ فَصِلْهُ** ، وإن أخطأ عليك صاحبٌ فلا تقطعه ، وارع حقّ الصحبة ، ويقال : المرء بالهمز ، والمر بلا همز ، وبترك الهمز يستقيم الانعكاس في بيت الحريري ، ويقال : المرة ، قال دعبيل :

واحفظ عشيرتك الأدنين **إِنْ آهْمُ** حقاً يفرّق بين الزوج والبرّة^(١)

وهذا البيت الذي فسرناه وما بعده من الأبيات تقرأه إن شئت من أوله ، وإن شئت من آخره . وجعل هذا النمط في عكس الحروف توطئة لما يذكر في المقامة بعد هذا في الرسالة الفهقرية ، من عكس ألفاظها ، من أولها إلى آخرها إلا أنّ ذلك العكس بالألفاظ وهذا بالحروف ، وكلاهما غاية في بابه ، وإنما يذكر الأدباء هذا استملاحاً في كلامهم ، وامتنحاناً لخواطرم .

* * *

[مثل من التصحيف وقلب الكلام]

ونريد أن نذكر هنا فصلاً مما يوافقه أو يقاربه على ما شرطناه ؛ فمن ذلك أن بعض الأدباء اتهم صاحباً له بسماعية في جانبه فكتب إليه في المجلس : ساءك نم ، فنظره الذي وشى به ، فكتب إليه : صحفّه واقلب ، فهو والله ما نطق به على لسانك ، من بغيك وعدوانك ، وهو مقلوب مصحف : منك أتيت ، فتضاحكنا وتضافيا .

وكتب بعضهم إلى خازن السلطان :

قد أقبلَ الشهرُ وإقبالُهُ يأتي بما أجرى ترتيبُهُ

فوجه البرّ ومقلوبه يحزبك عن برّك مقلوبه

وكتب بعض الظرفاء إلى صاحب له وهو مقلوب مصحف : ظي سراب
خشن . فإذا قرأته على الولاء من آخره بعد القلب والتصحيف جاء منه : حُسن
سراب طيب .

ومن أنواع اللمعيات التصحيف ، ومثاله : أن إبراهيم بن المهدي كتب إلى
إسحاق الموصلي : لا يرتج مثل الأسنة ، فكتب إليه إسحاق . لا يرث جميل
إلا بثينة .

وقال أبو الجهم بن الأنباري للحسن بن وهب : ماتصحيف : كلني بيمينك
فبمنى بحبتين ، فقال : كل شيء منك في عيني حسن .

وغاب صديق عن صديق له ، فلما لقيه قال له : عنّ تعبي ، فجوابه : زرنا
برذاذ حباً ، فالأول قال : غبت عني ، والثاني قال : زرغباً تزداد حباً .

وذكر في بعض مجالس الأدب التصحيف ، فقال فتى شاب : أنا ابن بجدته ،
فقال بعضهم : ماتصحيف : نصحت فحشي ، فقال : تصحيف حسن ، فاستغرب
إسماعيل ، فاتهمه شاعر من بلنسية ، فقال : ماتصحيف بلنسية ؟ فأطرق ساعة ،
ثم قال : أربعة أشهر ، فقال له البلنسي : صدق ظني إنك تنتحل ما تقول ويحك !
والفتى يضحك ، فقال له : اشعر ، فإنك شاعر ، فقال : وأي نسبة بين أربعة
أشهر وبلنسية ؟ فقام وهو يقول : هوذاك ؛ ثم تنبه بعد انصراف الفتى بعض من
حضر ، فنظر فإذا أربعة أشهر ثلث سنة ، وهو تصحيف بلنسية ، فنجل المازع ،
ومضى إلى دار الفتى معتذراً .

كتب بعض وزراء ابن عبّاد إليه يتسخط الإخوان هذا البيت :

وإذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد ، وأين ذاك الواحد !

فوقع في الكتاب: وأين ذاك الواحد؟ صحف تعرف: فلما قرأه الوزير طار سروراً، ومثل بالبساط فلقمه بين يديه، وإنما صحف، وأين، فجاء منه: وأنت، فردّ عليه من كلامه أبلغ جواب.

ومن ملأ ابن عباد في النصحيح، أنه خرج في جملة وزرائه الأدباء، فاجتازوا بإشبيلية بالوضع الذي يباع فيه الجير والجبس، فلقى هناك جارية من أحسن الناس وأقلمهم حياء. فأقبل ابن عباد على ابن عمار، وقال: يا ابن عمار الجيارين، فقال ابن عمار: يا مولاي والجباسين، فعلم من حضر أنهما لم يريدوا أن يعرف كل واحد منهما صاحبه بما ذكر، فبحثوا عن مرادهما، فلم يعرفوه، فسألوا: ابن عمار، فقال له ابن عباد: لا تتبعها منهم إلا غالية. ثم إن ابن عمار أخبرهم أن ابن عباد أعجبه حسن الجارية، وشابها بقلة الحياء، فصحف «الجيارين»، فجاء منه «الجيارين» وصحفت أنا «الجباسين»، فجاء منه «الخناسين»، فاستغربوا حضور أذهانهما وحسن كبايتهما.

أين هذه الأذهان من رجل مغفل، كان له ابن يسمى حسناً مسافراً، فاستفتح المصحف يتفادله في القدوم، فخرج له «وحسن مآب»، فترك التيامن بهذا اللفظ لمآب الفتى سالماً، وقال: تصحيح «حسن مآب»: «حسن مات»، فاستدعى أم الفتى وخدمه، ونعاه لمن فأقن مناحة، وجاء الجيران والقرابة يتطلعون حادثهم، فهو يخبرهم بما تصحف له، والفتى داخل قد أقبل في أغبط حال وأسرّها، فاستحرق وصار مثلاً.

* * *

قوله: «أسند» أضفه إليك وقرّبه منك. نباهة: رفعة. ابن: باعد. دنس: عيب. يقول: صاحب من يشرفك بذكره الجميل، وباعد من يدنس عرشك وتعاب به.

* * *

[من أقوالهم في اختيار الصديق]

وقد قيل : الصاحب رُقعة في الثوب ، فليَنظر الإنسان ما يرقع به ثوبه .

قال ابن رشيقي :

اصحب ذوى القَدْرِ واستعد بهم وعدَّ عن كلِّ ساقط سَفَلِه^(١)
فصاحبُ للرء شاهدٌ ثِقَةٌ يقضى به غائباً عليه وَلَهْ
ورُقعة الثوب حين تَلْبَسُه شهرته أو تكون مشتكلة

وفي الحديث : « الأنفس أجناد مجتدة ، وإنها لتشام في الهوى كما تشام الخيل
فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

ونظم هذا الحديث أبو نواس فقال :

إِنَّ القلوب لأجنَادٌ مُجْتَدَةٌ لله في الأرض بالأهواء تعترف^(٢)
فما تعارف منها فهو مؤتلفٌ وما تناكر منها فهو مختلفٌ
وقال طرفة - أو عدى بن زيد :

إذا كُنت في قوم فصاحب خيارهم

ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى^(٣)

عن الرء لا تسأل وسل عن قريبه

فكلُّ قرين بالمقارن مقتدى

(١) نقله في التنف ٦٠ .

(٢) ديوانه ٤٠٨ .

(٣) البيت الثاني في ملحق ديوان طرفة ٨٢١ .

وقال أبو الغتاهية :

اصحب ذوى الفضل وأهل الدين فالمرء منسوب إلى القرين

وقال الخالدي :

وإذا أردت ترى فضيلة صاحب فانظر بعين البحث من ندماؤه
فالمرء مطوى على علاقته طى الكتاب وصحبه عنوانه

ومما يروى لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه :

فلا تصحب أخا السوء وإياك وإياه
فكم من جاهل أودى حلياً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء —————
وفي الناس من الناس مقاييس وأشباه
وفي العيين غنى للعيين أن تنطق أفواه
وللقب على القلب دليل حين يلقاه

وقال ابن رشيق :

اختر لنفسك من تعادى كاختيارك من تصادق^(١)
إن المدود أخو الصديق وإن تخالفت الطرائق

قوله : « اسل جناب غاشم » يريد جانب منزل ظالم ، ولا تقربه . وسلوت
يقعدى بمن وبففسه ، تقول : سلوت عنه ، وسلوته وسليته .

وقال الأسود بن يعفر :

فأقسمت لا أشريه حتى يملني بشيء ولا أسليه حتى يفارقا
قوله : « مُشَاغِب » مسارع للشر . هب : تحرك . وراء : جدال ، ومعنى
« اسر » اكشف وأزل ، يقول : إذا تعلق بك وهب عليك جدال من صاحب
فاكشفه عن نفسك بالمناصحة ، وباعد للراء . وتقول : سرّيت الثوب عني ،
وسرّيته ، إذا كشفته ، قال ابن هزّمة :

* سرى ثوبه عني السرى المتخابل * ^(١)

ومنه سرّى عن الرجل أى كشف عنه ما كان يجده من النعم والفضب ،
وقد يكون معنى « اسر » باعد وفارق من الشرى ، وهو سير الليل ، فيقول : فارق
موضع الجدال وباعده . رسا : ثبت ، أى إذا سكن الخلاف بين القوم فارّهم
أنت به واتركه ، وروى : « اسر » بالضم ، أى كن سرّياً ، أى سيداً ذا مروءة ،
إذا هاج الجدال بين القوم فباعده .

وقال سابق البربرى :

لا تنفمن لجوجاً حين تزجره إن اللجوج له فى المال إغراه
وأغض فى حسن عفو عن نوادره فالحر فيه عن الآفات إغضاء

* * *

[ذكر المراء والجدال وما يتولد منهما]

والمراء مدافعة الحق وترك الانقياد ، لما ظهر منه ، وقد يستعمل بمعنى الجدال ،
فمن جادل ليظهر باطلاً جُداله محذور .

(١) ديوانه ١٦٦ وبقته

* وآذن بالبين الخليط المزابل *

وفي الحديث : « من ترك الجِدالُ مُحِقًا بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ » .
 وقال ميمون بن مهران : لا تمارِ مَنْ هو أعلمُ منك إنه يحتزنُ عنك علمه .
 ولم تضره شيئًا .
 وقال لقمان لابنه : مَنْ لا يملكُ لسانه يقدم ، وَمَنْ يكثرُ المرءُ يُشْتَمُ ،
 ومن يدخلُ مداخلَ السوءِ يتهم . يابنَى لا تمارِ العلماءَ فيمقتوك .
 وقال مالك بن أنس رضي الله عنه : للمرءِ يقسى القلوب ويورث الضعائن .
 وقال بلال بن مسعدة : إذا رأيت الرجلَ لجوجًا ماريًا معجبًا بنفسه فقد-
 تمت خسارته .

ولسعر بن كدام يخاطب ابنه :
 إِنِّي مِنْحَتِكَ يَا كِدَامَ نصيحتي فاسمع لقول أبي ، عليك شفيق^(١)
 أما المزاحمة والمرء فدعُهما خُلُقَان لا أرضاهما لصديق
 إِنِّي بِلَوْتُهُمَا فَلَمْ أَخْتَرْهُمَا لِحُجَاوَرِ جَارٍ وَلَا لِرَفِيقٍ
 قوله : « اسكن » الزم السكون والوقار . تقو : أراد تقوى . يسعف :
 يساعد ويوافق . نَكَسَ : قصر بك ، يقول : لا تبادر إلى الجدال ، والزم
 السكون ، حتى يتقوى نظرك ، ويظهر لك صوابك ، فمسي يوافقك على الإصابة
 بحسن التدبير وقت كان يصرفك عن الصواب ، لو التزمت الجدال .
 ومن أعاجيب ابن الرومي قوله في ذم الجدال :

لأولى الجدالِ إذا غدوا لجدالهم حجج تضلّ عن الهدى وتَجَوُّرُ
 وهنّ كآنية الزجاج تصادمتْ فهوت وكلّ مكاسر مكسورُ
 فالقاتل المقتول ثمّ لو هَنِهُ ولضعفه ، والأسر المأسورُ

وقال من شعر يمازح صديقاً له :

لكنّ في الشيخ غريزية يخاصمُ الله بها في القدرِ
ما كان لِمَ كان وما لم يكن لم يكنْ فهو كَيْلُ البَشَرِ

* * *

قال : فلما سحرنا بآياته ، وحسّرنا ببُعْدِ غَايَاتِهِ ، مدَحْنَاهُ
حتى استعفى ، ومنَحْنَاهُ إِلَى أَنْ اسْتَكْفَى .

ثمَّ شَمَّرَ ثِيَابَهُ ، وَازْدَفَرَ جِرَابَهُ ، وَهَضَّ يُنْشِدُ :

للهِ دَرْ عَصَابَةٍ صُدِّقَ الْمَقَالِ مَقَاوِلَا
فَأَقْوَا الْأَنَامَ فَضَائِلَا مَأْثُورَةً ، وَفَوَاضِلَا
حَاوَرْتُهُمْ فَوَجَدْتُ سَحَا بَانَ لَدَيْهِمْ بِأَقِلَا
وَحَلَلْتُ فِيهِمْ سَائِلَا فَلَمَقِيتُ جُودَا سَائِلَا
أَفْسَمْتُ ، لَوْ كَانَ الْكِرَا مُ حَيَا ، لَكَانُوا وَابِلَا

* * *

قوله : « سحرنا » تركنا مسحورين . بآياته . بمعجائبه ، يقول : إن فلاناً
آبَةٌ مِنَ الْآيَاتِ ، أى عَجَبٌ مِنَ الْعَجَائِبِ . حسرنا : قطعنا وأكلنا . والغاية :
الطَّلَقُ ، يريد أنّا كَلَمْنَا فِي الْغَايَاتِ الَّتِي جَرَى فِيهَا لِبَعْدِهَا ؛ ويريد اتساعه في
الكلام

استعفى : قال : عافوني منه . منحناه : أعطيناه . استكفى : قال : يكفيني .

ازدفر : حمله على ظهره ، والزفر الحِمْلُ على الظهر . جرابه : وعاء خبزه . عصاية : جماعة . صدق المقال ، أى صادقين فى قولهم ، وصدق جمع صدوق ، وعدل عن صدوق على جهة المبالغة فى صدقه . مقاولا : ملوكا . فاقوا : فضلوا ، وزادوا عليهم . فضائلا : جمع فضيلة ، وهى ما تفضل به غيرك من الأفعال الحمودة . مأثورة : متحدث بها .

فواضلا : عطايا وأيادى ، الواحدة فضيلة ، وفواضل المال : ما يأتيك من مرافقتك وعكسه .

ومن كلام العرب : إذا عذب المال قلت فواضله ، أى قل انتفاع رب الإبل بلبنها إذا بعدت ، قال الشاعر :

سأبغيك مالا بالمدينة إننى أرى عازب الأموال قلت فواضله
قوله : « حاورتهم » خاطبتهم .

* * *

[ذكر سحبان وائل]

سحبان فصيح العرب ، وهو سحبان بن زفر بن إلياس بن عبد شمس الوائلى من وائل باهلة ، وكان من فصحاء العرب وبلغائها ، وبه يضرب المثل فى البيان والفصاحة ، فيقال : أفصح من سحبان .

ودخل عند معاوية وعنده خطباء القبائل ، فلما رأوه خرجوا لهمم بقصورهم عنه ، فقال :

لقد علم الحى اليمانون أننى إذا قلت أما بعد أنى خطيبها^(١)

(١) البيت من شواهد الرضى فى الكافية ، وهو مع ترجمة سحبان فى خزنة الأدب لمبندادى ٤ : ٣٤٦ - ٣٤٨ ، قال : وروى صدره :

* وقد علمت قيس عيلان أننى *

فقال له معاوية : اخطب ، فقال : انظروا لى عصاً ، فقالوا : وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ قال : وما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه ! فأخذها في يده ، فتمكلم من الظهر إلى أن كادت صلاة العصر تفوت ، ماتمخضح ولا سعل ، ولا توقف ولا ابتداء في معنّى ، نخرج منه وقد بقيت عليه فيه بقية ، ولا مال عن الجنس الذى يخاطب فيه ، فقال معاوية : الصلاة ! فقال : الصلاة أمامك ، ألسنا في تميم وتمجيد ، وعظة وتنبيه ، ووعد ووعيدا فقال له معاوية : أنت أخطب العرب ، فقال : العرب وحدها ! بل أخطب الإنس والجن ، فقال له معاوية : كذلك أنت .

وهو أوّل من قال : أما بعد ، وأوّل من آمن بالبعث من الجاهليّة ، وأوّل من توكأ على عصا ، وعمر مائة وثمانين سنة ، وهو القائل بمدح طلحة بن عبيد الله ، وهو طلحة الطلحات الخزاعي فقال فيه :

يا طلح أكرم من مشى حسباً وأعظام لِقَالِد^(١)
منك العطايا فاعطني وعلى مدحك في المشاهد

فقال له طلحة : احكمكم ، فقال : برّ ذونك الورد ، وفصرك بزرنج^(٢) ، وغلامك الخباز^(٣) ، وعشرة آلاف درهم ، فقال له : أف أف لك ! لم تسألني على قدرى ، إنما سألتني على قدرك وقدر باهلة ، والله لو سألتني كل قصير لى وعبد ودابة لأعطيتك .

* * *

(١) الخزانة ٤ : ٨٤٣ ، الميداني ١ : ٢٤٨ .

(٢) ط : « بدرنج » تحريف ، صوابه من الخزانة وجمع الأمثال . وذكره باقوت في أبيات لعبيد الله بن قيس الرقيات بمدح مصعب بن الزبير :

ملك يطعم الطعام ويسقى لبن البخت في عساس الخلفج
جلب للخيل من تهامة حتى بلغت خيله قصور زرنج

(٣) ط : « الخباز » ، وصوابه من ب والخزانة وجمع الأمثال .

[ذكر باقل]

قوله : « باقلا » ، هو من إباد ، قيل من بنى مازن . وقال مُحمّد الأرقط في وصف ضيف أكثر من الطعام :

أَتَانَا وَمَا دَانَاهُ سَحْبَانُ وَائِلٍ بَيَانًا وَعِلْمًا بِالَّذِي هُوَ قَائِلٌ ^(١)
فَمَا زَالَ عَنْهُ اللَّقْمُ حَتَّى كَانَهُ مِنَ الْعِيِّ لَمَّا أَنْ تَكَلَّمَ بِاقِلٍ ^(٢)

والعرب تقول : إنه لأعيا من باقل ، ومن عيّه أنه اشترى ظبيًا ، حمّله على عنقه ، فسئل عن ثمنه ، فخلّ عنه يديه وفتح أصابعه ، وأشار بها - وأخرج سانه - يريد أنه بأحد عشر درهماً ، ولم يلبّهم أن يخبر عن سومه بلسانه - ولنا عُيّر باقل بفعله قال :

يَلُومُونَ فِي عِيّهِ بِاقِلًا كَأَنَّ الْحِمَاقَةَ لَمْ تُخْلَقِ ^(٣)
فَلَا تَكْثُرُوا الْعَتَبَ فِي عِيّهِ فَلَا لَمَعَى أَجْمَلُ بِالْأُمُوقِ
خُرُوجِ الْأَسَانِ وَفَتْحِ الْبِنَانِ أَخَفَتْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَنْطِقِ

الأموق : الأحق . قوله : « حلات » نزلت . سائلا : طالبا معروفيهم .
جوداً : كرماً . سائلا : جارياً . حيّا : مطراً كثيراً .

والوابل : أشدّ المطر ، يريد أنهم كانوا يزدون عليهم في الفضل .

(١) الميداني ٢ : ٤٣ .

(٢) بعده في الميداني :

يقول وَقَدْ أَتَى الْمَرَايِمَى لِلْقَرَى أَبْنِ لِي مَا الْحِجَاجُ بِالنَّاسِ فَاعِلُ!
يَدُلُّ كَفَاهُ وَيَحْدُرُ حَنَقُهُ إِلَى الْبَطْنِ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ الْأَنَامِلُ
فَقُلْتُ لِعَمْرِي مَا لِهَذَا طَرَقَتْنَا فَكُلْ وَدَعِ الْإِرْجَافَ مَا أَنْتَ آكِلُ

(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٢٤٢ .

ثُمَّ خَطَا قَيْدَ رُمَحَيْنِ ، وَعَادَ مُسْتَعِيدًا مِنَ الْحَيْنِ ، وَقَالَ :
 بَاعَزَ مِنْ عَدِمِ الْآلِ ، وَكَنَزَ مِنْ سُلْبِ الْمَالِ ، إِنَّ الْغَاسِقَ
 قَدْ وَقَبَ ، وَوَجَهَ الْحَجَّةِ قَدْ انْتَقَبَ ، وَبَيْنِي وَبَيْنَ كِنْيٍ لَيْلٌ
 دَامِسٌ ، وَطَرِيقٌ طَامِسٌ ، فَهَلْ مِنْ مِصْبَاحٍ يُؤْمِنُنِي الْعِثَارُ
 وَيُبَيِّنُنِي لَى الْآثَارِ ؟

* * *

خطا : مشى ونقل خطاه . قيد : قَدَّر . مستعيداً : مستجيراً . الحين :
 الموت . عديم الآل : فقد الأهل ، يقول : أنتم عزَّ لمن فقد أهله ، وكنز لمن
 أخذ ماله . الغاسق : القمر .

عائشة رضى الله عنها قالت : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى القمر ، فقال :
 « يا عائشة استعيزي بالله من شرِّ هذا ، فإنَّ هذا هو الغاسق إذا وقب » ، يعنى
 من شرِّه إذا كسف . ووقب القمر : يقبُّ وقوباً : دخل في الظلام الذى يكسفه ،
 وكلُّ ما غاب فقد وقَبَ . الحجَّة : الطريق . انتقب : استتر ، وجعل من الظلام
 نقاباً . وكِنْيٍ : منزلى . دامس : مظلم . طامس : دارس ؛ لأنَّ الظلام لما غطاء
 كأنه محاء . الآثار : الطرق التى أثر فيها المشى .

* * *

[وصف الشمع]

قال الصابى فى شمعة ، وذكر هذا المعنى :

وليلة من محاق الشَّهر مُدْجَنَةٌ لا النجم يهْدِي الشَّرَى فيها ولا القمر^(١)

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٤٧ .

كَلَفَتْ نَفْسِي بِهَا الْإِدْلَاجَ مَمْقُطِيًّا عِزْمًا، هُوَ الصَّارِمُ لِلصَّمْتِ صَامَةً الذِّكْرُ
إِلَى حَبِيبٍ لَهُ فِي النَّفْسِ مَنْزِلَةٌ مَا حَلَمَّا قَبْلَهُ سَمِعَ وَلَا بَصَرَ
وَلَا دَلِيلَ سَوَى هَيْفَاءِ مَخْطُفَةٍ^(١) تَهْدِي الرَّكَابَ وَجُنْحُ اللَّيْلِ مَعْتَكُرُ
غَصْنٍ مِنَ الذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ أَثْمَرُ فِي أَعْلَاهُ يَاقُوتَةٌ صَفْرَاءُ تَسْتَعِيرُ
تَأْتِيكَ لَيْلًا كَمَا يَأْتِي الرِّيبُ فَإِنْ لَاحَ الصَّبَاحُ طُوتَهَا دُونَهَا الْجُدْرُ^(٢)

وقال آخر في مثله :

لَنَا شَمْعَةٌ نِيْطُ ذَرَاهَا بِشَعْلَةٍ كَعُقَّةٍ تَبْرِ عُلَّقَتْ بِلَسَانِهَا
إِذَا عَثَرَ السَّارَى بِذَبِيلٍ مِنَ الدُّجَا نَحَرْنَا لَهُ قَلْبَ الدَّجَى بِسَنَانِهَا
تَفَكَّ قِيُودَ اللَّيْلِ عَنْ كُلِّ زَائِرٍ فَتَجَرَى بِهَا الرُّجُلَانُ مَلءَ عِنَانِهَا
إِذَا مَا أَحَسَّتْ بِالصَّبَاحِ تَمَارَضَتْ كَنَرَجَسَةٍ قَدْ أَذْبَتْ بِمَكَانِهَا
تَمُوتُ إِذَا مَا قَبِلَتْ خَدَّ حَائِطٍ فَتَثْبُتُ خَالَا فَوْقَهُ مِنْ دُخَانِهَا
كَانَ الْجَرَادُ امْتَصَّ جَوْهَرَ رُوحِهَا وَلَمْ يَمْتَنِعْ مِنْهَا سَوِيدَا جَنَانِهَا

وقال النَّمْرِيُّ :

وَلَمَّا دَجَا اللَّيْلُ مَزَقَتْهُ بَرُوحٌ يَنْحَفُ جَنَانُهَا
بِشَمْعٍ أَعْيَرَ قَدُودَ الرَّمَاحِ يَحَاكِي ذَرَاهَا وَأَلْوَانِهَا
غَصُونٌ مِنَ التَّبْرِ قَدْ رَكَّبَتْ لَهْيًا يَزْبِيْ أُنْفَانِهَا
فِيَا حَسَنَ أَرْوَاحِهَا فِي الدَّجَى وَقَدْ أَكَلَتْ فِيهِ أَبْدَانِهَا

* * *

(١) المخططة : الضامرة البطن

(٢) اليقينة : « دونك المنذر » .

قَالَ : فَلَمَّا جِئْتُ بِالْمَلْتَمَسِ ، وَجَلَّى الْوُجُوهَ ضَوْءَ الْقَبَسِ ،
رَأَيْتُ صَاحِبَ صَيْدِنَا ، هُوَ أَبُو زَيْدِنَا .

فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي : هَذَا الَّذِي أَشَرْتُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا نَاطَقَ أَصَابَ ،
وإن اسْتُمْطَرَ صَابَ .

فَاتْلَمَعُوا نَحْوَهُ الْأَعْنَاقَ ، وَأَحْدَقُوا بِهِ الْأَحْدَاقَ ، وَسَأَلُوهُ
أَن يُسَامِرَهُمْ لَيْلَتَهُ ، عَلَى أَن يَجْبُرُوا عَيْلَتَهُ . فَقَالَ : حُبًّا لِّمَا أَحْبَبْتُمْ ،
وَرُحْبًا بِكُمْ إِذْ رَحَبْتُمْ ، غَيْرَ أَنِّي قَصَدْتُكُمْ وَأَطْفَالِي يَتَضَوَّرُونَ
مِنَ الْجُوعِ ، وَيَدْعُونَ لِي بِوَشْكَ الرُّجُوعِ ، وَإِنِ اسْتَرَأْتُونِي
خَامَرَهُمُ الطَّيْشُ ، وَلَمْ يَصْنَفْ لَهُمُ الْعَيْشُ ، فَدَعُّونِي لِأَذْهَبَ
فَأَسُدَّ نَحْمَ صَتْرِهِمْ ، وَأَسْبِغَ غُصَّتَهُمْ ، ثُمَّ أَتَقَلِّبَ إِلَيْكُمْ عَلَى الْأَثَرِ ،
مُتَأَهِّبًا لِلْسَّيْرِ إِلَى السَّحَرِ .

فَقُلْنَا لِأَحَدِ الْعِلْمَةِ : اتَّبِعْهُ إِلَى فِتْنَتِهِ ، لِيَكُونَ أَسْرَعَ لِفَيْتْنَتِهِ ،
فَانْطَلَقَ مَعَهُ مُضْطَبِّنًا جِرَابَهُ ، وَمُخَنِّحًا إِيَابَهُ .

* * *

قوله : « المَلْتَمَس » ، أى المطلوب وهو المصنَّاح ، والقَبَس ضوؤه . جلا :
كشف . صاحب صيدنا ، أى الذى اصطاد أموالنا . استمطر : سُئِلَ المطر .
صَاب : وَقَعَ وقعا شديدا ، وكى بالمطر الصَّوْبَ عن العلم الكثير . اُتْلَعُوا :
مَدُّوا ، وَأَتْلَعَ الرجل : نَصَبَ عُنُقَهُ وَمَدَّهَا ، وتطاول لينظر شيئا . أَحْدَقُوا :
(١٥ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

حلّقوا وأحاطوا ، والأحداق : سواد العين الأعظم : عيلته : قهره
 يتضوّنون : يصيحبون . ابن الأنباري : وقولهم : تركته يتضوّر ، معناه
 يظهر الضرّ الذي وقع به بالتقلقل والاضطراب والصياح ، فيتضوّر ، يتفعل من
 الضّور ، والضّور بمعنى الضّير ، ويقال : ضرّني يضرّني ضرّاً ، وضارّني يضرّني
 ويضوّرني ضيراً وضوراً بمعنى . وشك : سرعة . استراثوني : استبطوني .
 خامرهم : خالطهم . الطيش : الخفّة وزهاب العقل من الجوع . أسدّ
 مخمّصهم : أزيل جوعهم . والنصة : ما يُحقّق به وإساغتها : تسهيلها حتى تبتلع .
 انقلب على الأثر ، أى في الحين وفي الطريق الذي أمضى فيه . أرجع : أمشى
 على أثرى فيه مسرعاً ، قبل أن يمشى غيرى فيغيّره ، فهذا معنى أُنقلب على
 الأثر . متأهباً : مستعدّاً . فيأثته : رجوعه . مضطبنا : حاملاً على ضيّبته^(١)
 وهو خصره . منحنتنا : معجلاً . إيابه : رجوعه .

* * *

فأبطأ ببطناً جاوزَ حدّه ، ثمّ عادَ الغلامُ وحده ، فقلنا له :
 ما عندك من الحديث ، عن الحديث ؟

فقال : أخذني في طرُقٍ مُتَعَبَةٍ ، وسُبلٍ مُتَشَعِّبَةٍ ، حتّى
 أفضينا إلى دُوَيْرٍ خَرِبَةٍ ، فقال : ها هُنا مُناخِي ، ووَكُرُ
 أفرأخي . ثمّ استفتحَ بابهُ ، واختلجَ مِنّي جِرابُهُ ، وقال :
 لعمري ، لقد خَفَّفَتَ عَنّي ، واستوجبتَ الحُسنى مِنّي ،
 فهالك نصيحةٌ هي من نَفائِسِ النَّصائِحِ ، ومغَارِسِ الْمَصَالِحِ ،
 وأنشد :

إِذَا مَا حَوَيْتَ جَنَى نَخْلَةٍ فَلَا تَقْرَبْنَهَا إِلَى قَابِلٍ
وَأَمَّا سَقَطَتْ عَلَى بَيْدَرٍ فَحَوِصِلٌ مِنَ السُّنْبُلِ الْحَاصِلِ
وَلَا تَلْبِثَنَّ إِذَا مَا لَقِطْتَ فَتَنْشَبَ فِي كِفَّةِ الْحَابِلِ
وَلَا تُوْغِلَنَّ إِذَا مَا سَبَحْتَ فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي السَّاحِلِ
وَخَاطِبُ بَهَاتٍ وَجَاوِبُ بَسُوفٍ وَبِعْ أَجَلًا مِنْكَ بِالْعَاجِلِ
وَلَا تُكْثِرَنَّ عَلَى صَاحِبٍ فَمَا مِلَّ قَطُّ سِوَى الْوَاصِلِ

* * *

الخبيث ، قال أبو الهيثم : الخبيث : الذكر من الشياطين وجمعه خُبث .
أبو عبيدة : الخبيث : ذو الخبيث في تفسيره . منشعبة : متفرقة ، وتشعبَ
الطريق : خرجت منه شعب إلى كل جهة ، أى طرق آخر ، فأراد أنه خُاط عليه
بحيث لا يهتدى إلى منزله ، فكان يخرج من طريق إلى طريق . أفضينا :
وصلنا ، وهو من الفضاء . مناخى : منزلى ، وأصله موضع إناخة البعير .
وكر أفرأحى : عش أولادى . استفتح : ضرب وقال : افتحوا الباب .
اختلج : أخذ بسرعة . جرابه : وعاء زاده . الحسنى : الفعل الحسن .
هاك : خذ التفائس : الذخائر : الرقاع . مغارس : مواضع يُفرَس فيها .
المصالح : جمع مَصْلَحَةٍ ، مفعلة من الصلاح . حويت : جمعت وحزت .
جنى نخلة : هو التمر . بئدر : أندر الزرع ، يسمى بالشأم أندر ، وبالعراق
بئدر . حَوِصِلٌ : اجعل فى حَوِصْلِكَ وهى للطائر فى الأصل . كِفَّةٌ :
شبكة . الحابل : الصائد . تُوْغِلَنَّ : تكثرن الدخول . سبخت :

عمت . الساحل : ما ولي الماء من الأرض ، وهو فاعل بمعنى مفعول ، لأن الماء سحله أى قشره وأخذ عشبه ، كما تُسَحَّل الحديدية بالبرد ، أى تبرد بالبرد ، والسَّحالة : ماسطة من المسحول .

وخاطب بهات : عكس قول صاحب ، وقد أهدى إليه العميرى^(١) قاضى قزوين هدية وكتب معها :

العميرى عبد كافى الكفاة ومن اعقد فى وجوه المُصَاة^(٢)
خدم المجلس الرفيع بكتب مُنَمَّاتٍ من حسناتها مترعاتٍ
فوقع تحتها :

قد قبلنا من الجميع كتاباً ورددنا لوقتها الباقيات
لستُ أستغنم الكثير فطبعى قول خذ ، ليس مذهبي قول هات
قوله : « آجلا » ضد عاجل . وقوله : « ولا تسكنن على صاحب » ،
أى لا تسكنن من الزيارة وأقلها خشية الملل . وروى قدامة بن جعفر أن
رجلاً كتب إلى آخر : إن رأيت أن تحدد^(٣) لى موعداً لزيارتك أتوقته
إلى وقت رؤيتك فيؤنسنى إلى حين ، فافعل .

فأجابه الآخر : أخاف أن أعدك وعداً يعرض دون الوفاء به مالا أملك
دفعه ، فتسكون الحسرة أعظم من الفرقة .

فأجابه : إنما أمرت بموعده ، وأكون جذلاً بانتظارك ، فإن عاق عائق عن
إنجاز وعدك ، كنت قد رجحت السرور لما أحبه ، وأصبت أجرى على الحسرة
بما حرمته .

(١) يتيمة الدهر ٣ : ١٧٤ .

(٢) ط : « العميرى » ، وما أثبتته من ب ، ج والبيتية .

(٣) ط : « تحدد » ، بالجيم .

[نبذ مما قيل في الزائر]

ولبعضهم :

أنى زائراً من غير وعدٍ وقال لى أجلك عن تعذيب قلبك بالوعد

ومما جاء في قصر الزيارة قول أبي الشيص :

يا حبّذا الزور الذى زارا كأنه مقبِسٌ فاراً

نفسى فداء لك من زائر ماحلّ حتى قيل قد ساراً

مرّ بباب الدار فاجتازها ياليتّه لو دخل الداراً !

وأنشد الحاتمي والوكيعي لحظّة :

يأبى من زارنى مكثّماً خائفاً من كل حس جزعاً

حذراً دلّ عليه نوره كيف يُخفى الليل بدرأ طلباً

رصد الخلوة حتى أمكنت ورعى السامر حتى هجماً

كابد الأحوال فى زورته ثم ماسلم حتى ودعاً

وقال العباس بن الأحنف :

سألونا عن حالنا كيف أقم فقرنا وداعهم بالسؤال^(١)

ما أناخوا حتى ارتحلنا فما نفرق بين النزول والتّرحال

وقال محمد بن أمية الكاتب :

يا فراقاً أتى بعقب فراقٍ واتفاقاً جرى بغير اتفاق

حين حطّت ركابهم لتلاقٍ زُمّت العيس منهم لانطلاق

(١) ديوانه ٢٣١ ، والرواية فيه :

ما أمخنا حتّى ارتحلنا فما نفرق بين المناخ والإرتحال

سألونا عن حالنا إذ قدمنا فقرنا وداعهم بالسؤال

إن نفسى بالشَّامِ إذ أنْتَ فيها ليس نفسى نفسى التى بال عراقِ
أشتهى أن ترى فؤادى فتدري كيف وجدى بهم وكيف احتراقى

[طيف الخيال]

ومن الزَّوار طيف الخيال ، وهو فى الشعر الجاهلى والمولّد كثير ، وسنذكر
منه شيئاً يستحسن إن شاء الله تعالى ، قال قيس بن الخطيم^(١) .

إلى مَرَبْتٍ وَكُنْتُ غَيْرَ مَرْوَبٍ ومَقَرَّبُ الأحلامِ غَيْرَ قَرِيبٍ^(٢)
ما تَمْنَعِي يَقْظَى فقد تَوْتِنَه فى الذَّومِ غَيْرَ^(٣) مَصْرَدٍ مَحْسُوبٍ^(٤)
وقال أبو الفرج السكاتب :

خيالك كان أعرف بالفرام وأرأفَ بالحبِّ المستهام
فلو استطعُ حين حضرت نومى لكان يزور فى غَيْرِ المنامِ
وقال المرتضى^(٥) :

وزورٍ زارنى والليل داجٍ فعَلَّنى بباطلٍ ذاك حيناً^(٦)
يربى أنه ثانٍ وسادى مضاجعةً ، وزور ما يُربنا
نَعَمْتُ بباطل ، ويودّ قلبى وداداً ، لو يكونُ لنا يقيناً
وقال أيضاً :

وزورٍ تَخْطَى جنوبَ المَلَا فنَاديت : أهلاً بذا الزائرِ^(٧)

(١) ديوانه ١٥ ، ١٦ .

(٢) غير مَرْوَب : غير مبعدة ، وفى ط : « مَرَبْت .. شراب » ، تصحيف .

(٣) مَصْرَد : مَقْل .

(٤) بعده فى الديوان :

كان المَنى بِلِقائِها فَلَقيَتْها فلهوتُ من لهُوِ امرئٍ مكذوبِ

(٥) فى الأصول : « الرضى » ، وهو خطأ ، والآيات فى طيف الخيال للمرتضى ١٥٣ ،

وهى أيضاً فى ديوانه المرتضى ٣ : ٣٠٣ .

(٦) الديوان : « وقد ملأ الكرى منا العيون » .

(٧) طيف الخيال : ٢٤٣ . منسوبة إلى المرتضى .

أَتَانِي هَدَوْ عَيْنَ الرَقِيبِ مَطْرُوفَةً بِالْكَرَى الْغَامِرِ
وَأَحِبِّ بِهِ يُسَمِّفِ الْهَاجِعِينَ وَتَحَرَّمُهُ مُقَلَّةُ السَّاهِرِ
وَعَهْدِي بِتَمْوِيهِ عَيْنِ الْحَبِّ تَمَّ عَلَى قَلْبِهِ الطَّائِرِ
فَلَمَّا التَّقِينَا بَرِغَمِ الرَّفَا دُمُوهَ قَلْبِي عَلَى نَظَائِرِي

قال الرضى: قلتُ هذه الأبيات سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، وتداول أهلُ
الأدب إنشادها ، واستغربوا هذا المعنى ، وشهدوا أنه مخترع لم يسمع ، فلما
تصفحت ديوان شعر أبي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، وجدت بخطه في
الجزء الثاني من شعره :

إِنْ طَيْفَ الْخِيَالِ زَارَ طَرُوقًا وَالْمَطَايَا بَيْنَ الْقَتَانِ وَشَعْبِ^(١)
زَارَنِي وَاصِلًا عَلَى غَيْرِ وَعْدٍ وَانْتَفَى هَاجِرًا عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ
كَانَ قَلْبِي إِلَيْهِ رَائِدًا عَيْنِي فَعَلَى الْعَيْنِ مِقْدَةً لِلْقَلْبِ
كَانَ عِنْدِي أَنَّ الْغُرُورَ لِيَطْرُقَ فَإِذَا ذَلِكَ الْغُرُورُ لِقَلْبِي

فلا أدري : هل قصد نظمها حتى لا يخلو شعره من هذا المعنى ، أو أنسى
سماعه مني ، وقذف به خاطره ، وكثيرا ما يلحق الشعراء ذلك ، فيتواردون في
بعض المعاني المسبوق إليها ، وقد كانوا سموها فأنسوها ؛ والخواطر مشتركة ،
والمعاني معترضة لكل خاطر ، وكيفما جرى الأمر فالعنصر واحد .

* * *

ثم قال : اخْزَنْهَا فِي تَأْمُورِكَ ، وَاقْتَدِرْ بِهَا فِي أُمُورِكَ ،

(١) ديوان الرضى ص ١ : ١٣٩ ، ١٤٠ ، طيف الخيال ٩٣ ، ٢٦٥ بنسبتها إليه
والقنن وشعب : موضحان ، وفي ط د القنن ، تحريف ؛ وبمده هناك :

فَوْقَ أَكْوَارِهِمْ أَنْفَاضُ شَوْقٍ طَرَقُوا بِالْغَرَامِ دُونَ الرِّكَبِ
كَلَّمَا أَنْتَ الْمَطَى مِنَ الْإِعْيَاءِ أَنَا مِنَ الْجَوَى وَالْكَرْبِ

وَبَادِرْ إِلَى صَحْبِكَ ، فِي كَلَاءَةِ رَبِّكَ ، فَإِذَا بَلَغْتَهُمْ ، فَأَبْلِغْهُمْ
تَحِيَّتِي ، وَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ وَصِيَّتِي ، وَقُلْ لَهُمْ عَنِّي : إِنَّ السَّهْرَ فِي الْخُرَافَاتِ ،
لِمَنْ أَكْثَرُ الْآفَاتِ ، وَلَسْتُ أَلْفِي احْتِرَاسِي ، وَلَا أَجْلِبُ الْهُوسَ
إِلَى رَاسِي .

قال الراوي : فلما وقفنا على فحوى شعره ، واطَّلعنا
على نكركه ومنكره ، تلاومنا على تركه ، والاعتذار
بإفكه .

ثم تفرقنا بوجوه بأسرة ، وصفقة خاسرة .

* * *

قوله : « اخزنها في تأمورك » ، أى اجعلها في قلبك ، والتأمور : حجاب
القلب ، وقيل : دم القلب . كلاءة : حفظ وكلاءة : يكلؤه : حفظه .

الخرافات : أحاديث اللهو والأباطيل ، قال الخليل : الخرافة الحديث
المستملح في الكذب . أبو عبيدة : كان خرافة رجلاً صالحاً سبقته الجن ،
فرأى منهم عجائب فحدث بها ، فيقال في كل حديث يُستغرب : كأنه
حديث خرافة .

ألفى : أترك . احتراسى : تحفظى . الهوس : ييس الرأس ، يتولد من
كثرة السهر . فحوى : معنى . نكركه : منكركه ودهائه . تلاومنا : لام
بعضنا بعضاً . الاعتذار : الانخداع . إفكه : كذبه . بأسرة : عابسة ، وبسر
وجهه بسورا : عابسه . وصفقة خاسرة ، أى تجارة ومبايعة ناقصة .

* * *

المفامه السابغه عشرة القمرية

حدث الحارث بن همام قال : لحظتُ في بعض مطارِح البين ،
ومطامح العين ، فتيةً عليهم سِيما الحجا ، وطلاوة نجوم الدجى .
وم في مِمارة مُشدّة الهُبوب ، ومباراةٍ مشتطةِ الأُهوب ، فهزّني
لِقصدٍ هم هوى المحاضرة ، واستجلاء جنى المناظرة .

فلما التحقتُ برهطهم ، وانتظمتُ في سمنطهم ، قالوا : أأنتَ
ممن يُنبلى في الهيمجاء ، ويُلقى دلوهُ في الدلاء ؟ فقلت : بل أنا
من نظارةِ الحزب ، لا من أبناء الطعن والضرب . فأضربوا عن
حجاجي ، وأفاضوا في التحاجي .

لحظت : نظرت . مطارح : جمع مطرَح ، وهو الموضع تطرح فيه نفسك ،
أى ترميها فيه . البين : الفراق ، فيريد بمطازح البين البلاد التى طرحه فيها
البين ورماه إليها . ومطامح العين : المواضع الحسان التى تطمح فيها العين بالنظر ،
أى ترتفع إليها . سِيما الحجا : علامة العقل ، والسّيما من وسمتُ الشيء وسمّا إذا
علّته ، وأصله «وسمى» ، فحوّلت الواو من موضع الفاء إلى العين . فصار سيمى ،
فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها . طلاوة : حسن . الدجا : الظلمة . الممارة :
الخصام . مشدّة : كبيرة الحركة . والشدة : الجرى . الهبوب : محىء الريح :
مباراة : معارضة . مشتطة : ممتدة متجاوزة الحد . الأهوب : الجرى الشديد ،

فأراد أن حركة الكلام بينهم في المناظرة شديدة . والمحاضرة : مجالسة العلماء .
مناظرة : سؤال العالم لتعلم حسن نظره وقدر معرفته . جناها : فوائدها . رهطهم :
جماعتهم . انتظمت في سمطهم ، أى جلست بينهم . يلى في الهيجاء : يقاتل في
الحروب . النظارة : القوم يقعدون في موضع مرتفع من الأرض ينظرون منه
القتال ولا يشهدونه ، فأراد أنى ممن يحضر معكم للاستماع ، لا للمناظرة .
الحجاج : مصدر حاجه ، تقول : حاجت فلانا إذا أوردت عليه الحجة وأوردها
عليك ، فإن غلبته قلت : حججته . أفاضوا في الأحاجي : اندفعوا في الألفاظ .

* * *

وكان في مَجْبُوحَةِ حَلِيقَتِهِمْ ، وَإِكْلِيلِ رُفْقَتِهِمْ ، شَيْخٌ قَدْ
بَرَّتْهُ لُحْمُومٌ ، وَلَوْحَتُهُ السُّمُومُ ، حَتَّى عَادَ أَنْحَلَ مِنْ قَلَمٍ ،
وَأَقْخَلَ مِنْ جَلَمٍ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُبْدِي الْمُجَابَ ، إِذَا أَجَابَ ،
وَيُنْسِي سَحْبَانَ ، كُلَّمَا أَبَانَ . فَأُعْجِبْتُ بِمَا أُوتِيَ مِنْ
الإِصَابَةِ ، وَالتَّسْبِيرِ عَلَى تِلْكَ الْعِصَابَةِ ، وَمَا زَالَ يَفْضَحُ
كُلَّ مَعَى ، وَيُصْنِئُ فِي كُلِّ مَرْحَى ، إِلَى أَنْ خَلَّتِ الْجَلَابُ ،
وَنَفِدَ السُّؤَالُ وَالْجَوَابُ .

فلما رأى إِنْقَاضَ الْقَوْمِ ، وَاضْطِرَّ أَرْحَمُ إِلَى الصُّومِ ، عَرَّضَ بِالْمَطَارَحَةِ ،
وَاسْتَأْذَنَ فِي الْمَقَامَةِ .

فَقَالُوا لَهُ : حَبِّذَا ، وَمَنْ لَنَا بِذَا !

* * *

بُحْبُوحَةٌ : وَسِطٌ . إِكْلِيلٌ : دَائِرَةٌ ، وَأَصْلُهَا عَصَابَةٌ مَكَلَّةٌ بِالْأُذُنِ وَالْيَاقُوتِ ،

تعتمد على رموس الملوكة . رفقهم : جماعتهم . برته : أذهبت لحمه . لوحيته :
غيرته وأضرمت جسمه . السموم : الريح الحارة . أقفل : أيس .

جلم : مقصّ ، وأكثر ما يستعمل مثني ، فيقال : جلمان ، والعجب من
أبي محمد يقول في الدرة : ^(١) ويقولون : قرضت ^(٢) بالمقراض ، وقصصت ^(٣)
بالمقص ^(٤) فيهمون ، كما وهم بعض الحداثين حين قال في صفة مزنون ^(٥) بالقيادة ،
وإن كان قد أبدع في الإجابة :

إذا حبيبٌ صدّ عن ألفٍ تيهًا وأعيًا كلَّ رَواضٍ ^(٦)
ألف فيما بين شخصيها كأنه مسمارٌ مقرّاضٍ

قال : والصواب أن يقال ، مقراضان ومقصّان وجلمان ، لأههما ^(٧) اثنان .

فما منعه غيره أباحه هنا لنفسه ، فقال : أقفل من جلم ، ولا تقول كما قال :
لأنه وهم ، بل نقول : لأنها لغة قليلة .

قال يعقوب : والجلم الذي يُجَزَّ به ، وقال رجل من الأزد في مفرد مقراض :

(١) درة القوس ١١٥ .

(٢) الدرة : قرضته .

(٣) الدرة : «قصصته»

(٤) الدرة : « فيهمون » .

(٥) مزنون ، أي متهم .

(٦) قبله في الدرة :

التي ابن إسحاق تلاقى فتى ليس امرؤ عنه بمعتاضٍ

(٧) بعده في الدرة : ونظير هذا الوهم قولهم للثنين زوج ، وهو خطأ ، لأن الزوج في كلام العرب هو الفرد المزاج لصاحبه ، فأما الاثنان المصطحبان فيقال لهما : زوجان ، كما قالوا : عندي زوجان من النمل ، أي نملان .

فعليك ما اسطعت الظهور بلمتى وعلى أن ألقاك بالمقراضِ

وقال الراجز في مفرد الجلم :

* وجلم كرىشة الوقــــــــواق *

والوقواق : الخطاف ، والجسم للتحميل يشبه بالقلم والجلم ، وقلب الشاعر التشبيه وألفز بالقلم ، فقال :

ضئيل الرؤاء كثير الفناء من البحر في المنصب الأخضرِ
كمثل أخى العشقى في شخصه وفى لونه من بنى الأضفرِ
وقال ابن أبى لبابة فى جلم :

ومعتقن ما اتهمنا بعشقى وإن وصفا بضمّ واعتناقِ
لعمرو أليك ما اجتماعا لمعنى سوى معنى القطيعة والفراقِ

وتقدّم فى الثانية من أبيات المعانى فيه :

ارعت مراتع مدرها على وهن^(١) صنوين إن أفردا لم يرعيا أبدا

أبان : بيّن . التبريز : الظهور والخروج قبلهم .

المصابة : الجماعة . يفضح : يشهر عيبه . معقى : مستور . يصمى : يصيب
للقتل .

خلت الجعاب : أى أفرغ الكلام ، والجمبة : وعاء السهام ، فكأنى بهاعن

(١) حاشية ط : الذى تقدم « على : عجل » .

القلوب ، وبالسهم عن الكلام الذي يصدر عنها .

الإفراض : فناء الزاد ، وقد أنقض القوم ، وأراد نفاذ ما عندهم من العلم .
الصَّوْم : الشكوت والإمساك عن الكلام .

المطارحة ، أصلها في الفناء ، وهو ما يأخذه المتعلم عن المعلم وعرض بها ، أى ذكرها . المفاتحة : استفتاح الكلام .

* * *

فقال : أُنْعِرِقُونَ رِسَالَةَ أَرْضِهَا سَمَاوُهَا ، وَصُبْحُهَا مَسَاوُهَا ،
نُسِجَتْ عَلَى مَنَوَاتَيْنِ ، وَتَجَلَّتْ فِي لَوْنَيْنِ ، وَصَلَّتْ إِلَى جِهَتَيْنِ ، وَبَدَتْ
ذَاتَ وَجْهَيْنِ ، إِنْ بَزَغَتْ مِنْ مَشْرِقِهَا ، فَتَاهِيكَ بَرِّ وَنَقْهَا ، وَإِنْ طَلَعَتْ
مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَيَا لِعَجَبِهَا !

قال : فكان القوم رُمُوا بالعصمات ، أَوْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ
الْإِنْصَات . فما نَبَسَ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ ، وَلَا فَاهَ لِأَحَدٍ لِسَانٌ ، فَحِينَ
رَأَاهُمْ بُكْمًا كَالْأَنْعَامِ ، وَصُمُوتًا كَالْأَصْنَامِ ، قَالَ لَهُمْ : قَدْ أَجَلْتُكُمْ
أَجَلَ الْعِدَّةِ ، وَأَرْخَيْتُ لَكُمْ طَوْلَ الْمِدَّةِ ، ثُمَّ هَاهُنَا تَجْمَعُ الشَّمْلُ ،
وَمَوْقِفُ الْفَصْلِ ، فَإِنْ سَمَحْتَ خَوَاطِرَكُمْ مَذْحَنًا ، وَإِنْ صَلَدْتَ
زِنَادُكُمْ قَدْحَنًا ، فَقَالُوا لَهُ : وَاللَّهِ مَا لَنَا فِي لُجَّةِ هَذَا الْبَحْرِ
مَسْبَحٌ ، وَلَا فِي سَاحِلِهِ مَسْرَحٌ ، فَأَرِخْ أَفْكَارَنَا مِنَ الْكَدِّ ،

وَهَئِيَّ الْعَطِيَّةَ بِالنَّقْدِ ، وَاتَّخِذْنَا إِخْوَانًا ، يَثْبُون إِذَا وَثَبْتَ ، وَيُثْبُونُ
مَعِيَ اسْتَدْبَتَ .

فَأُطْرِقُ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : سَمَّيَا لَكُمْ وَطَاعَةً ، فَاسْتَمْلُوا مِنِّي ،
وَانْقُلُوا عَنِّي ...

* * *

أَرْضَهَا سَمَاوُهَا : يَرِيدُ أَعْلَاهَا أَسْفَلَهَا . صَبَحَهَا مَسَاوُهَا : أَوَّلَهَا آخِرَهَا .
الْمَنَوَال : خَشَبَةُ الْحَائِكِ ، أَرَادَ أَنَّهَا نَسَجَتْ مِنَ الطَّرْفَيْنِ ، لِأَنَّكَ تَبْتَدِئُهَا بِالْقِرَاءَةِ
إِنْ شئتَ مِنْ أَوَّلِهَا ، وَإِنْ شئتَ مِنْ آخِرِهَا .

بَرَزْتَ : طَلَعْتَ . نَاهِيكَ : كَافِيكَ .

رَوْقُهَا : حَسَنُهَا ، وَالرُّوْنُقُ : صَفَاءُ الْوَجْهِ وَحُسْنُهُ وَنِعْمَتُهُ .

الصَّمَات : السَّكُوتُ ، وَالْإِنْصَاتُ مِثْلُهُ . نَبَسَ : تَكَلَّمَ . الْأَنْعَامُ : الْمَوَاشِي .

أَجَلَّتْكُمْ : أَخَّرَتْكُمْ وَالْعِدَّةُ هُنَا : عِدَّةُ الْمَوْتِ ، لِأَنَّهَا أَطْوَلُ الْعِدَدِ ، أَلَا
تَرَى أَنَّهُ أَرْخَى لَهُمْ طَوْلَ الْمَدَّةِ ؛ وَالطَّوْلُ : الْحَبْلُ . وَالشَّمْلُ : الْاجْتِمَاعُ . الْفَضْلُ :
الْقَضَاءُ ، يَقُولُ : قَدْ طَوَّلْتَ لَكُمْ الْأَمَدَ لِتَسْتَخْبِرُوا هَذِهِ الرِّسَالَةَ ، وَفِي هَذَا الْمَوْضِعِ
يَكُونُ اجْتِمَاعُنَا وَيَفْصَلُ فِيهِ بَيْنَ الْعَارِفِ وَضَدِهِ .

خَوَاطِرُكُمْ : أَذْهَانُكُمْ . صَلَدَتْ : شَجَتْ . قَدْحْنَا : ضَرْبْنَا زَنْدَ النَّارِ ، يَقُولُ :
إِنْ عَرَفْتُمُوهَا مَدَحْنَاكُمْ وَإِنْ جَهَلْتُمُوهَا عَرَفْنَاها لَكُمْ ، وَجَعَلَ صَلُودَ الزَّندِ كَلَايَةَ
عَنْ جُودِ الْقِرَائَةِ .

لُجَّةٌ : مَعْظَمُ الْمَاءِ . مَسْبُوحٌ : مَوْضِعٌ يُسْبَحُ فِيهِ ، أَيْ يَعَامُ . مَسْرَحٌ : مَوْضِعٌ

يُسرح فيه ، أى يُمشى ويتصرف . الكد . الجهد والتهب . هنىء : طيب .
النقد : حضور المال . يثبون : يقومون لقيامك . يثبون : يهبون الثواب .
استنبت : طلبت الثواب . استملوا : اكتبوا .

الإنسانُ صنِيعَةُ الإِحْسَانِ ، وربُّ الجَمِيلِ فِعْلُ النَّدْبِ ، وَشِيعَةُ
الْحُرِّ ذَخِيرَةُ الْحَمْدِ ، وَكَسْبُ الشُّكْرِ اسْتِمَارُ السَّعَادَةِ ، وَعُنْوَانُ
الْكَرَمِ تَبَاشِيرُ الْبَشْرِ ، وَاسْتِعْمَالُ الْمُدَارَاةِ يُوجِبُ الْمُصَافَاةَ ، وَعَقْدُ
الْحُبَّةِ يَقْتَضِي النُّضْحَ ، وَصِدْقُ الْحَدِيثِ حِلْيَةُ الْإِنْسَانِ ، وَفَصَاحَةُ
النُّطْقِ سِحْرُ الْأَلْبَابِ ، وَشَرَكُ الْهَوَى آفَةُ النُّفُوسِ ، وَمَلَأُ الْخَلَائِقِ
شَيْنُ الْخَلَائِقِ ، وَسُوءُ الطَّمَعِ يَبَايِنُ الْوَرَعَ ، وَالزِّمَامُ الْحِزَامَةُ زِمَامُ
السَّلَامَةِ ، وَتَطَلُّبُ الْمَنَالِ ، شَرُّ الْمَعَائِبِ ، وَتَتَبُّعُ الْعَثَرَاتِ ،
يُدْحِضُ الْمَوَدَّاتِ ، وَخُلُوصُ النِّيَّةِ ، خُلَاصَةُ الْعَطِيَّةِ . وَتَهْنِئَةُ التَّوَالِ عَنْ
السُّؤَالِ ، وَتَكْلُفُ الْكَلْفِ ، يُسَهِّلُ الْخَلْفَ ، وَتَيَقْنُ الْمُعَاوَنَةِ يُسَنِّئُ
الْمُتُونَةَ ، وَفَضْلُ الصَّدْرِ ، سَعَةُ الصَّدْرِ ، وَزِينَةُ الرَّعَاةِ ، مَقْتُ السُّعَاةِ ،
وَجَزَاءُ الْمَدَانِحِ ، بَثُّ الْمَنَاحِ ، وَمَهْرُ الْوَسَائِلِ ، تَشْفِيعُ الْمَسَائِلِ ،
وَمَجْلَبَةُ الْغَوَايَةِ ، اسْتِفْرَاقُ الْغَايَةِ ، وَتَجَاوُزُ الْحَدِّ يُكَلِّهُ الْحَدَّ .

صنِيعَةُ : ما يصطنعه الإنسان لغيره من الخير ، يريد أن الإنسان أهل الإحسان ،
وإن عكست قلت : الإحسان صنِيعَةُ الإنسان ، أى إصلاح الإحسان وتنميته .

من صنع مَنْ يوصف بالإنسانية وقد تقدّم :

* وما فيهم مَنْ يربّ الصّنيع *

وقال أعرابي لعبد الملك بن مروان :

يُربّ الذي يأتي من الخير إنه إذا فعل المعروف زاد وتّمّا
وليس كبانٍ حين تمّ بناؤه تتبّعهُ بالتقصّض حتى تهدّما
فمعنى يربّ ، هو قوله : زاد وتّمّا .

النّذب : السّيّد الخفيف : شيمة : طبيعة . الذخيرة : الشيء الرفيع من مالٍ
أو غيره ، والادخار كالإقتناء . استثمار : تناول الثمر : عنوان : دليل : تباشير :
أوائل ، وتباشير الصبح : طرائق ضوئه في الليل ؛ ويقال للطواق التي تراها على وجه
الأرض من آثار الرياح : التّباشير . البشر : طلاقة الوجه . المدارة : خداع
القلوب بلطف الكلام ، ومدارة الناس : معاملتهم بما يحبّون . المصافاة : إخلاص
الصّحبة . عقدها : ربطها . يقتضى : يهضم . حلية : زينة . الألباب : المقول .
الهوى : ما يهواه الإنسان ويميل إليه . آفة : داء . الخلائق : الناس . شين :
عيب . الخلائق : الطبائع ، يقول : الملل في الناس يعيب أخلاقهم . سوء الطمع :
كثرة الحرص . تباين : تباعد . الورع : الكفّ عمّا فيه إثم ، وقد ورّع الرجل
يرعّ ورعاً ورعة ؛ إذا كفّ عمّا لا يحلّ ، والورع بفتح الراء : الجبان ، وقد
ورّع وورّع ، وقال عروة بن أذينة في ذمّ الطمع :

لقد علمت وخيرُ القول أصدقه بأنّ رزقي وإن لم آتِ يأتيني
أسعى له فيعنيني تطلبه وإن قعدت أتانى لا يعنيني
لاخير في طمعٍ بدنى إلى طمع وعقة من قوام العيش تكفيني

وأنشد الحريري البيت الأول في الدرة :

لقد علمت وما الإسراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
قال : فيروى أكثرهم « الإسراف » بالسین المهملة ، وروى بعضهم بالشين
المجسمة^(١) ، ليكون معناه التطلع إلى الشيء والاستشراف إليه .

* * *

[عروة بن أذنيه وهشام بن عبد الملك]

قال : ولهذا البيت حكاية تحت على استشعار اليقين ، وإعلاق الأمل بالخالق
دون المخلوقين ، فخليته بها تحلية لماعله ، ومنبهة على صدق قائله ؛ وهو ما رويته
من هذه طرق : أن عروة هذا وفد على هشام بن عبد الملك في جماعة من الشعراء ،
فلما دخل عليه عروة قال له ألسنت القائل :

لقد علمت وخير القول أصدقه ... الأبيات

وأراك قد جئتَ تضرب من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق ! فقال له :
لقد وعظت يا أمير المؤمنين فبالنت في الوعظ ، وأذكرت ما أنسانيه الدهر .
وخرج من فوره إلى راحلته فركبها ، ثم نصتها نحو الحجاز .

فمكث هشام يومه غافلاً عنه ، فلما كان من الليل تعار^(٢) على فراشه ،
فذكره فقال : رجل من قریش قال حكمة ، ووفد إلى اليوم ، فخبثته ورددته عن
حاجته ! وهو مع هذا شاعر ، لا آمن ما يقول . فلما أصبح سأل عنه ، فأخبر

(١) البيت في اللسان - شرف

(٢) التعار : التقلب على الفراش في النوم .

(١٦ - شرح مقامات الحريري - ج ٢)

بانصرافه ، قال : لا جرم ، ليعلم أن الرزق سيأتيه ، ثم دعا بمولى له ، فأعطاه ألفي دينار ، وقال : الحق بهذا ، أين أدركته فأعطه إياها .

قال : فلم يدركه إلا وقد دخل بيته ، فقال : أبلغ أمير المؤمنين السلام وقل له كيف رأيت !

* * *

قوله : «الحزامة» : جودة الرأي ، والحازم : الجامع لرأيه ، المحكم لأمره وأصل الحزم الجمع والشدّة ، ومنه الحزمة ، وحزمت للتاع جمعته وشددته ، ومنه الحزام لأنه يُشدّ به ، وقد حَزَمَ الرجل : صار حازماً .

الزّمام : مقوّد البعير .

الثّالب : السّاوى ، وثلبه : ذكره بسوء . التّطلب : البحث ، يريد أن البحث عن عيوب الناس من أكبر العيوب ، قال رجل للمستورد الخارجى : أريد غلاماً عتياباً ، قال : التمسه بفضل معايب فيه .

وكان يقول : أوّل ما يدلّ على عائب الناس معرفته بالمعيب .

معاوية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كذت نفسك .

أبو الدرداء : كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله بها : مرّة المسيح صلوات الله عليه يقوم من اليهود ، فقالوا له شرّاً ، فقال خيراً ، فقيل له فى ذلك ، فقال : كلّ ينفق مما عنده .

وكتب الشافعى رضى الله عنه لصديق له :

لئن ساءنى أن نلتقى بمساءة لقد مررتنى أنى خطرت ببالك^(١)
وأتى الشافعى رضى الله عنه مسجداً ، فصادف قوماً يفتابونه ، فسد الباب
وقال :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استعلت^(٢)
وقال الشاعر :

تالبنى عمرو وثالبتك فأنتم المثلوب والتالِبُ
قلت له خيراً وقال الخنئ كل على صاحبه كاذب

قوله : « العثرات » ، السقطات . يُدحض : يبطل ، يريد أن البحث عن
عيوب الصاحب يُبطل مودته .

أبو بُرْدة الأسلى رضى الله عنه : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال : يا معشر مَنْ أَسْلَمَ بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ، لا تَذْمُوا الناس ولا
تَمَيِّزُوهم ، ولا تَتَّبِعُوا عوراتهم ، فإنه من يلتمس عورة أخيه تَتَّبِعَ الله عورته ،
وَمَنْ تَتَّبِعَ الله عورته يَفْضَحْهُ فى بطن يَبْتَه .

وقال سابق البربرى :

إذا ما كنت طالب كل ذنب ولم تحمِلْ أخاك عن العتابِ
تُباعِد مَنْ تباعد بعد قرب وصارَ بِكَ الزَّمان إلى اجتنابِ

وقال عبدالله بن جعفر : عليك بصحبة مَنْ إن صحبته زانك ، وإن غبت عنه
صانك ، وإن احتجبت إليه مانك ، وإن رأى منك خلة سداها ، أو حسنة عداها .

(١) البيت من أبيات لابن الدمينه ، ديوانه ١٧ .

(٢) من نائية كثير ، أمالى القالى ٢ : ١٠٧ - ١١٠ .

وقال الحسن بن وهب: **مِنْ حُقُوقِ الْمَوَدَّةِ أَخَذَ عَفْوُ الْإِخْوَانِ ، وَالْإِغْضَاءُ عَنْ تَقْصِيرِ إِنْ كَانَ .**

وقيل : **خَيْرُ الْإِخْوَانِ مَنْ إِذَا نَسِيتَ ذَنْبَكَ لَمْ يَفْرَعَكَ بِهِ ، وَمَعْرُوفُهُ عِنْدَكَ لَمْ يَمْنَعْ عَلَيْكَ بِهِ .**

وقال الشاعر :

إِذَا شِئْتُ أَنْ تَدْعَى كَرِيماً مَهْذَباً سَفِيْكَ سَرِيّاً مَاجِداً فَطِنَاً حُرّاً
إِذَا مَا بَدَتْ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ فَكُنْ أَنْتَ مُخْتَالاً لَزَلَّتْهُ عُذْرَا

قوله : « **خالص للنية** » ، صفاؤها ، أى من أخلص لك النية ؛ فكأنه قد أعطاك خالص ماله ، والخلصة : ما خلص من الشيء وصفا .

النوال : **العطاء . الكلف : المشقات . يسئى : يستهل . المؤنة :**
خدمة الضيف وما ينفق عليه ، يقول : من يتقن أن الله يُعينه على البرِّ أو ما ينويه من الحقوق ، سهل عليه تكلف المؤن ؛ وهو من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « **إِنَّ اللَّهَ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ** » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « **من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه . فإن لم يقم بذلك النعمة عرّض النعمة للزوال** » .

وأما معكوس ما قبله ، وهو يتقن الخلف يسهل الكلف ، فمن قوله صلى الله عليه وسلم : « **من أيقن بالخلف جاد بالمعطية** » .

قال محمود الورّاق :

مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ خَيْراً جَادَ مُبْتَدِئاً وَابْخَلَ مِنْ سُوءِ ظَنِّ الْمَرْءِ بِاللَّهِ

قالوا: للمعروف ثلاث خصال : تمجيئه وتيسيره وستره ، فمن أخلّ بواحدة منها ، فقد بَخَسَ للمعروف حقّه ، وسقط منه الشكر .

قوله : « الفضل » ، هو الزيادة على قدر الحاجة . العَدْر : هو المتقدم في الأمور ، مثل الوالى وسيد القوم ، يقول : مَنْ يتصدّر لأُمور الناس ، ففضله يوشرفه سعة خلقه .

الرّعا : الولاة . مقت الشعاة : بغض العمال الذين يجمعون الزكاة . والشعاة أيضاً المشاءون بالنيمة للملوك ، فيقول : زين الملوك بغض العمال الذين جرت العادة في قديم الزمان وحديثه بظلمهم الناس ، فإذا أبغضوهم بحثوا على أعمالهم الفاسدة ، يخافون فعدلوا ، وأما بغض المشائين النّيمة للملوك فواجب ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم « لعن الله المثلب » . قيل : وَمَنْ المثلب يارسول الله ؟ قال : « الذى يَسْتَحْي بصاحبه إلى سلطان ، فيهلك نفسه وصاحبه وسلطانة » .

قوله : « بثّ » ، أى نشر . المنائح : العطايا ، يقول : جزاء المدح بَذل المال ، وأصل المنائح بذل فوائد الأموال لا الأموال .

مهر : حقّ ، الوسائل : القُرب ، والوسيلة ما تجعله سبباً بينك وبين مَنْ تريد الوصول إليه مثل الشفيع والهدية في قضاء حاجتك .

المسائل : جمع مسألة ، وهى هنا سؤال المحتاج . والمجلبة : مَفْعَلَة من الجلب ، والمعنى : حق الوسيلة قضاء الحاجة . القَوَاية : الضلالة . استغراق : تجاوز الحدّ ، والحدّ : الأول الفصل بين الشيئين ، وأصله المنع ، والحدّ الآخر حدّ السيف وشبهه . بكلّ : يضعف .

* * *

وتعدّى الأدب ، يُحْبِطُ القُرب ، وتناهى الحقوق ، ينشئ

المعقوق، وتحمائي الرّيب يرفع الرّتب، وارتفاع الأخطار باقتحام
الأخطار، وتنوّه الأقدار بمواتاة الأقدار، وشرف الأعمال في
تقصير الآمال، وإطالة الفكرة تنقيح الحكمة، ورأس الرّياسة
تهذب السياسة، ومع اللّجاجة تلغى الحاجة، وعند الأوجال
تتفاضل الرجال، ويتفاضل المهم تتفاوت القيم، وتزيّد السفير
يهن التدبير، ويحلّل الأحوال تتبين الأحوال، وبموجب الصبر
ثمرّة النّصر، واستحقاق الإنهاد بحسب الاجتهاد، ووجوب
الملاحظة، كفاء المحافظة، وصفاء الموالى بتمهّد الموالى، وتحلّى
المروءات يحفظ الأمانات، واختبار الإخوان بتخفيف
الأحزان، ودفع الأعداء بكفّ الأوداء، وامتحان العقلاء
بمقارنة الجهلاء، وتبصّر العواقب يؤمن المماط، واتقاء
الشّنع ينشر الشّمة، وقُبْحُ الجفاء ينافي الوفاء، وجَوْهر
الأحرار عند الأسرار.

* * *

تمدّى : تجاوز . يحبط : يفسد .

ينشئ المعقوق : يظهر القاطعة . تحاشى : ترك واعتزال .

الرّيب : التّهم . الرّتب : المنازل الرفيعة ، قال بعض الحكماء : ثلاثة
لا غربة معهنّ : مجانبة الرّيب ، وحسن الأدب ، وكفّ الأذى .

ونظمها الشاعر فقال :

يزين الغريبَ إذا ما اغترَبَ ثلاثٌ، فمنهنَّ حسنُ الأدبِ
وثمانية حسنُ أخلاقه وثلاثهنَّ اجتنبَ الرِّيبَ

وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه لدهقان بعض ملوك المعجم : بم ينبئُ
الرجل عندكم ؟ قال: بترك الكذب، فإنه لا يشرف إلا من وثق بقوله . وبقيامه
بأهله ، فإنه لا ينبئ من يحتاج أهله إلى غيره ، وبمجانبة الرِّيب فإنه لا يعز من
لا يأمن أن يصادف على سوءة . وبالقيام بحاجات الناس ، فإنه من رُجِيَ النرج
لهذه كثرت غاشيته .

قوله : « ارتفاع الأخطار » أى شرف الأقدار والقيَم . اقتحام : دخول
شديد ، يقال : فلان يقتحم فى الأمور ، أى يدخل فيها بغير تثبت ولا روية ،
وتحتمت الناقة ، إذا نذت فلم يمسكها راكبها ، ومنه فُحِمَ العرب ، سُمِّيَتْ فُحمة ،
لأنهم إذا أجذبوا تركوا البادية ودخلوا الريف .

الأخطار : جمع خَطَر ، وهو الفَرَر .

تنوّه : ترفع . مواتاة : موافقة . الأقدار : الأول جمع قَدَر الإنسان ، أى
منزله ، والأقدار الثانى : جمع قَدَر الله تعالى .

وقال الشاعر :

الجِدْ أَنهَضْ بِالْفَتَى مِنْ عَقْلِهِ فانهضْ بِجَدِّ فِي الْحَوَادِثِ أَوْ ذَرِ
ما أَقْرَبَ الْأَشْيَاءَ حِينَ يَسُوقُهَا قَدَرٌ وَأَبْعَدُهَا إِذَا لَمْ تَقْدَرِ

تفسير الآمال : تقليل الرجاء وكفّه ، ومن قَلل الطامع شرف عمله .

الفكرة : التدبير . تنقيح : تخليص ، وأصله أن تشذب العُقد من العود أو القصب حتى يستوى موضعها مع القصب .

قال الشاعر :

وطارت بصلب قوضت عند بيتها له أبْنٌ ما قوضت وكوب^(١)

صاب : عمود البيت ؛ جذبته للمرأة لتضربه به فهدم بيتها .

تهذب : تخلص : والمهذب : المخلص من العيوب . والسياسة : حسن الإدارة .
واللجاجة : ركوب الرأس في الباطل . تُتَلَقَّى : توجد . ويروى : «تلقى» و«تلقى» ،
ومعناها تترك وتطرح . والحاجة : ما يحتاج إليه ، فإن عكست رجعت الحاجة
الفقر ، يريد : إذا لججت في شيء أدركت حاجتك ، وعلى «تلقى» إذا وقعت لجة
في حاجتك تركت ، وعلى العكس : مَنْ افقر لجج في السؤال حتى يعطى .
الأوجال : جمع وَجَل ، وهو الفزع ، والمغنى ، أن تفاضل الرجال في
الصبر عند النوازل .

سلمان رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس شيء خيراً
من ألفٍ مثله إلا الإنسان » .

وقال الشاعر :

ولم أرَ أمثالَ الرجال تسارعُوا إلى الخير حتى عدَّ ألفٌ بواحدٍ

وفي عكسه يقول : الأمور المخوفة تصغر على العظيم وتعظم على الصغير ، فعلى
قدر ما يفضل الرجل صاحبته في عزمه وإقدامه تزايد الأوجال وتنتقص .

وقد قال المتنبي :

على قَدْرِ أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتى على قدر الكرام المكارم^(٢)

(١) الأبنة : العقدة في العود ، وجمعها أبْن .

(٢) ديوانه ٣ : ٣٧٨ ، ٣٨٩ .

وتعظمُ في عين الصغير صفارُها وتصدُرُ في عين العظيم العظامُ

الهمم : جمع همة . تفتاوت : تتباعد ما بينها . القيم : المنازل . السفير : الرسول : يهين : يضمف ، والمعنى أن السفير إذا تعدى فزاد في الحديث ضعف التدبير ، ولو عكست لقلت : إن تدبير المرسل إذا اختلّ ضعف السفير ، وإن كان حازماً ، وعلى هذا أنشدوا :

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلًا فأرسلَ حكيمًا ولا توصِه^(١)
وإن ناصحَ منك يوما دنا فلا تنأ عنه ولا تُقصِه
وإن باب أمرٍ عليك التوى فشاوِرْ لبيبًا ولا تمصِه
وذو الحق لا تنقص حقه فإن القطيعة في نقصِه
ولا تحرصنْ فربَّ امرئٍ حريصٍ مضاع على حِرصِه

قوله : « خلل » ، فساد . والإحماد : أن تجد الرجل محمودا .

والاجتهاد : بلوغ الجهد ، وهو أقصى الطاقة ، والمعنى : أن الرجل يستحق أن يكون محموداً بحسب ما بذل من اجتهاده وطاقته ؛ ولو عكست لقلت : الاجتهاد واجبٌ عليك فيما كلفته بحسب إحمادك من كلفك .

الملاحظة : النظر بمؤخر العين .

الحفاظة : التحرز ، والمعنى : إنك إذا أوجبت ملاحظة حال الحافظ لك ، ففعلك ذلك كفاء محافظته ، وإن عكست قلت إن الحافظ لك إذا صفت محافظته فهي كفاء ملاحظتك .

الموالى : الذى يُوالى الخير ، والكرم ، أى يفعل المرة بعد المرة . تهتد :

(١) البيت الأول في الأغاني ١٦ : ٨٤ (ساسى) من غير لسة .

تَفْقَدُ . الْمَوَالِي : بنو العمِّ ، وقيل : الموالى مَنْ والاك بعثى أو بحاف أو بصحبة ، فكلُّ واحد منهما مولى للآخر ، والموالى بالضم الفاعل ، والمعنى : إذا تعاهدت مَنْ والاك بما أوجبه ولاؤه من رعايته ، صفت مودته لك ، وإن عكست قلت : إن الموالى يتعهدون من والام .

والصحيح في هذا الموضع أن للموالى الذى يولىك ودّه ، والموالى : العبيد والأنباع .

وسأنى الأستاذ المقرئ الحاجّ ابن السقاط في هذا الموضع ، فأجبت بما تقدّم ، فقال لى : معنى هذا الموضع غائب عمّن لا يعرف سيرة أهل المشرق ، وذلك أن الرجل الشريف حين يصبح عندهم يأمر مواليه أن يقصدوا نظراء من الأشراف والأعيان ، فيأتون باب الشريف ، فيستأذنون عليه ، ويدخلون إليه ويقولون له : ينعم مولانا صباحك ، ثم يسألونه عن حاله وعمّا حدث عنده ، ثم يفعلون كذلك بجميع أصحاب مولايم ، وكذلك يفعل موالى ذلك المقصود في قصد نظراء مولايم ، فتتضبط بذلك عندهم الرعايات بين الأصدقاء والأقارب ، وتزايّد المودات بين الأولياء والأجانب . فعلى هذا المعنى يقول في تمهيد الموالى ، وهو حسن إن شاء الله تعالى .

قوله : « تحلى » ، أى تزين . والمروءات ، تقدمت . وتخفيف الأحران : تهوين الطوارىء والنوازل . الأوداء : الأحياب ، يريد أنهم يكفون الأعداء ، ورواية ابن ظفر « دفع القداء » ، وأنكر « الأعداء » ، وقال : القداء بالفتح والمد : الظلم .

امتحان : اختبار ، يقول : إنما يتبين لك المساقل بمقارنته وبمصاحبته للجاهل ، لأنه لا يوافقه ، وإن عكست قلت : الجاهل إذا صحب العاقل تبصر وانتقى جهله .

وقالوا : إذا أردت أن تفحّم عالمًا فأحضره جاهلاً .

وقال الشاعر :

عَدَوَى البليد إلى الجليد سريعةً والجر يُوضعُ في الرماد فيخمدُ

وقال صلى الله عليه وسلم : « ويل لعالمٍ أمرٍ من جاهله » .

وجاء كيسان إلى الخليل يسأله ، ففكر ليحييه فلما استفتح الكلام ، قال

له : لا أدري ما تقول ! فقال الخليل ^(١) :

لو كنت تعلمُ ما أقولُ عَذَرْتَنِي أو كنتُ أَجهلُ ما تقولُ عَذَلْتُكَ

لكنَّ جهاتَ مقالتي فعَذَلْتَنِي وعلمتُ أَنَّكَ جاهلٌ فعَذَرْتُكَ

تبصر العواقب : إمعان النظر في عاقبة الأمور . والمعاطب : الممالك ،

يريد من نظر في عاقبة أمره أمِن ما يحذر .

الشفعة : الفعل القبيح ينشر ذكره . السمعة : الذكر الجليل يُسمع عنك ،

أو القبيح فينشر في الناس .

الجفاء : سوء الأدب ، وقيل الكلام . وينافى : يباعد . الوفاء : ضد

الفدر .

* * *

ثم قال : هَذِهِ مَائِنًا لَفْظَةً ، تَحْتَوِي عَلَى أَدَبٍ وَعِظَةٍ ،

فَمِنْ سَأَقَهَا هَذَا الْمَسَاقَ ، فَلَا مَرَاءَ وَلَا شِقَاقَ ، وَمَنْ رَامَ

عَكْسَ قَالِبِهَا ، وَأَنْ يَرُدَّهَا عَلَى عَقِبِهَا ، فَلْيَقُلْ : الْأَمْرَارُ

(١) الخبر والشعر في ابن خلكان ١٧٣: ١ بهذه الرواية : « وكان له - أي لل خليل -

ولد متخلف ، فدخل على أبيه يوماً ، فوجده يقطع بيت شعر بأوزان العروض ، فخرج إلى الناس وقال : إن أبي قد جن ، فدخلوا عليه ، وأخبروه بما قال ابنه ، فقال غاطباً له ... وذكر البيهقي .

عند الأحرار ، وَجَزَهْرُ الْوَفَاءِ ، مُبْنًى فِي الْجَفَاءِ ، وَتُبِيعُ السُّنْمَةِ
يَنْشُرُ الشُّنْمَةَ ، ثُمَّ عَلَى هَذَا الْمَسْحَبِ فَلْيَسْحَبْهَا ، وَلَا يَرْهَبْهَا ،
حَتَّى تَكُونَ خَاتَمَةً فَقْرَهَا ، وَآخِرَةً دُرِّهَا . وَرَبُّ الْإِحْسَانِ
صَنِيعَةُ الْإِنْسَانِ .

* * *

تحتوى : تشتمل . عظة : موعظة .

المراء والشقاق ، معناهما الخلاف ، والمكس ردّ أول الكلام على آخره ،
وهو الردّ على العقب كما ذكره ، وهو معنى القهقرة الذى تَمَّى به المقامة ،
ولذلك لم ينسبها إلى بلد . والقهقرة : رجوع الرجل عنك ، كما جاء عليك ، وذلك
أن يرجع إلى خلف ، وهو يستقبلك بوجهه ، وهو الردّ على العقب ، وذلك
أن الرجل إذا توجه مقبلاً إليك ، فإنما يقدّم فى مشيه إليك صدور قدميه ،
فإذا تقهقر قدم فى مشيه عقبه ، وأصل القهقر : الحجر المدحرج ، فإذا ضربته
تدحرج فى جريه ، حتى يستقر ، فإذا أردت أن يرجع إلى الموضع الذى جاء
منه ضربته فتدحرج راجعاً إلى جهة موضعه ، فشبه رجوع الرجل على ما وصفناه ،
وكذلك هذه الرسالة رجوع آخرها إلى أولها ، مشبه بذلك .

ولذلك شبه الأعرابى فرسه فى اجتماعه بالحجر^(١) فقال : محبوبك مهملج^(٢)
كما تقهقر الأدعج

والمسحب : الطريق الذى تجرّ فيه الشيء .

(١) الحجر : الأثني من الخيل

(٢) المهملج : حسن سير الدابة فى سرعة

يرهبها : يخفها ، أى لا يخرج الألفاظ عن طريقها فتختل ، وذلك أن هذه الرسالة مركبة كلها من مبتدأ وخبر ، فإن وقفت فيها على مبتدأ فى أولها أو آخرها أو وسطها ، فاقراءه مع ما بعده تجده مستقيماً ، واقراءه مع ما قبله تجده كذلك ، فإن وقفت على خبر مبتدأ فلا يستقيم مع ما بعده ، وهو مع ما قبله أبعد ، فأراد بقوله « لا يرهبها » لا يبتدىء لفظه بغير مبتدأ فتتداعى مبانيها ، وتبطل معانيها ، فتفهمه .

والفقر فى غير الموزون مثل القوافى فى الموزون ، والفقر مشتقة من فقر الظهر ، لأنها تنقطع على قافيتين أو ثلاثة ، وهذا هو الفرق بين الفقر والأسجاع إذ الأسجاع كلها ترجع إلى قافية واحدة من سجع الحمام وهو لا يختلف ، ولهذا قال المرمى فى الغراب :

أتى وهو طيار الجناح وإن مَشَى أشاعَ بما أعيأ سطيحاً من السَّجْع^(١)
وسطيح : كاهن ، وكلامه أسجاع .

قال الراوى : فلما صدعَ برسالتِهِ الفريْدَةَ ، وأملُو حَتِيهِ
الْأُفَيْدَةَ ، عَلِمْنَا كَيْفَ يَتَفَاضَلُ الْإِنْشَاءُ ، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ . ثُمَّ اغْتَلَقَ كُلُّ مِنَّا بِذِيلِهِ ، وَفَلَدَ

(١) سقط الزند ١٣٣٧ ، قال فى شرحه : أتى : الضمير فيه يرجع إلى « موف » ، والمراد به الحمام الأورق ، وهو طيار الجناح ، والبيت قبله :

وَشِكَائِي مَا بَيْنَ الْأَثَافِ وَاحِدٌ
وَأَخْرُ مَوْفٍ مِنْ أَرْكِ عَلَى فَرْعٍ

لَهُ فَلَذَّةٌ مِنْ نَيْلِهِ ، فَأَبَى قَبُولَ فَلَذَّتِي ، وَقَالَ : لَسْتُ
أَرْزَأُ تِلَامِذَتِي .

فَقُلْتُ لَهُ : كُنْ أَبَا زَيْدٍ ، عَلَى شُحُوبِ سَحَنَتِكَ ، وَنُضُوبِ
مَاءِ وَجَنَّتِكَ ، فَقَالَ : أَنَا هُوَ عَلَى نُحُولِي وَنُحُولِي ، وَقَشْفِ
مُحُولِي ، فَأَخَذْتُ فِي تَثْرِيئِهِ ، عَلَى تَشْرِيقِهِ وَتَغْرِيبِهِ .

* * *

صدع : كشف وشق .

للفريضة : التي لا مثل لها .

أملوحته ، يريد بها الرسالة ، والأملوحة : الكلام المليح ، يمجَّب له
السامع .

والإنشاء : الكتابة

فَلَذَّةٌ : قطع فلذة : قطعة ، وأصلها قطعة من كبدة البير .

قال الشاعر :

تسكفيه حُزَّةٌ فَلَذَّةٌ إِنْ أَلَمَ بِهَا مِنْ الشَّوَاءِ وَيُرْوَى شَرِبَهُ الْغَمْرُ^(١)
نيله : عطائه . أرزأ : أنقص .

والتلميذ : هنا متعلم العلم ، ولذلك أباى أن يأخذ منه شيئاً ، وهو في كل
مقامة إذا تعرَّض للسُّكْدِيَّةِ يفرده بالأخذ منه ، أو يبتدىء التقدير منه ، وذلك أن

(١) البيت لأعشى باهلة ، من قصيدته في رثاء المنقشر ؛ ذكرها المبرد في الكامل
٤ : ٦٤ - ٦٦ ، ورواية البيت هناك « تسكفيه فلذة كبدة » ، والغمر : قح صغير لا يروى .

الجماعة في هذه المقامة اشتغلوا مناظرته ، وابن همام شَرَطَ أنه من نظارة الحرب ،
 أى إنما جلس لينظر ويتعلم ، فلماذا أخذ منهم وتركه ، وزاده فائدة التنبيه على
 أنه أبو زيد ، ولذلك قال له : كن أبا زيد ، وكن أتى به بلفظ الأمر ، ومعناه
 الدعاء ، وفي الحديث : « كن أبا ذر » و « كن أبا خيثمة » ، وذلك أن النبي
 صلى الله عليه وسلم رأى شخصاً من بعيد ، فرجا أن يكون أبا ذر الغفارى ،
 فقال : « كن أبا ذر » أى جعلك الله أبا ذر ، فكان مارجاه النبي صلى الله
 عليه وسلم ، وكذلك كان اللفظ هنا ، كأن ابن همام لما أعجب بفصاحة صاحب
 الرسالة تَمَنَّى أن يكون أبا زيد ، لما عهد من فصاحته فقال : كن أبا زيد ، أى
 جعلك الله أبا زيد الذى عهدتُ منه الفصاحة ، متى رأيتُه ، فصدق منه أُمْنِيَّتُهُ
 فقال : أنا هو الذى تَمَنَيْت .

والدعاء بلفظ الأمر كثير في كلامهم كقوله :

* ألا أنعم صباحاً إيتها الطلل البالى * (١)

وقول الآخر :

* ألا أنعم صباحاً أيها الربع واسلم *

أى سلمك الله من رَبع ، وجعل صباحك ناعماً .

الفنجديهى : كن أبا زيد ، أى أنت أبو زيد ، ومنه : ﴿ كنتم خير أمة
 أخرجت للناس ﴾ أى أنتم خير أمة .

شعوب : تغير : سَحَنَتَكَ : جلدة وجهك وهيئتك . نَضُوب : جفوف .
 والوجنة : العظم الشاخص تحت العين . فُحُولى : بُبْسَى . قَشَف : تغير هيئته

(١) لامرى القيس ديوانه ... ، وبقية :

* وهل يَمِينُ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْغَالِي *

بترك النظافة . يُحَوَّلِي : جنوف جسمى .

تَثْرِيْبِهِ : لومه وتعيب فعله ، والتَثْرِيْبُ بالتدنب المؤاخِذَةُ به ، وأصله الاختلاط والإفساد ، وإنما يقول : لا تَثْرِيْبُ عَلَيْكَ ، من قَدَّرَ فَعَمَّا .

فَحَوَّلَتِي وَاسْتَرْجَعَ ، نَمَّ أَنْشَدَ مِنْ قَلْبٍ مُوجِّعٍ :

سَلَّ الزَّيْمَانُ عَلَى عَضْبِهِ لِيُرْوَعَنِي وَاحِدًا غَرْبَهُ
وَاسْتَلَّ مِنْ جَفْنِي كَرَاهًا مُرَاعِمًا ، وَأَسَالَ غَرْبَهُ
وَأَجَالَنِي فِي الْأَفْقِ أَطْرَافًا شَرْقَهُ وَأَجُوبُ غَرْبَهُ
فَبِكُلِّ جَوٍّ طَلَمَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ لِي وَغَرْبَهُ
وَكَذَا الْمَغْرَبُ شَخْصُهُ مُتَغَرَّبٌ وَنَوَاهُ غَرْبَهُ

نَمَّ وَلَّى يَجْرُ عِطْفِيهِ ، وَيَخْطُرُ بِيَدَيْهِ ، وَنَحْنُ بَيْنَ مُتَلَفَتٍ
إِلَيْهِ ، وَمُتَهَاتِرٍ عَلَيْهِ ، نَمَّ لَمْ نَلْبِثْ أَنْ حَلَلْنَا الْحَبَا ، وَتَفَرَّقْنَا
أَيَادِي سَبَا .

حوَّلَتِي : قال لاحول ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . اسْتَرْجَعَ : قَالَ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ .

عَضْبِهِ : أَي سَيْفِهِ الْقَاطِع . لِيُرْوَعَنِي : لِيَفْرَعَنِي .
غَرْبُهُ : حُدُودُهُ . اسْتَلَّ : أَزَالَ . كَرَاهًا : نَوْمَهُ .

مراعى : مذللاً .

غربه : مجرى دمه ، والقرب فيض الدمع .

أجالى : صرفنى ومشانى .

الأفق : نواحي الأرض . أطوى : أقطع . أجوب : أخترق .

جوّ : ناحية . غربّة ، فمّة ، من الغروب مثل طلعة ، من الطلوع .

المغرب : المبعد . المتغرب : الملازم للغربة .

نواه : سفرته . غربّة : بعيدة .

[مما قيل في السفر والاعتراب]

ومن أحسن ما قيل في تباعد السفر قول حبيب^(١) :

سَلَى هَلْ عَمَرْتُ الْقَفْرَ وَهُوَ سَبَّاسٌ وَغَادَرْتُ رَبْعِي مِنْ رِكَابِي سَبَّاسِيَا^(٢)
وَعَرَّبْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ ذِكْرَ مَشْرِقٍ وَشَرَقْتُ حَتَّى قَدْ نَسِيتُ لِلْفَارِهَا
خُطُوبُ إِذَا لَاقِيْتَهُنَّ رَدَدْنِي جَرِيحاً كَأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الْكَتَائِبَا
وَلَهُ أَيْضاً :

مَا لِلْيَوْمِ أَوَّلُ تَوْدِيْعِي وَلَا الثَّانِي الْبَيْنَ أَكْبَرَ مِنْ شَوْقِي وَأَحْزَانِي^(٣)
دَعِ الْفِرَاقَ فَإِنَّ الدَّهْرَ سَاعِدُهُ فَصَارَ أَمْلَكُ مِنْ رُوحِي لِحَمَانِي
خَلِيفَةُ الْخَضِرِ مِنْ يَرْبَعٍ عَلَى وَطَنِ^(٤) فِي بَلَدَةٍ فَظَهَرُ الْعَيْسِ أَوْطَانِي
فِي الشَّامِ أَهْلِي وَبَنَدَادُ الْهَوَى وَأَنَا بِالرَّقَّتَيْنِ وَبِالْفَسْطَاطِ إِخْوَانِي

(١) ط : « ابن حبيب » ، والصواب ما أثبتته من ا

(٢) ديوانه ٢٢٣ .

(٣) ديوانه ١٧

(٤) يربع : بقف .

وما أظنّ النوى ترضى بما صنعت حتى تبلغنى أقصى خراسان^(١)
وقال الحلواني :

يا نفسِ وَيْحَكَ ، فى التغرب ذلّةٌ فتجرّعى كأمى هوى وهوانٍ
وإذا نزلت بدار قوم دارهم فلم عليك تعزّز الأوطانِ
وقال ابن شرف :^(٢)

إن ترمك القرّبة فى معشر قد جُبل الناسُ على بُغْضِهِمْ^(٣)
فدارهم ما دمت فى دارهم وأرضهم ما دمت فى أرضهم
وقال البستى :

لا يعدم للراء كُنّا يستكنّ به وشبّةً بين أهليه وأصحابه
ومنّ نأى عنهم قلتُ مهابته كالليث يحقر لما غاب عن غابته
والسابق لهذا المعنى زهير فى قوله :

ومنّ يقترب يحسبُ عدوّاً صديقه ومنّ لا بكرّم نفسه لا بكرّمه^(٤)
وفى قوله :

فقرى فى بلادك إن قوماً متى يدعّوا بلادهم يهونوا^(٥)
يقال : جاء يجرّ عطفه ، إذا جاء رضى البال متبغترًا ، وإنما ينظر فى عطفه
إذا كان مُعْجَبًا بنفسه .

(١) الديوان : « حتى تشافه بى » .

(٢) نقله فى التنف ١٠٣

(٣) التنف : « قد جبل الطبع »

(٤) ديوانه ٣٢ .

(٥) ديوانه ١٩٢ ، وفيه : « فحلى فى ديارك » .

وثنائي عَظْفِيَّة ، بمعنى متكبر ، والمِطْفَان : جانبَا الثوب ، والمِطَاف الرِّداء ،
والجمع عُطْف .

ويقال : جاء يجرّ رجله ، إذا جاء مثقلاً لا يقدر أن يحمل رجله .

يخطر ببديه : يجرّ كهما عند المشي .

منهافت : متساقط من الندم على فراقه .

أبأدى سبأ ، يريد في كلّ طريق وجهة .

* * *

[ذكر سبأ وسدّ مأرب]

وسبأ هو أبو قبائل اليمن المخفّرة من سدّ مأرب الذين مزّقهم الله كلّ
مزّق . وُسِّمَ سبأ لأنه أوّل مَنْ سَبَى السَّيِّ ، وقيل : سبأ اسم أمهم ، ومأرب
اسم بلدهم .

وكانت سبأ من أحسن بلاد الله تعالى وأخصبها ، وأكثرها شجراً
وماء ، وقد ذكر الله تعالى أنها كانت جَنَّتَيْنِ عن يمين وشمال ، وكانت مسيرة
شهر في شهر للمُجدِّ الراكب ، يسير في جنان من أولها إلى آخرها ، لا تواجهه
الشمس ، ولا يفارقه الظلّ ، مع تدفق الماء ، وصفاء الهواء ، وأنساع الفضاء ،
فكثروا ما شاء الله ، لا يماندهم ملكٌ إلا قصموه .

وكانت في بدء الزمان تركبها السيمول ، فجمع ملكٌ حبراً أهل مملكته ، فشاورهم
في دفع السَّيْلِ ، فأجمعوا على حفر مسارب له حتى تؤدّيه إلى البحر ، فحشد أهل
مملكته حتى صرف الماء ، واتخذ سدّاً في موضع جَرَيَانِ الماء من الجبال ، ورصفه
بالحجارة والحديد ، وجعل فيه مجارى للماء في استدارة الذراع ، يخرقون منها مقداراً

صلوكم من الماء وشربكم. تسوما للأرض ، فإذا جاء السيل تصرف في الجارى
إلى جناتهم ومزدرعاتهم ، بتقدير يعصمهم نفعه .

وقيل : صنعه إيمان بن عاد ، وجعله فرسخاً في فرسخ ؛ وذكر الأعشى في
شعره أن حيراً ابتنته ، فقال :

رُخَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ حَيْرٌ إِذَا جَاءَ مَاؤُهُمْ لَمْ يَرِمْ^(١)
وَأَرَوَى الزَّرْعَ وَأَعْنَابَهُمْ عَلَى سَمَةِ مَاؤُهُمْ قَدْ قَسِمَ^(٢)
فَعَاشُوا بِذَلِكَ فِي غِبْطَةٍ خَافَ بِهِمْ جَارُفٌ مِنْهُمْ^(٣)

فلما كفروا بأنعم الله ، ورأوا أن ملكهم لا يبديه شيء ، وعبدوا
للشمس ، بعث الله على سدّهم فارة نخرقته ، وأرسل عليهم السيل ، وأباد
الله خضراءهم .

ولما انتهى الملك في ولد سبأ إلى عمرو بن عاصم مزيقياء - وسمى بذلك
لأنه كان يمزق في كل ليلة حلة كبراً من أن تماد عليه أو يلبسها غيره . وقيل :
سمى بذلك لأنه مزق الأزد في البلاد - وكان أخوه عمران كاهناً ، فأتته
كاهنة تدعى طريفة فأخبرته بدنو فساد السدّ وفيض السيل ، وأنذرت ،
فقال لها : وما آية ذلك ؟ فقالت : إذا رأيت جُرْذاً يُكثِرُ بيديه الحفر ، ويقلب
برجليه الصخر ؛ فاعلم أنه قد اقترب الأمر . فقال : وما الأمر ؟ فقالت : وعدّ

(١) ديوانه ٤٣ . ولم يرم : لم يذهب

(٢) في الديوان : : « ... وأعناها . » إذ قسم .

(٣) في الديوان : « جارفهم جارف منهمزم » ، قال والمتهزم : الذى له صوت .

من الله ، ينزل يا عمرو ، فلتكثر الشكر .

فرأى عمرو يوما في السد جُرذا يقلب صخرة ، ما يقلبها خمسون رجلا ،
فرجع وهو يقول :

أبصرتُ أمراً حاج لي بَرَح السَّقَمُ

مِنْ جُرَذٍ كَفَعَلَ خَنْزِيرَ أَجَمٍ

لَهُ مَخَالِبُ وَأَنْيَابٌ قَضَمَ

أى معوجة . فأجمع على الخروج منها ، وأعمل الحيلة في بيع ماله ، وألا
ينكر الناس عليه ، فقال لابنه : إني صانع طعاماً ، وداع إليّ أهل مأرب ، فاردد
عليّ ما أقول لك من الحديث ، ففعل ابنه ذلك وردّ عليه بأقبح ردّ ، فصاح
عمرو : واذّلاه ايجيني صبي الخلف ألا يقيم ببلد ضيم فيه ، فجعل يبيع
أمواله ^(١) .

وبعضهم يقول لبعض : اغتبنوا غصبة عمرو ، واشتروا منه قبل أن يرضى ،
فلما اجتمعت له أمواله ، أخبرهم بشأن السِّل ، فأجمعوا على الجلاء ، فقال لهم عمرانُ
أخوه : إني أصف لكم بلدانا ، فاختاروا أبيتها شتم ... فمن كان منكم ذا هم
بعيد ، وجهل غير شروء ، فليخلق بالشعب من كرود ، فلحق به همدان .

(١) في معجم البلدان - مأرب : « وكان فيهم امرأة كاهنة تسمى طريفة ، فأقبلت يوماً
حتى وقفت على عمران بن عامر وهو في نادى قومه ، فقالت : « والظلمة والضياء ، والأرض
والسماء ، ليقبلن إليكم الماء ، كالبحر إذا طما ، فيدع أرضكم خلا ، تسقى عليها الصبا . فقال لها
عمران : ومتى يكون ذلك يا طريفة ؟ فقالت : بعد ست عدد ، يقطع فيها الوالد الولد ، فيأتيكم السيل ،
بغض هيل . وخطب جليل ، وأمر ثقبل ، فيخرب الديار ، ويهطل العشار ، ويطيب العيرار ،
فقال لها : لقد فجعنا بأموالنا يا طريفة ، فبيني مقالتيك ، قالت : أنا كم أمر عظيم ، بسيل لطيم ،
وخطب جسيم ، فاحرسوا السد ، لئلا يمتد ، وإن كان لابد ، من الأمر الممد ، اطلقوا إلى
رأس الوادى ، فسترون الجرذ العادى ، يمر كل صخرة صيخاد ، بأنياب حداد ، وأظافر
حداد ... فانطلق » .

ثم قال : وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ ذَا سِيَّاسَةٍ وَصَبْرٍ ، عَلَى أَزْمَاتِ الدَّهْرِ ، فَلْيَلْحَقْ بِبَطْنِ مُرٍّ ؛ فَلْيَحْقْ بِهِ خُرَاعَةً .

ثم قال : وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ الرَّاغِبَاتِ فِي الْوَحْلِ ، الْمَطْعَمَاتِ فِي الْحُلِّ ، فَلْيَحْقْ بِبُتْرَبِ ذَاتِ النَّخْلِ . فَتَزَلْهَا الْأَوْسُ وَالْخُزْرَجُ .

ثم قال : وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ الْخُرُوجِ وَالْخَيْرِ ، وَالْأَمْرِ وَالْقَامِرِ ، فَلْيَحْقْ بِبُصْرَى وَسَدِيرٍ ، وَهِيَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ، فَتَزَلْهَا غَسَّانُ .

ثم قال : وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ الثِّيَابِ الْرِّفَاقِ ، وَالْخَلِيلِ الْعِتَاقِ ، وَالذَّهَبِ وَالْأَوْرَاقِ ، فَلْيَحْقْ بِالْعِرَاقِ ، فَلْيَحْقْ بِهَا مَالِكُ بْنُ فُهْمٍ بْنُ الْأَزْدِ .

وَتَخَلَّفَ مَالِكُ بْنُ الْيَمَانِ فِي قَوْمِهِ ، حَتَّى أَخْرَجَهُمُ السَّبِيلَ قَتَلُوا نَجْرَانَ ، وَانْتَسَبُوا إِلَى مَذْحِجٍ .

وَدَخَلَتْ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ إِلَى مَعْدَةٍ ، فَأَخْرَجَتْهُمْ مَعْدَةٌ بَعْدَ حُرُوبٍ ، فَتَزَلُوا بِجِبَالِ السَّيِّدَةِ عَلَى تَحْنُومِ الشَّامِ .

فَلَمَّا تَفَرَّقَتْ فِي الْبِلَادِ هَذِهِ التَّفَرُّقُ ، ضَرَبَتْ الْعَرَبُ بِهِمُ الْمَثَلَ ، فَقَالُوا : ذَهَبُوا أَيْدَى سَبَأَ وَأَيْدَى سَبَأَ ، أَيْ مَتَفَرِّقِينَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ .

وَقِيلَ فِيهِمْ : لِمَنْهُمْ كَانُوا مُجْتَمِعِينَ يَدًا وَاحِدَةً ، فَلَمَّا مَزَقَهُمُ اللَّهُ وَفَرَّقَهُمْ ، صَارَتْ يَدُهُمْ أَيْدَى مَتَفَرِّقَةٍ ، وَأَخَذَ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ طَرِيقًا عَلَى حِدَةٍ . أَوْ يَرِيدُ بِهِ الْإِنْعَمَةُ ، فَالْمَعْنَى : تَفَرَّقْنَا كَمَا تَفَرَّقَتْ نَعْمُ أَهْلِ سَبَأَ .

الزَّجَّاجُ : سَبَأُ مَدِينَةٍ تُعْرَفُ بِمَارِبَ عَلَى ثَلَاثِ لَيَالٍ مِنْ صَنْعَاءَ .

الْجَوْهَرِيُّ : سَبَأُ اسْمُ رَجُلٍ سُمِّيَتْ بِهِ الْبَلَدَةُ .

وذكر في الدرة أن لفظة التفرق تستعمل في الأشخاص والأجسام ،
نحو تفرق القوم ، وإن الافتراق يقال في الأهواء والآراء ، كما قال النبي صلى
الله عليه وسلم : « تفرق أمتي على كذا وكذا فرقة » ، فإذا قيل : إن لزيد ثلاثة
إخوة متفرقين ، فالمعنى أن كل واحد منهم ببقعة . وإن قيل متفرقين
فالمعنى أن أحدهم لأبيه وأمه ، والآخر لأبيه ، والثالث لأمه ؛ وكذلك يقال :
فرق بالتشديد فيما كان من قبل الجمع ، وفرق بالتخفيف ، فيما يراد به التمييز
كقوله : فرق بين الحق والباطل ، والحال والمآطل .

المقامة الثامنة عشرة وتعرف بالسَّجَّارِيَّة

حكى الحارث بن همام قال : قفلتُ ذات مرّة من الشام ،
أنحو مدينة السلام ، في ركبٍ من بني نُمَيْر ، ورفقة أولى خيرٍ
ومير ، ومعنا أبو زيد اللُّسْرُوجِيّ : عُقْلَةُ العجلان ، وَسَلْوَةُ الثكلان ،
وأعجوبة الزمان ، والمشار إليه بالبنان في البيان .

فصادف نزولنا سِجَّار ، أن أولمَ بها أحدُ الشُّجَّارِ ، فدمًا
إلى مادُبَتِهِ الجَفَلَى ، مِنْ أَهْلِ الحَضَارَةِ والفلا ، حَتَّى سَرَتْ دَعْوَتُهُ
إلى القافِلَةِ ، وَجَمَعَ فِيهَا بين الفريضة والنَّافِلَةِ .

* * *

قفلت : رجعت من السفر .

* * *

[ذكر الشام]

الشَّامُ ، ويقال له : شام وشَّام ، ويذكر ويؤنث ، وينسب إليه شامى وشَّام ،
على فَعَال . ويحكى عن سيبويه شامى ، وإنبات الألف في النسب يدلُّ على إنباتها
في أصل البناء .

وقيل : أَلَفُ يمان وشَّام عِوَض من باء النسب ، قال طرفة :

• شامية تروى الوجوه بليل •

وقال في الدرّة^(١) المنسوب إليه على ثلاثة أوجه : شامى وهو القياس ،
وشام بياء مخففة كالمقصود ، وشامى وهو شاذ لأنه يصير بمنزلة المنسوب إلى
المنسوب ، وكذلك جوزت الثلاثة في المنسوب إلى اليمين .
وعلى الشاذ منها قول العرب^(٢) :

إِنِّي أَتَيْتُ لِي يَمَانِيَةِ إِحْدَى بَنِي الْحَارِثِ مِنْ مَذْحِجٍ

ولم يحز الحريري تأنيث الشام وقال : لفظه مذكر .
وقال ابن الأنباري - وذكر الشام والحجاز وغيرهما : فمن أنث من ذلك شيئاً
فإنما يذهب به إلى معنى المدينة .
وقالوا : الشام صفوة بلاد الله .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة ومعاذ : « عليكم بالشام فإن
الله قد تكفل بالشام وأهله » .

وسميت شاماً لأنها عن شامة الكعبة .

ابن الأنباري : يجوز أن يكون مأخوذاً من اليد الشؤمي وهي اليسرى .
وقال قوم : أصله في الكعبة ، لأن بابها يستقبل المطلع ، فمن قابل طلوع
الشمس كانت الكعبة عن يمينه في شق الجنوب ، والشام عن يده الشؤمي في
شق الشمال .

أبو القاسم الزجاجي : قال : جماعة من أهل اللغة : يجوز ألا يهمز ، فيقال :
شام جمع شامة ، سميت بذلك لكثرة قراها ، وتنادي بعضها من بعض ، شبت
بالشامات .

(١) درة الفواس ٩٠

(٢) في الأصول : « عمر بن أبي ربيعة » وهو خطأ ، والبيت للمرجي في ديوانه ١٩ ،
والأغاني ١ : ١٠٨ .

وقال الشرقى سميت بسام بن نوح ، لأنه أوّل مَنْ بناها ، فغيّر اللفظ المعجمي فجعل السين شيناً .

وقسمت الشام خمسة أقسام : الشام الأولى ، وأوّل حدّها من طريق مصر أمّيج ، ثم غزة ثم الرملة ، ومدينته المظلي فلسطين وعسقلان ، وفلسطين هي الشام الأولى ، وسها بيت المقدس .

الشام الثانية الأردن ، ومدينته المظلي طابريّة ، وهي بشاطيء البحيرة ، واليرموك بين فلسطين والأردن .

والشام الثالثة القوطة ، ومدينتها المظلي دمشق ، ومن سواحلها طرابلس الشام .

الرابعة : أرض حصص الشام .

الخامسة : قنسرين ، ومدينته المظلي حلب ، وهي من قنسرين على أربعة فراسخ . وساحلها أنطاكية ، مدينة عظيمة على شاطيء البحر داخلها المزارع والبساتين والأنهار .



قوله : « أنحو » أى أقصد . الركب : اسم لمن يركب الإبل ، كذا قال الخليل .

وقال يعقوب : الركب : جمع راكب ، وهم أصحاب الإبل خاصّة ، ولا يكون الركب إلا أصحاب الإبل ، وراكب الفرس فارس ، وراكب البغل بقال ، وراكب الحمار حمار ، وراكب الفيل قتيال ، والجمع خيّالة وبنّالة وحمارة وقيّالة ، وتبعه ابن قتيبة في هذا ، وخطأهما جميعاً ابن السّيد وغيره واحتجوا بقول امرئ القيس :

إذا ركبوا الخيل واستلأموا تحرّقت الأرض واليوم قرّة^(١)
 فقوله : « ركبوا الخيل » ، يدلّ على أنه يقال لمن ركب الفرس : راكب .
 وما ذكره يعقوب هو الصحيح ، لأنّ العرب إذا أفردت لفظ راكب أو
 ركب لم يقع في كلامها إلّا على أصحاب الإبل مطلقاً ، فإذا أرادت أن توقعه على
 أصحاب الخيل قيّدته بذكر الخيل ، فقالوا : ركبت الفرس ، وراكب الفرس ،
 فيذكرون الفرس ، وعلى هذا أتى :

• إذا ركبوا الخيل واستلأموا •

نخفيت هذه التفرقة على ابن السّيد ، على حظّه الوافر من اللغة .
 وقال الحريري في الدّرة^(٢) : الراكب هو راكب البعير خاصّة ، وجهه
 رُكبان ، فأما الركب والأركوب ، فقد جوز الخليل أن يطلق اسمهما على راكبي
 كلّ دابة إلّا أن الأركوب أكثر من الرّكب عدة وأكثر جماعة .

[بنو نمير]

وبنو نمير قبيلة من بني صعصعة ، إحدى جمرات العرب ، وأشرف بيوت
 قيس عيلان ، وجمرات العرب ثلاثة ، سموا بذلك لأنهم متوافرون في أنفسهم لم
 يدخلوا معهم غيرهم ، والتجميم في كلامهم التجميع ، وهم بنو نمير ، وبنو الحارث
 ابن كعب ، وبنو ضبّة بن أد ، فطفت جمرتان وهم بنو ضبّة لحالقتها الرّباب ،
 وبنو الحارث لحالقتها مذحج ، وبقيت نمير لم تحالف ، فهي على كثرتها ومنعتها ،
 قال شاعرهم :

(١) ديوانه ١٥٤

(٢) درة القواس ٥٠

نَمِيرُ جَرَّةِ الْعَرَبِ أَلَيْ لَمْ تَنْزِلْ فِي الْحَرْبِ تَنْهَبُ النَّهَابَ

وكان الرجل منهم إذا قيل له : بمن أنت ؟ قال : نَمِيرُ كما ترى ، إدلالاً
بنسبته ، وافتخاراً بمقعته ، حتى قال جرير في الراعى :

فَقَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ فلا كعباً بلغت ولا كِلَاباً^(١)

فصار إذا قيل له : بمن أنت ؟ قال : عامري .

وسرت امرأة بهم ، فأحدوا النظر إليها ، فقال أحدهم : والله إنها لرسحاء ،
ف قالت : يا بني نَمِير ، والله ما امتثلتم في واحدة من اثنتين ؛ لأقول الله عز وجل :
(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ^(٢)) ، ولا قول جرير :

فَقَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ فلا كعباً بلغت ولا كِلَاباً

قوله : « أولى خير » ، أي ذوى غنى . مير : صلةٌ وصدقة . عقلة المجلان :
حابس المستعجل .

سلوة الشكلاّن : مذهب حزن الحزين ، يقول : إذا رآه من هو في شغل
ممعجل حبسه ، أو حزين أزال حزنه .

البنان : الأصابع ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء فحنة
أن يشار إليه بالأصابع في دين أو دينا إلا من عصمه الله » .

* * *

(١) ديوانه ٧٥

(٢) سورة النور ٣٠

[سنجار]

سنجار : بلد بينه وبين قرقيسيا ثيف وثلاثون فرسخاً ، وقرقيسيا على
الفرات ، وهى كورة من كور ديار ربيعة ، وفى سنجار فوهة نهر الخابور ، فيمر
حتى يصب فى الفرات ، وهى على أميال من نصيبين ، وعن يمين طريق
الموصل .

* * *

قوله : « أولم » ، أى صنع وليمة ، والوليمة : طعام العرس . والمأدبة : طعام
يدعى إليه الناس .

والجنلى : الناس أجمع .

والخضارة : ضد البداوة ، يفتح أولها ويكسر . للفلا : القفر ، وأراد
دعا أهل الحاضرة والبادية . سرت : وصلت .

القافلة : الرفقة الراجعة من سفرها ، قال الأزهري : سُميت قافلة تهاؤلاً
بقفولها عن سفرها الذى ابتدأت .

وظن ابن قتيبة أن عوام الناس يفلطون فى تسميتهم الناهضين فى ابتداء
الأسفار قافلة ؛ إلا منصرفه إلى وطنها وهذا غلط ، وما زالت العرب تسمى
الناهضين فى ابتداء الأسفار قافلة تهاؤلاً ، بأن يُيسر الله لها القفول وهو شائع عند
فصحائهم إلى اليوم .

وأراد بالفريضة ، أعيان التجار الذين حضورهم كالفرس ، وبالنافلة :
المكاريين والأنبياء ، أو يريد بالفريضة مَنْ لا بد له أن يدعو للحضور ، مثل
القرابة والوجوه والأصحاب ، والنافلة لغير الناس ، وأراد أنه حمل لمرسه مَنْ
يحب ومن لا يحب ، والماء من « فيها » ضمير الدعوة ، ويروى « فيها » بالميم .

* * *

[ذكر الحاضرة والبادية]

وأما ذكر الحاضرة والبادية ، فقد أتينا في ذلك بفصل أدبي مستحسن ،
ولسنا نحتاج إلى إقامة دليل شاهد على فضل الحاضرة ، لأنها محل الجمعيات
والجماعات ، وإليها تجلب الخيرات ، وبها تستمد البركات ، ومنهم العلماء
والفضلاء ، والملوك ، إلى ما يطول تعدادهم ، ومن أراد الله به خيراً نقله من البادية
إلى الحاضرة ، وقد أخبر الله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله :
{ وقد أحسنَ بي إذ أخرجتني من السجن وجاء بكم من البدو } ^(١) ، وهذا فيه
فضل للحاضرة لا يُدفع إذ قرن الخروج من السجن بالجيء من البدو ، وعده
من إحسان الله سبحانه وتعالى .

وقف أعرابي على دِجبل وهو ينشد :

إذا القوس أوترها أيّده رمى فأصاب الكلا والذرى

فقال له : ما عנית ؟ فقال دجبل : القوس قوس فُزح ، أمطرت الأرض
بها ، فأعشبت فروعها المال ، فسميت كلاه وأسمنه ، قال الأعرابي : لله دركم
يا حاضرة الإنسكم لتسيرون معنا فتساوون ، ولتفكّجون عنا فتفتوتون .

وفي ضدّ هذا المعنى قال شبيب بن شبة : كثر قطع الطريق بين مكة والبصرة ،
فبغتنى المنصور أقوم في المناهل ، وأنكلم بدمّ البادية ، وأوبخهم بما يردعهم ،
فلم أرد ماء إلا تكلمت عايه بما يحضرنى ، فلا أجدمن ينطق ، حتى قتت على
ما لبني تميم ، فلما انقضى كلامي ، قام رجل منهم فقال : الحمد لله أفضل ما حدثه ،
وحده الحامدون قبلك أو بعدك ، وصلى الله على سيدنا محمد أفضل صلاة وأتمها

وأخصها وأعمها . ثم إنى قد سمعت ما قلت فى مدح الحاضرة وأهلها ، وذمّ
البادية وأهلها ، ومهما كان فينا أهل البادية من سوء ، فليس فينا نقب الذور ،
ولا شهادة الزور ، ولا نبش القبور ولا نيك الذكور .

قال : فأفحمنى والله حتى تمنيت أنى لم أخرج لذلك الوجه .

وقال القطامى :

فمن تكن الحضارة أعجبه فأتى رجال بادية ترانا

قال ابن رشيق : ومن أملح ماسمه الناس فى تفضيل البادية على الحاضرة
من حلاوة وطلاوة وصحة معنى ، وقرب مأخذ ، مأخوذ من قول أبى الطيب :

مَنْ الْجَاذِرُ فِي زِيِّ الْأَعَارِبِ مُحَرَّ الْحَلَى وَالطَّايَا وَالْجَلَايِبِ^(١)

ثم قال :

مَا أَوْجَهُ الْحَضَرُ الْمُسْتَحْسِنَاتِ بِهِ كَأَوْجُهُ الْبَدَوِيَّاتِ الرَّعَائِبِ^(٢)

حُسْنُ الْحَضَرَةِ مَجْلُوبٌ بِطَرِيقَةٍ وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ^(٣)

أَفْدَى ظَبْـاءَ فَلَاحٍ مَا عَرَفْنَا بِهَا

مَضْغَ السَّكَّامِ وَلَا صَنِيعَ الْحَوَاجِبِ

وَلَا بَرَزْنَ مِنَ الْحَمَامِ مَائِلَةً أَوْ رَاكِبْنَ صَقِيلَاتِ الْعَرَايِبِ^(٤)

(١) ديوانه ١ : ١٢٩ : والجاذر : جمع جؤذر ، وهو ولد البقرة الوحشية . وأعاريب : جمع عرب ، أو اسم جنس . والجلابيب : الملاحف .

(٢) الرعابيب : جمع رعبوبة ، وهى المرأة الممتلئة البيضاء .

(٣) بعده فى الديوان :

أَيْنَ الْمَعِزُّ مِنَ الْأَرَامِ نَازِرَةً وَغَيْرَ نَازِرَةٍ فِي الْحَسَنِ الطَّيِّبِ

(٤) العرايب : جمع عرقوب ؛ وهو ما يكون عند السكب ؛ يريد أن حسنهن بشير طرية ولا تصنع ولا دخول حمام .

وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مَخْضَبُهُ
 تَرَكْتُ لَوْنٌ مَشْبِي غُـ — ير مخضوب
 فلو لم تفضل البادية إلا بهذا ، لكان فيه مقنع .

* * *

فَلَمَّا أَجَبْنَا مُنَادِيَهُ ، وَحَلَلْنَا نَادِيَهُ ، أَخْضَرَ مَنْ أَطْعَمَهُ الْيَدُ
 وَالْيَدَيْنِ ، مَا حَلَا فِي الْقَمْرِ وَحَلَى فِي الْعَيْنِ . ثُمَّ قَدَّمَ بَاجًا ، كَأَنَّمَا مَجَّدَ
 مِنَ الْمَوَاءِ ، أَوْ مُجَمَّعٍ مِنَ الْهَبَاءِ ، أَوْ صَيَّغَ مِنْ نَوْرِ الْفَضَاءِ ، أَوْ قُشِرَ
 مِنَ الدُّرَّةِ الْبَيْضَاءِ ، وَقَدْ أُودِعَ لِفَائِفِ النَّعِيمِ ، وَضُمَّغَ بِالطَّيِّبِ
 الْعَمِيمِ ، وَسِيقَ إِلَيْهِ شَرِبٌ مِنْ تَسْنِيمِ ، وَسَفَرَ عَنْ مَرَأَى وَسِيمِ ،
 وَأَرْجَ نَسِيمِ .

فَلَمَّا اضْطَرَمَتْ بِمَحْضَرِهِ الشَّهَوَاتِ ، وَقَرِمَتْ إِلَى مَخْبَرِهِ اللَّهَوَاتِ ،
 وَشَارَفَ أَنْ تُشَنَّ عَلَى سِرْبِهِ النَّفَارَاتِ ، وَيُنَادَى عِنْدَ نَهْبِهِ بِاللَّتَارَاتِ !
 نَشَرَ أَبُوزَيْدٍ كَأَلْمَجْنُونِ ، وَتَبَاعَدَ عَنْهُ تَبَاعُدَ الضَّبِّ مِنَ النُّونِ ،
 فَرَاوَدَنَاهُ عَلَى أَنْ يَمُودَ ، وَأَلَّا يَكُونَ كَقُدَّارٍ فِي مُوَدٍ .

* * *

قوله : « ناديه » أى مجلسه . وطعام اليد : الثريد ونحوه . وطعام اليدين :
 الدجاج الصالح والشواء ونحو ذلك ، وكانت وليمة فى الأنصار ، فحضرها
 حسان بن ثابت ، وقد كُفَّ بعصره ، ومعه ابنه عبد الرحمن ، فلما وضع الطعام ،

جى. بالثريد ، قال حسان لابنه : يا بني ، أ طعام يد أم طعام يدين؟ قال : بل طعام يد . فأكل ، ثم جىء بالشواء ، فقال مثل ذلك ، فقال : بل طعام يدين . فأملك .

حلا : طاب ، حلّى : حَسُنَ ، وحلا فى النقم ، من الحلاوة ، وحلّى فى الآين من الحلى للترزين به .

وفى الدرة^(١) : للعرب تقول : حلا فى فى ، وحلّى فى عيني ، وليس الثانى من نوع الأول ، وهو من الحلى لللبوس ، فكأنّ المعنى : حَسُنَ فى عيني كحسن الحلى لللبوس ، وهو من ذوات الياء ، والأول من ذوات الواو ، إلا أن المصدر فيها جميعاً الحلاوة ، والاسم حُلُولاً حالٍ ؛ لأنّ الحالى ضدّ العاطل ، وهو الذى عليه الحلى .

والجام : إناء من زجاج . بُجِّدَ : عَقِدَ وصنع جامدا .

والهباء : غبار الشمس ، وهو ما تراه يدخل عليك مع الشمس من شِقِّ باب أو كوة حائط .

صَبِغَ : صُنِعَ . نور الفضاء ، يعنى الشمس ، والفضاء : الأرض الواسعة ، وفى الفضاء يتسع ضوء الشمس فيبيض نورها .

أودع : ضَمِنَ وجُعِلَ فيه . لفائف النعيم : مالف من الحلوى وطوى بعضه على بعض .

الفندجيهى : لفائف النعيم اللوزينج والقطائف .

ضَمَخَ : لَطَخَ . العميم : الكثير . شَرِبَ : ماء . وتسليم : أرفع ثمرات أهل الجنة . سَمَرَ : كَشَفَ .

(١) درة القواس ١٠٣ .

(١٨ - شرح مقامات الحريرى - ج ٢)

مرأى وسيم : منظر حسن . أريج نسيم : طيب الرائحة ، والنسيم : الريح
التيينة المهبوب ؛ يريد : لما أحضر الجلام ، ساقوا معه ماء عذبا لنسل اليد ، ثم
كشّف لهم عن الجلام ، فأروا منظرأ من الحلواء الملونة ، ورائحة عطرة من
الأطوابه .

وقال في مثل ذلك عبد السلام بن الحسين للمأموني (١) :

خبيصة في الجلام قد قدّمت مدفونة في اللوز والسكر
يا كل من يأكلها خمسة بكفه فيها ولم يشعر
قوله : « اضطربت » أى اشتعلت . قرمت ، أى اشتتت .

اللّهوات : جمع لهاة وهى أقصى الفم . شارف : قارب وأشرّف عليه .
تشن : تفرّق . سريه : جماعته ، ويريد به ما فيه من الحلواء ، والسّرّب :
بالسكر : جماعة النساء ، وبالفتح : الإبل فى الرعى . الفارات ، يريد الأيدى
التي تُغير على الطعام . نهبه : انتهاه بالأيدى وأكل ما فيه . بالاثارات : كلمة
ينادى بها العرب إذا ظفروا بأعدائهم الذين لهم عندهم دم . والنار : الطلب
بالدم ، وثأر بالقتيل : قتل قاتله .

وقال حسان بن ثابت :

لتسمعن وشيكا في دماركم الله أكبر يا ثاراتِ عُمَائِنا (٢)

فالثارات ههنا جمع ثأر ، وهو المطلوب بالدم ، قال :

وكيف تجلّد الأقبام عنه ولم يقبل به الذأر النسيم

قال أبو علي : الثأر : للقتول ، سُمي بالمصدر ، كرجل عدل ، لذلك جمع

(١) عبد السلام بن الحسين نأأموني ، من أولاد المأمون الخليفة العباسي ، ذكره الثعالبى
وأورد طائفة من شعره فى البيضة ٤ : ١٤٩ - ١٧٩
(٢) ديوانه ٤١٠ .

بالهاء ، وتفسير أبي عليّ عكس ما تقدم ، وإذا كان منقولاً من المصدر احتمل وصف الفاعل به والمفعول وثارات عثمان محتملة للتفسيرين ، فتقديره على قول أبي عليّ : يامطلوبات عثمان ، وعلى القول الآخر : ياطالبات عثمان هذا أو انكم بالجدّة ، وتفسير : بالثارات في اللقمة يستقيم على المعنيين ، فعلى الأول معناه : يامطلوبات الجبايع ، قد تمسكنا منك ، وعلى الثاني معناه : ياطالبين الأكل ؛ قد تمسكنتم من المأكول .

وقوله : «نشز» ، أى وثب . وتقدم في الضبّ أنّه لا يرد الماء ، وأن مسكنه الصحراء .

والنون : الحوت ، وهو لا يفارق الماء ، وهما لا يجتمعان ، وقد تقدم للصابي :

• الضبّ والنون لا يرجى التقاؤهما •

حوال الآخر :

فلو أنهم جاءوا بشيء مقارب
لقلت هو الشُّكْلُ للوافق للشُّكْلِ^(١)
ولكنهم جاءوا بمحيتان لجةٍ قوامِسَ ، والمكفى فينا بأنا الحسل
فضرب بتباعدهما المثل .

راودناه : أردناه على الفعل ، تقول : راودته على كذا ، إذا أردته على فعله . يعود : يرجع . ثمود : أمة صالح عليه الصلاة والسلام .

وقدار : هو عاتر الناقة ، يضرب به المثل في الشؤم ، فيقال : أشأم من قُدار ، ومن أحيمر عاد .

(١) الحيوان ٤ : ٢٩٠ ، وندهما إلى الكهيت .

[قصة نمود]

وتقريب قصته ، أن نمود كانت تبني في طول أعمارها ، فأتخذوا من الجبال
بيوتا فرحين ، ويوتهم إلى وقتنا هذا باقية منحوتة في الجبال ومساكنهم على
قدر أجسامهم ، ورممهم وآثارهم فيها بادية ، فلما بُعث فيهم صالح ، قال له
زعيمهم : إن كنت صادقاً فأظهر لنا من هذه الصخرة نافذة سوداء عشراء ،
ذات عرف ، فأتى الصخرة فتمخضت كالخامل ، وانشقت عن النافذة . ثم تلاها
سقبها^(١) ، فآمن كثير منهم ، وكان شربها^(٢) يوماً وشربهم يوماً ، فإذا كان
يوم شربها حلبوا ، فوُأمن لبنها كل إناء ووعاء ، فلما امتنعت إبلهم من الماء
يوم شربها استقلوها ، وكان فيهم امرأتان : عنيزة وصدقة ، فبدلتا أنفسهما
لقدار على أن يعقر الناقة ، وهو قدار بن قديرة ، وهي أمه وسالف أبوه ، وكان
قدار أزرق اسر قصيرا ، وكان له صديق اسمه مصدع بن مهرج ، معاون له على
ما كان به من الفساد في الأرض ، وكانا في تسعة من أهل الفساد ، فضرب
قدار عرقوبها بسيفه ، وضرب مصدع العرقوب الآخر ، واستموا لحما ،
فخرجت نمود تعتذر إلى صالح ، وتزعم أنها لا ذنب لها . فقال : انظروا ، هل
تدركون فصيلها ، فسي أن يرفع عنكم العذاب ! فالتسوه ، فصعد إلى جبل
يقال له : القارة ، وطال الجبل به في السماء ، حتى ما تناله الطير ، وبكى .
ثم استقبلهم ، ورغا ثلاثا ، فقال صالح : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك
وعد غير مكذوب ، وآية ذلك أن تصبح وجوهكم في الأول مصفرة ، وفي الثاني
محجرة ، وفي الثالث مسودة . فلما رأوا صدقه أول يوم أرادوا قتله ، ففزع منهم .
فلما رأوا صدقه في اليوم الثالث تحمقوا وتسكنوا وبكوا وضحجوا ، وجعلوا

(١) السقب : ولد الناقة .

(٢) الشرب : النصيب من الماء .

ينظرون من أين يأتيهم العذاب . فصَبَّحَتْهُمْ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ،
قَطَعَتْ قُلُوبَهُمْ فِي صُدُورِهِمْ ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ، فَقَرَّوْهَا يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ،
وَأَصْبَحُوا يَوْمَ الْأَحَدِ ، وَإِنَّمَا أَصِيبُوا وَالْمَذْنِبُ بَعْضُهُمْ ، لِأَنَّهُمْ رَضُوا فِعْلَهُ ، وَالنِّيةَ
أَبْلَغَ مِنَ الْعَمَلِ — وَبِلَادِهِمْ بَيْنَ الشَّامِ وَالْحِجَازِ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْخَبِثِ .
وَمَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَرِيَّتِهِمْ ، وَنَهَى النَّاسَ عَنْ دُخُولِهَا ، وَأَرَامَ
مَرَاتِقِي الْفَصِيلِ —

ولما رأى صالح أنها دار سقط ، ارتحل بمن معه إلى مكة ، فلم يزالوا بها
حتى ماتوا ، فقبورهم في غربي البيت ، بين دار الندوة والحِجْر .

وقال حباب بن عمرو :

كَانَتْ تُنَمُّودُ ذُوِي عَرِيٍّ وَمَكْرَمَةٍ
مَا إِنْ يَضَامُ لَهُمْ فِي النَّاسِ مِنْ جَارِ
فَأَهْلَكُوا نَاقَةً كَانَتْ لِرَبِّهِمْ قَدْ أَنْذَرُوا فَكَانُوا غَيْرَ أَرْبَارِ

فَقَالَ : وَالَّذِي يُنْشِرُ الْأَمْوَاتَ مِنَ الرِّجَامِ ، لَا عُدْتُ دُونَ رَفْعِ
الْجَامِ ، فَلَمْ نَجِدْ بُدًّا مِنْ تَأْلِفِهِ ، وَإِرَازِ خَلِيفِهِ ، فَأَشْلَنَاهُ وَالْعَقُولُ
مَعَهُ سَائِلَةٌ ، وَالْذُّمُّوعُ سَائِلَةٌ . فَلَمَّا فَاءَ إِلَى مَجْتَمِعِهِ ، وَخَلَصَ مِنْ مَأْتَمِهِ ،
سَأَلْنَاهُ لِمَ قَامَ ، وَلَآيَ مَعْنَى اسْتَرْفَعَ الْجَامُ ؟ فَقَالَ : إِنَّ الزُّجَاجَ نَمَامٌ ،
وَإِنِّي آلَيْتُ مُنْذُ أَعْوَامٍ ، إِلَّا بِضَمِّنِي وَنَمُومًا مَقَامٌ .

فقلنا : وما سببُ يَمِينِكَ الصَّرِي ، وَأَلِيَّتِكَ الْحَرِي ؟

قوله : « يُنشر » ، أى يُجى اللوتى وبقيمهم ، فيُنشرون فى الأرض .
والرجم : القبور ، واحدها رجم . تألفه : ضمه وترك خلافه . إبرار حلقه :
صراعاة قسمه .

أشلفاه : رفعناه . شائلة : مرتفعة .

قاء : رجع . تجشمه : موضعه ، وأصله للطائر .

العترى : العزيمه ، ويقال : أصررت على الشيء ، عزمت عليه ، وهو منى
صرى وصرى وأصرى أى عزيمه وجد .

وضلت ناقة أبى التمال ، قال : والله لئن لم يردّها الله على لا أصلى أبداً ،
فذهب فى ابتنائها ، فوجدها وقد تعلق زمامها بشجرة ، قال : علم الله أنها
كانت منى صرى فردّها على .

وقال حبيب :

لما رآهم بابلك^(١) دون المنى هَجَرَ النَوَايَةَ بعد طول وصال^(٢)
تخذ الفرار أخاً وأيقن أنه صرى عزم من أبى السمال

يقول : لما رأى كثرة من يحاربه أيقن أن ما تمناه فيهم لا يدركه ، فهجر
الضلالة ، وانهمز ، إذ أيقن أن طالبه مَصْرٌ على طلبه .

الحرى : الوكيدة الشديدة ، والسكبد الحرى : اليباسة العاطشة .

وناظر الحررى^(٣) بهذه المقامة مقامة المضيرة^(٤) فى البديعية ، ومن هنا إلى
أولها مبنى على تلك .

* * *

(١) ديوانه ٢٦١ .

(٢) ط : « الطيرة » تحريف .

[المقامة المضيرية للبديع الهمداني]

قال البديع : حدثنا عيسى بن هشام قال :

كنت بالبصرة ومعى أبو الفتح الإسكندري ، رجل الفصاحة ، يدهوها فجيئيه ، والبلاغة ، بأسرها فتطيعه . وحضرنا معه دعوة بعض التجار ، قدّم مضيرة^(١) ثنى على الحضارة^(٢) ، وتترجرج فى الغضارة^(٣) ، وتؤذّن بالسّلامة ، وتشهد لمعاوية رحمه الله بالإمامة ، فى قصعة يكل^(٤) عنها الطّرف ، ويموج فيها الطّرف .

فلما أخذت من الخوان مكانها^(٥) ، ومن القلوب أوطانها ، قام أبو الفتح يلعبها وصاحبها ، ويمقتها وآكلها ، ويثلبها وطابحها ، وظفناه يمزح ، فإذا الأمر بالصدّ ، وإذا المزاح عين الجِدّة ، وتنحى عن الخوان ، وترك مساعدة الإخوان ، فرفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها الميرون ، وتحلبت لها الأنفواه ، [وتلمظت لها الشفاه] واتقدت لها الأكباد ، [ومضى فى إثرها الفؤاد]^(٦) ،

لكنّا سألناه عن أسرها ، وساعدناه على هجرها

ثم أخذ يذكّر لهم المانع من أكلها ، كما يذكّر الآن الشّروجى .
ومقامة^(٧) المضيرة طويلة مضحكة . . .

* * *

-
- (١) المقامات : « قدّمت إلينا مضيره » ، والمضيرة : نوع من الطعام ، يتخذ من اللحم والبن الحامض ؛ وربما أضيف إليه الحليب ، ثم يوضع عليه التوابل والأبزار .
(٢) أى تدل على أن أهل الحضرة أقدر على صنعها من البدو .
(٣) تترجرج : تموج وتمحرك . والغضارة : القصعة .
(٤) المقامات : « بزل » . والطرف : العين .
(٥) الخوان : الذى يوضع عليه الطعام .
(٦) تسكّلة من مقامات البديع .
(٧) مقامات البديع ١٢١-١٤٣ .

فقال: إِنَّهُ كَانَ لِي جَارٌ لِسَانُهُ يُتَرَبَّبُ، وَقَلْبُهُ عَقْرَبٌ، وَلَفْظُهُ شَهْدٌ
يَنْقَعُ، وَخَبْرُهُ سَمٌّ مُنْقَعٌ، فِلْتٌ لِمَجَاوِرَتِهِ، إِلَى مُحَاوِرَتِهِ، وَاعْتَرَزَتْ
بِمَكَاشِرَتِهِ، فِي مُعَاشِرَتِهِ، وَاسْتَهْوَتْ نِي خُضْرَةَ دِمْنَتِهِ، إِمْنَادَمَتِهِ،
وَاعْتَرَتْ نِي خُدْعَةَ سِمَتِهِ، بِمَنَاسِمَتِهِ. فَازْجَتْهُ وَعِنْدِي أَنَّهُ جَارٌ مُكَاسِرٌ،
فَبَانَ أَنَّهُ عُقَابٌ كَاسِرٌ، وَأَلَسْتُ عَلَى أَنَّهُ حِبٌّ مُوَالِسٌ، فَظَهَرَ أَنَّهُ
حُبَابٌ مُوَالِسٌ، وَمَا لَحْتُهُ وَلَا أَعْلَمُ أَنَّهُ عِنْدَ تَقْدِهِ، يَمْنُ
يُفْرَحُ بِفَقْدِهِ، وَعَاقَرْتُهُ وَلَمْ أَذْرِ أَنَّهُ بَعْدَ فَرِّهِ، يَمْنُ يُطْرَبُ
لِمَفْرِهِ.

قوله: « جَارٌ لِسَانُهُ يُتَرَبَّبُ »، معناه: يُتَوَدَّدُ إِلَيْهِ بِلسَانِهِ، وَيَكْتُمُ الْعِدَاوَةَ
فِي قَلْبِهِ، وَهَذَا مَا يَذْكُرُ بَعْدَهُ.

[نَبْذُ مِنَ الْأَقْوَالِ الْحَكِيمَةِ فِي الْجَارِ]

أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَشْرَاطُ السَّاعَةِ سُوءُ الْجَوَارِ».
تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ ثَلَاثٍ، هُنَّ الْعَوَاقِرُ: إِمَامُ السُّوءِ، إِنْ أَحْسَنْتَ لَمْ يَشْكُرْ،
وَإِنْ أَسَأْتَ لَمْ يَفْغُرْ، وَمِنْ جَارِ السُّوءِ إِنْ رَأَى حَسَنًا سَتَرَهُ، وَإِنْ رَأَى قَبِيحًا
أَذَاعَهُ، وَمِنْ امْرَأَةِ السُّوءِ، الَّتِي إِنْ غَبِثَتْ عَنْهَا خَاتَمُكَ، وَإِنْ دَخَلَتْ عَلَيْهَا
لَسَنَتُكَ.

قال بعض الفضلاء: الجار السوء يفشي السرَّ، ويهتك السرَّ.

وقيل لأهل البحرين: إِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ أَنْ يُحِبَّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَحَافِظُوا

على ثلاث خصال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وحُسن الجوار ، فإن أذى
الجار يمحو الحسنات ، كما تمحو الشمس الجليد عن الصفاة .

* * *

قوله : « يتع » ، أى يَرَوَى للعطش . وَمُنَقَّع ، أى أُدِيم حبسه ، وأُنْقَع سَمُّ
الحمية : ثبت ودام . خَبَؤُهُ : باطنه ، وما خبأه من الشر .

محاورة : محادثته . بمكاشرته : مضاحكته : معاشرته : مصاحبته .

استهوتنى : ذهبت بى . خُضْرَة دِمْنَتُهُ : حُسن ظاهره ، وتقدمت خضراء
الدم .

أغرتنى : حرصتنى وأصقتنى به . سَمَتَهُ : علامته . مُنَاسِمَتُهُ : مصاحبته ،
وقرب نسقتى من نسمة ، أى شخصى من شخصه .

مازجته : خالطته . مكاسر : قريب الدار ، وكَسِر البيت : جانبه .
والمُعَاب الكاسر : التى تضم جناحيها ، وتهوى على فريستها ، ففم الجناح
هو كسره .

وآنسته : أبصرته . حَبَّ : حبيب ، وكان زيد بن حارثة يسمى حَبَّ
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى حبيبه .

وَصَحَّ : تبين . حُبَاب : حبة . موالس : مخادع خائن فى صحبتته .

مالحته : واكلمته ، أى أكلت معه الملح ، وأصل المالحلة الرضاع كأنه حين
نادمه راضعه الكأس ، وملحت المرأة الصبي : أرضعته .

نَقَدَهُ : تجربته . عاقدته : عاهدته ، وعقدت يدي على يده .

فَرَّه : اختباره وكشف سره ، يريد أن هذا الصاحب كان يظهر مودته ،
ويسر عداوته .

* * *

[مما قيل في المودة والإخاء]

وقال الشاعر؛ وهو المغيرة بن حبياء^(١):

أخوك الذي لا ينقضُ النأيُ عهده ولا عند صرفِ الدهر يزورُ جانبهُ
وليس الذي يلقاك بالبشرِ والرضا وإن غبت عنه لستعتك عقاربهُ
قال: وأنشد آخر:

على لإخواني رقيبٌ من الصفا تبعد الاليالى وهو ليس يَبِيدُ^(٢)
ولم أنى لأستعصى أخى أن أبرّه قريباً وأن أجفوه وهو بعيد
وقال ابن المعتز:

لم يبقَ مما فانتى كسبه إلا قَتَى يَسْلَمُ لِي قَلْبُهُ^(٣)
ينأى فلا يذهب نأيه عني ولا يفسده قربه
يكون حسبي من جميع الورى في كل حال وأنا حسبه

وقال بشار وزاد معنى:

تودّ عدوى ثم تزعم أننى صديقك، إن الرأى منك كعازب^(٤)
وليس أخى مَنْ ودّنى رأى عينه
ولكن أخى مَنْ ودّنى وهو غائب

* * *

(١) ط: «شمة»، وهو خطأ، والبيتان من أربعة أبيات في أمالي القالي ٢: ٢٣٠.

(٢) اللاكلى ٢٧٢ من غير عزو. (٣) اللاكلى ٢٧٢.

(٤) أمالي القالي ١: ٨٣.

وَكَاثَتْ عِنْدِي جَارِيَةٌ ، لَا يُوجَدُ لَهَا فِي الْجَمَالِ مُجَارِيَةٌ ،
 إِنْ سَفَرَتْ خَجِلَ النَّيِّرَانِ ، وَصَلِيَتْ الْقُلُوبُ بِالنَّيِّرَانِ ، وَإِنْ
 بَسَمَتْ أَزْرَتْ بِالْجَمَانِ ، وَيَبِيعَ التَّمْجَانُ بِالْمَجَانِ ، وَإِنْ رَنَتْ
 هَيْجَتِ الْبَلَابِلَ ، وَحَقَّقَتْ سِحْرَ بَابِلَ ، وَإِنْ نَطَقَتْ عَقَلَتْ لُبَّ
 الْعَاقِلِ ؛ وَاسْتَنْزَلَتْ النُّعْمَ مِنَ الْعَمَاقِلِ ، وَإِنْ قَرَأَتْ شَفَتِ الْمَفْتُودَ ،
 وَأَحْيَتْ الْمَوُودَ ، وَخِلَتْهَا أَوْتَيْتُ مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ . وَإِنْ
 غَنَّتْ ظِلَّ مَعْبَدٍ لَهَا عَبْدًا ، وَقِيلَ سَحَقًا لِإِسْحَاقَ وَبُعْدًا ، وَإِنْ
 زَمَرَتْ أَصْحَى زُمَامٍ عِنْدَهَا زَيْمًا ، بَعْدَ أَنْ كَانَ لِجِلِيلِ زَعِيمًا ،
 وَبِالْإِطْرَابِ زَعِيمًا ، وَإِنْ رَقَصَتْ أَمَالَتِ الْعَمَائِمَ عَنِ الرَّمُوسِ ،
 وَأَنْسَتِكَ رَقْصَ الْخُبَّابِ فِي الْكُثُوسِ ، فَكُنْتُ أُرْدَى مَعَهَا
 حُمَرَ النُّعْمِ ، وَأَحْلَى بِتَمْلِيهَا جِيدَ النُّعْمِ ، وَأَحْجُبُ مَرَاها عَنِ
 الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَأَذُودَ ذَكَرَاهَا عَنِ شَرَائِعِ السَّمَرِ ، وَأَنَا مَعَ ذَلِكَ
 أَلِيحُ ، مِنْ أَنْ تَسْرِيَ بِرِيَاها رِيحٌ ، أَوْ يَكُونَنَّ بِهَا سَطِيحٌ ، أَوْ
 يَمَّ عَلَيْهَا بَرْقٌ مُلِيحٌ .

* * *

قوله : « مجارية » ، مبارية معارضة ، وفلان يبارى الريح جوداً ، كأنه
 يمارضها بفعله ، فإذا هبت في زمن الشقاء والجهد ، فضررت المحتاجين تتبع آثار
 فسادها بماله وهباته فأصلحها .

سفرت : كشفت وجهها . خجل : استحيى . النيران : الشمس والقمر .

صَلَّيْتُ : أَحْرَقْتُ ، يَقُولُ : إِذَا كَشَفْتَ وَجْهَهَا افْتَضَحَتْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لِبَدِيعِ
حُسْنِهَا ، وَاخْتَرَقَتْ الْقُلُوبُ بَنِيرَانِ حُبِّهَا .

* * *

[مِمَّا قِيلَ فِي جَمَالِ الْمَرْأَةِ]

وَنَسُوقُ هُنَا جُمْلَةً مِنَ الشُّعْرِ الْمُسْتَحْسَنِ فِي أَوْصَافِ النِّسْوَانِ :
قَالَ الشَّاعِرُ :

لَمَّا تَبَدَّدَتْ مِنَ الْأَسْتَارِ قَلْتُ لَهَا
سُبْحَانَ رَبِّي خَالِقِ الصُّوَرِ
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ شَمْسًا غَيْرَ وَاحِدَةٍ
حَتَّى رَأَيْتُ لَهَا أَخْصَاءَ مِنَ الْبَشَرِ
كَأَنَّهَا هِيَ إِلَّا إِنِّ يَفْضُلُهَا حَسَنُ الدَّلَالِ وَطَرْفُ فَاتِرِ النَّظَرِ
وَقَالَ أَعْرَابِي :

إِذَا حُجِبَتْ لَمْ يَكْفِكَ الْبَدْرُ فَقَدَهَا وَتَكْفِيكَ فَقَدَ الْبَدْرُ إِنْ فَقَدَ الْبَدْرُ
وَحُسْبِكَ مِنْ خَمْرِ تَقْوَتِكَ رَبَقَهَا وَوَاللَّهِ مَا مِنْ رِيْقَةٍ حُسْبِكَ الْخَمْرِ
وَمَا لِلصَّبْرِ عَنْهَا إِنْ صَبَرْتَ وَجَدْتَهُ جَمِيلًا ، وَهَلْ فِي مِثْلِهَا يَحْسُنُ الصَّبْرُ
وَلَوْ أَنَّ جِلْدَ الذَّرِّ لَامَسَ جِلْدَهَا لَكَانَ لِلْمَسِ الذَّرُّ فِي جِلْدِهَا أَثَرُ

وَقَالَ الْمُبَاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ :

تَأَهَّتْ عَلَيَّ أَنْ تَمُتَ مُحَاسِنُهَا خَوْدٌ تَكْمَلُ فِي أَعْطَافِهَا الْفَتَنِ^(١)

هَمَّتْ بِإِتْيَانِنَا حَتَّى إِذَا نَظَرَتْ إِلَى الْمِرَاقِ نَهَاها وَجْهَهَا الْحَسَنُ
 مَا كَانَ هَذَا جَزَائِي مِنْ مَحَاسِنِهَا
 أَغْرَتْ بِي الشَّوْقُ حَتَّى شَفَنِي الشَّجَنُ

وقال بشار:

دَرَّةٌ حَيْثَمَا أُدِيرَتْ أَضَاءَتْ وَمِشَمٌ مِنْ حَيْثُمَا شُمَّ فَاحَا
 وَجَنَاتُ قَالَ الْإِلَهِ لَهَا كَوْنِي فَكَانَتْ رَوْحًا رُوحًا وَرَاحًا

وله أيضاً:

كَانَتْهَا يَوْمَ رَاحَتْ فِي مَحَاسِنِهَا قَارَنْجٍ أَسْفَاهُا وَاهْتَزَّ أَعْلَاهَا
 حَوَازٍ جَاءَتْ مِنَ الْفَرْدَوْسِ مَقْبَلَةً فَالشَّمْسُ طَلَعَتْهَا وَالْمَسْكُ رِيَاهَا
 رَاحَتْ وَلَمْ تَعْطِهِ بُرءَا لِمَلَّتِهِ عَنْهَا وَلَوْ سَأَلْتَهُ النَّفْسُ أَعْطَاكَهَا
 مِنَ اللَّوَاتِي أَكْتَسَتْ بُرءَا فَشَقَّ لَهَا مِنْ حَسَنِهَا الْحَسَنُ يُبْرِئُ بِالْأَفْرَادِهَا

وقال السَّلاَمِيُّ:

وَفِيهِنَّ سَكْرَى الْآحِظُ سَكْرَى مِنَ الْغَضَبِ
 يُعَاتِبُ حَلَوُ الْفِظِ حُلُوَ الشَّمَائِلِ^(١)
 أَدَارَتْ عَلَيْنَا مِنْ سُلَافٍ خَدُودَهَا^(٢)
 كَوْوَسًا وَغَنَنَّا بِصَوْتِ الْخِلَاطِلِ

(١) البيضة ٢ : ٣٧١

(٢) البيضة : « حديثها ».

هو قال أيضاً :

لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ دَاعِيَ الْقَهْمِ مِنْ كُتْبٍ إِلَى مَعَاظِفَ كَالْأَغْصَانِ مِنْ كُتْبٍ
 إِنَّ السُّوَالِفَ كَالسَّوْسَانِ فِي صُمُودٍ إِنَّ الْفِدَائِرَ كَالْخُلُخَالِ فِي صَبَبٍ
 إِلَى خُدُودِ بَنَاتِ الرُّومِ قَدْ بَرَزَتْ مِنْ حُجُبِهَا وَأَدَارَتْ أَعْيُنَ الْعَرَبِ
 مِنْ كُلِّ سَافِرَةٍ عَنْ مَشْرِقٍ خَجَلًا فِيهِ طَرَّازَانِ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ لَهَبٍ
 وَاسْتَضْحَكَتْ عَنْ لَّالٍ أَوْ حَصَى بَرْدٍ
 يَكَادُ يَقْطُرُ مِنْ مَائِيَةِ الشَّنْبِ
 تَحْدُو بِهَا فَقِيَّةٌ صَيِفَتْ وَجُوهَهُمْ
 مِنَ الرِّضَا وَعَوَالِيهِمْ مِنَ الْفَضْبِ

وللأُمير تميم بن المعز :

نَاوَلَتْهَا شِبْهَ خَدَّيْهَا مَعْتَقَةً صِرْفًا كَانَ سَنَاهَا ضَوْءُ مِقْبَاسٍ^(١)
 قَبِيلَتِهَا وَقَالَتْ وَهِيَ ضَاحِكَةٌ
 فَكَيْفَ تُهْدِي خُدُودَ النَّاسِ لِلنَّاسِ^(٢)
 قُلْتُ أَشْرَبِي فِيهِ دَمْعِي، وَحَرَّتْهَا دَمْعِي، وَطَابَتْهَا فِي الْكَاسِ أَنْفَاسِي
 قَالَتْ فَإِنْ كُنْتُ مِنْ حُجْبٍ بِكَيْتِ دَمَا فَاسْقِنِيهَا عَلَى الْعَيْنَيْنِ وَالرَّأْسِ
 بِالْيَلَةِ بَاتَ فِيهَا الْبَدْرُ مُعْتَنِقِي
 وَبَاتَ الشَّمْسُ فِيهَا بَعْضُ جَلَّاسِي
 وَبَتْ مُسْتَفْنِيَا بِالْثَمَرِ عَنْ قَدَحٍ وَبِأُخْدُودٍ عَنِ التَّقَاحِ وَالْآسِ

(١) ديوانه ٢٤٩ ، وفيه : « مشعشة » ، والمِقْبَاسُ والقَبَسُ : الشعلة من النار .

(٢) الديوان : « وكيف نسقي »

وقال أيضاً :

قالتُ وقد نالها للبين أوجُمُه والبين صعبٌ على الأحباب موقُمُه^(١)
اجعل يدبك على قلبي فقد ضُرمْتُ قـواه عن حل ما تحويه أضلُمُه^(٢)
واعطفْ على الطأيا ساعةً فعمسى مَنْ شتَّ شمل الهوى بالوصلِ بمجمعه
كأنني يوم ولّتْ حسرةً وأمسى غريق بحر بَرى الشاطئ ويمتعه

وقال النهامي :

أهدى لنا طيفُها نجداً وساكنه حتى اقتنصنا ظيَاء البدو في الحَصْرِ^(٣)
فبات يملؤ لنا من وجهها قرأ من السِّبْرَاق لولا كُلفة القمرِ
وراعها حرّ أنفاسي قفلت لها : هوائِ نار وأنفاسي من الشررِ
وزاد دُرّ الثنايا دُرّ أدمعها فالتفّ مبتظّم منه بمقتـرِ
ولو قدرت وثوب الليل منخرق بالصبح رقعة منهن بالشعرِ
بيضاء يسحب ليلاً حسفه أبداً في الطّول منه وحسن الليل في القصرِ
لو لم يكن أفحوانا نغرُ مبسمها ما كان يزاد طيباً ساعة السحرِ
ولبعض أحبابنا :

شدّيتُ فلا أدري بأيّ صفاتها تقيد ألباب الورى ونقودها
وأىّ لآليها أشدُّ نفاسةً : أنطقها أم نثرها أم عقودها
فللشمس مرآها ، وللغصن قذّها ، وللمسك ريّها ، وللرّيم جيّدُها

وقال الحسن :

(١) ديوانه : ٢٦٠ ، وفيه : « وقال وقد ودعه بعض أهله لسفره » ، وقال صاحب القيمة : « وهو مما ينبغي به » .
(٢) الديوان : « ما فيه أضلُمُه » .
(٣) ديوانه ٤١ وى ط : « أهدى لنا طيفها » ، وصوابه من الديوان .

وذا ت خدر مورّد
تأمل العين منها
فبعضها في انتهاء
فالحسن في كلّ جزء
وكلياً عدت فيها
تكون في العود أحمد

قوله: «أزرت بالجان»، أى قصرت بحب الفضة.

الرجاء: الأولو الصغار.

والجان: شيء لا نمن له، وخذ هذا مجازاً، أى باطلا؛ أراد أنها إذا ضحكت
فبدت أسنانها كانت أحسن مما وصف. وأخذه من قول أبي تمام:

وقهوة كوكبها بزهر
وردية يحثها شادن
مهنف لم يبتسم ضاحكاً
يسطع منها المسك والعنبر^(١)
كأنها من خده تنصر
مذ كان إلا كسد الجواهر

وقال آخر وذكر الجان:

عثمان يعلم أن اللدح ذو ثمن
والناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً
لكنه يشتهي مدحاً بمجان
حق يروا عنده آثار إحسان

رنت: نظرت. البلابل: وساوس الموم. والسخر، ينسب إلى بابل

وقال السّلامى في هذا المعنى:

(١) ديوانه ٣٧١.

(٢) ديوانه ٤٤١.

أَكْجِيلَةُ الْأَجْفَانِ بِالسُّحْرِ الَّذِي لَوْلَاهُ مَادَرْتُ الْبِلَابِلُ بَابِلَ
 قَدْ كَانَ قَلْبِي غَافِلًا عَمَّا بِهِ أَوْدَى وَقَلْبُ أَخِي السَّلَامَةُ غَافِلُ
 حَتَّى دَهَانِي مِنْكَ صَدْرُ رَامِحٍ ذَرَبَ سِنَانَاهُ وَطَرَفُ قَاتِلِ
 مَا عَيْدُكَ الْمَهْنُ بِجِيدِكَ دَرَّةٌ لَكِنْ فِرْدَوْسٌ فِي حِمَامٍ جَائِلِ

وللأمير تميم بن المعتز :

وَلَيْلَةٌ بِثُهَا عَلَى طَرَبٍ آخِرَهَا مَشْبَةٌ لِأَوْلَاهَا^(١)
 أَقْبَلَ الْبَرْقَ مِنْ ثَلْيَيْنِهَا وَأَلْتَمَ الشَّمْسُ مِنْ مُخَيَّيْهَا
 سَقَتْنِي الرِّاحُ وَهِيَ خَدَّاهَا بِأَكْوَسِ السُّعْرُوهِ وَهِيَ عَيْنَاهَا
 إِذَا أَرَادَتْ مَزَاجَهَا جَعَلَتْ بَآخِرِ اللَّحْظِ مِنْ فِيْهَا
 فَيَا لَهَا قَهْوَةٌ مَعْتَقَةٌ وَلَيْسَ إِلَّا الْخُدُودُ مَاوَاهَا
 حَبَابُهَا النَّفْرُ حِينَ تَمْزِجُ لِي وَتُنْقِلُهَا أَلْتَمُ حِينَ أُسْقَاهَا

* * *

[ذكر بابل]

وبابل مدينة كان ينزلها ملوك المعجم ، وهي دار نمرود بن كنعان ، وكانت بابل ، من استعظامها واستبشاع أمرها ، لا تكاد تحصل . وأسسها نمرود ، وكانت مدينة ضاحكة للنظر ، زاهية البناء ، واسعة الفناء ، جمعت إلى حسن للنظر رصافة البنيان وبهاء النصب ، فكانت سهلة بطحاء مربعة ، في كل تربيع حصنان عظيمان ، وسورها لا يكاد سامعٌ خبره يصدق ، كان عرضه خمسين

(١) لم ترد هذه الأبيات في ديوانه .

ذراعاً ، في ارتفاع مائتي ذراع ، في دور أربعة وستين ميلاً ، وحوله خندق يجري فيه الفرات ، وفيها مائة باب نحاس .

وهي أقدم بناء بُني بعد الطوفان ، ونسب السحر لها لأن بها هاروت وماروت معلمَي السحر ، فكانا يعجبان من بني آدم حيث يعصون الله تعالى على إنعامه عليهم ، فابتلاهما الله تعالى فسَلطَ عليهما الشهوة الآدمية ، وحرّم عليهما القتل والزنا والخمر ؛ وأنزلهما إلى الأرض للحُكْم بين أهلها ، فجاءتهما الزهرة في خصام ، فوقعت في قلوبهما ، فشكّا كل واحدٍ منهما لصاحبه ما يجده من حُبّها ، فأرسلها إليهما ، فراودّاها فأبت حتى يعلّماها الاسم الذي يرجعان به إلى السماء ، فأبيا عليها ، قالت لهما : فاشربا الخمر ، فشرباها فسيكرا وعلّماها الاسم ، وواقعاها ، ثم خرجا فوجدار جلا ، فظنّا أنه ظهر على أمرهما فتلاه ، وتكلّمت الزهرة بالاسم الذي يرجعان به إلى السماء فرفعت ومسخت كوكباً وخُبْراً بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما يمدّبان ببابل ، ويعلمان السحر .

وجاءت امرأة إلى عائشة رضي الله تعالى عنها ، فقالت : يا أمّ المؤمنين ، قالت لي امرأة : هل لك أن أعلمك شيئاً يصرف وجه زوجك إليك أفأنت بَيْتَسَيْنِ ، فركبتُ واحداً ، وركبت الآخر ، وسرنا ماشاء الله ، فقالت : أتدريين أنك ببابل ؟ ودخلت على رجلين ، فقالا لي : بُولي على ذلك الرماد ، فذهبت ولم أبل ، ورجعت . فقالا لي : ما رأيت ؟ فقلت : ما رأيت شيئاً ، قالا : أنت على رأس أمرك ، فرجعت فشدّدت وُبُلت ؛ فخرج مثل الفارس المقنع ، فصعد في السماء ، فقالا لي : ما رأيت ؟ فأخبرتهما ، فقالا لي : ذلك إيمانك فارّك ، فخرجت إلى المرأة ، فقلت لها : والله ما علّاني شيئاً ، ولا قال لي كيف أصنع ، فقالت : فما رأيت ؟ قلت : كذا وكذا ، فقالت : أنت أسحر العرب ، اعملية ،

قطعت جداول ، فإذا زرع يهتز ، فقلت : أفرّك فإذا هو قدّ يبس ، فأخذته وفركته ، وقالت : خذيه ، واجعله سويقاً واسقيه زوجك ، فلم أفعل شيئاً من ذلك . وانتهى الأمر إلى هذا فهل لي من توبة ؟

ورأت رجلاً من خزاعة فقالت : يا أمّ المؤمنين ، هذا أشبه الناس بها روت وماروت . روى هذا الحديث بإسناد له ابن قتيبة .

* * *

قوله : « عقلت لبّ العاقل » ، اللب : العقل ، وعقلته : شدّدته بعقل ، وهو قيد البعير .

والنمص : الوعول ، والأعصم : التيس الجبليّ الذي في يديه بياض ، والممصم : موضع الخلخال .

الخليل : الأعصم الوعل ، وعصمته : بياض في رجليه .

والعاقل : قرون الجبال ، وأراد أن كلامها لعدوّته ينلب أهل العقول حتى نعدّهم إلى الوحش ، أو يريد بالمصم من له عزمة وهمّة من الرجال ، فإذا سمعها تذلل لها .

وأخذ هذا من قول أبي بكر بن دريد^(١) :

لَوْ نَاجَتِ الْأَعْصَمَ لَا نَحْطَ لَهَا طَوْعَ الْقِيَادِ مِنْ شِمَارِيخِ الذَّرَا^(٢)
أَوْ صَابَتِ الْقَانَتِ فِي مَخْلُوقِ مُسْتَصْعِبِ الْمَسْلَكِ وَغَرِ الْمُرْتَقَى^(٣)

(١) القصيدة ١٢٥ (نفرة الطائر)

(٢) ط : « باحت » ، وصوابه من القصيدة . وناجت : سارت والأعصم : الوعل الذي في يديه بياض . والشاريخ : جم شمراخ ؛ وهو رأس الجبل . والترا : جم ذروة .

(٣) صابت : وافقت ووجدت . والقانت : المطيع . والمخلوق : الأملس . ومستصعب : صعب . . . والمسلك : الموضع الذي يسلك فيه .

ألهاء عن تسيبته وديبته تأنيبها^(١) حتى تراه قد صبا^(٢)
والسابق إلى هذا المعنى التباينة بقوله :

لو أنها عَرَضَتْ لِأَشْمَطِ رَاهِبٍ عَبْدُ الْإِلَهِ صَرُورَةٌ مُتَعَبِدٌ^(٣)
لِنَا لِرُؤْيَيْهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا وَنَخَالَهُ رُسْداً وَإِنْ لَمْ يُرْشَدْ
والمفتود : الذي يشتكي نؤاده . والموود : المدفون حياً ، وانظره في
الخماسة والثلاثين .

وأراد أن حسن صوتها بالقرآن يشفي من مرض النؤاد ، ويحيي الموتى .
والعرب تزعم في شعرها أن إفراط الحُسن يُحيي الموتى .
قال الأعشى :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيِّتًا إِلَى نَحْرِهَا قَامَ وَلَمْ يُجْمَلْ إِلَى قَابِرِ^(٤)
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا يَا عَجَبًا لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ !^(٥)
وقال توبة بن الحُمَيْر :

وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى الْأُخْيَالِيَّةَ سَلَّمَتْ عَلَيَّ وَفَوْقِي تَرْبَةً وَصَفَاحُ^(٦)
لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَا إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَاحُ^(٧)

(١) ط : « تأنيبها » ، تهريف . والتأنيب : الأنس وحسن الحديث .

(٢) صبا : فعل أفعال الصبيان .

(٣) ديوانه ٣١ . الراهب : الخائف من الله . والصرورة في الجاهلية : القى لم
يقروج ، وفي الإسلام : الذي لم يحج .

(٤) ديوانه ١٣٩ ، ١٤١ . والنحر : أعلى الصدر .

(٥) نشر الله الموتى : أحيائهم ويحييهم .

(٦) ديوان الخماسة - بشرح الرزوقي ١٣١١ .

والصفائح : الحجارة العراض يغطي بها القبر .

(٧) زقا : صاح . والصدى : ما يجيبك من الجبال وغيرها إذا صهت ؛ وكانت العرب

تزعم أن عظام الموتى تصبح هاماً وأصداء ، وبمده في الخماسة :

وَأَغْبَطُ مِنْ لَيْلَى بَمَا لَا أَفَالُهُ أَلَّا كُلَّ مَا قَرَّتْ بِهِ الْعَيْنُ صَالِحُ

قوله : «مزامير» ، المزمار : الصوت نفسه ، والجمع مزامير . وقيل : صوابه زمار ، ولا يقال زامر ، ويقال للآتى : زامرة ولا يقال : زمارة ، والآلة التى يزمر بها الزمارة .

وكان داود عليه الصلاة والسلام أحسن خلق الله صوتاً ، وإذا قرأ الزبور رقت لصوته الوحوش ، وحنت حتى تؤخذ بأغناقها وهى مصفية له ، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط إلا على صوته .

ومعبد ، أطبع الغنّين المتقدمين ، وإسحاق الموصلى أطبع المتأخرين ، وفى حميد يقول حبيب :

محاسنُ أوصافِ الغنّينِ بحمّةٍ وما قصّباتُ السّبقِ إلّا لِمَعْبِدٍ^(١)

• • •

[أخبار معبد]

وهو معبد^(٢) بن وهب ، وقيل ابن قطن^(٣) وأبوه أسود ، وكان هو خِلاسيّاً مديد القامة ، أخول .

غنى فى أول الدولة الأموية ، وتوفى أيام الوليد بن يزيد .

وكان^(٤) علم جارية اسمها ظبية فاشترها رجل من الأهواز ، وذهبت به إلى كلّ مذهب ، قاتت وأخذت جواريه أكثر غنائها ، فكان من أجلها يفضل معبداً على نظرائه ، ويظهر التعصّب له ، فسمع به معبد ، فخرج إليه حتى أتى للبصرة ، فصادف الرجل خارجاً إلى الأهواز فى سفينة ، فسأله الدخول معه ،

(١) ديوانه ١٠٣ .

(٢) أخبار معبد فى الأغاني ١ : ٣٦ - ٦٠ .

(٣) الأغاني « قطن ، مولى ابن قطر » .

(٤) الخبر فى الأغاني ١ : ٤٨ ، ٤٩ ، باختصار وتصرف .

قامر الملاح أن يُجلّسه في مؤخر السفينة ، وانحدر حتى بلغ إلى فم نهر الأبلّة ،
فخندوا وشربوا ، وأمر جواربه ففتّين ، ففتّت إحداهنّ للناقة^(١) :

* بانت سعادُ وأمسى حبّكها انجذما *

ومعبد ساكت في ثياب السفر ، حتى سكّنت ، فصاح : يا جارية ، غناؤك
ليس بمستقيم ، فغضب مولاه ، وقال : وما أنت والغناء ! ثم غنّت الثانية
بشعر عبد الرحمن بن أبي بكر :

بابنة الأزديّ قلبي كشيْبُ مُستهم عندها ما يُنيبُ^(٢)
ولقد قالوا قُلتُ دعوني إنَّ مَنْ تَنهَوْنَ عَنْهُ حبيبُ
إنّما أفنى عظامي وجسمي حُبّها ، والحبُّ شيءٌ عجيبُ^(٣)

فصاح معبد : يا جارية ، قد أخلّلت بهذا الصوت إخلالاً شديداً ! فازداد
غضباً مولاه ، وقال : وبلك ! أما تكفّ عن هذا الفُضُول ! ثم غنّت أخرى
لكثيرةً قالت :

خليليّ عوجاً سلّما ساعةً ممي على الرّبع نقيض حاجةٍ ونودّع^(٤)

(١) الأغاني وعده من الأصوات

بانت سعادُ وأمسى حبّكها انصرما واحتلّت الفؤز والأجراع من إضما
إحدى بليّ وما هام الفؤاد بها إلّا السّفاء وإلا ذكرّة حلمها

والبيان في ديون النّايّة ٦٥

(٢) الأغاني ١ : ٥٠

(٣) في الأغاني : « إنّما أبلى عظامي » ، وبمده هناك :

أيّها العائبُ عندي هواها أنت تندي من أراك تعيبُ

(٤) الأغاني ١ : ٥٠ ونسبه إلى كثير ، وفيه : « عوجاً منكما » . وبمده هناك :

ولا تعجلاني أن أليّ ردمي لمرّة لاحت لي بيدياء بقلعي

وقولا لقلب قد سلا : راجع الموى وللعين أذرى من دموعك أودعى
فلا عيش إلا مثل عيش مضى لنا مصيفاً أقنا فيه من بعد مزيج

قال معبد . ما قوتن صوتنا واحداً ، فقال له الرجل : والله ما أراك تدع
هذا الفضول بوجه ولا حيلة ، وأقسمت بالله لن أعودته لأخرجك من السفينة .
فاندفع معبد يفتي الصوت الأزل ، فصاح الجوارى : أحسنت والله يارجل !
فأعده ، قال : لا ولا كرامة ، ثم غنى الثانى ، فقلن لسيدهن : هذا والله أحسن
الناس غناء ، فأسأله أن يعيد لعلنا أن نأخذه ، ثم غنى الثالث فززل عليهم
للسفينة ، فوثب الرجل وقبل رأسه ، وقال : أخطأنا عليك ، فأسألك أن تنزل
إلى ، فأبى فلم يزل به حتى نزل ، وقال له : من أين أخذ جواريك هذا الفناء ؟
قال : من جارية أخذت عن أبى عباد معبد ، ثم استأثر الله بها ، وكانت متى
محل الروح من الجسد ، فلذلك أفضل معبداً على جميع المغنين ، فقال له معبد :
وإلك لأنت هو ! أنصرفنى ؟ قال : لا ، فصك معبد بيده صلته ، وقال : فأنا
والله معبد ، وإليك قدمت من الحجاز ، ولتصعدك بالأهواز دخلت السفينة ، والله
لا فصرت فى جواريك [هؤلاء] ^(١) حتى أجعلن خلفاً من الماضى . فأكب
الرجل والجوارى على يديه ورجليه بالتقبيل ويقولون : « كتممتنا نفسك ، حتى
أسأنا عشتك ، وأنت تمن تمنى من الله أن نلقاه .

ثم وهب له ثلثمائة دينار وطيباً وهدايا بمنزلها ، فأقام عنده سنة حتى أخذ
عنه جواريه ثم انصرف إلى الحجاز .

قال ابن الكلبي : قدم ابن سريج والغريص المدينة ، وكانا فى صنعة الغناء
من الحذاق ، يتمرضان لمعروف أهلها ، فلما شارفاها تقدما ثقلهما ، ليرتادا

منزلاً ، حتى إذا هما بمنسلة تفسل فيها الثياب قرب المدينة ، إذا هما بعلام
ملتجف بإزارٍ وطرفه على رأسه ، ويده حباله يصيد بها الطير ، وهو يتفتى :

القصر فالنخل فالجَماء بينهما أُنهي إلى القلب من أبواب جَيرون^(١)

فإذا الغلام معبد فلما سمعاه مالا إليه ، واستعاداه ، فأعاد الصوت ، فسمعا
شيئاً لم يسمعا مثله قط ، فقال أحدهما لصاحبه : هل سمعت كاليوم قط ؟ قال :
لا والله ، فما رأيك ؟ قال ابن سريج : هذا غناء غلام يصيد الطير ، فكيف
يمن في المدينة ، أما أنا فشكلت ولدي إن لم أرجع ، فرجع ولم يدخلها^(٢) .

وروى إسحاق أن معبداً سافر إلى مكة ، فسمع ببطن مرّ غناء ، فقصد
الموضع ، وإذا رجل جالس على حرف بركة فارق شعره حسن الوجه عليه
درامة مصبوغة بزعفران ، وهو يتفتى :

حَنّ قلبي من بعد ما قد أنابا ودعا الممّ شجوه فأجابا^(٣)
ذاك من منزلٍ لسلى خلاه لابس من خلائِه جلبابا^(٤)
مُجِتّ فيه وقلت للركب عوجوا طمعا أن يردّ رَنع جوابا
فاستثار المنسى من لوعة الحب وأبدى الموم والأوصابا

(١) الأغاني ١ : ١١ ، وفي ط : « فالنخل فالأبواب » ، وما أثبتته من الأغاني ،
وأبواب جيون بدمشق ، وبعده في الأغاني :

إلى التّلاطِ فما حازت قرائنه دورٌ نَزَحَن عن النعشاء والمون
قدّ يكتمُ الناس أسراراً فأعلمها ولا يَنالون حتى الموت مكنوني

والآيات من أصوات الأغاني ، وهي لأبي قطيفة .

(٢) الخبر في الأغاني ١ : ٤٤ ، ٤٥ .

(٣) الشعر لعمر بن أبي ربيعة ، والأغاني ١ : ٤٧ .

(٤) الأغاني « مكتم من صفاته » .

هَرَعَ مَعْبِدَ بَعْصَاءَ وَغَنَى :

مَنَعَ الْحَيَاةَ مِنَ الرِّجَالِ وَنَفَمَهَا حَدَقَ قَلْبَهَا لِلنِّسَاءِ مِرَاضُ^(١)
وَكَانَ أَفْتَدَةَ الرِّجَالِ إِذْ رَأَوْا حَدَقَ النِّسَاءَ لِنَبْلِهَا أَغْرَاضُ

قال الرجل له : أنت معبد ؟ قال نعم ، وقال له معبد : بالله أنت ابن مُرَيْجٍ ؟
قال : نعم ، ووالله لو عرفتُك ما غَنَيْتُ بين يديك .

قال معبد : فلما قدمت مكة ، قيل لى : إن ابن صفوان قد جعل بين
اللفنين جائزة ، فأُتيت بابه ، فطلبت الدخول ، فقال لى آذِنُهُ : قد أمرنى أن
ألا آذن لأحد عليه ، قلت : فدعنى أدنو من الباب ، فأغنى صوتاً ، فقال : أما
هذا فنعم ، فدنوت من الباب ، فغَنَيْتُ ، فقالوا : معبد ، ففتحوالى وأخذت
الجائزة .

* * *

[ذكر إسحاق الموصلى]

وأما إسحاق فذكره صاحب الأغاني^(٢) ، وقال : كان محلَّ إسحاق من
العلم والأدب والرواية ، وتقدّمه فى الشعر وسائر الحاسن أشهرٌ من أن يوصف .
وأما الفناء فكان أصغرَ علومه ، وأدنى ماؤمِّمٍ به وإن كان الغالب عليه ؛ وهو
الذى صحَّح أجناس اللفظ وطرائفها ، وميّزها تمييزاً لم يقدر أحد عليه قبله
ولا بعده ، من تدقيق الجارى ، وتمييز الأصناف التى جعلوها صنفًا واحداً ،
وهى فى نفسها كذلك ، ولكنها تفرق عند متيقظ مثله ، وأين مثله !

(١) الأغاني ١ : ٤٨ ، والشعر لفرزدق ، ديوانه ٤٨٨ .

(٢) أخبار إسحاق الموصلى فى الأغاني ٥ : ٢٦٨ - ٤٣٣ .

وروى عنه أنه ^(١) قال : بقيتُ دهرًا أغلُس إلى هشام ^(٢) أسمع الحديث .
وإلى الكسائي أقرأ عليه جزءًا من القرآن ، وإلى الفراء وابن ^(٣) غزالة أسمع
اللغة ، ثم آتى منصور ززل ، فيطارحنى طريقتين أو ثلاثًا ، ثم آتى عاتكة
بنت شهدة ، فأخذ منها صوتًا أو صوتين ، ثم آتى الأصمعي وأبا عبيدة ، فأستفيد
منهما وأناشدهما ، ثم أصدِر إلى أبي فاعلمه بما صنعتُ ، وأتغدى معه ، فإذا
كان العشي رحت إلى الرشيد .

وروى الحديث ، ولقيَ أهله ، مثل مالك بن أنس وسُفيان بن عُيينة
وغيرهما . وسأل المأمونَ أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب ، لامع المغنين ،
فإذا أرادَه للفناء غناءً ، فأجابه إلى ذلك .

وقال المأمون : لولا ما سبق لإسحاق على أسنة الناس من الشهرة بالفناء ،
لوبيته القضاء بحضرتي ، فإنه أولى به ، وأصدق وأعف ، وأكثر دينًا وأمانة
من هؤلاء القضاة . وكان أجود الناس بالمال وأبخلمهم بالفناء . وأعطى لمنصور
ززل لما علمه الضرب بالعود أكثر من مائة ألف درهم ^(٤) .

وأهدى له ابن الأعرابي ^(٥) نسخة من النوادر بخطه ، فرَّ يومًا على
الدائني ، فقال : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : أمرَ على رجل كما قال
الشاعر :

نحمل أشباحنا إلى ملكٍ نأخذ من ماله ومن أدبه ^(٦)

(١) الأغاني ٥ : ٢٧١ .

(٢) الأغاني ٥ : هشيم .

(٣) في حواشي الأغاني عن شرح القاموس : « وعبد الواحد بن أحمد بن غزال ، مفرى » .

(٤) الأغاني ٥ : ٢٧٤ .

(٥) الأغاني ٥ : « أبو عبد الله بن الأعرابي » .

(٦) قال صاحب الأغاني « والبيت لأبي تمام الطائي » .

فقال : ومن هو ؟ قال : أبو محمد إسحاق بن إبراهيم .
ومات وهو أشعر أهل زمانه ، وقال رأيت جريراً في منامى ينشد شعراً ،
فلما فرغ أخذ كُتْبة شعر فآلقاها في في ، فاجتلتها ، فتأولت ذلك أنه ودثني
الشعر .

ومرّ به شيخ وهو في الحديث ، فقال لجلسائه : هذا أشبه الناس بجرير
الذي رأيت ، فسنل الشيخ ، فإذا هو صُحارة بن عقيل بن بلال بن جرير .
ومن شعره يفتخر^(١) :

إذا كانت الأحرار أصلي وَمَنْصِي
وقام بنصري خازم وابن خازم
عطست بأنفٍ شامخ وتناولت
بدایَ اللّٰثِ قاعداً غير قائم

وسمها الأسمى فاستحسنها ، وأعجب بهما وفضلها .
ودخل على مروان بن أبي حفصة وهو يتحدث مع أبيه فأنشده :
إذا مضى الجراء كانت أرومتي وقام بنصري خازم وابن خازم^(٢)
عطست بأنف ... للبيت .

فجّل إبراهيم يحدث مروان ، وهو ساه عنه ، فقال : مالك لا تمجيني
فقال : إنك ما تدري ما أفرغ أبنتك في أذني .

(١) في الأغاني ٥ : ٢٧٨ : « أن الأسمى أنشد قول إسحاق يذكر ولاء الخزعة بن

خازم ، وذكر البيت .

(٢) الأغاني ٥ : ٢٦٩

حوجه إليه^(١) أحمد بن هشام بزعفران رطب وكتب إليه :

اشرب على الزعفران الرطب متكناً وأنتم نعيمت بطول اللهو والطرب
فحمة الكأس بين الناس واجبة كحمة الود والأرحام والأدب

فأجابه إسحاق اللوصلي :

اذكر أبا جعفر حقاً أمث به أنى وإياك مشفـوقان بالأدب
وأنا قد رَضَعْنَا الكأس دِرَّتْهَا والكأس حرمتها أولى من النسب

وجلس^(٢) عند إبراهيم بن مُصعب للشرب ، فسقى الغلمان مَنْ حضر ،
وجاء غلام قبيح الوجه بقدرح إلى إسحاق ، فلم يأخذ منه ، فقال له إبراهيم :
لم لا تشرب ؟ فقال :

أصبَحَ نديك أقداحا نسلِها من الشمول^(٣) وأتبعها بأفداج
من كَفَّ ريمٍ مليح الوجه ربقته بعد المَجْجوع كسك أو كَتَفَاج
لا أشرب الراح إلا من يدى رَشِي تقبيل راحته تُفْنِي^(٤) عن الرَّاح
فدعا له بوصيفة تامة الحسن ، فى زِيَّ غلام ، عليها أقبية^(٥) ومنطقة ، فسقته
حتى سَكِر ، ثم أمر بتوجيهها إليه بكل ما معها إلى داره .

ومن طرف إسحاق ، أن كلثوما المتأبى كان من العلم وغزارة الأدب

(١) الأغاني ٥ : ٣٠١

(٢) الأغاني ٥ : ٣٣٠ .

(٣) الشمول : الخمر .

(٤) الأغاني . « أشهى من الراح » .

(٥) الأقبية : جمع قباء ، بالفتح ؛ وهو ثوب يلبس فوق الثياب . وقيل : ثوب يلبس

لحقوق القميص ويتمنطق به .

وكثرة الحفظ والترسل والنظم على ما لم يكن عليه أحد ، فحضر مجلس المأمون ، فوضع بين يديه ألف دينار ، وغمز إسحاق بالعبث به ، فأقبل إسحاق يمارضه في كل باب ويزيد عليه ، وهو لا يعرف إسحاق ، فقال : أياذن أمير المؤمنين في نسبة هذا الرجل ، والسؤال عن اسمه ؟ فقال : أقبل ، فقال له العتابي : ما اسمك ومن أنت ؟ فقال : أنا من الناس ، واسمى كل بصل ، فقال له العتابي : أما النسبة فمعروفة ، وأما الاسم فنسكور ، فقال له إسحاق : ما أقبل إنصافك ، أو ما كنتوم من الأسماء ! فالبصل أطيب من الثوم ! فقال له العتابي : قاتلك الله ، ما أملحك ! ما رأيت كالرجل حلاوة ، أياذن أمير المؤمنين في صلته بما وصلني ، فقد والله غلبني ؟ فقال له المأمون : بل ذلك موفور عليك ، وأمر له بمثله . فانصرف إسحاق إلى منزله ، وناداه العتابي بقية يومه .

وكانت هُشيمة الخمارة تحميد الشراب ، فلما ماتت قال يرثيها :
 أضعت هُشيمة في القُبورِ مقيمةً وخلت منازلها من الفتيان^(١)
 كانت إذا هجر الحبيبَ محبُه^(٢) دبَّت له في السرِّ والإعلان
 حتَّى يلين لما تريد قيادَه ويصير سيئته إلى الإحسان

وهو إسحاق بن إبراهيم بن ماهان ، أصله فارسي ، وترك ماهان إبراهيم صغيراً ، فنشأ في بني نعيم .

وهذا الذي ذكرنا نبذة من أدبه .

وأما محاسنه في الفناء فلا يأتي عليها الحضر ، قال الواثق : ما غفاني إسحاق قط إلا ظننت أن قد زيد في ملكي ؛ وإن إسحاق نعمة من نعم الملوك .

(١) الأغاني ٥ : ٤١٠ .

(٢) الأغاني ٥ : إذا هجر الحب جيته .

التي لم يحظ أحد بمثلها ؛ ولو أن له العمر والنشاط بما يشتري لاشتريتهما بشطر ملكي .

وحدث حماد ابنه قال ^(١) : حدثني أبي قال : غدوت يوماً وأنا ضَجِر من من ملازمة دار الخليفة . فركبت بكرة عازماً أن أطوف في الصحراء ، وأتفرج ، وقلت لعملي : إن جاء رسول الخليفة فعرفوه أنني ركبت في مهم ^(٢) ، ومضيت ، وطفْتُ ما بدالي ، وغدوت ، وعدت ، وقد حمى النهار ، فوقفت في ظل جناح شارع ^(٣) لأستريح ، فلم ألبث أن جاء خادم يقود حماراً فارهاً ، عليه جارية تحتها منديل ديبق ^(٤) ، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية وراءه ، فرأيت لها شمائل ظريفة وطرفاً فاتراً ، فحدّثت ^(٥) أنها مفضية ، فدخلت الدار التي كنت عليها واقفاً ، فملقها قلبي علوقاً شديداً لم أستطع معه براحاً . وأقبل رجلان شابان ، لهما هيبة تدلّ على قدرهما ، وهما راكبان ، فأذن لهما فحملني حب الجارية وحسن حالهما أن توسلت بهما ، فدخلت معهما ، فظننا أن صاحب الدار دعاني ، وظن هو أني معهما ، فجلسنا ، وأنى بالطعام فأكلنا ، وجرى بالشراب ، فخرجت الجارية ، وفي يدها عود ، فرأيت جارية حسناء ، فغفت غناء صالحاً ، فتمكّن ما في قلبي منها ، وشربنا . ثم قت لأبول ، فسألها صاحب المنزل عني ، فأنكراني ، فقال : هذا طفيل ، ولكنه ظريف ، فأجلوا عشرته ، فجلست فغفت في لحن لي :

ذكرتك أن مرّت بيا أم شادين أمام اللطايا تشرب ^(٦) وتستع

(١) الأغاني ٥ : ٤٣٢

(٢) الأغاني : « لي بعض مهماني ، وأنكم لا تعرفون أين توجهت » .

(٣) الأغاني : « فوقت في الشارع المعروف بالخرم » والخرم : محلة ببغداد :

(٤) ديبق منسوب إلى ديبق ، وهي بلدة كانت بين الفرما وتيس من أعمال مصر ، وقد

خربت الآن .

(٥) الأغاني : فخرت عليها أنها مفضية ، وخرصت ، أي خنت وظننت .

(٦) ط : « تستريح » ، والأجود ما أثبتته من الأغاني .

من المؤلفات الرمل أدماه حرّة شعاع الضحى في وجهها بتوضّع
عَادَتَه أداء صالحاً . ثم غنّت أصواتاً فيها من صنعتي :

للألول الدوارسُ فَارَقَتْهَا الأوانِسُ
أوحشتْ بعد أنسها فهي قَفَرٌ بسابِسُ

فكان أمرها فيه أصلح من الأول ، ثم غنّت من صنعتي في شعري ^(١) :

قل لمن صدّ عاتباً ونأى عمك جانباً
قد بلغت الذي أردت وإن كنت لاعباً
واعترفنا بما ادّعىت وإن كنت كاذباً ^(٢)

فكان أصلح مما غنّته ، فاستمدته منها لأصحّحه . فأقبل على أحد الرجلين ،
فقال : ما رأيتُ طفلياً أصفّق وجهاً منك ، لم ترَضَ بالتطفيل حتى اقترحت !
وهذا تصديق المثل ، « طفلي وقديقرح » ، فلم أجبه ^(٣) . وكفّه صاحبه عنى ، فلم ينكف ،
ثم قاموا للصلاة فأخذتُ عود الجارية ، وأصلحته إصلاحاً محكماً . وعدت
إلى موضعي ، فصليت ، ثم عادوا ، فماد ذلك الرجل في عزّ بدّته على ، وأنا
صامت ، فأخذت الجارية عودها ، وجسّته ، فقالت : مَنْ جسّ عودي؟ فقالوا :
ما جسّه أحد ، فقالت : والله لقد جسّه حاذق متقدّم ، وشدّ طبّقته ، قلتُ لها :
أنا أصلحته ، فقالت : بالله عليك خذه ، واضرب به ، فأخذته منها وضربتُ
سهداً طريق عجيب صفب ، فيه نقرات محكّمة ^(٤) ، فسا بزني منهم أحد إلا وثب ،
وجلس بين يدي ، وقالوا : بالله ياسيدي ، تُفني؟ قلت : نعم ، وأعرفكم بنفسى .

(١) الأغاني : « ثم غنّت أصواتاً من القديم والحديث ، وغنّت ز أثنائها من صنعتي » .

(٢) لم يرد هذا البيت في رواية الأغاني .

(٣) الأغاني : « فأطرفت ولم أجبه » .

(٤) الأغاني : « محرّكة » .

أنا إسحاق الموصلي ، والله إني لأتبه على الخليفة وأنتم تشتمونني منذ اليوم لأنني تملأْتُ معكم بسبب هذه الجارية ! والله لانطقتُ بحرف ولا جلستُ معكم ، أو تخرجوا هذا العريد الفث ، ونهضت لأخرج . فتعلقوا بي وتعلقت الجارية بي ، فقلت : والله لا أجلس إلا أن يخرج ؛ فقال له صاحبه : من شبه هذا حذرت عليك ، فأخرجوه ، ففتيت الأصوات التي غنتها الجارية من صنعتي ؛ فطرب صاحب البيت طرباً شديداً ، وقال لي : هل لك في أمرٍ أعرضه عليك ؟ فقلت : ما هو ؟ فقال : تقيم عندي شهراً ، والجارية مع ما عليها لك ، فقلت : أفعل ، فأقمت عنده ثلاثين يوماً لا يعرف أحدٌ أين أنا ، والمأمون يطلبني .

فجئت بذلك منزلي بعد شهر ، وركبت إلى المأمون ، فقال لي : يا إسحاق ، ويحك ! أين تسكون ؟ فمررت به الخبير فقال : عليّ بالرجل الساعة ، فمررتهم موضعه فأحضره ، وقال : أنت رجل ذو مروءة وسييلك أن تماون عليها ، فأمر له بمائة ألف درهم ، ونهاه ألا يعاشر ذلك العريد النذل ، وأمرني بخمسين ألفاً ، وقال : أحضر لي الجارية ، فأحضرتها ففتنته ، فقال : قد جعلتُ لها نوبةً في كل يوم ثلاثاء ؛ فتقيّ مع الجوارى ، وأمر لها بخمسين ألف درهم . فربحتُ والله تلك^(٢) الزكبة وأرْبِحتُ .

وتشبه هذه الحكاية حكاية إبراهيم^(٣) بن المهدي ، إذ شفع للمأمون في طفلي قد قدّمنا ذكره ، فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، هب لي ذنبه ، وأحدثك حدثاً عجيباً في التطفيل عن نفسي ، قال : قل ، فقلت : خرجت يوماً

(١) الأغاني « أحضرني »

(٢) الأغاني : « تلك »

(٣) الخبر في العقد ٦ : ٢٠٨ — ٢١٠

فررت في سكك بغداد ، فشمتُ رائحةُ أجزار من جناح دار ، وقدورٍ قد
 فاح فقارُها . فسألتُ خياطاً عن ربِّ الدار ، فقال رجل من التجار اسمه فلان .
 فخرجتُ من شُبَّاك في الجناح كفتُ ومِعصم ، ما رأيتُ مثلها قط ، فذهب عني
 وبُهِت ، وإذا رجلان نبيلان ، فقال الخياط : هذان نديماه ، وهما فلان وفلان ،
 فحركتُ دابتي ، ودخلتُ بينهما ، وقلت : قد استبطأ كما أبو فلان ، فأتينا الباب ،
 فدخلنا ، فلم يشك صاحبُ الدار أنني منهما ، فرحب بي ، وأجلسني في أجل
 موضع ، فأتينا بالألوان ، فكان طعمُها أطيبَ من رائحتها ، فقلت في نفسي :
 أكلتُ الألوان وبقِيَ الكف . ثم سرنا إلى مجالس المنادمة ، فإذا أنبلُ مجلس ،
 وصاحب الدار مقبل بالأنف والحديث على لما ظن أنني مني ، فخرجتُ جارية
 تفتني كأنها خُوط بان ، فسلمت وجلست ، وأخذت بالعود وجسقه ، فتبينت
 الخلق في جستها ، وغفت هذا الصوت :

توهمها طرفي فأصبح خدها وفيه مكان الوم من نظري أثرُ
 وصافحها كني فآلم كفتها فمن لس كني أنا ملها عقرُ
 ومرّ بفكري شخصها فخر حقه ولم أر شخصاً قط يجرحه الفكر

فهيجتُ بلالي ، وطربت ، ثم غفت :

أشرتُ إليها هل علمت^(١) مودتي فردتُ بطرف العين إنني على العهد
 فحدثتُ عن الإظهار عهداً لسرها وحادثتُ عن الإظهار أيضاً على عهد

فصحت : السلاح ! وجاءني ما لم أملك معه نفسي ، ثم غفت :

أليس عجيباً أن يبتكا بضعتي وإياك لا نخلو ولا نهكلم

(١) العهد : معرفت

سوى أعينٍ تشكوا الموى بجفونها وترجيع أحشاء على النار تُفَرِّمُ
إشارة أفواهٍ وغمز حواجبٍ وتكسير أجفانٍ وقلبٍ معيمٍ^(١)
فحسَدَتْها على حذقها، قُلت: بإجارية بقي عليك شيء، ففضبتُ ورمت بالعود،
وقالت: متى كنتم تُحضرون مجالسكم البُغضاء! فندمت ورأيت تغير القوم،
فدعوت بالعود وغنيت:

ما للمنازل لا يُجِبْنَ حَزِينًا أَصَمَّ مَنْ أَمَّ بِمُدِّ اللَّذَى قَبِيلِنَا
راحوا العشية رَوْحَةً مذكورةً إِنَّ مِتْنٍ مِتْنَا أَوْ بَقِينَا بَقِينَا^(٢)
فأقبلت على رجلٍ تقبلهما، وتقول: المذرة والله يأسدي من تغيير مثلك،
وقام مولاهما وصاحباها، وصنموا مثلها، وشربوا بالطاسات طربها، ثم غنيت:
أفى الحق أن أمسى^(٣) ولا تذكرينى
وقد سجت^(٤) عيناى من ذكرك الدما^(٥)
إلى الله أشكو مخْلِها وسماحتي لها عسلُ منى وتبذل علقما^(٦)
فجاء والله من طرب القوم ما حسبتُ له أن يخرجوا من عقولهم، فأمسكت
حتى إذا هدا القوم اندفعت أغنى:

(١) المقاد: «وكت لسم» وما أنبهه من أ، ب

(٢) المقاد: «أوحين حيننا» .

(٣) ط: «هل عسى»

(٤) المقاد: «ود سجت عيناى»

(٥) بعده فى المقاد:

فدسى مصاب القلب أنتِ قتلتِ ولا تتركه ذاهل العقل مغرما

(٦) بعده فى المقاد:

إلى الله أشكو أنها مادريّة وأناى لما بالود ما عشت مكرما

هَذَا مُحِبُّكَ مَطْوًى عَلَى كَمَدِهِ صَبَّ^(١) مَدَامُهُ تَجْرَى عَلَى جَسَدِهِ
لَهُ يَدٌ تَسْأَلُ الرَّحْمَنَ رَاحَتَهُ تَمَّا بِهِ وَيَدٌ أُخْرَى عَلَى كَبَدِهِ
يَا مَنْ رَأَى كَلْفًا مُسْتَهْدِفًا أَسْفَا كَانَتْ مَنِيَّتُهُ فِي طَرْفِهِ وَيَدِهِ^(٢)

فصاحت الجارية : السلاح ! هذا والله الفناء يا مولاي . وسكروا ، وأمر صاحب الدار غلمانه بحفظهم إلى منازلهم ، وبقيت أشرب معه - وكان جيد الشراب - فقال : يا سيدي ذهب والله ما خلا من أيامى باطلا إذ كنت لأعرفك ، فمن أنت ؟ فأخبرته ، فقبل رأسي ، وقال : وأنا أعجب من هذا الأدب ، وأنا منذ اليوم مع الخلافة . ثم سألتني عن قصتي فأخبرته خبر الطعام والمفصم ، فأحضر جواربه [ولا أشعر]^(٣) . ثم قال : ما بقى غير أمي وأختي ، ولأنزلهما إليك . فعجبت من كرمه ، وسعة صدره ، فقلت : ابدأ بالأخت ، ففعل ، فلما رأيت مصمصها ، قلت : هي هي . فأرسل إلى عشرة مشايخ وأحضر بذرتين ، وقال : أشهدكم أني قد زوجت أختي فلانة من إبراهيم بن المهدي ، وأمهرتها عنه عشرة آلاف درهم . فدفعت إليه البذرة الواحدة ، وفترقت الأخرى على المشايخ ، وانصرفوا ، وقال : يا سيدي أمتد لك بعض البيوت ، فأحشني^(٤) ، قلت : بل أحملها لي منزلي في عمارة ، فوحتك يا أمير المؤمنين ، لقد حمل إلي من الجهاز ما ضاق عنه بعض دُوري .

فتمجَّب المأمون من كرمه ، وأمر بإحضاره فصار من خواصه .

• • •

قوله : « سَحْنًا » أي بطلاً .

• • •

(٢) لم يرد هذا البيت في المقد .

(٤) أحشيه : أخجله .

(١) المقطع : جرى مدامه .

(٣) من المقطع

[ذكر زنا الزامر]

وزنام الزامر هو الذى أحدث الناي ، وهو المزمار الذى تدعوه عامته
بالمغرب الزلامى ، فصحتوه بإبدال نونه لاما ، وإنما هو زناى ، وقال فيه الشاعر :

إن فى ناي زنام سفلا يشغل الماقل عن ناي زنام .

قال القاسم بن زررور الزامر : حدثنى زنام الزامر ، قال : لما اعتل
المعصم علقه التى مات منها ، قال : هيثوا الى الزلال حتى أركبه ، فمئىء له فركب ،
وأتى فيمن معه ، فتر بدجلة بإزاء منزله ، فقال : يا زنام ، قلت : لبيك يا أمير
للؤمنين ! قال : ازمر :

يا منزلاً لم تبلى أطلاله حاشا لأطلاك أن تنبلى
العيش أولى ما بكاه الفتى لا بدّ للمحزون أن يسبلى
لم أبك أطلاك لكفى بكيت عيشى فيك إذ ولى

قال : فزمرت ومازلت أردده ، وهو ينتحب ويسكى إلى أن خرج ، ثم
توفى بعد خمسة أيام .

وزنام سار المثل بفرب زمرة وإتقان صنعه .

وكان الواثق مولماً بزمرة بعد أبيه المعصم ، حدث حسين بن الضحاك قال (١) :
دخلت على الواثق ، فقال : قل الساعة أبيتاً ملاحاً حتى أهب لك شيئاً مليحاً ،
قلت : فى أى معنى ؟ قال : فما شئت بما ترى بين يديك ، فالتفت فإذا بساط
قد تفتحت أنواره ، وأشرق فى نور الصبح ، فنبجلت وأرنج على ، فقال

(١) الأغاني : ٧ : ١٩٦ ، ١٩٧ .

«الوائق : ألت ترى نور صباح ، ونور أقاح ! ففتح لي ، قلت :

ألست ترى الصبح قد أسفرا ومنسكب الفيث قد أمطاراً^(١)
 وأسفرت الأرض عن حلة تضاحك بالأصفر الأحمراً^(٢)
 وتعمل كأسين في فتية تطارد بالأصفر الأكبر
 يمث كئوسهم مخطف تجاذب أردافه المنزراً^(٣)
 فكل ينافس في بره ليفعل في ذاته المنكرا

فضحك ، وقال : تستعمل ماقلت يا حسين إلا للفسق فلا ولا كرامة .
 ثم قال : قوموا بنا إلى حانة الشط . فقام إليها ، وشرب وطرب ، وماترك أحداً
 من المعتنين والجلساء إلا أمر له بصلة . وكان من الأيام التي سارت أخبارها في
 الآفاق ، فلما كان من الغد غدوت عليه ، فقال : أنشدني ماقلت في يومنا
 الماضي ، فأنشدته :

يا حانة الشط قد أكرمت منوانا عودي بيوم سرور كالذي كانا
 لا نثقتبنا دعابات الأمير ولا طيب البطالة إصراراً وإعلانا
 وهاج زمر زنام بين ذاك لنا شجواً فأهدى لنا رَوْحاً ورَّيْحَانا

(١) الأغاني : « وبكر » .

(٢) بده في الأغاني :

ووافقك نيسان في ورده وحنك في الشرب كي تشكرا .

(٣) بده في الأغاني :

ترجل بالباب حتى إذا أدار غداًره وفرأ
 وفض في الجلتار البها ر والآنوسة والعيمراً
 خلفاً تمازج ما شذرت مقاريض أطرافه شذراً

وَسَلَسَلِ الرَّطْلَ مَرَّتَيْنِ مَعَهُ بِاللَّسْفِ فَالْحَقِ أَخْرَانَا بِأَوْلَانَا
لَا زِلَّ أَهْلَةُ الْأَوْطَانِ عَاصِرَةً بِأَكْرَمِ النَّاسِ أَعْرَافَنَا وَأَغْصَانَا
ذَكَرْنَا هَذِهِ الْحِكَايَةَ لِنُظَرِّفَهَا ، وَلِمَا وَقَعَ لَنَا مِنْ الْقَذَرِ فِي شَعْرِ حَسَنِ .

* * *

قوله: «زنيما» ، أى دعيتا في الزمر . قال ابن الأعرابي : الزنيم ابن الزانية .
أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يدخل
الجنة ولد الزنا ولا شيء من نسله إلى سبعة آباء» .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كانت العباد فيما مضى إذا عبد الله
أحدهم أربعين سنة يسعى نوره بين يديه ، فعبد الله عابد أربعين سنة وأربعين ،
فلم يسع له نور ، فابتهل إلى الله تعالى فقال : عبدتك أربعين وأربعين ، ولم
يسع لى نور ؛ فأررى فى منامه أنه لم يدر رِشْدَةً ، فقال : يارب إن كان أبواى
أَكْلًا مُحَاضًا أَضْرَسَ أَنَا : فسمى نوره بين يديه .
قوله : «جيله» ، أى أهل عصره .

الزهم الأول السيد ، والثانى الضامن ، أراد أنه يضمن لمن سمعه أن يطربه .
وقال أبو الفضل الدارمي فى زامر أسود :

وَحَالِكِ اللَّوْنِ كَاللَّيْلِ الْبَهِيمِ لَهُ فُضَائِلُ مَشْرِقَاتِ الْحَسَنِ كَالْفَلَاقِ
تَحَالُ مَجْلِسُنَا وَجْهًا بِهِ حَسَنًا إِذْ صَارَ فِيهِ كَخَالٍ مَعْجَبٍ لَبِيقِ
تَرَاهُ يَحْفَظُ مَا يَوْحَى إِلَيْهِ بِهِ وَسِرَّهُ أَبْدَا يَهْوَى بِمَنْخَرِقِ

يحدُّو بأنفاسه الأوتار مجتهداً فتستقيم به الألحان في الطُّرُقِ
أهدى للشبابُ إليه حسنَ بهجته فغاسب المسك في لونٍ وفي عبقٍ

الحب : الفقايع تملو الماء والحر . أزدري : أحقر . النَّم : الإبل وأكرمها
الحر . أحلّ : أزين . بتملّها : بطول حياتها ومدتها ، والملاوة : المدة ، ومنه
قوله تعالى : ﴿ وأملِ لهم ﴾ . مرآها : رؤيتها . أذود : أذفع . شرائع : طرق .
السمر : الحديث بالليل . أليح : أشفق ، تسرى : تسير ليلاً . ربّأها : راعيتها
الطبية . يَكْن : يشعر ويحسن ، وتكهن الرجل : يتحدث عن الغيب .

* * *

[ذكر سطيع]

وسطيع الفسّاني أكنّ الناس ، وأنذر بسيل العرم ، فكان بدرج
جسده كما بدرج الثوب ، خلاّ جُجمة رأسه ، وإذا مستت باليد أثرت فيه
للين عظمها .

ومن كهاتفه أنه لما كان ليلة ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجّ
إيوان كسرى ، فسقطت منه أربع عشرة شُرْفَة ، فأعظم ذلك أهل المملكة ،
وكتب إلى كسرى صاحب الشام أن وادى السماوة انقطع تلك الليلة .

وكتب إليه صاحب اليمن أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة .

وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية .

وكتب إليه صاحب فارس أن بيوت النار خمدت تلك الليلة ، ولم تمحّد
قبل ذلك بألف سنة^(١) .

فلما تواترت عليه الكتب ، أظهر سريره ، وبرز إلى أهل مملكته ، فأخبرهم

الخبر، فقال المؤبذان : أيها الملك إنى رأيت تلك الليلة رؤيا هالتي، رأيت إبلا صعباً، تقود خيلاً عراباً، حتى اقتطعت دجلة وانتشرت في بلادنا .

قال : فما عندك في تأويلها ؟ قال : ما عندى شيء، ولكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجه إليك رجلاً من علمائهم فإنهم أصحاب علم بالحدثان . فبعث إليه، فوجه عبد المسيح بن ببيعة الفسائي، فأخبره كسرى بالخبر فقال : أيها الملك، ما عندى فيها شيء، ولكن جهّزنى إلى الشام إلى خالى سطيط . فجهّزه، فلما قدم عليه وجده قد احتضر، فناداه فلم يجبه، فقال ^(١) :

أَصَمُّ أَمْ يَسْمَعُ غَطْرِيفُ الْيَمِينِ رَسُولٌ قِيلَ لِلْعُجْمِ يَهْوِي لِلْوَتَنِ ^(٢)
يَا فَاصلَ الْخَطَلَةِ أَعَيْتَ مَنْ وَمَنْ أَنْتَاكَ شَيْخُ الْحَيِّ مِنْ آلِ سَنَنْ
أَبْيَضُ فَضْفَاضِ الرِّدَاءِ وَالرَّسَنِ ^(٣)

فرفع إليه سطيط رأسه، وقال : عبد المسيح، على جهلٍ مُشَبَّح، أقبل إلى سطيط، وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك بنى ساسان، لارتجاج الإيوان، ونُحُود النيران، ورؤيا المؤبذان؛ رأى إبلا صعباً، تقود خيلاً عراباً، حتى اقتطعت الواد، وانتشرت في البلاد . عبد المسيح، إذا ظهرت للتلاوة، وغاض وادى السماء، وظهر صاحب المَراوة، فليست الشام لسطيط بشام، يملك منهم ملوك ومِلِكات، بمدد ما سقط من الشرفات، وكل ما هو آت آت، ثم قال ^(٤) :

(١) ط : « نفيلة » صوابه من ا، ب والطبرى .
(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ١٦٧ والفائق ١ : ٤٦١ ؛ والرجز هناك أطول وأكمل .
(٣) الطبرى : « يسرى للوتن » .
(٤) الطبرى : « والبدن » .
(٥) تاريخ الطبرى ٢ : ١٦٨ ، وأول الشعر هناك :

شمر فإنك ماضى الممِّ شَمِيرُ لا يفزعك تفريق وتقيم

إن كان ملك بني ساسان أفرطهم فإن ذا الدهر طوراً دهاريرُ
 منهم بنو الصريح بهرام وإخوته والهرمزان وسابور وسابورُ
 غرباً أصبحوا منهم بمنزلة تهاب صوائهم الأسد اليهاصيرُ
 حثوا المطى وجدوا في رحيلهم فما يقوم لهم سرّج ولا كورُ
 والناس أبناء علات فن علموا أن قد أقلّ، فمجهور ومهجورُ
 والخير والشر مقرونان في قرّين والخير متبع والشر محذور

فأتى كسرى فأخبره ، ففقه ذلك ، فقال : إلى أن يملك منا أربعة عشر
 ملكاً ، يدور الزمان ؛ فلكوا كلهم في أربعين سنة .
 قوله : « بنم » : من النيمة . مליح : كثير الظهور .

* * *

فاتفق لوشك الخطّ المبخوس ، ونكد الطالع المنعوس ،
 أن أنطقني بوصفها محياً المدام ، عند الجار النمام . ثم تاب
 الفهم ، بعد أن صرد السهم ، فأخسنت الجبال والوبال ؛ وصيعة
 ما أودع ذلك الغربال ، بيد أنى عاهدته ، على عكم ما لفظته ،
 وأن يحفظ السر ولو أحفظته ؛ فزعم أنه يخزن الأسرار ،
 كما يخزن اللثيم الدينار ، وأنه لا يهتك الأستار ، ولو عرض
 لأن يلج النار .

* * *

الخطّ : البغت والنصيب . ووشك : سرعة زواله المبخوس : المنقوص .
 نكد : مشقة . الطالع : نجم الإنسان ، والطالع يقابله التساقط . محياً : حدة

ثاب : رجع . صرد : خرج من قوسه ، وأراد بالسهم اللفظ الذي سمع منه جاره .
 الخبال : الفساد . الوبال : الثقل ، وهو وبال عليه أى ثقل في العاقبة ، وطعام .
 وبيل : ثقل متخيم ، ومنه استوبلت المدينة إذا لم توافق جسمك وان أحبتها .
 أودع : جعل فيه . والغربال ، معلوم ، يشبه به النمام حيث لا يسك ما جعل
 فيه ؛ قال الحطيئة يهجو أمه :

تَدَجَّى قَاجِلِي مَنِّي بَعِيدَا أَرَا حَ اللَّهِ مِنْكَ الْعَالِيَمَا^(١)
 أَعْرَبَالَا إِذَا اسْتَوْدَعْتَ سِرًّا وَكَانُونَا عَلَى الْمُقْعَدَيْنَا
 كَانُون : أبرد أيام الشتاء ، ويريد أنها باردة لحديث .
 قال كعب بن زهير رضى الله عنه :

وَلَا تَمْسُكْ بِالْمَهْدِ الَّذِي زَعَمْتُ إِلَّا كَمَا يَمْسُكُ الْمَاءُ الْغَرَابِيلُ^(٢)
 وقال في الحماسة :

وَلَا أَكْتُمُ الْأَسْرَارَ لَكِنْ أَنْتُمْ وَلَا أَدْعُ الْأَسْرَارَ تَقْلِي عَلَى قَلْبِي^(٣)
 وَلَمَنْ قَلِيلَ الْعَقْلِ مَنْ بَاتَ لَيْلَةً تَقْلِبُهُ الْأَسْرَارُ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ
 وقال آخر :

أَمْزَزَ عَلَى بَأْخِلَاقٍ وَوَسَمَتْ بِهَا عِنْدَ الْبَرِيَّةِ يَا فَالْوِجِ الشُّوقِ
 تَضِيْقُ بِالسَّرْدَرِ مَا إِنَّ خُصْمَتَ بِهِ حَتَّى يَرَى دَائِمًا كَالْفَنَخِ فِي الْبُوقِ
 وقال في ضده :

وَمُسْتَخْبِرٌ عَنْ سِرِّ رِيًّا رَدَدَتْهُ بَعْمِيَاءُ مِنْ رِيًّا بِغَيْرِ يَقِينِ

(١) ديوانه ٢٧٧ (طبعة الحلبي) .

(٢) ديوانه ٨ .

(٣) ديوان الحماسة . ١٨٥ ، والبيتان لسحيم العنسي .

وقال انتم صحنى إتنى لك ناصح
وقال قيس بن الخطيم^(١) :

إذا جاوز الإثنين سِرّاً فإنه
يكون له عندى إذا ما ضمتته

وقال العباس بن الأحنف^(٥) :

تَعَتَيْتَ^(٢) تطلب ما أَسْتَحِقُّ به المجرّ منك ولا تقدِرُ
وماذا بضرّك من شُهْرَتِي إذا كان سرّك لا يُشْهَرُ
أُمِنِي تخاف انتشار الحديث وحطّى من صوته أوفرُ
ولو لم أصنه لُبُقَيَا عليك^(٣) نظرتُ لنفسى كما تنظرُ

قوله : « بيد » بمعنى غير . عكم : ربط . أحفظته : أغضبته . بهتك : يخرق

* * *

فَمَا إِنْ غَبَرَ عَلَى ذَلِكَ الزَّمَانِ ، إِلَّا يَوْمٌ أَوْ يَوْمَانِ ، حَتَّى بَدَا
إِلَى أَمِيرِ تِلْكَ الْمَدْرَةِ ، وَوَالِيهَا ذِي الْمَقْدُرَةِ ، أَنْ يَقْصِدَ بَابَ
قَيْلِهِ ، مُجْبِئًا عَرْضَ خَيْلِهِ ، وَمُسْتَمْطِرًا عَارِضَ نَيْلِهِ ، وَارْتَادَ
أَنْ تَصْحَبَهُ تَحْفَةٌ تُلَاقِمُهُ هَوَاهُ ، لِيُقَدِّمَهَا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاهُ ،

(١) ديوانه ص ١٠٥

(٢) الديوان : « بنشر »

(٣) بعده في الديوان :

وإِنْ ضَيَّعَ الْإِخْوَانُ سِرّاً فَإِنِّى كَتُمُ لَأَسْرَارِ الْمَشِيرِ أَمِينُ

(٤) الديوان : « مقر » .

(٥) ديوانه ١٤٦ .

(٦) الديوان : « تعتبت » .

(٧) الديوان : « ولو يكن لي بقيا » .

وَجَعَلَ يَبْذُلُ الْجَمَائِلَ لِرَوَّادِهِ ، وَيُسْتَنَّى لِمَنْ يُظْفِرُهُ
بِعِزِّهِ ، فَأَسَفٌ ذَلِكَ الْجَارُ الْخَتَّارُ إِلَى بَذُولِهِ ، وَعَمَى فِي أَدْرَاعِ
الْعَارِ عَذْلَ عَذُولِهِ ، فَأَتَى الْوَالِيَّ نَاشِرًا أَذْنِيَهُ ، وَأَبْتَهُ
مَا كُنْتُ أُسَرِّرْتُهُ إِلَيْهِ ، فَأَرَاغَنِي إِلَّا أَنْسِيَابُ صَاحِبَتِهِ إِلَى ،
وَأَنْثِيَالُ حَفَدَتِهِ عَلَى ، يَسُومُنِي لِإِثَارِهِ بِالذَّرَةِ الْيَتِيمَةِ ، عَلَى أَنْ
أَتَحَكَّمَ عَلَيْهِ فِي الْقِيَمَةِ ، فَفَشَيْتَنِي مِنَ الْهَمِّ ، مَا غَشَى قَرْعُونَ وَجُنُودَهُ
مِنَ الْيَمِّ .

* * *

غَبَرٌ : مَغْنَى . الدَّرَّةُ : اللُّبَّةُ . قِيلَ : مَلِكُ الْأَعْظَمِ .
مَجْدًا عَرْضَ خَيْلِهِ ، أَيْ لِيَعْرُضَ عَلَيْهِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْأَجْنَادِ . وَالْأَنْثِيلُ ،
أَيْ الْعِطَاءُ . ارْتَادَ : طَلَبَ . تَحْفَةُ : هَدِيَّةٌ . تَلَأَمَ ، تَوَافَقَ . هَوَاهُ : إِرَادَتُهُ .
نَجَوَاهُ . حَدِيثُهُ مَعَ الْمَلِكِ .

وَالْجُمْلُ : حَقٌّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى حَاجَةٍ ، وَالْجَمَالَةُ بِمَعْنَاهَا ، وَالْجَمَائِلُ جَمْعُهَا . يُسْتَنَّى : يُسْتَسْرَى
وَأَصْلُ الرُّوَادِ طُلَابُ الرِّعَى ، وَاحِدُهُم رَائِدٌ ، وَأَصْلُ الْوَسَائِلِ ، أَسْبَابُ الْوَدِّ .
أَسَفٌ : انْحَطَّ وَدُنَا ، وَأَسَفُ الطَّائِرِ : تَدَلَّى نَحْوَ الْأَرْضِ لَشَيْءٍ يَأْخُذُهُ ،
وَأَسَفُ الرَّجُلِ : طَلَبُ مَذَاقِ الْأُمُورِ .

وَالْجَارُ الْخَتَّارُ : الْخِلْدَاعُ بِذُولِهِ : عِطَاؤُهُ . أَدْرَاعُهُ : لِبَسُهُ الْهَرَجُ . نَاشِرًا أَذْنِيَهُ ،
أَيْ طَالِعًا ، وَهُوَ مِثْلُ . أَبْتَهُ : قَالَ لَهُ سِرًّا .

قَوْلُهُ : «رَاعَنِي» أَيْ أَفْزَعَنِي .

أَنْسِيَابٌ : دُخُولُ . صَاحِبَتِهِ : حَاشِيَتُهُ . وَمَنْ يَمِيلُ إِلَيْهِ .

أَنْثِيَالُ : أَنْصَابُ . حَفَدَتُهُ : أَنْبَاعُهُ

يسومنى : يعرض على ، إثارة : تفضيله على نفسه .
 الدرّة اليتيمة : الجوهرة النفيسة، وبهذا سُمّي الثمالي كتابه الدرّة اليتيمة ، أى
 الدرّة المنفردة التى لا مثل لها . واليتيمة درّة مشهورة فى البيت الحرام أكبر
 من بيضة الحمامة ، استخرجها من البحر كلب جاء ليبلغ ، فتعلقت بحارتها بفمه ،
 فضضها فى البر ، فهى من عجائب الدنيا .
 ومن عجائبها الحافر ، وهو حجر واقوت ، شبه حافر الفرس ألصقه أمير
 المؤمنين بمصحف عثمان .

والغريبة الثالثة : فرس ذهب لم يصنعه صانع ، إنما وجد فى معدن الذهب
 وهو عند ملك الحبشة بئانة .
 والذى غشى فرعون وجنوده من اليم ، هو الفرق . واليم : البحر الذى
 ذهب نفوسهم فيه .

[تكملة قصة موسى]

ولا بد أن نلمّ بمنبهة من خبره ، نكمل بها القصة حسبما شرطنا ؛ وذلك أن
 موسى عليه الصلاة والسلام ، لما خرج فاراً من فرعون حسبما قدمناه فى
 الخامسة، توجه إلى مدين ، فبلغها كالأجائماً فقيراً ، فوجد الناس يسقون كما نص
 الله تعالى : ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ ^(١) ، أى يحبسان غنمهما ، فأخبرتهما
 بأنهما لا يسقيان حتى يصدر الرعاء ، وأن لهما أباً شيخاً كبيراً ، فرجّهما واقتلع
 للصخرة عن اللبث . وكان لا يرفعهما إلا نفرٌ - فلأوسق لهما ، ثم تولى إلى ظل
 شجرة مثمرة فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّى لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَى مِنِّى خَيْرٌ فقيرٌ ﴾ ^(٢) . قال ابن
 عباس رضى الله عنهما : قال هذا موسى ، ولو شاء إنسان أن ينظر إلى خضرة
 أمثاله من شدة الجوع لفعل - أراد خضرة البقل الذى أكل فى طريقه - فرجعت
 الجاريتان بسرعة إلى أبيهما ، فأنكر محبيهما قبل الوقت الذى جرّت المائدة بمحييها

(١) سورة القصص ٢٢

(٢) سورة القصص ٢٤

فيه ، فأخبرناه خبر موسى ، فأرسل إلى إحداهما فأتته ، وهي تستحي منه ، فقالت : ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ^(١) . فشئ معها ، وهي بين يديه فضرب الريح ثوبها ، فنظر إلى عجيزتها فقال لها : امشي خافي ، ودلّيني على الطريق ، فلما أتى الشيخ سألته عن شأنه ، فقصّ عليه قصته فقال : ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٢) . قالت التي دعتة : ﴿يَا بَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾ ^(٣) فقال لها الشيخ : أما القوة فقد خبّرته بقلع الصخرة ، فما يدريك أمانته ؟ قالت له : إني مشيت أمامه فلم يحبّ أن يخونني وردّني خلفه . فقال له : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْكِكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ..﴾ ^(٤) إلى آخر القصة .

فلما قضى أجله ، وسار بأهله ، وكان في شتاء ، رفعت له نار فيما رأى فكانت من نور الله تعالى ، فقال لأهله : ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا...﴾ ^(٥) الآية ، ومعنى تصطلون ، أي من البرد فكان عند إتيانه لها ما أخبر الله تعالى من أنه ﴿نُودِيَ أَنَّ بورك من في النار ومن حوّلها وسبعان الله رب العالمين﴾ ^(٦) . ثم قال له : ﴿وما لك بيمينك يا موسى • قال هي عصا أنوكا عليها وأهش بها على غنمي﴾ أي أضرب بها ورق الشجر للغنم ﴿ولي فيها مآرب﴾ ^(٧) أخرى ؛ من حل الزاد عليها والسقاء وغير ذلك ، فقال له ﴿ألقها يا موسى • فألقاها فإذا هي حية﴾ ^(٨) تسمى . ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان فوّلّى مُدْبِرًا أَوْ لَمْ يَعْقِبْ﴾ ^(٩)

(٢) سورة القصص ٢٥

(٤) سورة القصص ٢٧

(٦) سورة النمل ٨

(٨) سورة طه ٢٠

(١) سورة القصص ٢٥

(٣) سورة القصص ٢٦

(٥) سورة القصص ٢٩

(٧) سورة طه ١٧ ، ١٨ .

(٩) سورة القصص ٣١ .

أَيُّ لَمْ يَنْظُرْ فَنُودِيَ : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ .. ﴾ ^(١) الْآيَاتِ .
 فَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ رِدْءًا ، أَيْ عَوْنًا لِكُونِهِ كَانَ أَفْصَحَ
 مِنْهُ لِسَانًا لِلْجُمُوعَةِ الَّتِي كَانَتْ أَحْرَقَتْ لِسَانَهُ فِي صَفَرِهِ ، فَقُلَّ لِسَانُهُ فَقَالَ تَعَالَى :
 ﴿ سَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ ^(٢) .

فَأَقْبَلَ مُوسَى إِلَى أَهْلِهِ فَصَارَ بِهِمْ إِلَى مَعْرِ ، فَدَخَلَهَا لَيْلًا ، فَنَزَلَ ضَيْفًا بِأَمِهِ
 وَأَخِيهِ ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ ، وَهَارُونَ غَائِبٌ ، فَنَزَلَ بِجَانِبِ الدَّارِ ، وَجَاءَ هَارُونَ فَسَأَلَ
 عَنْهُ أُمُّهُ فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ ضَيْفٌ ، فَدَعَاهُ وَأَكَلَ مَعَهُ ، ثُمَّ سَأَلَهُ : مَنْ هُوَ ؟ فَقَالَ : أَنَا
 مُوسَى ، فَقَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ وَاعْتَقَنَهُ .

فَقَالَ لَهُ مُوسَى : يَا هَارُونَ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَرْسَلَنِي وَإِيَّاكَ إِلَى فِرْعَوْنَ ، فَانْطَلِقْ
 مَعِيَ ، فَقَالَ : سَمِعًا وَطَاعَةً ، فَصَاحَتْ أُمُّهُمَا ، وَقَالَتْ : نَشَدْتُكَمَا اللَّهُ تَعَالَى أَلَّا تَذْهَبَا
 إِلَيْهِ فَيَقْتُلَكُمَا ! فَسَكَّنَاهُمَا ثُمَّ انْطَلَقَا إِلَيْهِ لَيْلًا فِي قَوْلِ السَّيِّئَةِ وَضَرَبَا الْبَابَ ، فَكَلَّمَهُمَا
 الْبُيُوتُ ، فَقَالَا لَهُ : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٣) ، فَفَزِعَ الْبُيُوتُ ، فَأَتَى فِرْعَوْنَ فَأَخْبَرَهُ
 أَنَّ مَجْنُونَيْنِ بِالْبَابِ يَزْعُمَانِ كَذِبًا ، فَقَالَ : أَدْخِلْهُمَا .

وَأَمَّا ابْنُ إِسْحَاقَ لَخِذْتُ أَنَّهُمَا وَقَفَا عَلَى بَابِ فِرْعَوْنَ ، يَلْقَمَانِ الْإِذْنَ ، يَنْدَوَانِ
 وَيُرِوْحَانِ سَنَتَيْنِ ، وَفِرْعَوْنَ لَا يَعْرِفُ بِهِمَا حَتَّى دَخَلَ مُلْكُهُ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ،
 إِنَّا عَلَى الْبَابِ رَجُلَانِ يَزْعُمَانِ أَنَّ لَهُمَا خَيْرُكَ ، فَقَالَ : أَدْخِلْهُمَا ، فَدَخَلَا وَبَيَّدَ مُوسَى
 عَصَاهُ ، فَلَمَّا وَقَفَا عِزَّهُ فِرْعَوْنَ ، أَتَقَالَا : إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَجَاوَبَهُ بِقَوْلِهِ
 ﴿ أَلَمْ تَرُبَّنِي فِينَا وَلِيدًا .. ﴾ ^(٤) الْآيَاتِ ، ثُمَّ ذَكَرَهُ أَيْدِيَهُ قَبْلَهُ .

فَقَالَ لَهُ مُوسَى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهُ عَلَى أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ^(٥) ، أَيْ

(١) - سورة القصص ٣١

(٢) - سورة القصص ٣٥ .

(٣) - سورة الشعراء ١٨

(٤) - سورة الشعراء ١٨ - ٢٢ .

اتخذتهم عبيداً ، فقتل من شئت وتسترق من شئت . فقال له ﴿وَمَارَبَ الْعَالَمِينَ﴾^(١) فأراه الآية الكبرى في العصا ، أن ألقاها فإذا هي تمبيان مبين ، ملأت ما بين السماطين فاتحة فاهها ، قد صار مخجتها على ظهرها ، فارفض الناس ، ومال فرعون عن سريره ، فناشد موسى ربه ، فأدخل يده في جيبه ، فأخرجها بيضاء كالثلج ، ثم ردها ، فعادت هيئتها ، ثم وضع يده على الحية فصارت عصاً كما كانت أول مرة ، وأخذ فرعون بطنه - وكان فيما يزعم يمكث الخمس والست ولا يلتبس الخلاء - وكان ذلك مما زين له أنه ليس له شبيه في الناس - فقال للث : إن هذا لسحر عظيم ، فجمع السحرة ، وودعهم ليوم العيد ، وأن يحشر الناس ضحى ، يحضرون أسرم مع موسى ، فاجتمعوا لذلك اليوم ، فصف خمسة عشر ألف ساحر ، كل ساحر له نوع من السحر ، فخرج موسى يتوكأ على عصاه ، حتى أتى الجمع ، وفرعون في مجلسه مشرف على وجوه أهل مملكته فقال لهم موسى : ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْقَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَظَكُمْ بِمَذَابٍ ..﴾^(٢) الآية .

فقال بعضهم لبعض : أهكذا يقول ساحرا نخيروه في أن يلقى أو يلقوا؟ فقال : بل ألقوا ، فخيّلوا بحبهم وعصيتهم أشياء حيرت ألبها العقول ، من حيات قد ملأت الوادي ، يركب بعضها بعضاً ، ونيران تحرق في ظاهرها ما مرت به وظلم متكافئة ، كما وصف الله تعالى ﴿وَأَسْتَزْهِبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسَحَرٍ عَظِيمٍ﴾^(٣) ، ففرع موسى وأخوه لهول ما رأيا وذلك قوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ..﴾^(٤) الآيات . فآلق موسى عصاه ، فجعلت تلقف كل ما خيلوا به ، وكانوا جلبوا آلاتهم في السفن في النيل ، فابتلعت السفن ، وأقبلت فاتحة فاهها ،

(١) سورة الشعراء ٢٣ .

(٢) سورة طه ٦١ .

(٣) سورة الأعراف ١١٦ .

(٤) سورة طه ٦٨ .

على كُتْبة فرعون بمن فيها ، قروا وتمتقوا بموسى يستنقذون به . فأخذها موسى ،
فإذا هي عصا في يده كما كانت ، فوق السحرة سُجَّدًا قائلين : ﴿ آمنا بربِّ هَارُونَ
وموسى ﴾ ^(١) لما تبيَّنوا أن أمر العصا لموسى ، ليس من تخايلهم ، فقال لهم فرعون :
(آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ...) ^(٢) ، آيَات إلى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ
وَأَبْقَى ﴾ ، أى لا سلطان لك إلا فى الدنيا ولا سلطان لك بعدها ، ﴿ قَالُوا رَبَّنَا
أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَصِيراً وَتَوَلَّيْنَا مُسْلِمِينَ ﴾ ^(٣) ، فقتلهم فكانوا أول النهار سحرة
وآخره شهداء .

ثم أمر الله تعالى نبيه موسى أن يخرج يبنى إسرائيل فقال : ﴿ أَسْرِ
بِمِثْرَى كَيْلًا ﴾ ^(٤) .

فأمرهم أن يستمروا الحلى من القبط ، فخرجوا ليلا ، وأتى الله على القبط
النوم ، حتى طلعت الشمس ، وكان موسى على ساقه بنى إسرائيل وهارون على
المقدمة ، وعدد بنى إسرائيل ستمائة ألف وعشرون ألف مقاتل ، لا يعدون ابن
العشرة لصغره ، ولا ابن الستين لكبره . وتبعهم فرعون ، وعلى مقدمته هامان
وهم فى ألف ألف وسبعمائة ألف ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي
الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ ^(٥) . فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمَانُ ، قَالُوا : يَا مُوسَى أُوذِيقْنَا مِنْ قَبْلِ
أَنْ تَأْتِيَنَا بِالْبَحْرِ وَمِنْ بَعْدَمَا جِئْنَا الْيَوْمَ بِدُرُكِنَا فِرْعَوْنَ فَيَقْتُلَنَا ! فقال : ﴿ كَلَّا
إِنِّي مِمَّنْ رِبِّى سَاهِدِينَ ﴾ ^(٦) .

فأتى موسى البحر ، وكناه أبا خالد ، فضر به بعصاه ، فانفلق فكان ﴿ كُلُّ فِرْقٍ
كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ﴾ ^(٧) ، والطود : الجبل ، فصارت فى البحر اثنا عشر طريقا فدخل كل
سبيل طريقه ، وكل سبيل يقول : قتل أصحابنا ففتح الله بينهم فئاتا ، فنظر آخرهم إلى

(٢) سورة الأعراف ١٢٦ .
(٤) سورة الشعراء ٣٥
(٦) سورة الشعراء ٦٣
(٢٠ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

(١) سورة طه ٧٠ - ٧٣
(٣) سورة الدخان ٤٣
(٥) سورة الشعراء ٦٢

إلى أولهم . وجاء فرعون ومن معه ، فأبت خيله أن تقتحم ، فاقترعها جبريل
 حل فرس أنثى ، فاقترعت الخيل في أثره ، فلما توسط البحر ، أمر البحر أن
 يأخذهم ، فانضم عليهم ، فلما أدرك فرعون الفرق ، قال : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
 الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ ^(١) وجعل جبريل يدس الطين في فمه لثلاثين
 كلمة ، فبرحه الله ، وميكائيل يقول : ﴿ آلآن وقد عصيت قبل ﴾ .

وأخرج الله بدن فرعون ميتاً ، حتى عرفه بنو إسرائيل ، فهذا هو الذي
 غشى فرعون وجنوده من اليم .

* * *

وَلَمْ أَزَلْ أَدْفَعُ عَنْهَا وَلَا يُنْفِي الدَّفَاعُ ، وَأَسْتَشْفِعُ وَلَا
 يُجِدِي الِاسْتِشْفَاعُ ، وَكَلَّمَا رَأَى مِنِّي ازْدِيَادَ الْاِغْتِيَاصِ ، وَارْتِيَادَ
 النَّاصِ ، تَجَرَّمُ وَتَضَرَّمُ ، وَحَرَّقَ عَلَى الْأَرْمِ ، وَنَفْسِي مَعَ
 ذَلِكَ لَا تَسْمَعُ بِمَفَارِقَةِ بَدْرِي ، وَلَا بَأَن تَنْزَعَ قَلْبِي مِنْ صَدْرِي ،
 حَتَّى آل الْوَعِيدُ إِيقَاعًا ، وَالتَّقْرِيعُ قِرَاعًا ، فَقَادَنِي الْإِشْفَاقُ مِنْ
 الْحَيْنِ ، إِلَى أَنْ قَضَيْتُهُ سَوَادَ الْعَيْنِ ، بِصُفْرَةِ الْعَيْنِ ، وَلَمْ يَخْظَ
 الْوَائِي بِغَيْرِ الْإِثْمِ وَالشَّيْنِ .

* * *

قوله : الِاِغْتِيَاصِ : أى التصعب ، واعتاص الشيء اعتياصاً : تصعب
 وتلوَّى . الناص : الملجأ والمقر .

وتجرَّم : أى الجرَّم . وتضَرَّم : اشتد غضبه . والأرْم : الأسنان . وحرق :

عض بمضها على بمض ، حتى صوت ، وذلك لشدة الغيظ ، وهو مثل . آل :
رجع . الوعيد : التهديد .

قراعا : ضربا ، والقراع : الخبط والضرب ، والتفريع : الأخذ باللسان ،
يريد : عذدوني ، فلما أبيت ضربوني .

الحين : الموت . قضته : عاوضته وبادلته . سواد العين : جاريته التي هي
نور عينه .

صفرة العين : لون الدناير . لم يحظ : لم يأخذ حظوة ، وهي النصيب .
والواشي : النمام ، سُميَ واشيا لاستخراجه الأخبار وتوصله إلى معرفتها ،
من قولهم : فلان يوشى الخبر ، إذا استخرجه ؛ وقيل : سُميَ واشيا لتحسينه
ما ينقل من الأخبار ، وثوب موثى : محسن بما فيه من النقوش . وقيل : هو من
الشَّيْء ، وهي العلامة ، كأنه جعل لنفسه علامة من الوصف القبيح . والشين : العيب .

* * *

[ذكر بعض حكايات الجاربات للتأديبات]

وعلى وصف الجارية المذكورة بالأدب والجمال نريد أن نسوق فصلا في
الجوارى ذوات الأدب تمّن أهديت إلى ملك كحال هذه ، أولها معه سبب :

حدث الأصمعي ^(١) قال : بعث لي هارون الرشيد وهو بالرقّة ، فحُملت إليه ،
فأنزني للفضل بن الربيع ثم أدخلني عليه وقت المغرب ، فاستدنانى ، وقال لي :
يا عبد الملك ، وجهتُ فيك بسبب جاريتين ، أهديتا لي ، لهما أدب ، أحببت
أن تبرزما عندهما ، وتشير عليّ بالصواب فيهما .

(١) الخبر في تاريخ بغداد ١٦ : ٤١٢ ، إنباه الرواة ٢ : ١٩٩ ، المحاسن والأضداد ٢٥٠

ثم أمر بإحضارهما فأحضرتا ، فرأيت جاريّتين ما رأيت مثلهما قطّ ،
قلت لإحداهما : ما عندك من العلم ؟ فقالت : ما أمر الله في كتابه ، ثم ما ينظر الناس
فيه من الأخبار والأشعار . فسألتهما عن حروف القرآن ، فأجابتني كأنها تقرأ
القرآن من كتاب ، ثم سألتها عن الأخبار والأشعار والنحو والعروض ، فافصرت
في جوابي في كلّ فنٍّ أخذت فيه ، فقلت لها : فأنشدينا شيئاً ، فأنشدت :

ياغيثَ العبادِ في كلّ محلٍّ ما يريد العباد إلا رضاكا
لا ومن شرف الإمام وأعلى ما أطاع الإله عبداً عصاكا

فقلت : ياأمير المؤمنين ، ما رأيت امرأة في مسك^(١) رجل مثلها .
ونُزيت الأخرى ، فوجدتها دونها ، فأمر أن تُصنع^(٢) تلك الجارية لتعمل
إليه في تلك الليلة ثم قال : يا عبد الله ، أنا ضحير ، وأحب أن تُسمي حديثنا
بما شهدت من أعاجيب الزمان أنفرج به ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، كان لي
صاحب في بدو بني فلان ، وكنت أغشاه ، وأتحدث إليه ، وقد أتت عليه
ست وتسعون سنة ، وهو أصبح النفوس ذهناً وأقوام بدناً ، فغبت عنه ، ثم
أتيته فوجدته ناحي البدن ، كاسف البال ، فسألته : ما سبب تغيره ؟ فقال : قصدتُ
بعض القراية ، فألقيت عندهم جارية ؛ قد طَلَّتْ بالورس بدنها ، وفي عنقها
طبل تنشد عليه :

محاسنها سهامٌ للنسايا مَرِيْشَةٌ بأنواع الخطوبِ
ترى ريب المنون بهنَّ سما يُصيب بنبيله مُهْجَ القلوبِ
فقلت :

ففي شَفَتِي في موضع الطَّيْلِ ترتي كذا قد أبحث الطَّيْل في جيدك الحسن

(١) المسك ، بالفتح : الجلد .

(٢) صنعت الجارية ، بالبناء المجهول : أحسن إليها حتى سميت .

هَبْنِي عوداً يابساً تحت شِقْمَةٍ يَمْتَمُ فيما بين نَحْرِكَ وَالذَّقْنِ

فلما سمعت الشعر ، رمت بالطليل في وجهي ، ودخلت الخيمه ، فوقفت حتى
حَيَّت الشمس على مفرق رأسي ، فلم تخرج ، فانصرفت بقرع القلب ، فهذا
التَّغْيِيرُ من عشقي لها .

فضحك الرشيد حتى استلقى ، ثم قال : ويلك يا عبد الملك ابنُ ست وتسعين
يُدشِقُ ! قلت له : قد كان هنا ، فقال : يا عباس ، أعطِ عبد الملك مائة ألف درهم ،
ورُدّه إلى مدينة السلام .

فانصرفت ، ثم أتاني الخادم ، فقال : أنا رسولُ بَنَتِكَ - يعني الجارية - تقول لك :
إنَّ أمير المؤمنين أمرَ لها بمالٍ وهذا نصيبك ، فدفع لي ألف دينار ، فلم تزل
تواصلني بالبَرِّ الواصل ، حتى كانت فتنة محمد ، وانقطع خبرُها عني ، وأمر لي
الفضل بمشرة آلاف درهم .

وحدث علي بن الجهم ، قال : لما أفضت^(١) الخلافة إلى المتوكل ، أهدى
إليه الناس على أقدارهم ، فأهدى إليه ابن طاهر جاريةً أدبية ، تسمى محبوبه ،
تقول الشعر ، وتلاجه ، وتحمينُ من كلِّ علم أحسنه ، فحلت من قلب المتوكل
محلًّا جليلاً ، فدخلت يوماً للمنادمة ، فخرج وهو يضحك . فقال : يا علي ، دخلت
فرأيت محبوبه قد كتبت على خدِّها بالمسك « جعفر » ، فأرأيت أحسن منه ،
قل فيه شيئاً ، فسبقني محبوبه ، فقالت وأخذت عودها ، وغنت :

وَكَانِي بِالْمَسْكِ فِي الْخَدِّ جَعْفراً بِنَفْسِي نَحَطَ الْمَسْكُ مِنْ حَيْثُ أَثَرَا

(١) الخبر في الأغاني ١٩ : ١٣٣ ، ١٣٤ (سأسي) والهاسن والأضداد ٢٥١ ،

لئن أودعت سطرًا من المسك خذها لقد أودعت قلبي من الوجد أسطرًا
 فيأمن منها في السريرة جعفر سقى الله من سقيا ثناياك جعفرًا
 وبأمن لملوك يظل مليك مطيعاً له فيما أسر وأجهرا
 وبأمن لعيني من رأى مثل جعفر سقى الله صوب المسكرات لجعفرًا

قال : فتقلبت خواطري ، حتى كأتى ما أحسن حرقاً من الشعر ، فقلت
 للمعول : أذلني ، فقد والله عزب ذهني عني ، فلم يزل يعيرني به .

ثم دخلت عليه بعد ذلك للمنادمة ، فقال : يا علي ، أعلمت أني غاضبت
 محبوبه ، وأمرتها بلزوم مقصورتها ، ومنعت أهل القصر من كلامها ؟ فقلت :
 يا سيدي ، إن غاضبتك اليوم ، فصالحها غدا . فدخلت عليه من القدر ، فقال :
 ويحك يا علي ! رأيت البارحة في النوم كأنني صالحت محبوبه ، فقالت جاريته :
 شاطر ، يا سيدي ، لقد سمعت الآن في مقصورتها هَيْئمة ، فقال : قم حتى ننظر
 ما هي ، فقام حافياً ، حتى قربنا من مقصورتها ، فإذا هي تنفي ، وتقول :

أدور في القصر لا أرى أحداً أشكو إليه ولا بكلمني^(١)
 كأنني قد أتيت معصيةً ليست لها توبة تخلصني
 فمن شفيع لنا إلى ملك قد زارني في الكرى وصالحني
 حتى إذا ما الصباح عاد لنا عاد إلى هجره فصارمني^(٢)

فصنق المتوكل طرباً ، فلما سمعته خرجت تقبل رجله ، وتمرغ خذها
 في التراب ، حتى أخذ بيدها راضياً عنها .

(١) المحاسن والأضداد: كن أرى أحد .

(٢) المحاسن والأضداد : « قمارني »

حدث أبو علي بن الأسكري المصري - وأشكره القربة التي ولد بها -
موسى عليه السلام - قال : كبت^(١) من جلاس تميم بن أبي تميم ، ومن
يخف عليه ، فأنتى من بغداد بحارية رائحة فائقة الذناء ، فدعا جلase ، ومُدَّت
الستارة ، فأمرها ففنت :

وبدا له من بعدما اندملَ الهوى برقٌ تألق موهناً لمعانه
يبدو كعاشية الرداء ودونه صعب الذرى متمنع أركانه
وبدا لينظر كيف لاح فلم يطق نظراً إليه وصده أشجانه^(٢)
فالتار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سمحت به أجفانه^(٣)

قال : فأحسن ما شاءت ، وطرب تميم ومن حضر ، ثم غنت :

سَيِّدُ مَلِكٍ عَمَّا فَاتَ دَوْلَةَ مَفْضِلٍ أَوَّالُهُ عَمْرُودَةٌ وَأَوَّارُهُ
نَبِيَّ اللَّهِ عِطْفَانِيهِ ، وَأَتَى شَخْصَهُ عَلَى الْبَرِّ مَنْ شُدَّتْ عَلَيْهِ مَازِرُهُ

فطرب تميم ومن حضر طرباً شديداً ، ثم غنت :

أستودع الله في بغدادلى قرأ بالكركخ من فلك الأزرار مطلعة
فأرط تميم في الطرب جداً . ثم قال لها : تمني ما شئت ، فلك منك ، فقالت :
أتمنى عافية الأمير وسعاده ، قال : لا بد والله ، قالت : على الوفاء أتمنى أيها
الأمير ، قال : نعم فقالت : أتمنى أن أغنى هذه التوبة ببغداد . فتغير وجه تميم ،
وتكدر المجلس ، وقفنا . فلحقني بمض خدمه ، فردني . فلما وقفت بين يديه ،
قال لى : ويحك ! أ رأيت ما امتعنا به ، ولا بد من اللوفاء : وما أثنى في هذا

(١) الخبر في محاسن الأضداد ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٢) المحاسن والأضداد : « هيجانه » .

(٣) المحاسن والأضداد : « سمحت به أجفانه » .

بنورك ، فأتاهب لتعلمها إلى بغداد ، فإذا غدت هناك ، فاصرفها ، قلت :
سمما وطاعة ، فأحبها جارية سوداء تخدمها وتعاد لها ، وأمر لي بناقية وبجمل
عليه هودج ، فأدخلت فيه ، وسرنا مع القافلة إلى مكة ، فقضينا حاجتنا .
ثم لما وردنا القادسية ، أنتنى السوداء ، فقالت لي : تقول لك سيدتى : أين نحن ؟
قلت : نحن نزول بالقادسية ، فأخبرتها ، فسمعت صوتها قد ارتفع بالثناء :

لما نزلنا القادسية حيثُ يجتمع الرفاق^(١)

وشممت من أرض الحجا ز نسيم أنفاس المراق

أبقت لي ولمن أحب يجمع شمل وانفاق

وضحكت من فرج اللقاء كما بكيت من الفراق

فصاح الناس من أقطار القافلة : أعيدي أعيدي ، بالله ! فاصبر لما كلة .

فلما نزلنا الياصرية^(٢) على خمسة أميال من بغداد في بساتين متصلة يبيت

الناس بها ، ثم يبكرّون ببغداد . فلما قرب الصباح إذا بالسوداء قد أنتنى

مذعورة ، قالت : إن سيدتى ليست محاضرة ، والله لا أدرى أين هي ؟

فطلبته فلم أجدها ، ولا وجدت لما ببغداد خبرا ، فقضيت حوائجي ببغداد ،

وانصرفت إلى تميم ، فأخبرته خبرها ، فلم يزل واجما عليها .

وأخبار الأديان كثيرة فلنقتصر على هذا القدر .

* * *

[نبذ من أقوال الحكماء في الوشاة وبعض حكاياتهم]

وعما جاء في الواشى ، ما حكى أن رجلا وشى برجل إلى بلال بن

(١) الياصرية : قرية كبيرة على ضفة نهر عيسى ، بينها وبين بغداد ميلان ، وفيها ب ،
« الناصرة » ، وهو خطأ .

أبى بردة، فقال للسامي : انصرف ، حتى أ كشف عما ذكرت ، فدنا كشف عن
 السامي ، إذا هو لغير رشدة ، قال : نبأنا أبو عمرو - وما كذبت ولا كُذبت -
 حدثني أبي عن جدتي ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « السامي
 لغير رشدة » .

وذُكر السماع عند المؤمن ، فقال : لو لم يكن من غيرهم أصدق ما يكونون
 أبغض ما يكونون عند الله .

وقال ذو الرياستين : قبول النعمة شر من النعمة ، لأن النعمة دالة ، والقبول
 إجازة ، وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازه ، وقد جعل الله السامع شريك
 القائل ، فقال : « سماعون للكذب » .

وقال الشاعر :

لعمرك ما سب الأمير عدوه ولكن ما سب الأمير المبلغ

ووشى واش بعد الله بن همام السلولي إلى زياد ، فقال له : إنه هجاك ، فقال :
 أجمع بينكما ، قال : نعم ؛ فبعث إلى ابن همام ، وأدخل الرجل بيتاً ، فقال زياد : يا ابن
 همام ، بلغني أنك هجوتني ، فقال : كلا ، أصلحك الله ما فعلت ، ولأنت لذلك
 بأهل ، فأخرج الرجل ، وقال : إن هذا أخبرني ، فأطرق ابن همام هنيئاً ، ثم أقبل
 على الرجل فقال :

وأنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً فخننت ، وإما قلت قولاً بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان يديننا بمنزلة بين الخيـا—اثة والإثم

فأعجب زياد بجوابه ، وأقصى الواشي ولم يقبل منه .

قال الشاعر :

لا تقبلن نعمة من قائل ونحفظن من الذي أنباكم

إِن الْقَدَى أَنْبَاكَ عَنْهُ نَمِيمَةٌ سَيَدِبُ عَنْكَ نَمِيمَةٌ قَدْ حَاكَهَا

حَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مُوسَى قَالَ :
يَا رَبِّ إِنِّي حَيْثُ ذَهَبْتُ لَا أَنْصُرُ وَلَا أُخْذَلُ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : إِنَّ فِي عَسْكَرِكَ
غَمَازًا ، قَالَ : يَا رَبِّ دَلَّنِي عَلَيْهِ ، قَالَ : يَا مُوسَى ، أَبْغِضِ الْغَاظَ ، فَكَيْفَ أُغْمِزُ لَا
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَى الْمَشَاوِينِ بِالنَّمِيمَةِ ،
الْمُفْرَقُونَ بَيْنَ الْأَحْبَةِ ، وَلِلنَّمَسُونَ بَيْنَ الْبَرَاءَةِ الْعَمِيْبِ » .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَرْبَعَةٌ يُؤْذَنُونَ أَهْلَ النَّارِ عَلَى مَا بِهِمْ
مِنَ الْأَذَى » ، وَذَكَرَ رَجُلًا يَأْكُلُ لَحُومَ النَّاسِ ، وَيَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ .

* * *

فَعَاهَدْتُ اللَّهَ تَعَالَى مُذْ ذَٰلِكَ الْعَهْدِ ؛ أَلَّا أَحَاضِرَ نَمِيمًا مِنْ بَعْدِ ،
وَالزُّجَاجُ مُخْصُوصٌ بِهَذِهِ الطَّبَاعِ الذَّمِيمَةِ ، وَبِهِ يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي
النَّمِيمَةِ ؛ فَقَدْ جَرَى عَلَيْهِ سَيْلُ يَمِينِي ؛ وَلِذَلِكَ السَّبَبِ لَمْ تَمْتَدَّ إِلَيْهِ يَمِينِي .

فَلَا تَمْدِلُونِي بَعْدَ مَا قَدْ شَرَحْتُهُ عَلَى أَنْ حُرِمْتُمْ بِي اقْتِطَافَ الْقَطَافِ
فَقَدْ بَانَ عُذْرِي فِي صَنِيعِي وَإِنِّي سَأَرْتَقُ فَتَقِي مِنْ تَلِيدِي وَطَارِفِي
عَلَى أَنْ مَا زَوَّدْتُمْ مِنْ فُكَاهَةٍ اللَّهُ مِنَ الْحُلُوفِ لَدَى كُلِّ حَارِفٍ

[من أقوالهم في النجيمة]

قوله. «الزجاج مخصوص بهذه الطباع الذميمة»، قال السري^(١) فيما يتعاق بالزجاج من النَّمَم :

رَأَيْكَ تَبْدَى^(٢) لِلصَّدِيقِ نَوَافِذَا عَدُوَّكَ مِنْ أَمْثَالِهَا^(٣) الدَّهْرَ آمَنُ
وَتَكْشِفُ أَسْرَارَ الْأَخْلَاءِ مَازَحًا وَيَارِبَ مَزِجِ رَاحٍ^(٤) وَهُوَ ضَعْفَانُ
سَاحِظُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ صَائِنَا عَهْدُكَ، إِنْ الْعَهْدَ لِلْمَرْءِ صَائِنُ^(٥)
وَأَتَمَّاكَ بِالْبَشْرِ الْجَمِيلِ مَدَاهِنًا فَلَئِنْ مَنَّا خَلًّا مَا عَلِمْتَ مَدَاهِنُ
أَنْتُمْ بِمَا اسْتَوْدَعْتَهُ مِنْ زَجَاجَةٍ بَرَى الشَّيْءَ فِيهَا ظَاهِرًا وَهُوَ بَاطِنُ
وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِ :

لَحَى اللَّهُ أَمْرًا أَعْطَاكَ سِرًّا فَضَيْعَتُهُ وَفَضْلُ اللَّهِ قَاهُ
فَإِنَّكَ كُلَّمَا اسْتَوْدَعْتَ سِرًّا أَنْتُمْ مِنَ الزَّجَاجِ بِمَا وَعَاهُ
وَقَالَ السَّيْرِيُّ :

اسْتَوْدَعَ اللَّهُ خَلًّا مِنْكَ أَوْ سِرًّا وَدَا وَيُوسَعْنِي غَشَا وَنَمَوِيهَا^(٦)
كَأَنَّ سِرِّي فِي أَحْشَاءِهِ لَهَبٌ فَمَا يَطِيقُ لَهُ صَمًّا^(٧) حَوَاشِيهَا
قَدْ كَانَ صَدْرُكَ لِلْأَسْرَارِ جَنْدَلَةً ضَنْبِيئَةً بِالَّذِي تَخْفَى نَوَاحِيهَا
فَصَادَ^(٨) مِنْ بَثِّ مَا اسْتَوْدَعْتَ جَوْهَرَةً رَقِيقَةً تَسْتَشْفَى الْعَيْنُ مَا فِيهَا

(١) هو السري الرفاء ، ديوانه ٢٦٧ ، وفيه : « وقال بجانب صديقه أسر إليه حديثه فأذاعه » .

(٢) الديوان : « تسدى » .

(٣) الديوان : « من أوصاها » .

(٤) الديوان : « عاد » .

(٥) الديوان : « إن الحر العهد صائن » .

(٦) ديوانه ٢٧٧ .

(٧) ديوانه : « ملأ » .

(٨) الديوان : « فصار » .

وله أيضاً :

ثنائي عنك ما استشعرت سرّاً خلالُ فيك لستُ لما يراضو^(١)
 وإنك كلما استودعت سرّاً أنتم من التّسليم على الرّاض
 قوله : «وبه جرى»^(٢) المثل في النّيمة ، يقال : أنتم من الزّجاجة على ما فيها ،
 لأنّه جوهر لا يكمّم ما فيه .

[تفت من أفعال البلغاء في وصف الذهب والزجاج]

قال الأصمّهاني : ما زال البلغاء يتعاطون وصف هذا الجوهر^(٣) ، فعبروا
 عن مدحه وذمّه ، فأما ذمّه فإن إبراهيم بن سيار النظام أخرجه في كلمتين بأوجز
 لفظ ، وأتمّ معنى ، فقال : سريعُ الكسر ، بطيءُ الجّير .

وقال في الذهب : الذهب لثيم ، لأنّ الشكل يصير إلى شكاه ، وهو عند
 اللّثام أكثر منه عند الكرام .

وأما سهل بن هارون ، فكان يوماً بمجلس أحد الملوك ، وشداد الحربى
 بعدد خصال الذهب ، فقال : هو أبقيّ الجواهر على الدّفن ، وأصبرها على الماء ،
 وأقلّم اتصافاً في النار ، وهو أوزن من كلّ ذى وزن ، إذا كان في مقدار شخصه ،
 ولو وضعت على ظهر الزّئبق في إنائه قهراً من ذهب ، لرسب حتى يضرب
 قعر الإناء ، وسائر الجواهر تطفو فوقه ؛ ولو كان الجوهر ذا وزن ثقل ، ورجع
 عظيم ولا تشدّ الأسنان المتقلّقة بنهره ، ولا يُوضع في مكان الأنوف المصطنعة
 سواء ، وميّله أجود الأميال ، والمهندّم في العين بلا كحل لصلاح طبعه ،
 وعليه مدار التّبايع مذ كان التّبايع ، وهو ثمن لكلّ شيء ، وهو الزّرواب^(٤)
 والجمّامح التي تكون في سقف الملوك ، والطّبخ في قُدوره أغذى وأمرأ .

(٢) ١ : « وبه يضرب المثل »

(٤) الرّباب : الذهب الخالص .

(١) ديوانه ١٥٧ .

(٣) أى الزجاج .

وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن الكبريت الأحمر، فقال: هو الذهب؛ فأدرك سهل بن هرون من الغيرة والحسد مادعاه إلى معارضة، فقال يذم الذهب، وبفضل الزجاج: الذهب مخلوق والزجاج مصنوع، وإن فضله الذهب بالصلابة فضله الزجاج بالصفاء، والزجاج أبقي على الدفن، والزجاج نور علوي، والذهب متياع سيال، ولم تتخذ للناس آنية للشراب^(١) أجمع لما يريدون من الشراب منه، والشراب فيها أحسن منه في كل معدن، ولا يفقد معه وجه القديم، ولا يثقل اليد، ولا يرتفع في السوم.

وكان سليمان إذا شرب في إناء كلعت في وجهه مَرَدَةُ الْجَنِّ، فعلمه الله تعالى صنعة القوارير، فحسم عن نفسه تلك الجراءة. ومن كَرَعَ فيه فكَأَ ثَمًا كَرَعَ في إناء من ماء وهواء ونور، وقد تقدح النار من كسر قنينة الزجاج إذا كان فيها ماء لأن طبع الزجاج والماء، والهواء والشمس واحد، وليس فيما يدور الفلك عليه أقبل لكل صَنِيعٍ منه وأجدر ألا يفارقه؛ حتى كان ذلك الصنيع جوهرية فيه. ومتى سقط عليه ضياء أنفذه إلى الجانب الآخر، وأعاره لونه، فإِنْ كان الجلام ذا لونين، أراك الوشي أحسن من وشى صنمعه، ومن ديباج تُسْتَرَّ وإذا وقع شعاع المصباح على جوهر الزجاج صار المصباح والتنديل مصباحًا واحدًا، وردّ الضياء كل واحد منهما على صاحبه. واعتبروا ذلك بالشعاع الذي يسقط على المرأة على وجه الماء، أو على الزجاج، ثم انظروا كيف يتضاعف نوره، وإن كان سقوطه على عين إنسان أعشاه وربما أمماه، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَشَفَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾^(٢)، والزيت في الزجاج نور على نور. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا صَرَّحْنَا مِنَ الْقَوَارِيرِ﴾^(٣).

(٢) سورة النور ٢٥.

(١) ط، ب: «الشراب».

(٣) سورة النمل ٤٤.

وقال تعالى : ﴿ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرُ قَوَارِيرٍ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ ^(١) فاشتق اسم الفضة منها .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحادى بإبله : « يَا نَيْسَ ارْفُقْ بِالْقَوَارِيرِ » ، فاشتق للنساء اسما منه . وقُدُورُهُ أَطِيبُ طَعَامًا مِنْ قُدُورِ الْحَجَارَةِ ، وهى لانصدأ ، وإن اتسخت فالماء وحده لها جلاء ، ومتى غسلت عادت جُددًا . واسم الذهب يُتَطَيَّرُ منه ، وإن سقط عليك قتلك . ومن لؤمه سرعته إلى بيوت اللثام ، وإبطاؤه عن بيوت الكرام ؛ وهو من مصائد الشيطان ، ولذلك قالوا : أهلك الرجال الأحران ، وهو فتان قتال لمن أصابه .

فلم يَبْقَ فى المجلس أحداً إلا تَحَيَّرَ مِنْ ذَلِكَ وَتَعَجَّبَ مِنْ بِلَاغَتِهِ وَحَسَنِ بَدِيعَتِهِ ، واحتجاجه فى معارضته من غير روية ، وأيقن أنه ليس دون اللسان حاجز ، وأنه غرق يذهب فى كل فن ، فإذا صح العقل صح تقويم اللسان .

قوله « القطائف » ، هى ما يجنى من الثمار ، يريد بها الحلوى التى حرّمهم أكلها . والرتق : السدّ والإغلاق وهو ضد الفتق ، ويقال : هو الفائق الراتق ، أى هو مالك لأمر ، فهو يفتح ويغلق ويضيق ويوسع . ورتق : ضمّ وجمع ، وامرأة رتقاء : لا يصل إليها الرجال . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ^(٢) أى كانتا سماء واحدة ، وأرضاً واحدة ، فجعلت كل واحدة منهما سميع . وقيل : كانتا معاً ففتقناها بالهواء الذى بينهما وقيل : فتق السماء بالمطر والأرض بالنبات ، فقال : سأسد ماخرقته .

قوله : « التلبد » ، المال للقديم . والطريف : المكتسب . فكاهة : مُلَح .

* * *

(١) سورة الإنسان ..

(٢) سورة الأنبياء ٣٠ .

قال الحارث بن همام : فقبلنا اعتذاره ، وقبلنا عذاره ، وقلنا له :
 قَدِمَا وَقَدَّتِ النَّمِيمَةُ خَيْرَ الْبَشَرِ ؛ حَقَّ انْتِشَرُ عَنْ حَمَالَةِ الْخَطْبِ
 مَا انْتَشَرَ . ثُمَّ سَأَلْنَاهُ مِمَّا أَخَذَتْ جَارُهُ الْقَتَاتِ ، وَدُخِلَهُ الْمَفَاتِ ؛
 بَعْدَ أَنْ رَأَتْ لَهُ تَبِيلَ السَّعَايَةِ ، وَجَذَمَ حَبْلَ الرُّعَايَةِ ، فَقَالَ : أَخَذَ فِي
 فِي الْاسْتِخْذَاءِ وَالِاسْتِكَاثَةِ ، وَالِاسْتِشْفَاعِ إِلَى بَذْوَى الْمَكَانَةِ .

• • •

عذاره : شعر خده ، شبه بالشوكة التي تقع على خد الفرس . وقعدت
 الفرس عذراً وأعذرته بالعذار بمعنى ألقته ، وأعذرت اللجام : جعلت له عذاراً ،
 وأنشد ابن رشيقي في معذر :

وَأَسْمَرَ الْلَوْنَ عَسَجْدَى يَكَادُ يَسْتَمْطِرُ الْجَهَامُ^(١)
 ضَاقَ بِحَمْلِ الْعِذَارِ ذَرْعَا كَالْمُهْرِ لَا يَعْرِفُ اللَّجَامَا
 وَنَكَسَ الرَّأْسَ إِذْ رَأَى كَأَبَةٍ وَأُكْتَسَى احْتِشَامَا
 وَظَنَّ أَنَّ الْعِذَارَ مِمَّا يُزْجَعُ عَنْ قَلْبِي الْفَرَامَا
 وَمَا دَرَى أَنَّهُ نَبَاتٌ أَنْبَتَ فِي قَلْبِي^(٢) السَّقَامَا
 وَهَلْ تَرَى عَارِضَاهُ إِلَّا حَامِلًا قُلْدَتِ حُسَامَا

قوله : « قَدِمَا وَقَدَّتِ » ، أى قديماً أمرضت وأوجعت .
 حَمَالَةُ الْخَطْبِ : هى أمّ جميل بنت حرب عمة معاوية وامرأة أبى لهب ،
 وكانت تمشى بالنميمة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين ، وقيل بين
 زوجها وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل ذلك لما شئى بالنميمة ، لأنّ الخطب
 يهيج النار ، والنميمة تهيج الشرر . وقيل : سميت حمالة الخطب لأنها كانت تطرح
 الشوك للنبي صلى الله عليه وسلم فى طريقه ، وكانت عوراء وأبو لهب أحول .

(٢) التثنية : « جسمى » .

(١) نقله فى التثنية ٦٦

والفتات : النمام بالكذب والنميمة ، وقت بقت فتاً : مشى بالنميمة ، ونمَّ
 يتمّ ثماً : ضيع الأحاديث ولم يحفظها ، وقيل : النميمة من قواهم : جلود نمت إذا
 لم تمسك الماء . والفتات أيضاً : المتسمع طلى من ليس يشمر به ، وهو الفتات ،
 والفتام والعساس والهام والفتاز والمهيم ، والمورث والمناس ، وقدماس يماس .
 دخله : خاصته العالم بداخل أمره . الفتات : المستبد برايه المتسور على
 ما لا ينبغي له .

راش : جعل لها ريشاً .

السعاية : الشئ بالنميمة . جذم : قطع . الرعاية : حفظ الصداقة . الاستخذاء :
 الخضوع . والاستكانة : الذل . ذوو المكاة : أهل الجاه .

* * *

وكنْتُ حَرَجْتُ عَلَى نَفْسِي ، أَلَا يَسْتَرْجِعُهُ أَنْسِي ، أَوْ يَرْجِعَ
 إِلَى أَمْسِي ؛ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنِّي سِوَى الرَّدِّ ، وَالْإِصْرَارِ عَلَى الصَّدِّ ،
 وَهُوَ لَا يَكْتَسِبُ مِنَ النَّجْهِ ، وَلَا يَنْتَبِهُ مِنْ وَقَاحَةِ الْوَجْهِ ، بَلْ يُلِيطُ
 بِالْوَسَائِلِ ، وَيُلِيجُ فِي الْمَسَائِلِ ؛ فَأَ أَتَقَدَّرُنِي مِنْ إِبْرَاهِيمَ ، وَلَا أَبْعَدُ
 عَلَيْهِ نَيْلَ مَرَامِهِ ؛ إِلَّا أَيْبَاتُ نَفَثَ بِهَا الصَّدْرُ الْمُتَوَتُّورُ ، وَالْخَاطِرُ
 الْمُبْتُورُ ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ مَذْحَرَةً لِشَيْطَانِهِ ، وَمَسْجَنَةً لَهُ فِي أَوْطَانِهِ .
 وَعِنْدَ انْتِشَارِهَا بَتَّ طَلَاقِ الْخُبُورِ ، وَدَعَا بِالْوَيْلِ وَالْتِمُورِ ، وَيَتَسَّ
 مِنْ كَثَرِ وَصْلِي الْمُتَقَبُّورِ ؛ كَمَا يَتَسَّ الْكَفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ .

* * *

حرجت : أئمت وضيقت عليها يمين أكيده . الإصرار : العزيمة . والصد :
 الإضرار عنه . يكتسب : يهتم . النجى : الجفاء وتخليط الكلام . ينتب :
 يرجع . يلط : يكثر الزوم بها . ويقال : ألت بالشئ ، إذا لزمه .

إبرامه : نَقَلَهُ . نَفَثَ : نَطَقَ وَتَكَلَّمَ . الموتور : المظلوم . المتبور : المقطوع
 بالهم . مدحرة : مدفعة ومبعدة ، ودحرت الشيء دحوراً ودَحَرًا : أبعدته وودحَرَه
 هو : بَعُدَ . بَتَّ : قطع وأمضى ، وجعله بقاً وهو مالا رجعة له فيه .
 الحُبور : السرور ، وحَبَرْتُهُ حَبَرْتُهُ : سرَّرتُهُ . الثبور : الهلاك ، وثبر الله العدو
 ثبوراً : أهلكه . يئس : قطع رجاءه . نشر : أحيأ . المقبور : المدفون . الكفار :
 الدافنون للموتى .

* * *

فناشدناه أَنْ يُنْشِدَنَا إِيَّاهَا ، وَيُنْشِقَنَا رِيَّاهَا ، فقال : أَجَلَ ،
 خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَل ، ثُمَّ أَنْشَدَ لَا يَزُوِيهِ خَجَل ، وَلَا يَنْثِيهِ وَجَل :
 وَنَدِيمٍ مَحْضُهُ صِدْقٌ وَدَى إِذْ تَوَهَّمْتُهُ صَدِيقًا حَمِيمًا
 ثُمَّ أَوَلَيْتُهُ قَطِيعَةً قَالَ حِينَ أَلْفَيْتُهُ صَدِيقًا حَمِيمًا
 خَلَّتْهُ قَبْلَ أَنْ يَجْرِبَ الْفَأَ ذَا ذَمَامٍ فَبَانَ جِلْفًا ذَمِيمًا
 وَتَخَيَّرْتُهُ كَلِيمًا فَأَمْسَى مِنْهُ قَلْبِي بِمَا جَنَّاهُ كَلِيمًا

* * *

فناشدناه : سألناه وجعلناه . يُنْشِقْنَا رِيَّاهَا : يشمئنا رائحتها . أَجَلَ ، حرف
 جواب بمعنى نعم .

خلق الإنسان من عجل : قال أبو علي : هو على القلب ، معناه : خلق العَجَلُ من
 الإنسان ، قال الزَّجَّاج : ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ ^(١)
 ومثله : ﴿ وَقَدْ بَلَغْنِي الْكِبَرَ ﴾ ^(٢) أى بلغت الكبر ، ومثله : ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
 الْأَرْضِ ﴾ ^(٣) .

(٢) سورة آل عمران آية ٤٠

(١) سورة الإسراء آية ١١

(٣) سورة الكهف آية ٤٥ .

قال الشماخ :

* لَيْتَا كَمَا غَضِبَ اللَّيْلُ بِكَ بِالْعُودِ ^(١) *

أى العود بالليلاء

وقال القطامي :

* كَمَا بَطَّنْتَ بِالْفَدَنِ السَّيِّئِ ^(٢) *

أى بَطَّنْتَ بالسَّيِّئِ بِالْفَدَنِ وهو الطَّيْنُ بِالْقَبْرِ ، وَالْفَدَنُ : الْقَصْرُ . وقال ابن مقبل :

وَابْتُذِلَتْ * وَقَعَ الْحَاجِنُ بِالْمَهْرَةِ الدُّفْنِ *

أى ابْتُذِلَتْ الْمَهْرَةُ بِوَقَعِ الْحَاجِنِ ، وَمَنْ جَعَلَ الْجَلَّ الطَّيْنَ ، فَلَا قَلْبَ فِيهِ ، وَأَرَادَ : لَمْ يَصْبِرْ وَاعْنِ الْآيَاتِ لِمَجْلَتِهِمْ فِي طَلِبِهَا .

وقوله : يَرْوِيهِ ، أى يَقْبِضُهُ . خَجَلُ : حَيَاءٌ ، وَقَدْ خَجَلَ إِذَا اسْتَحْيَا . يَنْثِيهِ : يَرْوِدُهُ . وَجَلَّ : خَوْفٌ .

محضته ، أى أَخْلَصَتْهُ . تَوَقَّعْتَهُ : حَسِبْتَهُ . وَالْحَمِيمُ : الْخَاصُّ مِنَ الْإِخْوَانِ ، وَالْحَمِيمُ الثَّانِي : الْمَاءُ الْحَارَّ السَّخَنَ .

وَالصَّدِيدُ : الدَّمُ الْخُلْمُطُ بِالْقَيْحِ . أَوْلِيَّتُهُ : أَلْصَقَتْ بِهِ . الْقَطِيعَةُ : الْبَعْدُ . قَالَ : مَبْنُضٌ . الْفَقَا : صَاحِبًا . ذِمَامٌ : عَهْدٌ . بَانَ : تَبَيَّنَ . جِلْفَا : جَانِبَا . ذَمِيَا : مَذْمُومَا . كَلِمَا الْأَوَّلُ مَسْكَكًا ، وَالثَّانِي مَجْرُوحًا .

* * *

[نَبَذَ مِمَّا قِيلَ فِي غَدْرِ الْإِخْوَانِ وَقَوْلَةِ الْوَفَاءِ]

وقد أكَثَرَ النَّاسُ مِنَ اللَّشَكِّ بِغَدْرِ ^(١) الْإِخْوَانِ وَقَوْلِهِ الْوَفَاءَ مِنْهُمْ عَلَى

(١) ديوانه ١٢٠ ، وصدره :

* مِنْهُ نَجَاتٌ وَلَمْ يُوشَبْ بِهِ حَسْبِي *

(٢) اللسان - سبع - وصدره :

* فَعَمَّا أَنْ جَرَى سَمْنٌ عَلَيْهَا *

(٣) ديوانه ٣٠٣ ، وصدره :

* وَصَرَّحَ السَّيْرَ عَنْ كُتْمَانَ وَابْتُذِلَتْ *

(٤) ١ : « مِنْ غَدْرٍ » .

تقديم الزمان وحديثه، ونسوق منه ما يليق بهذا الموضع :
قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى لصديق له : هل بلغك شيء تكره
من لا تعرف؟ قال : لا ، قال : فأقلل بمن تعرف .

الجاحظ : قرئ على باب شيخ من أهل الرى : جزى الله من لا يعرفنا
ولا نعرفه خيراً ، كأنه اتقى من ثقاته .

وقال امرؤ القيس بن حُجر :

إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضىته وقرتُ به العينا بُدلتُ آخرًا^(١)
كذلك جدى ، ما أصاحبُ صاحبًا من الناس إلا خافى وتغيرًا
وقال النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلتهُ على شعثٍ ، أى الرجال المذهب^(٢) !
ولما انحرف ابن الزيات عن إبراهيم بن العباس للصولى ، تحاماه الناس أن
يلقوه ، وكان الحارث بن سنجر صديقاً له ، فهجره من ذلك ، فكتب إليه :
تغير لى فيمن تفسير حارث وكم من خليلٍ غيَّرتُهُ الحوادثُ^(٣)
أحارث إن أشركتُ فيك فطالما نعمنا وما بينى وبينك ثالثُ
وكتب لابن الزيات :

أخى بينى وبين الدهر صاحبُ أينما غلب^(٤)
صديقى ما أستقام فلان نبأ دهرٌ على نبأ
وثبت على الزمان به فماد به وقد وثبا
ولو عاد للزمان لنا لعاد أخاً به حدباً
وكتب إليه أيضاً :

وكنت أخى بإخاء الزمان فلما نها صرت حرباً عواناً^(٥)

(٢) ديوانه ١٤

(٤) ديوانه ١٥٥

(١) ديوانه ٦٩

(٣) ديوانه ١٨٢

(٥) ديوانه ١٦٦

وكنْتُ إِيْلِكَ أَلومَ الزَّمانِ فأصبحتُ فَيْكَ أَلومَ الزَّمانِ
وكنْتُ أَعْدَكَ لِلنَّائِبَاتِ فأصبحتُ أَطْلُبُ مِنْكَ الْأَمَانَا

وقال أبو فراس :

أَقْلَبُ طَرَفِي لَا أَرَى غَيْرَ صَاحِبِ يَمِيلُ مَعَ النِّعْمَاءِ حَيْثُ تَمِيلُ^(١)
وَمِيزَانِي نَأْيَ أَنْ لِلتَّارِكِ مَحْسَنٌ وَأَنْ خَلِيلًا لَا يَضُرُّ خَلِيلُ
تَصَفَّحْتُ أَحْوالَ الرِّجالِ فَلَمْ يَكُنْ إِلَى غَيْرِ شَاكٍ فِي الزَّمانِ وَوُجُوهُ
أَكَلْ خَلِيلَ هَكَذَا غَيْرَ مُنْصَفٍ وَكُلَّ زَمَانٍ بِالْكَرامِ مُنْخِلُ!

وله أيضاً :

إِذَا انْخَلَّ لَمْ يَهْجُرْكَ إِلَّا مَلَأَةٌ فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْفِرَاقَ عَقَابُ^(٢)
إِذَا لَمْ أَجِدْ فِي بَلَدٍ مَا أُرِيدُهُ فَعِنْدِي لِأُخْرَى عِزْمَةٌ وَوَكَاظُ
بِمَنْ يَثِقُ الْإِنْسَانُ فِيمَا يَنْوِبُهُ وَمِنْ أَيْنَ لِلْحَرِّ الْكَرِيمِ صِحَابُ!
وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقْلَهُمْ ذُنَابًا عَلَى أَجْسَادِهِمْ ثِيَابُ

وقال الخباز البلوى :

أَلَا إِنَّ إِخْوانِي الَّذِينَ هَمْدُهُمْ أَقَامِي رِمَالِي لَا تَقْصُرُ فِي اللَّسْعِ
ظَهَنَتْ بِهِمْ خَيْرًا فَلَمَّا بَلَوْتُهُمْ نَزَاتِ بَوَادِي مِنْهُمْ غَيْرَ ذِي زَرْعِ

ولابن هارون القرطبي :

ذَهَبَ الْوَفَاءُ فَلَا وَفَاءَ يَرْجَى تَلَقَى الصَّدِيقُ مِنَ الْوَفَاءِ عُرْيَانًا
يُعْطِيكَ وَدًّا صَادِقًا بِلِسَانِهِ وَيُؤْمِنُ تَحْتَ ضُلُوعِهِ أَلْوَانًا

وقال المعري :

فظنّ بسائر الإخوان شرّاً ولا تأمنَ على سرّ فؤاد^(١)
 فلو خبّرتهم الجواز خُبْرِي لما طلعت مخافة أن تُكادَا
 تجبّبت الأنام فلا أواخي وغبتُ عن الأنام فلا أعادي^(٢)
 ولمّا أن نجمتي مُرادِي جريتُ مع الزّمان كما أرادا
 وهونت الخطوبَ كلّ حتّى كأني صرّت أمنيها ودادا

وله أيضاً :

واخلتُ كالماء يدي لي ضمائرُه مع الصفاء وبخفيها مع الكدر
 وكتب المعتصم^(٣) صاحب المرية إلى ابن عمار :

وزهدني في الناس معرفتي بهم وطولُ اختياري صاحباً بعد صاحب
 فلم تُرني الأيام خلاً كسرّتي مهاديه إلا ساءني في المواقب
 ولا قلت أرجوه لدفع ملّة من الدهر إلا كان إحدى المصابر
 وقال البحتري :

أما المداء فقد أروك نفوسهم فاقصد بسوء ظنونك الإخوانا
 وقال أيضاً^(٤) :

أما العدو فيبيدي ما عنده ويكشف

لكن توقّ وحاذر من الصديق الملائف

وقال منصور بن إسماعيل التميمي الفقيه : قال ابن رشيق :

لو قيل لي خذ أماناً من أحداث الزمان^(٥)

(١) سقط الزند ٥٥٩ (٢) سقط الزند ٥ وزدت على العدو فاعادي .

(٣) هو المعتصم بن حادح ، والأبيات في تمام المتن ٥٤ ، ٥٥ .

(٤) ملحق ديوانه ٢٦٠٩ عن الفريشي (٥) نقله في التنف ٨١

لما أخذت أماناً إلا من الإخوان
وهذا الباب لا يحصى كثرة .

وتظلمته مُعيناً رحيماً * * * فتببته لعيناً رحيماً
وتراءيته مُريداً فجلى عنه سبكي له مريداً لثيماً
وتوسمت أن يهْبَ تسيماً فأبى أن يهْبَ إلا سُموماً
بت من لسمه الذي أعجز الراقي سليماً وبات مني سليماً
وهذا نهجه غداة افرقنا مستقيماً والجسم مني سقيماً
لم يكن رائناً خصيماً ولكن كان بالشر رائناً لي خصيماً
قلت لَمَّا بلوته : لَيْتَهُ كَانِ عَدِيماً ولم يكن لي نديماً
بَغْضِ الصَّبْحِ حينَ نَمَّ إِلَى قَدْحِي لَأَنَّ الصَّبَّاحَ يُبَاقِي نَمُوماً
ودغاني إلى هوى الليل إذ كان سواد الذجى رقيقاً كتوماً
وكنى من بشي ولو فاه بالصّدق أثاماً فيما أتاه ولو ما

قوله : « تظلمته » أى حسبته ، وأبدل من إحدى نونيه ياء .

لعيناً : رحيماً : شيطاناً مبعداً سر جوماً بالنجوم ، وقيل : الرجيم : الرجوم أى
المشتوم المسبوب ، من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ لِمَنْ أَنْتَ لَازِجٌ ﴾ ^(١) ، أى لأسبئك .
وقيل : الرجيم الملعون ، وهو مذهب أهل التفسير ، فمعنى اللعين والرجيم واحد .
تراءيته : ظلمته ، من تراءى لى الشيء : ظهر بعض الظهور . مريداً : محبباً .
جلى : كشف . سبكي : تجرّبي . مريداً : كثير الشر . خبيثاً . لثيماً : وضيع
للقدر خسيس الهمة .

توسمت : ظلمت ، وتوسمت فيه الخير ، أى رأيت فيه سفته ، أى علامته .

والنسيم : الريح اللينة . والستوم : الحارّة . لَسَمَهُ : ضربه . سليم : الأول
 مدهوغ والثاني سالم : ورائع : الأول حسن المنظر ، والثاني مفزع . بلوته :
 جربته . عديماً : غير موجود . يأنى : يوجد . هوى . حُب . رقيقاً : حافظاً .
 يشى : ينمّ . فاه : نطق .

قوله : بنض الصبح ، هو من المثل : الليل أخفى للويل ، وقالوا : أنمّ من الصبح ،
 لأنه يهتك حجاب الظلام . وقال بعض الحكماء لابنه : اجعل نظرك في العلم
 ليلاً لأن القلب في النهار كالطائر ، وهو في الليل ساكن ، فما ألقيت فيه من
 شيء وعاه .

[من أقوالهم في الليل]

فأما أكثر الشعراء فهم إلى الليل أفزع ، ومن النهار أنزع ، لأن الليل
 أجمع لشتات الموم والفكر ، وأجلب لشوارد الأحزان والذكر .
 قال امرؤ القيس :

دليل كموج البحر أرخى سُدُولُهُ قَلَى بأنواع المومر لِيَبْتَلِي^(١)
 وقال اللابئة :

وصدر أراح الليل عازبَهُ تضاعف فيه الحزن من كل جانب^(٢)

وقال قيس بن ذريح :

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لى الليل هزَنِي إليك المضاجع^(٣)
 وقال الطرماح بن حكيم :
 ألا أيها الليل الطويل ألا اصْبِحْ يَصْبِحْ ، وما الإصباح فيك بأروح^(٤)
 بلى إن للمينين في الصبح راحةً لطرحهما طرفيهما كل مطرح

(١) ديوانه ١٨

(٢) ديوانه ٣

(٣) ديوانه ١٠٧

(٤) ديوان المعاني ١ : ٣٤٧ .

وقال ابن المعتز :

لا تلقِ إلا بليلٍ مَنْ تَواصَلُهُ فالشمس نَمَامَةٌ والليل قَوَادُ^(١)
 كم عاشقٍ وظلام الليل يَسْتُرُهُ لآقِ الأحبة والواشوق رُقَادُ
 وقال المتنبي وأجاد :

كم زورةٍ لكفى الأعراب خَافِيَةٌ أدتني وقدرة دوا من زورة الذَّيْبِ^(٢)
 أزورم وسواد الليل يشفع لي وأنثى وبياض الصبح يُغْرِى بي
 وهذا البيت أمير شعره على كثرة الجيد فيه . والبديع فيه أنه قابل الشطر
 الأول بالثاني حرفاً بحرف ، فقابل « أزورم » بقوله : « أنثى » ، و« سواد الليل »
 ببياض الصبح » ، « ويشفع لي » بـ « يُغْرِى بي » .

وحكى ابن جني قال : حدثني المتنبي وقت القراءة قال قال لي ابن حَزَابة
 وزير كافوز : أعلمت أني أحضرت كتبي كلها ، وجماعة من أهل الأدب
 يطلبون من أين أخذت هذا المعنى ، فلم يظفروا به ، وكان أكثر مَنْ
 رأيتُ كَتَبًا .

قال ابن جني : ثم إنني عثرت على للموضع الذي أخذ منه ، فوجدته لابن المعتز
 مصراعاً بلفظ [لَين] صنفه [جداً] جرى فيه معنى بيت المتنبي كله على جزالة لفظه
 وحسن تقسيمه وهو :

* فالشمس نَمَامَةٌ والليل قَوَادُ *

قال: الثعالبي إما أن يكون ألم به فعصمه وزينه ، فصار أولى به ، أو عثر
 على الموضع الذي عثر عليه ابن المعتز فأربى عليه في جودة أخذه ، وإما أن يكون
 قد افترع المعنى وابتدعه ، فله درّه ، وناهيك بشرف لفظه وبراعة نسجه^(٣)
 قال: ولبعض أهل العصر بيت يجمع خمس مطابقات ولا يستقل إلا بإنشاد
 بينين قوله وهو :

عذيري من الأيام مدت صروفها
وأبدت برأسي طالعاً أرى بها
فذاك سواد الخط ينهي عن الهوى
وقال ابن رشيقي :

أيتها الليل طيرٌ بنير جَمَاحٍ
كيف لا أبفضُ الصَّباحَ وفيه
ليس للعين راحةٌ في الصَّباحِ^(١)
بان عني أولو الوجوه للصَّباحِ
وقال المعنى :

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ
وقاك أذى الأعداء تسرى إليهم
تخبر أن المانوية تمكذب^(٢)
وزارك فيه ذو الدلال الحجب
المانوية هم للثنوية ، وهم الذين يقولون : إن الخبر كله من النور ، والشر
كله من الظلام ، فكذبهم بأن وجد الخبر في الظلام حيث ستره من أعدائه ،
ووقاه شرهم ، وكان عوناً على زيارة حبه ، ووجد الضد في النور ، وهذا كله يجري
في نمط بيت الحريري .

* * *

قال : فلما سمع رب البيت قريضه وسجعه ، واستمّح تقرّظه
وسبّحه ، بوّاه مهاذ كرامته ، وصدره على تكمّيته . ثم استحضّر
عشر صحافٍ من الغرب ، فيها حلّوا القندير والضرب ؛ وقال له :
لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، ولا يسع أن يجعل
البري كذي الظنّة ، وهذه الآنية تنزل منزلة الأبرار ،

(١) تزيين الأسواق ٢٠١ ، ديوان الصباية ١٠٩ ونقله في التنف ٢٢٠

(٢) ١ : ١٧٨ ، ١٧٩

فِي صَوْنِ الْأَسْرَارِ ، فَلَا تُؤْلِمُهَا الْإِبَادَ ، وَلَا تُلْحِقْهُ هُودًا بِعَادَ .

* * *

قوله : « قريضة » أى شعره ، وتقدم السجع .

تقريظه وسبعه : المدح والذم ، ويقال : سَبَّعَهُ بِسَبْعِهِ ، إِذَا رَمَاهُ بِقَبِيحٍ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : سَبَعْتُ الذُّئْبَ إِذَا رَمَيْتَهُ ، وَقِيلَ : مَعْنَى سَبَعْتُ قُلْتُ لَهُ قَوْلًا غَمًّا وَذُعُرَ مِنْهُ ، وَيُقَالُ : سَبَعْتُ الْوَحْشَ : ذَعَرْتُهَا ، وَالْأَسَدَ أَفْزَعْتَهُ

بَوَّاهُ : أَنْزَلَهُ ، مِهَادٌ : فِرَاشٌ . صَدْرُهُ : قَدَمُهُ وَأَجَاسُهُ فِي صَدْرٍ وَسَادَتِهِ .

التكرمة : الوسادة وما يجلس الضيف المكرم عليه . ودخل عمر على سلمان رضى الله عنهم فأتى له وسادة ، فقال : ما هذا يا أبا عبد الله ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مامن امرئ مسلم يدخل عليه أخوه المسلم ، فيأتى إليه وسادة إكراماً له وإعظاماً ، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ » .

قوله : « استحضَرَ » : أَمَرَ بِإِحْضَارِهَا . الْغَرْبُ : نَوْعٌ مِنَ الْخَشَبِ كَرِيمٍ . الْقَنْدُ : عَصَاةٌ قَصَبُ السَّكْرِ . وَالضَّرْبُ : الْعَسَلُ الْأَبْيَضُ .

الظُّنَّةُ : الثُّمَّةُ ، أَرَادَ بِالْبَرِيءِ آتِيَةَ الْغَرْبِ ، وَبِالْمُتَّهِمِ جَامَ الزَّجَاجِ .

وَالْأَبْرَارُ : الْأَخْيَارُ . صَوْنٌ : حِفْظٌ . تُؤْلِمُهَا : تَلْعَقُ بِهَا .

عاد : قوم هود ، وأراد : لاتساو بين هود وهو مؤمن ، وبين قوما وهم كفار ، فهم أضداد كالبريء والمتهم ، فقد خرج من نوعهم ، وإن كانت جنسية الآدمية والقرابة تجمعهم ، وكذلك الزجاج والفَرْبُ يجتمعان في الآنية والوعاء ، ويختلفان في الاحتواء على ما فيهما من الإخفاء والإظهار .

* * *

[ذكر هود عليه السلام وقومه]

وهو هود بن عابر بن شالخ بن أرنخش بن سام بن نوح . وعاد هو ابن عوص

ابن لارم بن سام بن نوح، وكانوا أهل أوثان ثلاثة يعبدونها من دون الله، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة باليمن، فدعاهم هود إلى عبادة الله تعالى، فكذبوه وعصوه، وكانوا جبابرة أفوياء، طول الرجل منهم مائة ذراع، وطول أقصرهم ستون ذراعاً، قال الله تعالى: ﴿وَزَدَاكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾^(١). أى عظاماً وطولاً وقوة وشدة، وعظهم هود عليه الصلاة والسلام، وقال لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةٍ تَعْبَثُونَ...﴾^(٢) الآية، فكان جوابهم أن قالوا: ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾^(٣)، وقالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾^(٤). وقالوا: ﴿يَا هُودِ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ...﴾^(٥) الآيات، واستكبروا ولم يؤمنوا، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين حتى جُهدوا.

فأوفدوا وفداً يستسقون لهم، فبعثوا قنيل بن عنز، ونعيم^(٦) ابن هزال، ومرثد بن سعد، وكنيته أبو سعد، وجُهْلَة بن الخبيري، ولقمان بن عاد، ومع كل رجل منهم رهط من قومه، فلما قربوا من مكة نزلوا على معاوية بن بكر المقبلي - وكانوا أخوالاً له وصهراء - فأنزلهم وأكرمهم شهراً، يشربون الخمر وتمنيهم قينتان له يقال لهما: الجرادتان. فلما رأى معاوية طول مقامهم عنده؛ وقد بعثهم قومهم للبلاء الذي نزل بهم شق عليه ذلك، وقال: هلك أصهارى وأخوالى، والله ما أدرى ما أصنع بهم! ولما استعجى أن أمر بالخروج من عنده فيظنون أنه ضاق بى مقامهم عنده، فقال شعراً وأعطاه للجرادتين ففنتاهم به، وهو:

ألا يا قنيلُ ويحك قم فهينمُ اعمل الله يُصَبِّحُنَا غَماما
فيسقى أرضَ عادٍ إن عاداً قد أمسوا لا يُبَيِّنُونَ السَّكلاما
وإن الوحش تأتيتهم جباراً فلا تخشى لعاديتهم سِهاما

(١) سورة الأعراف آية ٦٩ . (٢) سورة الشعراء ٢٨

(٣) سورة فصات ٦٥

(٥) سورة هود ٥٣

(٤) سورة الشعراء ١٣٦

(٦) الطبرى « القيم » .

وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيمَ اشْتَيْتُمْ نَهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمْ التَّامَّامَا
فَقَبِّحْ وَفَدِّحْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ وَلَا تُقُوا الصَّحِيَّةَ وَالسَّلَامَا
فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنَّمَا بَعَثَكُمْ قَوْمَكُمْ لِمَا نَزَلَ بِهِمْ ، فَادْخُلُوا الْحَرَمَ .
فَاسْتَسْقُوا ، فَقَالَ مَرْثَدُ بْنُ سَعْدٍ : وَاللَّهِ لَا تَسْقُونَ حَتَّى تَطِيعُوا نَبِيَّكُمْ ، فَقَالَ لَهُ جَهْلَمَةُ :

أَبَا سَعْدٍ وَإِنَّكَ مِنْ قَبِيلِ ذِي كَرَمٍ وَإِنَّكَ مِنْ ثَمُودٍ
أَتَأْمُرُنَا لِنَتْرِكَ دِينَ رِفْدٍ^(١) وَزَمَلِ آلِ صَدِّ وَالْوَفُودِ^(٢)
وَنَتْرِكَ دِينَ آبَاءِ كَرَامٍ ذِي رَأْيٍ وَنَتَّبِعَ دِينَ هُودَا
فَإِنَّا لَا نَطِيعُكَ مَا بَقِينَا وَلَسْنَا فَاعِلِينَ لِمَا تَرِيدُ

ثُمَّ قَالَ لِمَعَاوِيَةَ : امْسِكْ مَرْثَدًا عَنَّا ، لَا يَدْخُلَنَّ مَكَّةَ مَعَنَا وَهُوَ عَلَى دِينِ هُودٍ .
فَدَخَلُوا مَكَّةَ ، وَخَرَجَ مَرْثَدٌ ، فَأَدْرَكَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَدْعُوا ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَا تَدْخُلْنِي
فِي شَيْءٍ تَمَّا يَدْعُوكَ بِهِ وَفَدُّ عَادَ .

وَقِيلَ : قَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هُودٌ صَادِقًا فَاسْقِنَا ، فَقَدْ هَلَكْنَا ، فَأَنْشَأَ اللَّهُ
سَحَابًا ثَلَاثًا : بَيْضَاءَ ، وَحُمْرَاءَ ، وَسُودَاءَ ، وَنَوْدَى مِنَ السَّحَابِ : يَا قِيلَ ،
اخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ وَقَوْمِكَ ، قَالَ : لَقَدْ اخْتَرْتُ السَّحَابَةَ السُّودَاءَ ، لِأَنَّهَا أَكْثَرُ لِلْسَّحَابِ
مَاءً . فَنَوْدَى : اخْتَرْتُ رَمَادًا رَمْدًا^(١) ، لَا يُبْقِي مِنْ عَادٍ أَحَدًا ، فَسَاقَ اللَّهُ سَبْعَانَهُ
وَتَعَالَى السَّحَابَةُ السُّودَاءُ إِلَى عَادَ ، فَاسْتَبَشَرُوا ، وَقَالُوا : هَذَا عَارِضٌ مُمَطِّرٌ ، فَسَخَرَتْ
عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ رِيحٌ صَرَصَرٌ ، فَلَمْ تَدَعْ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ .

وَلَمَّا خَرَجَتْ الرِّيحُ عَلَيْهِمْ ، قَالَ سَبْعَةٌ مِنْهُمْ : تَعَالَوْا نَفْعَلْ عَلَى شَفِيرِ الْوَادِي
فَتَرُدُّهَا ، فَجَمَعَتِ الرِّيحُ تَأْخُذُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ فَتَرْمِيهِ حَتَّى يَدْقَ عُنُقَهُ ، فَتَرَكْتُهُمْ كَمَا
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ ﴾^(٢) . وَاعْتَزَلَ هُودٌ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ

(١) الطبري : * : والعبود *

(٢) سورة الحاقة آية ٧

(٣) ط : * : وممدداً * وصوابه من تاريخ الطبري

للمؤمنين في حظيرة ، ما يصيبهم منها إلا نسيمٌ يُلينُ البشرة ، وتلذذ الأنفس ، وإنها لتمرّ من عاد بالظمن بين السماء والأرض .

ورجع وفد عاد ، فنزلوا على معاوية ، فأتاهم راكب على ناقه في الليلة الثالثة من مصابهم ، فأخبرهم الخبر ، قالوا : وأين فارقت هود ؟ قال : بساحل البحر ، وخُيّرُوا حين دعوا بمكة لأنفسهم ، قال لقمان : يا ربّ أعطني عمراً ، فعمره الله عمر سبعة أنسر ، يأخذ الفرخ إذا خرج من بيضته فينذبه حتى يموت ، ثم يأخذ آخر حتى يبقى السابغ ، فقال له ابن أخيه : ما بقي من عمرك ؟ قال : عمر هذا النّسر ، وهو لبّد - ولبّد بلسانهم - الدهر . فلما لم يستطع لبّد النهوض مع النّسور ، أيقن لقمان بالموت ، فأتاه جيمًا .

واختار قبل أن يصيبه ما أصاب قومه ، فاقتلعت الرّيح فقتلته .

وقال مرثد : يا ربّ أعطني براً وصدقا وعمر هود ، فعمر مائة وخمسين سنة ^(١)

* * *

ثم أمر خادمه بنقلها إلى مشواه ، ليحكّم فيها بما يهواه . فأقبل علينا أبو زيد ، وقال : اقروا سورة الفتح ، وأبشروا بأنديمال القرّح ؛ فقد جبرّ الله مُكَلِّسَكُمْ ، وسنّى أكلَكُم ، وجمّع في ظلّ الخلواء شملَكُم ، وعسى أن تكررُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم .

ولما همّ بالانصراف ، مال إلى استهزاء الصحاف ، فقال : لا أدب : إن من دلائل الظرف ، سباحة المهدي بالظرف ، فقال :

(١) الخبر في تاريخ الطبري ١ : ٢١٩ - ٢٢٢ - أبسط وأطول :

كَلَامُهَا لَكَ وَالْغُلَامِ ، فَاحْذِفِ الْكَلَامَ ، وَانْهَضْ بِسَلَامٍ . فَوَثَبَ
فِي الْجَوَابِ ، وَشَكَرَ شُكْرَ الرُّوضِ لِلْسَّحَابِ .

* * *

قوله: « مثواه »، أى منزله . وقال: اقرءوا سورة الفتح، أى لأن الله سبحانه
وتعالى قد فتح عليكم . اندمال القرع: الجرح جبر: أصلح . ثكلكم: حزنكم
على فقدكم الخلاء بسببي ، والخلاء: كل طعام عولج بحلاوة ، وتمدّ وتمهر .
شملكم: عددكم المفقود . وفى معنى الآية قال بعضهم :

لَا تَكْرَهُ الْمَكْرُوهَ عِنْدَ نَزْوِهِ إِنْ الْكَارِهُ لَمْ تَزَلْ مُتَبَايِنَةً
كَمْ مِنْ بَدْرٍ لَا تَسْقُطُ بِشُكْرِهَا اللَّهُ فِي طَيِّ الْمَكَارِهِ كَامِنَةٌ
الآدِيبُ : صَاحِبُ الْعَرَسِ .

الظَّرْفُ : جُودَةُ الرَّأْيِ . الْأَصْمَى وَابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : الظَّرِيفُ : الْبَلِيعُ الْجَدِيدُ
الْكَلَامِ ، وَقَالَا : الظَّرْفُ فِي اللِّسَانِ ، وَاحْتِجَا بِقَوْلِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْهُ أَنَّهُ إِذَا
كَانَ الرَّجُلُ ظَرِيفًا لَمْ يَقْطَعْ ، أَوْ إِذَا كَانَ بَلِيعًا احْتِجَّ عَنْ نَفْسِهِ بِمَا يَسْقُطُ عَنْهُ
الْحَدُّ ، قَالَ الْكَسَاؤِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : وَفِي الْوَجْهِ ، يُقَالُ لِسَانٌ ظَرِيفٌ وَوَجْهٌ ظَرِيفٌ .
غَيْرُهُ : الظَّرِيفُ الْحَسَنُ الْوَجْهَ وَالْهَيْئَةَ .

الْمَهْدِيُّ : مَرْسَلُ الْمَهْدِيَّةِ ، وَالظَّرْفُ : الْوَعَاءُ . احْذَفْ : اقْطَعْ بَعْضَهُ . انْهَضْ :
تَقَدَّمَ . وَثَبَ : بَالِغٌ وَعَجَلٌ جَوَابُهُ . الرُّوضُ : مَوْضِعُ الْعُشْبِ وَالْأَنْوَارِ .

* * *

ثُمَّ انْتَادَنَا أَبُو زَيْدٍ إِلَى حِوَانِهِ ، وَحَكَمَنَا فِي حَلَوَاتِهِ ، وَجَعَلَ
يُقَلِّبُ الْأَوَانِي بِيَدِهِ ، وَيَفْضُ عَدَدَهَا عَلَى عَدَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ :
لَمَسْتُ أَذْرِي أَأَشْكُو ذَلِكَ النَّعَامَ أَمْ أَشْكُرُ ، وَأَتَنَاسَى فَعَلْتُهُ أَلَيْ

فَعَمَلَهَا أَمْ أَذْكَرُ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ أَسْلَفَ الْجَرِيْمَةِ، وَنَمَنَّمُ النَّمِيْمَةَ، فَمِنْ
غَيْمِهِ انْهَلَتْ هَذِهِ الدَّيْمَةُ، وَبَسِيفِهِ انْحَازَتْ لِي هَذِهِ الْغَنِيْمَةُ. وَقَدْ خَطَرَ
بِيَالِي، أَنْ أَرْجِعَ إِلَى أَشْبَالِي، وَأَقْنَعَ بِمَا تَسَنَّى لِي، وَأَلَّا أُتِيبَ نَفْسِي
وَلَا أَتَجَالِي، وَأَنَا أُوْدِّعُكُمْ. وَدَاعٌ مُحَافِظٌ، وَاسْتَوْدِعُكُمْ خَيْرَ حَافِظٍ.
ثم استوى عَلَى رَاحِلَتِهِ، رَاجِعًا فِي حَافِرَتِهِ، وَلَاوِيًا
إِلَى زَافِرَتِهِ .

فَقَادَرْنَا بَعْدَ أَنْ وَخَدَتْ عَنَسُهُ، وَزَايَلْنَا أَنْسُهُ، كَدَسْتُ
غَابَ هَنَّهُ صَدْرُهُ، أَوْ لَيْلِ أَفْلَ بَدْرُهُ .

* * *

حواؤه : موضعه ، والجِواء : أخبية قريب بعضها من بعض . ويفضّ :
يفرق . وأسلف الجريمة : قدّم الذنب . نَمَنَّم : زَيْنَ، والنَمِيْمَةُ : اللَفَش . غَيْمِهِ :
سحابة . انْهَلَتْ : سالت . الدَّيْمَةُ : العطية هنا ، وانظر معنى هذا الشك الطارئ
عليه في السابعة والمشرين في قوله :

* يا أَخِي الْحَامِلَ ضَيِّبِي *

محافظ : راعٍ للودعة . أَسْتَوْدِعُكُمْ : أَرْكُم وديعة في يده . خير حافظ :
هو الله سبحانه وتعالى بشير لقوله تعالى : ﴿ فَاللهُ خَيْرُ حَافِظًا ﴾ ^(٢) . استوى عليها ،
أى ركبها ، وقال في الدرة ^(٣) : الراحلة تقع على الجمل والفاقة ، والماء فيها للمبالغة .
كالتى فى داهية وراوية ، وسميت راحلة لأنها تُرَحَّل ، أى يشد عليها الرَّحْل ،
فهى فاعلة بمعنى مفعولة ، كما جاء فى التنزيل : ﴿ عَيْشَةُ رَاضِيَةٌ ﴾ ^(٣) ، بمعنى مرضية ،

(٢) درة العواس ٢٨١ (طبعة الحسينية) .

(١) سورة يوسف ٦٤

(٣) سورة الحاقة ٢١

﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(١)، أى لا معصوم ، و﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾^(٢) أى مدفوق، و﴿حَرَمًا آمِنًا﴾^(٣) أى مأموناً، كما جاء مفعول بمعنى فاعل فى قوله تعالى: ﴿حِجَابًا مُسْتَوْرًا﴾^(٤) أى سائراً ، ﴿وَكَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾^(٥)، أى آتياً .

فى حافرته : فى الطريق الذى جاء منه . لاويًا : عاطفًا . زافرتة : قرابته .
وخذت : أسرع . عنسه : ناقته الصلبة ، ومنه عنست المرأة ، إذا طال مكثها
لا تنزوج . زابلنا : فارقنا . دست : مجلس . صدره : أعيانه . أفل : غاب .

(١) سورة هود ٤٣

(٣) سورة القصص ٥٧

(٥) سورة مريم ٥١

(٢) سورة الطارق ٦

(٤) سورة الإسراء ٤٥

المقامة التاسعة عشرة وهي النصيبية

روى الحارث بن همام ، قال : أَنَحَلَ الْعِرَاقُ ذَاتَ الْعَوْنِ ،
لِإِخْلَافِ أَنْوَاءِ النَّيْمِ ، وَتَهَدَّتِ الرِّكْبَانُ بَرِيفَ نَصِيبِينَ ، وَبُلْهَنِيَّةِ
أَهْلِهَا الْمُخَصَّبِينَ .

أَحل : أَجذب ، أى لم ينزل فيه مطر . لإِخْلَافِ الأنواء ، يريد النجوم التى من
عافئها أن تطلع بالمطر ، وأُخْلِفَتْ : لم تنجى بمطر . الرِّكْبَانُ : أهل الأسفار . ريف : خصب .

[ذكر مدينة نصيبين]

نصيبين مدينة ديار ربيعة المظلى ، وهى مطلة على جبل الجودي الذى
استوت سفينة سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام عليه ، وهو جبل عال مستطيل .
أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « زُوتَ لى
الأرض ، فرأيت مدينة أعجبتنى ، فقلت : يا جبريل ، أى مدينة هذه ؟ قال :
نصيبين ، فقلت : اللهم عَجِّلْ فتحها » .

قال اليمقوبى : هى مدينة عظيمة كثير الأنهار والجفات والبساتين ، ولها نهر
عظيم يقال له الهرماس ، عليه قناطر حجارة قديمة رومية ، وأهلها قوم من ربيعة
من بنى قنبل ، أفتتحها غنم بن عياض فى خلافة عمر رضى الله عنهما سنة
ثمان عشرة .

قال شيخنا ابن جبير ^(١) : مدينة نصيبين شهيرة المتأقاة والقِدَم ، ظاهرها شباب ،
وباطنها هَرَم ، جميلة المنظر ، متوسطة بين الكبير والصَّغَر ، أمامها وخلفها بسيط
أخضر مد البصر ، قد أجرى الله فيه مذائب من الماء تسقيه ، وتطارد فى نواحيه ،

(١) رحلة ابن جبير ٢١٧ .

وتحفّ بها عن يمين وشمال بساتين ملقّنة الأشجار ، بإنة الثمار . وينساب بين
يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السّوار ، والحدائق تنظم حافتيه ، وتفيّ
ظلالها الوارفة عليه ، فرحم الله أبانواس حيث يقول :

طابت نصيبين لي يوماً فطبتُ لها كَيْتَ حظي من الدنيا نصيبين^(١)

نخارجها رياضيّ الشّائل ، أندلسي الخائل ، برق نضارة وغضارة ، ويأتلق
عليه رونق الحضارة . وداخلها شعث البادية بادية عليه ، فلا مطمح للبصر إليه ،
لأتجد العين فيه فسحة مجال ، ولا مسحة جمال . وهذا للنهر ينساب^(٢) إليها من عين
معينة ، منبعا بجبل قريب منها ، تنقسم منها مذائب تحترق بسائطها وعماؤها ،
ويتخلّل البلاد منها جزء يفترق على شوارعها ، ويلج في بعض ديارها ، ويحترق
جامعها^(٣) منه ميزاب ينصبّ في صهريجين ، أحدهما وسط الصحن ، والآخر عند
الباب الشرقي ، ويفضي إلى سقايتين حول الجامع . وعلى النّهر جسر معقود من
صمّ الحجارة ، متّصل بباب المدينة القبلي ، وفيها مدرستان ومارستان واحد .

* * *

قوله : وبلهنية أهلها الحصين ، للبلهنية : رخاء العيش .

[ذكر أشعار مستحسنة في أوصاف الرياض]

ونريد أن نصل ما نذكره من خصب نصيبين بأشعار مستحسنة في أوصاف
الرياض تقع كالصفة لها ، قال إبراهيم بن العباس الكاتب :

تأمل سماء أظلت عليك فيها مصابيحها تزهر^(٤)

وأرضا تقابلها بالتمرو من والرج بينهما جعفر^(٥)

ومسحب نور غداة الربيع أنفاسه المسك والعنبر

(١) ابن جبير : « يسرب » .

(٢) ابن جبير : « ويصل إلى جامعها المكرم عنه سرب يخرق صحنه » .

(٣) ديوانه ١٣٣ (٤) الديوان : « شمسها جعفر »

خلال شقائقه أصفرُ
والماء مطرُذٌ بينها
ولقناتٍ بأكنافه
يشارفه البرّ من جانب^(١)
مجال وحوش ومرسى سفين
ويحسن دنيا وياعزّملك
إمامٌ به أمرُ الآمرو
وأضفافُ أصفره أحرُ
يضيق بأذيه المصدّر
دواعي اشتياقٍ ومستعبرُ
ومن جانب بحره الأخضرُ
فياعذب لهو وبامنظر^(٢)
بسوسهم الملك الأكبر
نَ بالعرفِ واسفكير المنكرُ

وأنشد السيرافي :

ومجلس فتيانٍ إلى جنب حافة
تناصي^(٣) مياديناه أحدثت به
وحفّ بريحان وكرمٍ معرّش
ووردٍ ونسرٍ وآسٍ وسوسن
تزعرفُ بالتّوار حتى كأنما
وقال كشاجم :

وروضة صنفَ الأنوار جوهره
كان ما تجتنيه من زخارفها
ما انفكّ للعين فيها أعين ذرّفُ
حتى كأنّ أمانين النبات بها
فيها فاشتت من حُسن ومن طيب
أخلاق مستحسن الأخلاق محبوب
تبكي بدمع من الأنواء مسكوب
على الليادين ألوانُ اليعاسيب

(١) الديوان : « يساوقه » .

(٢) رواية الديوان :

مجال وحوش ومرق أنيس فياعزف كهو وبامنظر
(٣) ط « تناصي » تحريف

كان غُدرانها بالروضِ محذرةً تحبير ثوبٍ من اللوثى منصوبٍ
ولتميم بن المعز^(١) :
وقاذفة بالماء في وسطِ بركةٍ قد التفتت لحفا من الظلِّ سَجَسَجاً^(٢)
إذا اقْدَفَتْ بالماءِ سَلْعَهُ مُنْصَلَاً^(٣) وعاد عليها ذلك التصل هو دَجَا
تحاول إدراك النجوم بقذفها كأنَّ لها قلباً على الجوى محرَّجاً
لدى روضة جاد السحاب ربوعها فزخرها بين الرياض ودَبَجَا
على زرجس غَضٍّ بلا حظ سوسنا وآسٍ ربيعيٍّ يفاغى بنفسجاً
كان غُصون الأفحوان زمرد تعمَّم بالكافور ثم تتوَّجَا
ونوار نَشْرين كأنَّ نسيمه من المسك في جوِّ السماء تَارَجَا

قال أبو البختري^(٤) : تعرضت لأبي فحمة^(٥) - وكان مجنوناً ببغداد - له
بديهة حسنة ، قلت له : كيف أنت يا أبا فحمة ؟ فأنشأ يقول :

أصبحتُ منك على شفا جُرْفٍ متعرِّضاً لموارد التلّفِ
وأراك نحوى غير ملتفتٍ متحرِّفاً عن غير منحرَفِ
يامنَّ أطلال بهجره كلّفى أسفى عليك أشدُّ من كلّفى
فأخرجت قبضة زرجس من كى ، فأخذها وشمها ملياً ، وأنشأ يقول :
لما تزوّجت الجنوب بهاطلٍ حوّنٍ هتونٍ زبرج دلاح
أضحى يلقيها بوسمى العنبِ فاستثقلت حملاً بغير نكاح
حتى إذا حان الخاض تفجّرت فأتت بوُدّانٍ بلا أرواح
حاك الربيع لها ثياباً وشيّت بيد التندى وأنامل الأرواح

(١) ديوانه ٨٨

(٢) الديوان « وحفا » ، والسجسج : الذى ليس فيه حرمة ذولاقر .

(٣) الديوان : « رده منصلا » ، والمنصل : السيف

(٤) الخبزي المقد ٦ ، ١٧٠ ، وفي الأصول : « البختري » وصوابه ما في المقد .

(٥) كذا في المقد ، وفي الأصول « فحمة » بالقاف

من أصفر في أزهرٍ قد زانهُ تنجّر على وَرَقٍ من الأوضاح
رُكْبَنَ في عقد الزَّبَرِ جَدَفاً غدى نحو الفسزاة ناظراً بملاح
* * *

[فصل في ذكر ما يستحسن من أشعار الجانين]

ويتصل بهذه الحكاية فصلٌ في ذكر ما يستحسن من أشعار الجانين ،
فإن أبا محمد قد ذكر في هذه المقامة للمصايين ، وذكر الجانين في غيرها ، لثلاث مآخذ
بما شرطنا . قال بعض الأدباء ^(١) : كان رجلٌ من أهل الأدب ، قد ذهب عقله
بالحبة ، [وخلفه دابة تدور معه ، فاستوقفته] ^(٢) وقلت له : يا أبا فلان ، ما حالك ،
وأيन النعمة ؟ قال : تنجّر قلبي بالحب ، فتغيرت النعمة ، ثم بكى وأنشأ يقول :

أرى التبعّل شيئاً لستُ أحسنهُ وكيف أخفى الهوى والدمع يعلفهُ
أم كيف صبر محبٍ قلبه دَنَفٌ الشوق يُنعله والهجرُ يحزنه
ولأنه حين لا وصلٌ يساعفه يهوى السلوة ، ولكن ليس يمكنهُ
وكيف ينسى الهوى مَنْ أنت فتنته وفترة اللحظ من عينيك تفتنه

قلت : أحسنت والله ، قال : قف قليلاً ، فوالله لأطرحن في أذنيك أدباً
أفعل من الرصاص ، وأخف على الفؤاد من ريش النعام ^(٣) ، فوقفت ، فأنشد :

لحَبّ نار على قلبي مضرمةٌ لم تبلغ النارُ منها عُسْرَ معشارِ
للماء ينجع منها في محاجرنا بالرجال لساء فاض من نارِ
وأنشد أيضاً :

أعاد الصدود فأحيا الغليلاً وأبدى الجفاء فصبراً جميلاً

(١) العقد ٦ : ١٧١ ، ونسب الخبر إلى أبي بكر الوراق

(٢) من العقد

(٣) العقد « الحواصل » .

وأحسب نفسي على ما ترى ستلقى من الهجر غما طويلا
وأحسب قلبي على ما بدا سيذهب مني قليلا قليلا
قال الحسن بن هاني: رأيت مانيا الموسوس فأفشدني:

شعر حتى أتناك من لفظ ميتٍ صار بين الحياة والموت وقفاً^(١)
قد برت جسمه الحوادث حتى كاد عن أعين البرية يخفى
لو تأملتني لتبصر شخصي لم تبين من الحاسن حرفاً

ثم أتيت جعفران الموسوس، وهو شيخ كبير من بني هاشم، عليه
قطيفة، وفي عنقه غل من ذهب، فقال: من أين جئت يا حسن؟ قلت: من
بيت مانويه: فقال: في حر أم مانويه! وقال لي اكتب:

ما غرد الديك ليلاً في تنبيهه إلا حثت إليك السير تجموداً^(٢)
ولا هدت كل عين لدرأقدها بنومة في لذيذ العيش ممهوداً
إلا امتطيت الدجى شوقاً إليك ولو أصبحت في حلق الأفياد مصفوداً
أسمى مخاطرة بالنفس يا أملي والليل مدرع أنوابه الشودا
فلم ترق ولم ترث لدى دنف زودته حرقات القلب تزويداً
هيات لا غدر في جن ولا بشر من الخلائق إلا فيك موجوداً

ثم قال لي: خرق رقعة مانوية، نفرقها، ثم مضيت فلقيت عرددا المصاب،
وحوله الصبيان، وهو يلطم وجهه، ويقول: يا أيها الناس، الفراق مرّ
المذاق، قلت: أبا محمد، من أين أقبلت؟ فقال شيعت الحاج إذ كان لي فيهم
سكن^(٣)، وقلت في ذلك:

(٢) العقد ٦ : ١٧١

(١) العقد ٦ : ١٧٠

(٣) سكن، أي أهل دار.

مُ ارحلوا يومَ الخميسِ غَدِيَّةً وودعتهم لَمَّا استَقَلُّوا وَوَدَّعُوا
 فلما تَوَلَّوْا وَلَّتِ النَّفْسُ مَنَّهُمْ فقلت: ارجعي قالت: إلى أين أرجع؟
 إلى جسدٍ ما فيه لحم ولا دمٌ وما هو إلاَّ أعظمُ تَقَفُّعٍ
 وعينان قد أهماهما الحزن والبُكَاءُ وأذن عَصَتْ عُدَّاهما ليس تَسْمَعُ

وجعيفران من مجانين الكوفة ، أعطاه رجل درهما ، وقال له : قل شعرا
 على قافية الجيم ، فقال بديها :

عَادَنِي اللَّهُمَّ فَاعْتَلِجْ كُلَّ هَمٍّ إِلَى فَرْجٍ^(١)
 سَلِّ عَنْكَ الْمُحْمومَ بِالْكَايِنِ وَالرَّاحِ تَنْفَرِجْ

وهو القائل :

ما جفرتُ لأبيه ولا له بِشَبِيهِ^(٢)
 أضْحَى لِقَوْمٍ كَثِيرٍ فَكَلَّهْمُ بِدَعِيهِ
 هذا يقولُ بُنَيَّ وَذَا يَخَاصِمُ فِيهِ
 وَالْأُمُّ تَضْحَكُ مِنْهُمْ لَعَلِمَهَا بِأَيْسِهِ

وقال ماني :

مِنَ الظَّهَاءِ ظَبَاءٌ عَمَّهَا السُّحُبُ وَحُلِيِّهَا الدُّرُّ وَالْمَاهِقُوتُ وَالذَّهَبُ^(٣)
 بِأَحْسَنِ مَا سَرَقَتْ عَيْنِي وَمَا انْتَهَبْتُ وَالْعَيْنُ تَسْرِقُ أَحْيَانًا ، وَتَنْتَهَبُ
 إِذَا يَدٌ سَرَقَتْ فَالْحَدَّ يَقْطَعُهَا وَالْحَدَّ فِي سَرَقِ الْتَيْنِ لَا يَجِبُ

(١) المقدم ٦ : ١٦٥

(٢) المقدم ٦ : ١٦٥

(٣) المقدم ٦ : ١٦٩

وله أيضاً :

له وجنات في بياض وحررة غافاتها بياض وأوساطها حمر^(١)
 رفاق يحول الماء فيها كأنها زجاج أجبلت في جوانبها الحمر
 وأشعار المجانين في هذا الباب أكثر من أن تحصى.

* * *

فَاقْتَمَدْتُ مَهْرِيًّا ، وَاعْتَقَلْتُ مَمْهَرِيًّا ، وَسِرْتُ تَلْفِظِي أَرْضُ إِلَى
 أَرْضٍ ، وَيَجْذِبُنِي رَفْعٌ مِنْ خَفَضٍ ، حَتَّى بَلَغْتَهَا تَقْضًا عَلَى تَقْضٍ .
 فَلَمَّا أُنْخْتُ بِمَغْدَاهَا الْخَصِيبِ ، وَضَرَبْتُ فِي مَرْعَاهَا بِنَصِيبٍ ، نَوَيْتُ
 أَنْ أَلْقِي بِهَا جِرَانِي ، وَأَتَّخِذَ أَهْلَهَا جِيرَانِي ، إِلَى أَنْ تَحْيَا السَّنَةُ الْجَدَادُ ،
 وَتَتَعَمَّدَ أَرْضَ قَوْنِي الْعِمَادُ ، فَوَاللَّهِ مَا تَمَضَّمَصَتْ مُقْلَتِي بِنَوْمِهَا ،
 وَلَا تَمَخَّضَتْ لَيْلَتِي عَنْ يَوْمِهَا ، دُونَ أَنْ أَلْفَيْتُ أَبَا زَيْدٍ السَّرُوجِيَّ
 يَجُولُ فِي أَرْجَاءِ نَصِيبِينَ ، وَيَخْبِطُ بِهَا خَبْطَ الْمُصَابِينِ وَالْمُصِيبِينَ ،
 وَهُوَ يَنْثُرُ مِنْ فِيهِ الثَّرَرُ ، وَيَحْتَلِبُ بِكَفِّهِ الدَّرَرَ . فَوَجَدْتُهَا
 جَهَادِي قَدْ حَازَ مَغْنَمًا ، وَقِدْحِي أَلْفَذًا قَدْ صَارَ تَوْءَمًا ، وَلَمْ أَزَلْ أَتَّبِعْ
 ظِلَّهُ أَيَّمَا أَنْبَعَثَ ، وَالتَّقِطُ لَفْظُهُ كَلَمًا نَفَثَ ، إِلَى أَنْ عَرَاهُ مَرَضُ
 أَمْتَدَّ مَدَاهُ ، وَعَرَفْتُهُ مُدَاهُ ، حَتَّى كَادَ يَسْلُبُهُ الْمَغْيَا ، وَيُسْلِمُهُ إِلَى
 أَبِي يَغْيِي .

* * *

قوله : « اقتمدت مهرياً » ، أي ركبت بعيراً منسوباً إلى مهرة ، قبيلة من قضاة ،
 إبلهم أنجب الإبل ، زعموا أنه كان يلقبها الوحش ، وهي إبل متوحشة

صنار بيض ، تكون بين عُثْمَانَ وَالشَّحْر ، وتزعم العرب أنها لإبل الجن لسرعتها ، فبقيت أنسأها في بنى مَهْرَة . قال أبو عبيدة : للهرية من الإبل تسير أربعمائة ميل كل يوم ، ثم نسبت العرب إلى مَهْرَة كل بدير نجيب .

اعتقلت : حبست ، والاعتقال : أن تحبس الرَّمَح بين ركابك وسافك .
تلفظني : ترميني . رفع : مرتفع : خفض : منخفض . يجذبني : يسوقني لنفسه .
نفضاً على نفض : هزيل على هزيل ؛ وأخذ هذا اللفظ من قول أبي الشَّيْص
يصف شدة السهر :

أَكَلَّ الوجيفُ لحومهم ولحومها فأتوك أنقاضاً على أنقاضٍ
ولقد أتتك على الزمان سوا خطأ فرجعنَ عنك وهنَّ عنه رَوَاضِي

وقال حبيب في معناه :

وركب يساقون للركاب زجاجة من السَّيْرِ لم تَقْصِدْ لها كَفَّ قَاطِبٍ^(١)
وقد أكلوا منها الفوارب بالسرى وصارت لها أشباحهم كالنوارب
ولحبيب أيضاً :

وركب كأمثال الأسنة عرسوا على مثلها والليل نسطوكوا كِبَّةً^(٢)
على كلِّ روادٍ للملأط تهدمت عريكته للعلياء وانضمَّ جانبُه^(٣)

(١) ديوانه ٤١ ، والقاطب : مازج الماء .

(٢) ديوانه ٤٤ ، وفيه : « غياهبه » وبعده هناك

لأمرٍ عليهم أن تَمَّ صدوره وليس عليهم أن تَمَّ هواقبه
(٣) رواد : يذهب ويحيى ، والملأط : رأس الكنف . عريكته : سنامه .

رعته النياقي بعدما كان حقة رعاها ، وماء الازن ينهل ساكبه^(١)
فكم جزم وادجَب ذروة غارب وبالأمس كانت أتمكته مذائبه^(٢)

قوله : « أنخت » بركت . معناها : موضع سكنها . نويت : قصدت . جرائى صدرى ، والجريان : باطن عنق البعير ، يقول : لما أخذ نصيباً في مرعاها ، أضمر أن يقيم بها ريثما يأتى أرضه المطر . الجداد : التي لا مطر فيها . تتمهد : تتفقد وتزور . المهاد . كثرة المطر .

وتمحضت العين بالنوم ، إذا خالطها ودب فيها ، وتمحضت المرأة : أضرت بها وجع الولادة ، وتقول : تمحضت للرأء عن زوجها إذا تحملت بالولد عنه ، وتمحضت بولدها إذا تحركت به ودنت ولادتها ، وإذا استعير هذا المعنى ليلية صار تمحضها عن اليوم للسابق لها ، كأن اليوم أتى في الليلة ما كان فيه من الحيوان فتحركت به ؛ فيريد أنه لم ينقض يومى الذى وردت فيه نصيبين حتى وجدت فيه أبا زيد قبل أن أدخل في ليلتى ، ولأجل هذا قال قبل هذا : تمحضت مقاتى بنومها ، أراد أنه لقيه قبل الليلة التى ينام فيها ، ولو قال : تمحضت بيومها للزم أن يكون اليوم الذى يأتى بعدها ، كأنها كانت تحمله فتلده إذا طلع صبحه من حيث أنه متصل بها ، ولو جعلت « عن » بمعنى الباء لانتاب إلى هذا للمعنى ، وإنما دل الكلام على صحة المعنى الأول ، وأصله التمحض بالتحريك ، ومنه : تحضت اللبن تحضاً ، حرّكته لإخراج زبده ، وتحضت المرأة وتمحضت : تحرك ولدها ليخرج ، ثم يستعار ذلك الأيام وغيرها ، فأما استعارة حمل الولد فكقول عمرو بن حسان فى النعمان :

أجدك هل رأيت أبا قبيس
أطال بقاءه النعم للركام

(١) الديوان : « وماء الروض » .

(٢) الجذع : منطف الوادى . جب : قطع . أتمكته : أتمته . المذاب : مسايل الماء .

تَمَخَّضَتِ الْمُنُونُ لَهُ يَوْمَ . أَتَى ، وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامُ
النَّعْمِ الرِّكَامُ : الْإِبِلُ الْكَثِيرَةُ ، وَصُفْرُ قَابُوسَ ، تَصْغِيرُ التَّرْخِيمِ ، وَجَعَلَ
الْمَنْيَةَ حَامِلًا بِالْيَوْمِ الَّذِي هَلَكَ فِيهِ وَجَعَلَ الْيَوْمَ وَلَدَهَا عَلَى جِهَةِ الْاِسْتِمَارَةِ ،
وَقَالَ حَبِيبٌ فِي مَعْنَاهُ :

حَتَّى إِذَا تَخَضَّ اللَّهُ السَّيْنَيْنِ لَهَا تَخَضَّ الْحَلِيبَةُ كَانَتْ زُبْدَةَ الْحَقِيبِ^(١)

فهذه استمارة من تخض اللبن ، أراد أن السنين تحركت لهذه البلدة، أى
كانت تمر عليها فلا تنالها بمكروه حتى وجدها المسلمون كالزبد في حسنها ولذتها
فأكلوها باستباحة من فيها .

قوله : « ألفت » ، أى وجدت . يحول : يتصرف . أرجاء : نواحي .
يخبط : يسأل الناس ، وأصل الخبط نفخ ورق الشجر ، يُنضض للإبل فيخزن
ثم يذق لها في زمن الشتاء ، ويبل بالماء فتعلقه ، ثم يستمار الخبط المعروف ، وقال
زهير بن أبي سلمى :

وَلَيْسَ مَانِعَ ذِي قُرْبَى وَذِي نَسَبٍ يَوْمًا وَلَا مُعَدِّيًا مِنْ خَاطِبٍ وَرَقًا^(٢)

يقال : خبطت الرجل ، أى سألته ، وخبط الرجل بالأمر : لم يهتد لصوابه ،
والبعير : ضرب بيده الأرض ، والشئ : ضربته ، والدابة الأرض : شدت
وطأها ، والشيطان الإنسان : صرعه .

قوله : « المصابين » أى المجانين . والمصابين : الواجدين لما يطلبون ،
والمصيب أيضا ضد الخطيئة ، والمفعول مُصاب ، فيريد أنه يحول في نواحيها
مسرعا كالحنون ، أو كالمتيقن بوجود حاجته .

(١) ديوانه ٨ .

(٢) ديوانه ٥٣ .

الدَّرَر : الجواهر ، والدَّرَر : اللبان ، أراد أنه يتكلم بكلام حسن فيأخذ به
 للعطايا . قَذِحِي النَّذْ ، أى سهى المفرد . توعدا : زوجا ، وأراد أنه كان منفردا
 فصار يأبى زيد زوجا . انبعث : نهض وتوجه . نفث : نطق . عراه : قصده .
 امتدَّ مداه ، أى طالت مدته . عرقته : أخذت لحه . مُداه : سكا كينه . بُسِلِمُهُ :
 يتركه ، وأبو يحيى : كنية الموت ، وقد تقدم فى المقامة قبل سهام أبى يحيى
 مسددة نحوى .

* * *

[ذكر ثواب المرضى]

أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من
 مات مريضاً مات شهيداً ، ووُفِّي من فتنه للقبر ، وغُدِّي وَرِيح عليه برزقه
 من الجنة » .

وقال : « مرضى يوم يكفر ذنوب ثلاثين سنة » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الصداق والحتى يصيب الإنسان وإن ذنوبه
 مثل أحد فما يفارقه حتى لا يدع من ذنوبه وزن خردلة » .

أنس رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المريض
 إذا برئ وصح من مرضه كان كمثل البردة تقع من السماء فى صفاء لونها » .

* * *

فَوَجَدْتُ لِفَرَّتِ لُقْيَاهُ ، وَانْقَطَاعِ سُقْيَاهُ ، مَا يَجِدُهُ الْمُبْمَدُ عَنْ
 مَرَامِهِ ، وَالْمَرْضَعُ عِنْدَ فِطَامِهِ ، ثُمَّ أَرْجِفَ بَأْنَ رَهْنَهُ قَدْ غَلِقَ ،
 وَيَخْلَبُ الْحَمَامُ بِهِ قَدْ غَلِقَ ، فَقَلِقَ صَحْبُهُ لِأَرْجَافِ الْمُرْجِفِينَ ،
 وَانْثَالُوا إِلَى عَقَوْتِهِ مُوجِفِينَ :

حَيَارَى يَمِيدُ بِهِمْ شَجُومٌ كَأَنَّهُمْ ارْتَضَعُوا الْخَنْدَرِيسَا
 أَسَالُوا الْأُمُرُوبَ وَعَظُّوا الْجِيُوبَ وَصَكُّوا الْخُدُودَ وَشَجُّوا الرُّمُوسَا
 يَوْدُونَ لَوْ سَالَتْهُ الْمُنُونُ وَغَالَتْ نَفَائِسُهُمُ وَالنُّفُوسَا

• • •

قوله : «سقياء»، أى فوائده التى كان يسقيه بها . مرامه : حاجته . فطامه :
 قطعه عن الرضاع . أرجف : تحدث ، والإرجاف : خوض الناس فى الفتنة وحدشها .
 وغلق : كَفَّ ، وكان من فعل الجاهلية أن يقول الراهن لمن يسك رهنه : إن لم آتَكَ
 إلى كذا فالرهن لك فإن آتاه بالدين بعد الأمد قال له : قد غلق الرهن .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم : « لا يفتق الرهن ، له غنمه وعليه غُرمه » .

الغلب : ظفر الطائر الصائد . الحمام : المنون . اتناولوا . انصبوا واندفوا .
 عقوته : موضعه وأصلها فناء الدار .

موجفين : مسرعين . حيارى : جمع حيران ، والحيرة : التردد فى الأمر
 وعدم التهدي له ، قال الواثق :

لايك الشقم ولكن كان بى وبفسى وبأى وأبى^(١)
 قيل لى إنك صدعت فى خالطت نَمَعَى حَتَّى دِيرِبى^(٢)
 وقال آخر :

أنا مذ خبرت بالملءِ والله عليل^(٣)
 ليت مُحَاكَ بجسمى ولك العسر الطويل

(١) المقد ٢ : ٤٥٣ .

(٢) المقد : « خالطت نَمَعَى حَتَّى دِيرِبى » .

(٣) ديوان المعاني .

يميد : يميل . شجوم : حزنهم . الخندريس : الحمر . أسالوا الغروب :
أجروا الدموع ، والغربة : اللقيضة من الدمع ، والجمع غروب : عطوا : شقوا .
صكوا : لطموا : شجوا : جرحوا . بودون : يعمنون . سالتة : تركته وصالحته ،
وأصله الصلح . المتون : المنيّة . غالت : أهلكت . نفائسهم : كرائم أموالهم .

[من أقوالهم في عيادة المريض]

ونذكر هنا من الشعر ما يوافق هذا الموضع :

دخل أبو دحمان القيسي يوما على بعض الأمراء يعود ، فأنشده :
بأنفسنا لا بالطوارف والتلذذ نفيك الذي تخفي من الشتم أو تبدى^(١)
بنا معشر العوادم لك من أذى فإن أشفقوا مما أقول في وحدي

ودخل محمد بن عبد الله بن طاهر على المتوكل يعود ، قال :

الله يدفع عن نفس الإمام لنا ولگنا للمنايا دونه غرض^(٢)
فليت أن الذي يعرؤه من مرض بالعائدين جميعا لابه المرض
ففي الإمام لنا من غيره عوض^(٣) وليس في غيره منه لنا عوض
وكتب المقتسم إلى عبد الله بن طاهر :

أعزز عـ بأن أراك عليلا أو أن يكون لك للستقام نزيلا^(٤)
لوددت أني مالك إسلامتي فأعيرها لك بكرة وأصيلا
ف تكون تبقى سالما لسلامتي وأكون مما قد عراك بدिला
هذا أخ لك يشتكى ما تشكى وكذا الخليل إذا أحب خليلا

هذا الشعر على فتوره شرف بمنصب قائله .

وكان المقتسم أميا لأن أباه هارون الرشيد ندبه في صحفه لتعلم فسمعه

(١) المقد ٢ : ٤٥١ وما لا يخفى ، ديوانه ٨٥٦

(٢) المقد ٢ : ٤٥٢ :

(٣) المقد ٢ : ٤٤٩ .

يوما يقول- وقد مَرَّتْ به جنازة : ليتنى مكانك ولا أرى هذا البلاء ، قال
له : لا أندبك إلى شيء تنعمى الموت من أجله ؛ فلماذا لم يكن له علم بالأدب
كأخويه الأمين والمأمون .
ولأبي العباس المبرد :

يا عليلُ أُنذِرك من ألم المِـلَّةِ هل لي إلى اللقاء سَبِيلُ ^(١)
إِنْ يَحُلْ دونك الحجاب فما يُخـجِبْ عني وبِكَ للضنى والنحول ^(٢)
ولأبي تمام في مالك بن طوق :

أَلْبَسَكَ اللهُ مَهْمَهُ عَافِيَةً فِي نَوْمِكَ الْمُعْتَرَى وَفِي أَرْقَاكَ ^(٣)
يُخْرِجُ مِنْ جِسْمِكَ السَّامَ كَمَا أُخْرِجَ ذُمُّ الْفَعَالِ مِنْ خُلُقِكَ
ولابن عبد ربه :

يَا مَنْ عَلَيْهِ حِجَابٌ مِنْ جَلَالِهِ وَإِنْ بَدَا لَكَ يَوْمًا غَيْرَ مَحْجُوبٍ ^(٤)
مَا أَنْتَ وَحْدَكَ مَكْسُوءًا ثِيَابِ ضَنَى بَلْ كُلَّنَا لَكَ مِنْ مُضْنَى وَمَشْجُوبٍ
أَلْقَى عَلَيْكَ بَدَأَ لِلضَّرِّ كَاشِفَةً كَشَفَ ضُرِّيَّ اللهِ أَيُّوبَ

* * *

قال الراوى : وَكَنتُ فِيْمِنِ النَّفِّ بِأَصْحَابِهِ ، وَأَعِذْتُ إِلَى بَابِهِ ، فَلَمْ
اتَّهِمْنَا إِلَى فَنَائِهِ ، وَتَصَدَّقْنَا لِاسْتِنْشَاءِ أَنْبَاءِهِ ، بَرَزَ إِلَيْنَا فَتَاهُ ، مَفْتَرَةً
شَقَّتَاهُ ، فَاسْتَطَلَعْنَا طَلْعَ الشَّيْخِ فِي شَكَايَتِهِ ، وَكُنْهُ قُوَى حَرَكَاتِهِ ،

(١) المقد ٢ : ٤٥١ .

(٢) ديوانه ٢١١ المقد ٢ : ٤٥٢ ، وقبله فيهما :

كَمْ لَوْعَةٍ لِلنَّدَى وَكَمْ قَلَقٍ لِلْمَجْدِ وَالْمَكْرُمَاتِ فِي قَلْعِكَ

(٣) المقد ٢ : ٤٥٤ ، مع اختلاف في ترتيب الأبيات .

فقال : قد كان في قبضة المرضة ، وعزّة الوعكة ، إلى أن شفّه الدنف واستشفّه التلّف ، ثمّ من الله تعالى بتقوية دّمائه ، فأفاق من إغمائه . فارجعوا أدراجكم ، وانضّوا انزعاجكم ، فكأن قد غدا وراح ، وساقاكم الزّاح . فأعظمنا بشرا ، وأفترحنّا أن نراه ، فدخل مؤذنا بنا ، ثمّ خرج آذنا لنا ، فلقينا منه لقي ، ولسانا طلقا ، وجلسنا محدّقين بسريره ، محدّقين إلى أساريه .



قوله : «أغذ» ، أى أسرع . تصدّينا : نمرّضنا . الاستنشاء : الاستطلاع . أنبائه : أخباره . برز : خرج . مفترّة : ضاحكة . استطلعنّاه : سألناه أن يُطلعنّا . طلع الشيخ في شكاته : خبر مرضه . كُنّه : حقيقة . عزّة الوعكة : شدة الرّضة ، وعركتُ الشيء : دلّكته بيدك وحككته ، ووعكته الحُتى : كسرتُه . وشفّه الدنف : أضعفه للمرض ونقص جسمه . استشفّه : استقصى بقية قوته . دّمائه : قوى نفسه إغمائه : ذهاب عقله من الضعف . ارجعوا أدراجكم ، أى في الطريق الذى جئتم فيه . انضّوا انزعاجكم ، أى أزيلوا زعجكم وطيشكم ، والانزعاج : ضد القرار . أعظمنا بشرا ، أى وجدنا ما بشرنا به عظيما ، والبشارة بكسر الباء : ما بُشّرت به ، والبشارة بضمها : ما يُعطى على البشارة . والبشارة بفتحها : الجلال ، وفلان بشير الوجه ، أى حسنه ، وعند أكثرهم أن لفظ «بشرته» لا يعمل إلا في الإخبار في الخير ، وليس كذلك ، بل يستعمل في الخير والشرّ قال تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١) ، والعلّة في ذلك أن البشارة إنما سميت بذلك لاسقبانة تأثير خبرها في بشرّة من بُشّر بها ، وقد تتغيّر البشارة للساعة

بالمكروه ، كما تتخير عند السرّة بالمحبوب ، إلا أنه إذا أُطلق لفظها وقع على الخير ؛ كما أن النذارة يُطلق لفظها في الشر ، وهذا ذكره الحريري في القدرّة قال ابن عُرَيز: للبشرى: والبشارة إخبار بما يسر ، قال تعالى : ﴿لهم البشرى﴾^(١).

اقترحنا : طلبنا ، واقترحنا للشيء : فعاقبه قبل أن يُفعل . مؤذناً : معلماً .
أُمّي : طريحاً . طامناً : فصيحاً . محدقين : محلّقين ، وأحدق القوم بالشيء إذا أحاطوا به واحفظوا حوّله . وحدقوا ، أى نظروا إليه نظراً شديداً ، فهم محدقون إليه ، أى ناظرون ، والحدقة : سواد للعين الأعظم . والأسارير : تكاسير جلد الوجه .



[نبذ من الأقوال المأثورة في عيادة المريض]

أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عاد مريضاً جلس عنده قدر ساعة ، أعطاه الله تعالى أجرَ عمل سنة لا يعصيه فيها طرفة عين » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عيادة المريض إذا دخلت عليه ، أن تضع يدك على رأسه وتقول : كيف أصبحت ؟ أو كيف أمسيت ؟ وإذا دخلت عليه تغمّدتك الرحمة ، وإذا خرجت من عنده خُصّمتها مقبلاً ومدبراً » - وأوماً بيديه إلى حقويه .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عاد المريض خاض الرحمة ، فإذا جلس عنده انغمّس فيها » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخلتم على مريض فنفسوا عليه

(١) سورة يونس آية ٦٤ .

في أجله ، فإنّ ذلك لا يردّ شيئاً وهو يطيب نفس المريض ^(١) .
نفسوا : وسعوا عليه بطول عمره ^(٢)

ودخل كثير على عبد العزيز بن مروان بعوده فقال له : لولا أن سرورك
ما يتمّ بأن تسلم وأسلم أنا ، لدعوت ربّي أن يصرف مابك إليّ ؛ ولكن أسأل
الله لك أيها الأمير العافية ، ولي في كنفك النعمة . فضحك وأمر له بمال فخرج
وهو يقول :

ونعودُ سيّدنا وسيّد غيرنا ليت التّشكي كان بالعواد ^(٣)
لو كان يُقبل فديّةٌ لقيده بالمصطفى من طارفي وتلادي
وكتب آخر إلى عليل :

نُبئت أنك معتلّ قلت لهم نفسى الفداء له من كلّ مخدور ^(٤)
ياليت علقه بغير أن له أجر العليل وأنى غير ماجور

* * *

فقلّب طرفه في الجماعة ، ثمّ قال : اجثّلوها بذت السّاعة ،
وأنشد :

عافاني الله وشكراً له من علةٍ كادت تُعفيني
ومنّ بالبرء على أنّه لا بُدّ من حتفٍ سيّبريني
ما يتناساني ، ولا كنهه إلى آتقى الأكل ينسبيني

(١) نقله في الجامع الصغير ١ : ٣٩ .

(٢) المقد ٢ : ٤٤٨ .

(٣) المقد ٢ : ٤٤٨ .

(٤) المقد ٢ : ٤٨ .

إِنْ حُمِّ لَمْ يُغْنِ حَمِيمٌ وَلَا حَمِي كَلَيْبٍ مِنْهُ يَحْمِينِي
وَمَا أَبَالِي إِنْ دَنَا يَوْمُهُ أَمْ أُخَّرَ الْحَيْنُ إِلَى حِينٍ
فَأَيْ فُخْرٍ فِي حَيَاةٍ أَرَى فِيهَا الْبَلَايَا ثُمَّ تَبْلِينِي

* * *

قوله : قلب طرفه ، أى حول عينيه ينظرهم . اجتلوا : انظروا ، ونسب
للشعر الساعة لما قيل فيها . عاباني : أى سلّنى . تعفنى : نهاكنى . من : أنعم .
حَتَفَ : هلاك . تَقَضَّى الأكل : تمامه وآخره . بُنْسِيْنِي : يؤخرنى ، والأصل
الهمزة فسّته للشعر . حُمٌّ : قدر . حميم : صاحب .

[ذكر حمى كليب]

حمى كليب ؛ هو ابن ربيعة أخو مهلهل الشاعر وخال امرئ القيس ،
وكان أعزّ الناس فى العرب . وبلغ من مزمه فيهم أنه اتخذ جرّو كلب ، فإذا نزل
بمنزل فيه كلاً قذف ذلك الجرّو فيه ، فعمى فحيثما بلغ عواؤه لا يرى أحد
عشب ذلك الموضع إلا بإذنه ، وإذا جلس لا يمر أحد بين يديه إجلالاً له ،
ولا يُخَشَى أحدٌ فى مجلسه غيره ، ولا توقد نارٌ غير ناره ، ولا يُجِيرُ تفلجاً
ولا بكرى رجلاً ، ولا يحى حمى ولا يُغير إلا بإذنه .

وكان يحبى الصيد فيقول : صَيِّد كَذَا فى جوارى ، فلا يصيب أحد منه
شيئاً ، وكان قد حمى حمى لا يبطؤه إنسان ولا بهيمة ، فدخل فيه يوماً فطارت قنبرة
بين يديه من كلّ بيضها ، فقال لها :

يَا لَكَ مِنْ قُنْبَرَةٍ بِمَقَمِّ خَلَا لَكَ الْجَوُّ فَبِئْسَ وَاصْتَرَى

• وَتَرَى مَا شِلْتُ أَنْ تَنْفَرَى •

وكانت امرأته جليّة بنت مرة بن شيبان ، وكان لمرة - وهو من بنى بكر -

عشرة من الولد ، منهم الحارث وجساس ونضله وهمام ، فجاءت جساساً خالة
له اسمها البسوس ، التي يقال فيها : أشأم من البسوس ، فنزلت عليه ، ولها ابن
وناقة تُسَمَّى سَراب ، بفصيل لها ، فدخل الحى يوماً ، فوجد بيض القُدْبَرَة قد وُطِئَتْ
سَراب فكسرتة ، فسأل عنها فأخبر أنها لخالة جساس ، فقال : أو قد بلغ من
قدره أن يجير دون إذنى يا غلام ، ارمِ خَرْعَها ، فخرقه بسهم ، وقتل فصيلها ،
ثم طرد إبل جساس ، ونفاها عن المياه ، عن شُبَيْثٍ والأحمس (غدير بن)
حتى بلغ غدير الدّثاب . فجاء جساس ، فقال : نفيت عن المياه مالي ، حتى كدت
تهلكه ا فقال : إنا للمياه شاغلون ، فقال : هذا كفعلك بناقة خالتي وفصيلها ، فقال :
أو قد ذكرتها ! أما إني لو وجدتها في غير إبل مرة استعجلت تلك الإبل لها ،
فعطفت عليه جساس فرسه ، فطعمته ، فلما أحس الموت ، قال : يا جساس ، اسقني
ماء . فقال : تجاوزت شُبَيْثًا والأحمس ، واحتز رأسه ، وأمال يديه ، وجاء . فقالت
أخته لأبيها : إن جساساً جاء خارجة ركاته ، قال أبوها : والله ما خرجت إلا
لأمر . فلما وصله قال : ما وراءك يا بُنى ؟ قال : طعنت طعنة لتشفلن شيوخ وائل
رقصاً . قال : قتلت كلييا ؟ قال : نعم ، قال : وددت أنك وأخوتك ميثم قبل
هذا ، ما بنا إلا أن تششام بنا وائل ، ثم لقي أخاه نضله فقال :

ولمى قد جنيتُ عليك حرباً تنهشُ الشَّيخُ بالماء القَرَّاح^(١)

فأجابه أخوه نضلة :

(١) الخبر في الميداني ١ : ٣٧٥ ، برواية مخالفة ، وفيه . « وأقبل جساس يركض حتى
هجم على قومه ، فنظر إليه أبوه وركبته بادية إن حوله فقال : لقد أتاكم جساس بدهية ، قالوا : ومن
أين تعرف ذلك ؟ قال : لظهور ركبته ؟ فإني لأعلم أنها بدت قبل يومها ثم . قال : ما وراءك
يا جساس ؟ فقال : والله لقد طعنت طعنة لتجمعن منها عجائز وائل رقصاً ، قال : وماهى شكائك
أمك قال : قتلت كلييا ، قال أبوه : بئس لعمرك ما جنيت على قومك ، فقال جساس :

تأهبْ عنك أهبة ذى امتناع فإن الأمر جلّ عن التلاحي =

فإن تك قد جنيتَ على حرباً فلا وإنِ ولارثُ السِّلَاحِ
 وكان أخوه حمام قد آخى مهلهلاً أخا كلاب ، وعاهده ألا يكتمه شيئاً ،
 فجاءته أُمّةٌ له ، وعنده مهلهل ، فأمرت إليه الخبر ، فقال له مهلهل : ما قالت لك
 أُمّتُك ؟ فقال : زعمت أن أخى جساساً قتل كلاباً ، فقال : است أخيك أضيق
 من ذلك . وتمثل القوم ، وغدا مهلهل في ثأر أخيه بالخيل ، واجتمعت أشرف
 تَغْلِب ، وأتوا مَرّةً ، فتكلموا معه في الإقصاص من جَسّاس وإخوته ، فذهب
 مَرّةً إلى الدبة ، فنضبت تَغْلِب ووقعت في الحرب ، فدامت بينهم أربعين عاماً .
 وكان فيما بينهم خمس وقائع : أولها يوم عُدِيْزة وآخرها قتل جَسّاس ،
 وذلك أنه لما اجتمع نساء تَغْلِب للدائم قالوا لأخته : رحّلي جلييلة عن مَأْتَمِك ، فإن
 قيامها شمانةً بنا ، وعار علينا ، فقالت لها : اخرجي يا هذه من مأتمنا ، فإنك شقيقة
 قاتلنا ، فلما رحلت قالت أخت كليب : رحّلة للمعدي ، وفراق للشامت ! وبل
 غداً لآل مَرّة ، من الكرّة بعد الكرّة .

فلما بلغ ذلك جلييلة قالت : وكيف تشمت الحرّة بهتك سِتْرها ، وترقب
 وترها ! أسعد الله جدّ أختي ، أفلا قالت : نكرة الحياء ، وخوف الاعتداء !

وجاءت وهي حامل ، فولدت غلاماً وسمّته بالمجرس ، ورباه جَسّاس ،
 فكان لا يعرف أباه غيره ، فزوجه ابنته ، فوقع بينه وبين بكرى كلام ، فقال
 له البكرى : ما أنت بمنّةٍ حتى ألحقك بأبيك . فأمسك عده ، ودخل إلى أمه
 فسألها فأخبرته ، فلما أوى إلى فراشه ، وضع أنفه بين ثدى زوجته ، وتنفس

= فإنى قد جنيت عليك حرباً تفصّ الشيخ بالماء القراح .

فأجابه أبوه :

فلّى قد جنيت عليك حرباً تفصّ الشيخ بالماء القراح .
 سألبس ثوبها وأذب عني بها يوم المذّة والفضاح .

تنفيسةً تنفُط^(١) ما بين يديها من حرارتها ، فقامت الجارية فرعةً ، فدخلت إلى أبيها فأعلمته ، قال : نائر ورب السكمة .

فلما أصبح أرسل وراء المجرس ، فأتاه فقال له : إنما أنت ولدى ومعى ، وقد كانت الحرب في أبيك زماناً طويلاً حتى كدنا تنفائى ، وقد اصططحنا الآن ، فانطلق معى حتى نأخذ عليك ما أخذ علينا ، قال : نعم ، ولكن مثلى لا يأتى قومه إلا بسلاحه ، فأتيا جمعاً من قومهما ، فقص عليهم جتاس ما كانوا فيه من البلاء ، وما صاروا إليه من العافية ، ثم قال : وهذا ابن أختى قد جاء ليدخل فيما دخلتم فيه ، فلما قدّموا للعقد أخذ بوسط رحمه ، وقال : وفرسى وأذنيه ، ورعى ونصلي ، وسبى وغراريه ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ناظر^(٢) إليه . ثم طعن جساساً فقتله ، ولحق بقومه وكان آخر قتيل فيهم .

وقد قيل في صورة قتل كليب غير ما ذكرنا ، وحكايات الجاهلية كثيرة . الاضطراب ، وقد نسب شعر القنبرة لطرفة .

وقال النابغة الجعدي وذكر قتل كليب وحذر به عقالا العقيلي :

كليبٌ لعمرى كان أكثر ناصراً وأبصرَ حزماً منك ضُرَجَ بالدمِ^(٣)
رمى ضرع نابٍ فاستمرَّ بطعنةٍ كعاشية البُزْدِ اليماني السهمِ^(٤)
فقال لجساسٍ : أغثنى بشريةٍ تُدارك بها متناً على وأنهم^(٥)
فقال : تجاوزت الأحصَّ وماءه وبطنَ شُبَيْثٍ وهو ذو مترسِّمٍ

(١) تنفط : احترق . (٢) ب : « ينظر » .

(٣) ديوانه ١٤٣ وفيه : « وأيسر جرماً » .

(٤) الناب : الناقة السنة . والمسهم : المخطط بصور على شكل السهام .

(٥) الديوان : « تمن بها فضلاً على وأنهم » .

للتَّزَمِّ : اتباع الماء في قعر البئر ، يقول : أَيْ افْتِخَارٌ فِي حَيَاةٍ تَعْرِضُ عَلَى فِيهَا الِامْتِعَانَاتِ ، ثُمَّ بَدَّ هَذِهِ لِلشَّقَاتِ تَرْدَنِي إِلَى الْكِبَرِ وَالشَّيْخُوخَةِ ؛ فَلَمْ أَبَالْ ، أَدْنَا الْمَوْتَ أَمْ تَأْخُرُ ، إِذْ الْمَالَ إِلَى الْتَهَرَمِ الْقَائِدِ إِلَى الْمَوْتِ . وَأَشَارَ بِهَذَا إِلَى قَوْلِ النَّمْرِ بْنِ تَوَلَّبٍ ^(١) :

يُودِعُ الْفَتَى طَوْلُ السَّلَامَةِ جَاهِدًا فَكَيْفَ تَرَى طَوْلَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ !
وإلى قول حميد بن ثور :

أَرَى بَصْرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَنَسَلَا
وجاء : كُنِيَ بِالسَّلَامَةِ دَاءً .

وجاء في أَجْرِ الْبَلَاءِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ الرَّجُلَ لَيُعْصِبُهُ الْبَلَاءُ حَتَّى يَمْشِيَ فِي النَّاسِ مَا لَهُ خَطِيئَةٌ » .

أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْهُوَى وَالْبَلَاءُ وَالشَّهْوَةُ مَجْمُوعَةٌ بِطِينَةِ آدَمَ » .

* * *

قَالَ : فَدَعَوْنَا لَهُ بِامْتِدَادِ الْأَجَلِ ، وَارْتِدَادِ الْوَجَلِ ، ثُمَّ تَدَاعَيْنَا إِلَى الْقِيَامِ ، لَا تَقَاءَ الْإِبْرَامَ ، فَقَالَ : كَلَّا بَلْ أَلْبَثُوا بِيَاضَ يَوْمٍ مَعَكُمْ عِنْدِي ، لَتَشْفُقُوا بِالْمَفَاكِهِةِ وَجَدِي ، فَإِنْ مُنَاجَاتِكُمْ قُوَّتْ نَفْسِي ، وَمِغْنَا طَبِيسُ أُنْسِي . فَتَحَرَّيْنَا مَرْضَاتَهُ ، وَتَعَامَيْنَا مُعَاصَاتَهُ ، وَأَقْبَلْنَا عَلَى الْحَدِيثِ نَخْضُ زُبْدَهُ ، وَنُلْنِي زُبْدَهُ ، إِلَى أَنْ حَانَ وَقْتُ الْمَقِيلِ ، وَكَلَّتْ

الْأَلْسُنُ مِنَ الْقَالِ وَالْقِيلِ . وَكَانَ يَوْمًا حَامِي الْوَدِيقَةِ ، يَأْنَعُ الْحَدِيقَةَ ،
فَقَالَ : إِنَّ النُّعَاسَ قَدْ أَمَالَ الْأَعْنَاقَ ، وَزَاوَدَ الْأَمَاقَ ، وَهُوَ خَفِصٌ
أَلَدٌ ، وَخِطْبٌ لَا يُرَدُّ ؛ وَفَصَلُّوا حَبْلَهُ بِالْقَيْلُولَةِ ، وَاقْتَدُوا فِيهِ بِالْآثَارِ
الْمُنْقُولَةِ .

* * *

قوله ارتداد الرجل ، أى إزالة الخوف . واتقاء الإبرام : خشية التفتيل .

* * *

[ذكر تخفيف العيادة]

قال بعضهم :

إِذَا مَا عُدْتَ مَحْمُومًا تَخَفْ فَتَخْفِيفُ الْعِيَادَةِ خَيْرُ عَادَةٍ

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَخْفُوا الْعِيَادَةَ ، وَأَقْلُوا الْجُلُوسَ ؛
وَالْتَعَزَّيْةَ يَوْمَ » .

أبو القاسم الوزير بن عيسى ، قال : أنشدنى أبو بكر أحمد بن موسى
ابن مجاهد ، وقد جئته عائدا ، وأطال قوم عنده الجلوس ، فقال لى : يا أبا القاسم ،
عيادة ثم ماذا ؟ فصرفت مَنْ حضر ، ثم هممت بالانصراف معهم ، فأمرنى
بالرجوع ، ثم أنشدنى عن محمد بن الجهم :

لَا تُضْجِرَنَّ مَرِيضًا جِئْتَ عَائِدَهُ إِنْ الْعِيَادَةُ يَوْمٌ لَمْ يَرِ يَوْمَيْنِ
وَسَلَّهُ عَنْ حَالِهِ ، وَادْعُ إِلَالَهُ لَهُ وَاقْعُدْ بِقَدْرِ فَوَاقٍ بَيْنَ حَلْمَيْنِ
مَنْ زَارَ غَيْبًا إِذَا دَامَتْ مَوَدَّتُهُ وَكَانَ ذَاكَ صَلاَحًا لِلْجَلِيلَيْنِ

وقال آخر :

عمادة للرء يوم بعد يومين . وجلسة لك مثل الالحظ بالعين^(١)
 لا تُبرمن مريضاً في مُساءة يكفيك من ذاك تَسْأَلُ بحرفين
 مرض^(٢) يحيى بن خالد ، فكان إسماعيل بن صبيح إذا دخل عليه يمدوده
 وقف عند رأسه ، ودعا له ، ثم يخرج ويسأل الحاجب عن منامه وطعامه
 وشرابه . فلما أفاق قال : ما عادنى إلا إسماعيل بن صبيح ، ودعا له .
 وعمن زاد على التخنيف فقطع الزيارة عبید الله بن عبد الله بن ظاهر ، مرض
 أخوه محمد بن عبد الله فلم يمدده عبید الله ، فكتب له محمد :

إني وجدتُ على جفا ثك من فمالك شاهدأ^(٣)
 إني اعتلتُ فإ وجدُ تُ سوى رسولك عائدأ^(٤)
 ولو امتلات فلم أجد سبباً إليك مساعدأ
 لاستشمرت عيني الكرى حتى أعودك راقداً

فأجابه عبید الله أخوه :

كجيت مقلتي بشوك القتاد لم أذق مذ حمت طعم الرقاد
 يا أخي الحافظ المودة والنأ^(٥) زل من مقلتي مكان السوداء
 منعتني عليك رقة قلبي من دخولي عليك في المواد

(١) المقد ٢ : ٤٥٠ . وفيه : « يوم بين يومين » .

(٢) الخبر في المقد ٢ : ٤٥١ .

(٣) المقد ٢ : ٤٥١ .

(٤) المقد : « فا قدت سوى رسولك » .

(٥) المقد : « البازل المودة » .

لو بأذني سمعت منك أنيناً لتفرّى من الأنين فؤادى
ومرض حماد عَجَرْد ، فعاده أصحابه إلا مطيع بن إلياس ، وكان خاصاً به ،
فكُتِبَ إليه يقول :

كفناك عيادتي من كان يرجو ثواب الله في صِلَةِ المريضِ
فإِن تَحِدْثْ لك الأيام سقما يحول جريضُهُ دون القَرِيبِ
يكن طول التأوّه منك عندي بمنزلة اللّطّين من البعوضِ
فما نفسى عليك تذوب حُزناً وما دمعى عليك بمسقيضِ
ولحمد بن عبد الله في محبوب له مرض :

ألبسك الله منه عافيةً تفنيك عن دعوتى وعن جَلَدِكَ
سقمك ذاك لالملة عرضتْ بل سقم عينيكَ دُبّ في جَسَدِكَ
فيامريض الجفون أخى فتى قتلتَه بالجفون لا بيدِكَ

وقال آخر في محبوب له تركت الحتى على فيه أترأ :

يا أُملى كيف أنت من أملك وكيف ما تشكّيه من سقمِكَ
هذان يومان لي أعدّهما مذلم تلخ لي بُرُوق مَبَسَمِكَ
حسدت حماك حين قيلَ لنا بأنها قبلك فوق فِكِكَ

وقال العباس بن الأحنف :

قالت : مرضت فعدتها فقبرمتْ وهى الصّحيحة والمريضُ المائدُ^(١)
والله لو أنّ القلوب كقلبها ما رَقَّ للولد الضعيف الوالدُ^(٢)

قوله : «البثوا» ، أى أقيموا . بياض بومكم ، أى طوله ، وبياض النهار : ضوءه : مناجاتكم : محادثكم .

مفناطيس ، حجر يجلب الحديد تقول له العامة حجر المس . تحريتنا ، أى قصدنا . تحامينا : تباعدنا . نمخض زبدته : نحرك ونجمع فوائده ، وكفى بالزبد ، وهو جمع زبدة عن خيار الكلام . نلنى زبدته : نترك مالا خيرا فيه ، وزبد الماء : ما يعلوه من الرغوة . المتيل : النوم فى وقت القائلة . حامى الوديقة : شديد الحر . يانع الحديقة : ناعم الروضة ، والحديقة كلّ بستان محلق بمحاط أو زرب . راود : طالب . الآماق : العميون ، وأصله طرف العين من جهة الأنف . والخطب : من يخطب المرأة . والقيولة : الرقادى القائلة . والآثار : الأحاديث .



[نبذ مما قيل فى القيولة]

قلنا وقال : يقال : قال يقيل قيولة ومقيلا : نام نصف النهار .

أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله عليه وسلم « ثلاث من ضبطهن ضبط الصوم : من تسحر ، وقال ، وشرب بعد ما يأكل » .

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قيلولوا فإن الشياطين لا تقيل » . ودخل العباس على ابنه وهو مضطجع ، فضربه برجله ، وقال : قم لا نامت . حينك ! تنام فى ساعة يقسم فيها الرزق ! وإنما النوم على إحدى خصال : خرق أو حق ، أو خلق ، فنومة الحق بعد العصر ، لا ينامها إلا سكران أو شيطان ، ونومة الخرق نومة الصبح ، ونومة الخلق نصف النهار .

ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استمعينوا بقيولة النهار على قيام الليل ، وبالسَّحور على صيام النهار .

قال الراوى : فاتبعنا ما قال ، وقلنا وقال . فضرب الله على الآذان ،
وأفرغ السنة في الأجفان ؛ حتى خرجنا من حُكم الوجود ، وصرفنا
بالمجود عن السجود ، فأستيقظنا إلا والحر قذ باخ ، واليوم قذ شاخ ،
فتكرغنا لصلاة المعجماوين ، وأديننا ما حل من الدين .

ثم تمحشنا للارتحال ، إلى مُلقى الرُحال ، فالتفت أبو زيد إلى
شبله ، وكان على شاكلة وشكله ، وقال : إني لإخال أبا عمرة ،
قد أضرم في أخشائهم الجُمرة ، فاستدع أبا جامع ، فإنه بُشري كلَّ
جائع ، وأردفه بأبي نعيم ، الصَّابر على كلِّ ضنيم ، ثم عزز بأبي حبيب
المحبب إلى كلِّ حبيب ، المُقلب بين إحراقٍ وتعذيب ، وأهب
بأبي ثقيف ، فحبذا هو من أليف ، وهلم بأبي عون ، فَمَا مثله من
عون ، ولو استحضرت أبا جميل ، لجمل أتي تجميل .

قوله : « السنة ، للنوم ، المجود : الرقاد . باخ : سكن حره . تمحشنا ، أى
تمحركنا . ملقى الرحال : موضعها . شبله : ولده . شاكلته : طريقته . شكله :
منه ، وتكون الشاكلة والشكل واحداً وجمع الشكل أشكال وشكول .

إخال : أحسب ، وكنى الجوع أبا عمرة ، لأنه يعمر كل جوف ؛ قيل
لدى : أتعرف أبا عمرة ؟ قال : كيف لا أعرفه وقد تربع في كبدى .

وقال الراجز :

حلّ أبو عَمْرٍة وَشَطَّ حُبْزَتِي وحلّ نسج المنكبوت بُرْمَتِي

أضرم : أوقد ، وكنتي الخوان - وهو المائدة - أبا جامع للاجتماع حوله للأكل . وأردفه : جيء به خلفه ، وكنتي الخواري ، وهو الدرملك أبا نُعَيْم ، لأن خبزهُ أنعم الأخباز وأصفاها .

للضيم : القلّة ، وجهه صابرا على كل ذلّ ، لأنه لا يصل منه صورة للبر إلى الخبز إلا بعد علاج شديد ، وتغيير له من حال إلى حال .

وفسير معنى أبي حبيب بقوله : الحبيب إلى كل لبيب . وقوله : القلب بين إحراق وتعذيب ، يريد أن ما ولى من الجدوى النار وقت شبه احترق ، وما لم يلها أدركه حرّها فأنضجه وأسأل ودّكه ، فذلك تعذيبه .

أهيب : ادعُ به وصح به .

وكنتي الخلّ أبا ثقيف لأنه يشقف الطعام ، أى يحذقه فيطيب للأكل .

أليف : صاحب ، وإنما قال : بهذا هو من صاحب ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « نعم الإدام الخلل » .

وكنتي الملح أبا عون ، لأنه يُستعان به على أكل الطعام ، وطعام بلا ملح لا يؤكل ، وقد أشار إلى هذا بقوله : فما مثله من عون .

وكنتي البقل أبا جميل لأنه يحسن بحضرته الإدام ويزيّنه ، أو لأنه يذهب بالجميل ، وهو ودّك اللحم فيخفّ للأكل وقوله : لجمل أى تجميل ، أليق بالتفسير الأول ، ولا يمتنع من الثانى ؛ وحدث واثقه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحضروا موائدكم للبقل فإنه مطردة للشيطان مع تسمية الله تعالى » .

أبو الفضل بن مالك : يعجبني البقل على المسائدة فإذا رأيت السكباج نسيت البقل . السكباج : لحم بجل ، والسك بالفارسية ، الخل ، والباج اللحم ، وسمى السكباج بأمة القرى لأنه من أجل أطمعهم .

* * *

وَحَيَّ هَلْ بِأَمِّ الْقَرَى ، أُمِّدَ كَرَّةً بِكِسْرَى ، وَلَا تَتَنَاسَ أُمَّ جَابِرٍ ،
فَسَمِّ لَهَا مِنْ ذَا كِرٍ ، وَنَادِ أُمَّ الْفَرَجِ ، ثُمَّ افْتِكْ بِهَا وَلَا حَرْجٍ ، وَاخْتِمِ
بِأَبِي رَزِينٍ ، فَهُوَ مَسْلَاةٌ كُلِّ حَزِينٍ ، وَإِنْ تَقَرَّنْ بِهِ أبا الْعَلَاءِ ، تَمْنَحُ
اسْمَكَ مِنَ الْبُخْلَاءِ . وَإِيَّاكَ وَاسْتِدْنَاءَ الْمُرْجَفِينَ ، قَبْلَ اسْتِثْلَالِ حُحُولِ
الْبَيْنِ ، وَإِذَا نَزَعَ الْقَوْمُ عَنِ الْمَرَاسِ ، وَصَافَحُوا أبا إِيَّاسٍ ، فَأَطِيفَ عَلَيْهِمْ
أَبَا السَّرْوِ ، فَإِنَّهُ غُنْوَانُ السَّرْوِ .

* * *

وَأَمَّ الشَّيْءَ : معظمه وجليده ، ومنه أَمَّ القرآن الحمد لله ، وأَمَّ للقرى المسكة
المشتركة ، وأَمَّ الشَّيْءَ أَجَلَهُ ، والقرى : طعام للضيف ، فكأنه قال : عَجِّلْ بطعام
فاضل يقدم للضيف .

وكسرى ملك الفرس ، وجعلها تذكرته ، لأنه أول مَنْ صنعت له ،
فاستعملها ، وأمر بإجادة الصنعة في طبخها ، وقيل : إن غيره طبخها واستعملها
في زمن كسرى فُنُسِبَتْ إليه .

وكنى الجوزَ أبةً بأَمِّ الفَرْنَخِ ، وهي خبزة توضع في الثَّنُورِ ويعلق عليها طير
أو لحم ، فيسيلُ ودَّكه فيها ما دامت تطبخ ، فتفرج عنك همَّ الإدام فلا تحتاج
إليه فهي خبزٌ بإدامه .

افتكّ بها ولا حرج ، أى كلّها ولا إثم عليك ، وإن كان اللفظ بمعطيك
معنى آخر ، فالمراد به هذا .

وكفى الخبيصَ أبارزين لفضله فى الطعام وشرفه ورجحان ثمنه ، وجمله
آخر ما يؤكل ، والرزين من الرّجال : الكثير الوقار ، وقرن به الفالودج ، لأنه
نوع منه ؛ قال بعض الطفيلية : الحلواء مثل الملك ، يدخل بيتاً فيه قوم جلوس
ليس فيه متسع لأحد ، فإذا نظروا إلى الملك تضايقوا وأوسعوا له .

وكان عبد الله بن جدعان سيّداً شريفاً فى قریش ، فوفد على كسرى
وأكل عنده الفالودج ، فسأله عنه فقيل له : هو الفالودج ، قال : وما هو ؟ قيل
لباب البرّ مع غسل النّحل ، فقال : ابغوا لى غلاماً يصنعه فأتوه به فأبقاه ،
وفدّم مكة فصنع بها الفالودج ، فوضع اللوائد بالأبطح إلى باب المسجد ، ثم نادى :
ألاً من أراد الفالودج ، فليحضر ! فكان فيمن حضر أمية بن أبى الصلت ، وكان
يتدحه كثيراً فقال فيه :

لكلّ قبيلة رأسٌ وهادٍ وأنت الرأسُ تقدّم كلّ هادٍ^(١)
له داعٍ بمكة مشمّلٍ وآخر فوق دَارَتِهِ ينادى
إلى رُدُجٍ من الشّيزى^(٢) مِلّاه لباب البرّ يلبك بالشهاد

ولباب البرّ : خالص القمح ، ويسمى النّشا . يلبك : يخلط ، والشهاد : العسل ،
والفالودج : الذى رأيت بسجلماسة هو العسل والسمن يوضعان على النار ،
ثم يمتدّان بالنّشا ، ثم يلوّن الكلّ بالزعفران فيجىّ متعقّق الحرة ، فيقطع قطعاً

(١) ديوانه ٧٧ .

(٢) الشيزى : خضب أسود تتخذ منه القصاع والجفان ، والردج : الجفان الواسعة .

على قدر أكبر التمر ، وفي شكله ، ويؤتى به في الأعراس بعد الشواء ، ويؤتى
بالخبيص آخرًا ، وخبيصهم في غاية البياض ليس كخبيص الأندلس ، ويُقرص
قرصًا على قدر صفار الجبن ، فمن رآها على بعد لم يشك أنها جبن . وبعد
رجال المائدة ، ويؤتى بطبق كبير فيوضع بين أيديهم ، وأمام كل رجل قرصته ،
فلا يكاد يكملها بالإكل لإفراط حلاوتها . وأكثر أطعمة أهل القبلة مستملاة
من أطعمة أهل المشرق ؛ وكذا أكثر أحوالهم من مبانهم وأشكال ديارهم
وسطوحها ، واستمال الإبل في السواقى والطواحين ، ودق النوى لعلفها زم ،
وعلى أن البربرية غالبية على أسنة أهل القبلة فهم يستعملون كثيرًا من ألفاظ
أهل العراق ، يقولون لفرق الناس الشاسك ، وكذا تسمية أهل سجلماسة ،
ويسمون البرادة التى لشرب الماء بوقالا ، وكذا تسمية أهل سجلماسة ، وجمع
البوقال بواقيل ، قال الحسن بن هانى :

أضمرت للنيل هجرانا ومقلية إذ قيل لى إنما التمساح فى النيل

فمن رأى النيل رأى للعين من كشر فلا أرى النيل إلا فى البواقيل

وكان رأى التمساح أخذ رجلا ، فمجا النيل . والبرادة عندهم آنية من صفر ،
فيها غاطيف يعلق فيها البواقيل ، وترفع للهواء فيبرد فيها الماء .

قوله : المرجفين ، الطست والإبريق ، لأنّ لما عند أخذها صوتا ، بنقر
أحدهما فى الآخر ، فكان ذلك للصوت يرجف ، أى يخبر بنجام الطعام والحث
على القيام .

أبو بكر الصغار : حضر مجنون بالكوفة طعام قوم ، فجلس يأكل ، فجعل
الغلام يحرك الطشت والإبريق ، فقال : من هذا الذى يرجف بنا قبل
انقضاء حملنا ؟

بيننا صُنَيْلٌ بِأَكْلٍ ، سَمِعَ صَوْتَ دَقِّ الْأَسْبَانِ ، فَاِمْتَنَعَ مِنَ الْأَكْلِ فَقِيلَ لَهُ :
أَلَا تَأْكُلُ ؟ قَالَ : حَتَّى يَسْكُنَ هَذَا الْإِرْجَافُ الَّذِي أَسْمَعُ .

وَقِيلَ لَطْفِيْلٌ : مِمَّ أَصْفَرُ وَجْهَكَ ؟ قَالَ : مِنْ فِتْرَةٍ بَيْنَ قَضَمَتَيْنِ ، خَافَةُ أَنْ
تَسْكُونَ قَدْ فَنَيْتِ .

اسْتَقْلَالَ : ارْتِفَاعٌ . حَوْلَ الْبَيْنِ ، أَيْ لِإِبْلِ الْفِرَاقِ ، وَيُرِيدُ بِهَا الْمَوَائِدَ
لِأَنَّهَا إِذَا ارْتَفَعَتْ يَفْرُقُ أَهْلَ الْمَجْلِسِ ، فَيَقُولُ : إِيَّاكَ أَنْ تَقْرِبَهُمَا قَبْلَ أَنْ تَرْتَفِعَ
الْمَوَائِدُ ، فَيَتَهَمُ النَّاسُ الْفَسْلَ وَالْإِنْصِرَافَ ، فَإِنْ غَسَلْتَ الْأَيْدِيَ وَالْمَوَائِدَ بَاقِيَةً
تَوْتَمُّ أَنْ تَمَّ طَعَامًا يُسْتَأْنَفُ أَكْلُهُ

نَزَعَ : زَالَ وَتَهَيَّأَ . الْمِرَاسُ : غَسَلَ الْأَيْدِيَ وَدَلَّكَ بِمَضْمَا بِيَمْنٍ .

صَافَحُوا : بَاشَرُوا ، وَاللَّسُّوْلُ قَدْ تَقَدَّمَ فِي السَّابِعَةِ .

أَطْفَ : أَجْمَلَهُ يَطْلُوفُ وَقَدْ بَيَّنَّ لِمَا كُنَاهُ أَبَا السَّرْوِ ، أَنَّهُ مِنْ فِعْلِ السَّرَى
مِنَ الرِّجَالِ ، وَعَنْوَانُ السَّرْوِ : دَلِيلُ الْمَرْوَةِ .

* * *

قَالَ : فَفَقَّهَ ابْنَهُ لَطَائِفَ رَمُوزِهِ ، بِلَطَافَةِ تَمْيِيزِهِ ، فَطَافَ عَلَيْنَا بِالطَّلِيَّاتِ
وَالطَّلِيْبِ ، إِلَى أَنْ آذَنْتِ الشَّمْسُ بِالْمَغِيْبِ . فَلَمَّا أَجْمَعْنَا عَلَى التَّوْدِيْعِ ،
قُلْنَا لَهُ : أَلَمْ تَر إِلَى هَذَا الْيَوْمِ الْبَدِيعِ ، كَيْفَ بَدَأَ صُبْحُهُ قَطْرِيرًا ،
وَمُسَيَّهٌ مُسْتَنْدِرًا اِلسَّجْدَ نَمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، وَقَالَ

لَا تَيَاسَنَّ عِنْدَ النَّوْبِ مِنْ فَرْجَةٍ تَجْلُو السَّكْرَبَ

فَكَلَّمْ سَمُومَ هَبَّ ثُمَّ جَرَى نَسِيمًا وَانْقَلَبَ

(٢٥ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

وَسَحَابٍ مَّكْرُوهٍ تَنْشَى فَاَضْمَحَلَّ وَمَا مَسَكَبٍ
 وَدُخَانٍ خَطْبٍ خِيفَ مِنْهُ فَا اسْتَبَانَ لَهُ لَهَبٍ
 وَلَطَائِمًا طَلَعَ الْأَسَى وَعَلَى تَفِيئَتِهِ غَرَبٍ
 فَاصْبِرْ إِذَا مَا نَابَ رَوْعٌ فَالزَّمانُ أَبُو الْعَجَبِ
 وَتَرَجَّ مِنْ رَوْحِ الْإِلَهِ لَطَائِفًا لَا تُحْتَسَبُ
 قَالَ: فَاسْتَمَلَيْنَا مِنْهُ أَيْيَاتِهِ الْفُزَى، وَوَالَيْنَا لِلَّهِ تَعَالَى الشُّكْرَ، وَوَدَّعْنَاهُ
 مَسْرُورِينَ بِبُرْئِهِ، مَغْمُورِينَ بِبُرْءِهِ :

* * *

قوله: « فقه » ، أى فهم . لطائف : دقائق . رموزه : إشارات الخفية ،
 والرمز : الإشارة بالشفيتين أو العيين . آذنت : أعلمت . أجمعنا : عزمنا .
 اللهديع : المعجيب . قطريرا : مظلما ، ورجل قطيرير : شديد العبوس ، واقطر
 القوم : اشتدوا . الصُّبْحُ والمُسَى : اسمان لوقت زوال الظلام وللضياء . مستبيرا :
 كثير الضوء .

والنَّوْبُ : النوازل . فَرْجَةٌ : راحة . تجلو للكَرْبُ : تزيل الهموم ،
 وأنشدوا فى هذا المعنى :

لَا تَضْيِقْنَ فِى الْأُمُورِ فَقَدْ تَكْشَفُ غَمَاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالٍ^(١)
 رَبَّمَا تَكَرَّرَ لِلنَّفُوسِ مِنَ الْأَمْرِ لَهُ فَرْجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ
 كَذَا أَنْشَدُوهُ فَرْجَةً بِالْفَتْحِ ، وَالْفَرْجَةُ بِالضَّمِّ فِى الْحَاطِطِ وَشَبَّهِهُ ، وَبِالْفَتْحِ
 فِى الْأَمْرِ ، وَانْظُرْ هَذَا الْبَيْتَ فِى الْأَرْبَعِينَ فِى أَخْبَارِ [أَبِى] عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ .
 تَعْمُومٌ : رِيحٌ حَارَةٌ . نَسِيًا : رِيحًا لَيْتَةً . تَنْشَى : ابْتَدَأَ وَظَهَرَ . اضْمَحَلَّ :

(١) البيتان فى اللسان - فرج ولسبهما إلى أمية بن أبى الصلت .

زال . سكب : أمطر . خطب : أمر شديد . لهب للنار : اشتعالها بنور دخان ،
وفي هذا المعنى قال أبو نواس :

خَفَضَ عَلَيْكَ وَلَا تَسْكُنْ قَلِقَ الْخَشَا مِمَّا يَكُونُ وَعَلَهُ وَعَسَاهُ
فَالْتَمَرُ أَقْصَرُ مُدَّةً مِمَّا تَرَى وَعَسَاكَ أَنْ تُكْفَى أَقْدَى تَخْشَاهُ

وقال أيضا :

حَسِّنِ الظَّنَّ بِمَنْ قَدْ عَوَّدَكَ كُلَّ إِحْسَانٍ وَقَوِّى أَوْدَكَ
إِنْ رُبَا كَانَ يَكْفِيكَ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ ، سَيَكْفِيكَ غَدَكَ

الأسى : الحزن . تفيئته ، أوى حينه ، وقال الزبيدي فى الأبنية : جاء على
تفيئة ذلك ، وتفيئته حينه ووقته . والروح . الرزق : والروح : السرور
والفرح ، والروح : برود نسيم الراحه .

اللطائف : جمع لطيفة ، وهى رفق الله تعالى بعباده وإحسانه إليهم ،
واللطيف : الرفيق والحسن ، وأراد فى البيت : ارج فى شذائلك الله ، فله أطفاف
كثيرة لا تحصى بالعدة ، فبعد المسرُسر .

• • •

[نبذ من الآقوال الحكيمة فى الفرج بعد الشدة]

وأشدد أبو حاتم فى معنى أبيات القائمة :

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ وَضَاقَ لِإِسَابِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَوُطِّئَتِ الْمَكَارِهِ وَأَطْمَأْنَنْتِ وَأَرَسَتْ فِي مَكَانِهَا الْخَطُوبُ

ولم ترَ لا نكشاف العُمرَ وجهاً ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أُتاك على قنوطٍ منه غوثٌ يمنّ به اللطيف المسعيبُ
وكلّ الحادثات إذا تفاعت ففرون بها الفرجُ القريبُ

قال أبو بكر بن الأنباري : أنشدني إسماعيل القاضي :

لا تعينَ على النوائبِ فالدهرُ يُرغمُ كلَّ عاتِبٍ
واصبرْ على حدَثائِهِ إن الأمورَ لها عواقِبُ
ولكلِّ صافيةٍ قذَى ولكلِّ خالصةٍ شوائِبُ
كم فرجةٍ مطوّبةٍ لك بين أنشاء النّوائِبِ
ومسرّةٍ قد أقبلتْ من حيث تُنتظرُ المصائبُ

قال للقاضي رحمه الله : ما عرض لي ممّ فادح ، فذكرت تلك الأبيات ،
إلا رجوت من الله الفرج ، ثم تقولُ عاقبة ما أحذره إلى فاتحة ما أوتر .

قال عليّ الكاتب : أصبحت يوماً مغموماً غماً لا أعرف سببه ، فجاءني
رحل بظهر حُوار وإذا فيه :

روح فؤادك بالضحى ترجع إلى رَوْح وطيبِ
لا تياسن وإن ألحّ الدهر من فرج قريبِ

قال : فزال عني الهم ، ووجدت طعم الفرج .

وحكى الأصمعيّ رحمه الله تعالى قال : بثّ ليلةً بالهادية وحيداً مغموماً ،
فلما انتهى الليل سمعت قائلاً يقول ولم أر شخصه :

فرج القضاء بكفّ مَنْ بفضائه نزل البلاء

واصبر فكلَّ شديدة لا بدَّ يتبعها رخاء

وقال آخر :

سوفَ تبلى كلَّ جدَّة وسقطى كلَّ مدَّة
إنما الدهر عواء وعوارٍ مستردة
شدة بعد رخاء رخاء بعد شدة

وقال آخر :

خف إذا أصبحت ترجو وارحُ إن أصبحت خائف
رُبَّ مكروه مخوفٍ فيه لله لطائف

• • •

قوله : استملينا : كتبنا . الغر : الحسان . واليئنا . تابعنا . مغمورين :
مغطين . برئه . إفاقته . بره : إحسانه وإكرامه .
وحبيل : قال ابن الأنباري : فيها ست لغات .

قال عبد الله بن مسعود . إذا ذكر الصالحون فحبلاً بمر ، ومعناه أقبلوا
على ذكر عمر ، فتنوتن هلاً وتنصبه على المصدر ، كأنه قال : مرحباً به .

الثاني : تفتح حيَّ وهل وتبنيها كخمسة عشر .

الثالث : تسكن هاء « هلا » هذه الشبهة لكثرة الحركات .

الرابع : حبيل بتسكينهما جميعاً كتبَّخ بفتح .

الخامس : حبيل إلى مر : أى هلموا إلى ذكره .

السادس : حبيل على مر : أى أقبِلوا على ذكره .

تفسير ألفاظ ما تضمنته هذه المقامة

من كلمات لنوبة وكنى طفيله وكفايات صوفية

قوله : ذات العويم ، يعنى به الزمان المتقدم ، ومثله ذات الزمن .

والسميرية : الرماح ، وفي تسميتها بذلك قولان : أحدهما أنها سميت بذلك لصلابتها ، من قولهم : اسمع الشئ ، إذا اشتد . وقيل لأنها منسوبة إلى سمير زوج رُديئة ، وكانا جميعاً يقومان الرماح بسوق هجر فنُسبت إليهما .

وقوله : نقضاً على نقض : أى مهزولا على مهزول .

و « الجران » باطن اللعنق ، وقيل منه بعمل السباط .

وقوله : فضرب الله على الآذان ، أى أنامنا ، ومنه قوله عز وجل ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف ﴾ ، أى أعننا ، وقيل في تفسيره منعناهم السمع .

وقوله : تكررنا لصلاة المعجمائين ، أى غسلنا أكارعنا ، وهو كفاية عن الغسوة ، والمعجماء : صلاتا الظهر والعصر ، سُميتا بذلك لإسرار القراءة فيهما ، ومنه الحديث : « صلاة النهار عجماء » .

وقوله : هلم ، أى قل هلم ، وهى تأتى بمعنى هاتِ وبمعنى أقبل ، والأفصح أن يوحد لفظهما مع المذكر والمؤنث والاثنتين والجمع ، وبه نطق القرآن في قوله تعالى : ﴿ والقاتلين لإخوانهم هلم إلينا ﴾ ، ومن العرب من يقول للمذكر الواحد هلم ، وللثنتين هلمتا ، وللجمع : هلموا ، وللمؤنث الواحد هلمتى والاثنتين هلمتا ، وللجمع هلمتن .

وقوله : حَيْهَل ، أى هَجَل وأسرع ، يقال : حَيْهَل بفلان يتسكن للام

وفتحها ، وتنويناها وبإثبات النون معها ، ومعه قول ابن مسعود في عمر رضى الله عنه : إذا ذكر الصالحون حتى سَلَاً بعمر ، وفي حَيْثَل لفات أخر أضر بها عن ذكرها ، إذ ليس هذا موضع استيفاء شرحها .

فهذا تفسير الألفاظ اللغوية .

وأما تفسير الكنى للطفيلية والكنائيات الصوفية :

فأبو يحيى ، كنية الموت

وأبو عمرة : كنية الجوع ، وبكنى أيضاً أبامالك .

وأبو جامع : الخوان .

وأبو نعيم : الخبز الخوارى .

وأبو حبيب : الجدى .

وأبو ثقيف : الخلل .

وأبو عون : الملح .

وأبو جميل : البقل .

وأم القرى : السُّكْباج .

وأم جابر : الهريسة .

وأم الفرج : الجوذاب .

وأبو رزّين : الخبيص .

وأبو القلاء : الفالوذق « كذا في الأصل » .

وأبو إياس : الفسول .

والمرجفان : الطست والأبريق . وأبو السرو . البخور .

المقامة العشرُونَ وهى الفارقة

حكى الحارث بن همام نال : يَمُنت مَيَّافَارَتَيْنِ ، مع رُفْقَةٍ
موافقين ، لا يَمَارُونَ فى المَنَاجاة ، ولا يَدْرُونَ مَطْعَمُ المَدَاجاة ،
فَكُنْتُ بِهِمْ كَمَنْ لَمْ يَرِمْ عَنْ وَجَارِهِ ، ولا ظَمَنْ عَنْ أَلْفِهِ
وَجَارِهِ . فَلَمَّا أَنْخَأَ بِهَا مَطَايَا التَّسْيَارِ ، وَانْتَقَلْنَا عَنْ الْأَكْوَارِ إِلَى
الْأَوْكَارِ ، تَوَاصَيْنَا بِتَذْكَارِ الصُّحْبَةِ ، وَتَنَاهَيْنَا عَنْ التَّقَاطُعِ فى
الغَزَبَةِ ، رَاتَعْنَا نَادِيًا نَعْتَمِرُهُ طَرَفِ النَّهَارِ ، وَنَهَادَى فِيهِ طُرْفَ
الْأَخْبَارِ ، فَبَيْنَا نَعْنُ بِهِ فى بَعْضِ الْأَيَّامِ ، وَقَدْ انْتَضَمْنَا فى سِلَاقِ
الْإِتِّتَامِ ، وَقَفَ عَلَيْنَا ذُو مِقْوَلٍ جَرِيٍّ ، وَجَرَمِ جَهْوَرِيٍّ ،
فَحِيَّا تَحِيَّةَ نَفَاقٍ فى الْمُعْقِدِ ، قَنَاصٍ لِلْأُسْدِ وَالنَّقْدِ ،
ثم قال :

* * *

يَمُنت ، أى قصدت .

[ذكر مَيَّافَارَتَيْنِ]

مَيَّافَارَتَيْنِ ، بلدة منها إلى نصيبين ثلاثون فرسخا ، ومَيَّافَارَتَيْنِ بدميار بكر ،
وهى من كُور الجزيرة ، وكان تملكها سيف الدولة ، وذكرها المتنبى ، فقال :

نَجَافَ عَنْ ذَاتِ الْيَمِينِ كَأَنَّهَا تَرَقَّى لِمَيَّافَارَتَيْنِ وَنَرْحَمُ^(١)

الفنجديهى : سميتُ بعضَ الأدباءِ بقول : سُميت ميفارقين ، لأنَّ ذا الرِّمَّةِ
أو غيره من العشاق ، لو وصل إليها بالاتِّفاق ، وشاهد وجوه أهلها الملاح ،
والعيون السقيمة الصبحاح ، وعابن رشاقة القدود ، ولباقة الخدود ، وسواد
الطرر ، وبياض الفُرر ، وسمرة الشَّفاء اللبس ، وحمرة الوجنات والجباه المُلس ،
لقال لصاحبه : مَيَّافارقينى ، ولا ترافقنى ، فلا يجوز التيمم مع وجود الماء ،
ولا حاجة إلى الدواء بعد البرء والشفاء .



قوله : « يمارون » أى يجادلون ولا يخالفون . المناجاة : الحادثة . اللداجة :
المسيرة بالعداوة . لم يرم : لم يزل . يقال ما رامنى ولا يرمينى ، أى لم يبرح عى
ولا زال ، ولا يقالُ إلَّا منفيًا وجاره : لده ، وأصله الجعتر : ظعن : رحل .
أليفه : صاحبه . الأكوار : الرحال . الأوكار : البيوت ، يريد أنهم أتموا
سفرهم وبلغوا الوطن ، فتركوا النقلة وأقاموا فى البيوت . تناهينا : نهى بعضنا
بعضًا . ناديا : مجلسًا . نتمره طرفى النهار ، أى نجلس فيه بالندوة والمشي .
طُرف : غرائب . السلك : خيط النظام . وانتظمتنا : اجتمعنا فيه . الاتئام :
الاتفاق ، يقال : اسان جرىء مقدم على الكلام . جرس : صوت . جَهْوَرِي :
عالٍ . نفاث : ساحر ، والعقد : ما يقدِّها السَّحرة وينفثون عليها بالبصاق .
قنّاص : صائد . التَّقْد : غم صغار .



عِنْدِي ياقوم حديثٌ عَجِيبٌ فيه اعتبارٌ للبيبِ الأريبِ
رَأَيْتُ فى رِيَمَانٍ عُمَرَى أَخَا بَاسٍ لَهُ حَدُّ الحَسَامِ القَضِيبِ
يُقَدِّمُ فى المِركِ إقدامَ مَنْ يُوقِنُ بالفتكِ ولا يَسْتَرِيبُ

فَيُفْرِجُ الصَّيْقَ بِكَرَّاتِهِ حَتَّى يَرَى مَا كَانَ ضَنْكَ رَحِيبٍ
 مَا بَارَزَ الْأَقْرَانَ إِلَّا اثْنَى عَنْ مَوْقِفِ الطَّعْنِ بِرَمْعٍ خَضِيبٍ
 وَلَا سَمَا يَفْتَحُ مُسْتَضْعَبًا مُسْتَفْلِقَ الْبَابِ مَنِيْعًا مَهِيبٍ
 إِلَّا وَتُودَى حِينَ يَسْمُو لَهُ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ
 هَذَا وَكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ بَاتَهَا يَمِيسُ فِي بُرْدِ الشَّبَابِ الْقَشِيبِ
 يَرْتَشِفُ الْغَيْدَ وَيَرْتُشِفُنُهُ وَهُوَ لَدَى الْكُلِّ الْمُقْدَى الْحَبِيبِ
 فَلَمْ يَزَلْ يَبْتَزُّهُ دَهْرُهُ مَا فِيهِ مِنْ بَطْشٍ وَعُودٍ صَلِيبِ
 حَتَّى أَصَارَتْهُ اللَّيَالَى لَقَى يَمَافُهُ مَنْ كَانَ مِنْهُ قَرِيبٌ
 قَدْ أَعْجَزَ الرَّاقِيَ تَحْلِيلُ مَا بِهِ مِنَ الدَّاءِ وَأَعْيَا الطَّيِّبِ
 وَصَارَ الْبَيْضَ وَصَارَ مِنْهُ مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ الْمَجَابِ الْحَبِيبِ
 وَأَضْ كَالْمَكْوِسِ فِي خَلْقِهِ وَمَنْ يَعِشْ يَلْقَ دَوَاهِيَ الْمَشِيبِ
 وَهَا هُوَ الْيَوْمَ مَسْجَى فَنٍ يَرْغَبُ فِي تَكْفِينِ مَيِّتٍ قَرِيبِ



والليب والأريب : كلاهما بمعنى العاقل . رَيْمَان : أول . أَخَا بَأْس :
 صاحب شدة . الْحَسَامُ لِلتَضْيِيب : للسيف اللقاطع . الْمُعْرَك : موضع القتال ، وأراد
 به فروج الأبيكار . الْفَنَك : سَفَكُ الدَّم ، وهو أيضاً ركوب الرجل ما هم به .
 كَرَّات : دفعات ورجعات . ضَنْكَ : ضيقا . رَحِيب : واسع . بَارَز : قاتل .
 الْأَقْرَان : الأمثال في الشدة وغيرها . اثْنَى : رَجَعَ . خَضِيب : مخضوب ،
 يريد أيضا اقتضاض الأبيكار . سَمَا : ارتفع وقام . مَنِيْع : أى صعب ممنوع .
 مَهِيب : مخوف . يَمِيس : يتبخر . يَرْتَشِف : يقبل ويمص ريقهن . وَالتَّشَف :

المصنوع الكثير . والفيد : جمع غيداء ، وهى الأليفة المفاصل من النعمة ، وقيل : المائلة للعدى فى نعمة . يبتزّه : يجرّده . والبطش : القوة والتناول الشديد . صليب : قوى شديد . نقى : طريحا . يمافه : يستثقله ويكرهه . تحليل : إذهاب وإزالة ، وتمحلّ الداء : ذهب شيئا فشيئا . أعيا : غلب . صارم : قاطع . الببيض : النساء الحسان . الحجاب : الذى تجيبه للنساء لحاجته منهن . والحجيب : الذى يجيبهن لحاجتهنّ منه . آص : رجع : المنكوس : المردود إلى حالته الأولى من الضعف ، وأشار إلى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ ، فردّه إلى الحالة الأولى ، وهذا هو التّكسّ فى الخلق ، والتّكسّ فى المرض أن يمرض ، ثم يبرأ ، ثم يمرض . والتّكسّ فى السهام : أن ينكسر السهم ، فيجعل فى الجعبة محولا لكسر إلى فوق ، فإذا أدخل الرامى يده فى الجعبة ليأخذ سهما فوجده محولا تركه وأخذ غيره . دواهى المشيب : حوائج الشيخ من الضعف والعلل وغير ذلك .

ونذكر هنا من الأدب ما يليق بالموضع :

[شكوى الضعف والكبر]

دخل المستوغر بن ربيعة على معاوية وهو ابن ثلثمائة سنة ، فقال : كهف تجدك يا مستوغر ؟ فقال : أجدنى قد لان منى ما كنت أحب أن يشدّ ، واشدّ منى ما كنت أحب أن يلين ، وابيض منى ما كنت أحب أن يسود ، واسود منى ما كنت أحب أن يبيض ، ثم أنشأ يقول :

سَلْنِي أَنْبِئَكَ بِآيَاتِ السَّكْبَرِ نَوْمُ الْأَشْيَاءِ وَسُقْمَالُ السَّحَرِ
وَقِلَّةُ الطَّعْمِ إِذَا الزَادُ خَفِرَ وَتَرْكُ الْحَسَنَاءِ مِنْ قَبْلِ الظُّمَرِ

* وَالنَّاسُ يَبْلَوْنَ كَمَا تَبَلَى الشَّجَرُ *

ثم قال : ألا أخبركم بحميد العنب ؟ هو ما زَوِيَ عَمُودُهُ ، واخضر عوده ،
وتفرق عنقودُهُ . ألا أخبركم بحميد الرُّطَب ؟ هو ما كبر لحاه ، وصغر نواه ،
ورق سَحَاه .

. وفي الزبور : مَنْ بَلَغَ السَّبْعِينَ اشْتَعَى مِنْ غَيْرِ عِلَّةِ .

وقال ابن أبي معن :

من عاش أخلقت الأيام جدته وخانه فقهاء السمع والبحر
* * *
قوله مسجى : أى مغطى .

* * *

[استطراد بذكر بعض الأفاكيه]

ووصف في أول الشعر ذكره بالشدة وفي آخره باللين ، وأذكر من الصنفين
ما يكون من شرط ما ذكر .

حكى أبو زياد السكلابي ، قال : كان عندنا أبو الغريب شيخاً فتزوج ولم
يُولَمْ ، فاجتمعنا على باب خبائه فصحننا : أَوَامٍ ولو بير بوع ، أو بقرد مجذوع ،
قتلتنا من الجوع : فأولم ، فلما عرس غدونا عليه فقلنا :

يا ليت شعري عن أبي الغريب إذ بات في مجاهدٍ وطيب^(١)

معانقاً للرُّشَا الرِّيبِ - أَخَذَ الحَفَارَ فِي القَلْبِ

• أَمْ كَانَ رَخَواً يَابِسَ القَضِيبِ •

فصاح : يابِسَ القَضِيبِ وَاللهُ ائِمُّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

سَقِيّاً لِمَهْدِ خَلِيلٍ كَانَ يَأْدُمُ لِي زَادِي وَيُذْهِبُ عَن زَوْجَاتِي لَانْضَبَ
كَانَ الخَلِيلُ فَاضِحِي قَدْ تَحَوَّنَهُ مَرُّ الزَّمَانِ وَتَطْمَآنِي بِهِ لَانْشَبَ
يَا صَاحُ ابْلُغْ ذَوِي الزَّوْجَاتِ كُلَّهُمْ أَن لَيْسَ وَصَلٌ إِذَا انْهَلَتْ عُرَا الذَّنَبِ
وَالْعَوَاقِي وَقَمْتُ فِي لَفْظٍ يَمْقُوبُ مَوْقُوفَةٌ . وَعُرَا الذَّنَبِ : عُرُوقُ الذِّكْرِ .

وَكَانَ أَبُو الْبَهْدَاءِ الْأَعْرَابِيُّ حَنِيناً ، وَكَانَ يَقْعَلِدُ وَيَقُولُ لِقَوْمِهِ : زَوْجُونِي
أَمْرَأَتَيْنِ ، فَيَقُولُونَ : أَمَا فِي وَاحِدَةٍ كِفَايَةٌ أَفَيَقُولُ : أَمَا لِي فَلَا ، فَيَزِيحُوهُ أَعْرَابِيَّةً ،
وَقَالُوا لَهُ : إِنْ كَفَيْتَكَ وَإِلَّا زَوْجَتُكَ الْأُخْرَى ، فَدَخَلَ بِهَا ، وَأَقَامَ عَلَيْهَا أَسْبُوعاً
فَزَارَهُ إِخْوَانُهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا أَبَا الْبَهْدَاءِ ، مَا كَانَ مِنْ أَمْرِكَ فِي
الْأَوَّلِ ؟ قَالَ : عَظِيمٌ جَدّاً ، فَقَالُوا : فِي الْيَوْمِ الثَّانِي ، قَالَ : أَعْظَمُ وَأَجَلٌ ،
قَالُوا : فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ ، قَالَ : لَا تَسْأَلُوا ، فَقَالَتْ أَمْرَأَتُهُ مِنْ وَرَاءِ الْبُتَّةِ :

كَانَ أَبُو الْبَهْدَاءِ يَنْزُو فِي الْوَهْقِ حَتَّى إِذَا مَا حَلَّ فِي بَيْتِ أَفْقٍ
فِيهِ غَزَالٌ حَسَنٌ الدَّلَّ خَرِقَ مَارِسَهُ حَتَّى إِذَا ارْفَضَ الْعَرَقُ
• تَكَسَّرَ الْمَفْتَاحُ وَانْسَدَّ الْفَلَقُ •

الْوَهْقُ : حَبْلٌ يَفْتَحُ فِيهِ عَيْنٌ وَاسِعَةٌ تَأْخُذُ بِهَا الدَّابَّةُ ، وَالْأَفْقُ الْجَمِيدُ .
وَيَنْزُو : يَمْتَدُّ وَيَقْصُرُ .

وَتَزَوَّجَ الْفَرَزْدَقُ بِأَمْرَأَةٍ مِنْ مَجَاشِعَ ، فَمَجَزَ عَنْهَا فَقَالَ :

يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى نَعْفٍ لَجَمْتُ بِهِ حِينَ التَّقَى الرَّكْبُ الْخَلُوقُ وَالرَّكْبُ

ما أبعد ما بين حالته هذه وبينها وقد لقيته جارية ، فنظرها نظراً شديداً ،
فقلت له : مالك تنظر ، فوالله لو كان لي ألف حُرٍّ ما طمعت في واحد ، قال :
ولم يا لحناء ؟ قالت : لفتح منظرِكَ وسوء مخبرِكَ فيما أرى ، فقال لها : أما والله
لو خبَرْتَنِي لغفر مخبرِي على منظرِي ، ثم كشف لها وأراها مثل ذراع البكر ،
فكشفت له عن مثل سنام البعير ، فستهما ، وقال :

أدخلت فيها كذراع البكرِ مُدَمِّلج الرأس شديد الأسرِ
زاد على شبرٍ ونصف شبرِ كأنما أولجته في بحرِ

وسمع بشار كلام امرأة ، فأحبها وأرسل لها أن تواصله ، وألح عليها ،
فالت لرسوله : أى معنى له في أولى فيه ، وهو أحمى لإبراني ، فيعرف جمالي ،
وهو قبيح الوجه لاحظ لي فيه ! فليت شعري لأى شيء يطلب وصال مثلي !
فأدى إليه الرسول كلامها ، فقال عذ إليهما فقل لها :

أبْزَى له فضل على آبارهم وإذا أشط سجدن غير أوابي^(١)
تلقاه بعد ثلاث عشرة قائماً نظر المؤذن شك يوم سحاب
وكان هامة رأسه بطيخةً حملت إلى ملك بدجلة جاني

وعشق^(٢) امرأة وتردد رسوله إليها حتى أبرمها ، فشكته إلى زوجها ،
فقال : أجيبه وعديه إلى هنا ، ففعلت ووجهت له ، فجاء ولم يعرف بزوجها ،
فقال لها : ما اسمك بأبي أنت وأمي ؟ فقالت : أمانة ، فقال :

أمانة قد وُصفت لنا بحسن وإنا لا نراك فالسينا

(١) الأغاني ٣ : ٢٠٢ ، وأشط : أعلظ .

(٢) الحبر والشعر في الأغاني ٣ : ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

فوضعت يده على أيزر زوجها ، وقد أنمظ لحسن حديثها معه ، ففزع ووثب
فأثما وقال :

على أليّة ماعشت حيا أمسك طائعا إلا بعود
ولا أهدى لأرض أنت فيها سلام الله إلا من بعيد
طلبت غنيمة فوضعت كفي على أيزر أشد من الحديد
نغير منك من لاخير فيه وخير من زيارتكم قعودي

فقبض زوجها عليه ، وقال : همت أن أفضحك ، فقال : كفاني فديك
ما فعلت بي ، والله لا أعود لثلثها أبدا .

سمع^(١) الحكم بن عبدل امرأة تعمل بقوله :

وأعير أحيانا فتشدد عسرتي فأدرك ميسور النفي ومعى عريض

فقال لها : بأختي ، أتعرفين قائل هذا الكلام ؟ قالت : هو ابن عبدل ، قال :
أفعر فيه عينا^(٢) ؟ قالت : لا ، والله ، فقال : أنا هو ، والذي أقول :

وأعيط أحيانا فينقد جلدُهُ وأعذله جهدي فلا ينفع العذلُ
وأزداد نفاقا حين أسمع جارتي فأوثقه كي ما يثوب له عقلُ
وربما لم أدر ما حيلتي به إذا هو آذاني وغرّبه الجهلُ
فأوبته في بطن جاري وجارتي مكابرة قذما^(٣) وإن رغم الفعلُ

فقالت المرأة : بش الجار والله للمغيبة أنت ، قال : إي والله ولاني معها زوجها

(١) الخبر والشعر في الأغاني ٢ : ٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٢) الأغاني : « أنشبتني مرفة » .

(٣) التهام : الخصى في الإقدام .

وابنها وأخوها ، أين قول هذا على إسلامه من قول عنتره على جاهليته :
 وأغض طرفي ما بدت لي جارتى حتى يوارى جارتى مأواها^(١)
 إني أمرؤ ستمح الخليفة ماجد لا أنعم النفس اللجوج هَواها
 وقال أبو الرقعمق^(٢) :

كل يوم أنا من أبى فى أمر عجب
 ليس بخلفى من هم وحزن واكتئاب
 عيونه فى كل من دب على وجه القرب
 لم يدع لى ذهباً إلا رماه بالذهب
 وابتدى المشؤم أن يمل فى بيع الثياب
 لعنة الله عليه وبراعته الكلاب

وللمفجع البصرى فى ضدا تقدم ، والمفجع صاحب ابن دريد ، واللقام
 مقامه بالهجرة فى الإملاء :

لى أيز أراحنى الله مِنْهُ صارمى به عريضا طويلاً^(٣)
 نام إذ زارنى الحبيب عناداً وكلمدى به ينيك الرسولاً
 حُسِبَتْ زورة على إثنين وانصرفنا وما شفيها خليلاً
 ولراشد بن إسحاق^(٤) :

طالبنا قت كالمفارة نهتز اهتزازاً تسمو إليه العمون

(١) ديوان عنتره ٩١ .

(٢) يتيمة الدهر ، ١ : ٢٦٩ ، وهو أحمد بن محمد الأنطاكي ؛ ترجم له الثعالبي وذكر كثير
 من شعره .

(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٢٣٤ .

(٤) هو أبو حكيم ، وف ثمار القلوب ٣٢٥ وما بعدها بمعنى أخباره وشعره .

ربّ يوم رَفَعْتُ فيه ثِيَابِي فَكَأَنِّي فِي مَشِيْقِي مَخْتُونُ
فَعَنْتُ قَوْسَكَ الْخَطُوبِ وَأَفْنَعُ لَكِ فِقُونُ تَفْنَى عَلَيْهَا الْفَقُونُ
لَمْ يَدَعْ مِنْكَ حَادِثُ الدَّهْرِ إِلَّا جِلْدَةً كَالرَّشَاءِ فِيهَا غَضُونُ
تَتَقَى كَأَنَّهَا صَوْلَجَانُ أَوْ كَمَا حُرِّقَتْ مِنْ الْخَطِّ نُونُ

وله أيضا فيه :

كَأَنَّهُ حِينَ أَطْوَبَهُ وَأَنْشَرُهُ سِرٌّ يُكَلِّفُ عَلَى دَوَامَةِ الرِّبْرِ
وَأِنْ يَتِمَّ قِلْتُ قَنَاءُ مَعْنَقَةٍ أَوْ عُرْوَةُ رُكْبَتِي فِي رَأْسِ إِبْرِي

وله أيضا فيه :

أَبْرُ ضَمِيفُ الْمُتَنِّ رِثَ الْقَوَى لَوْ شِئْتُ أَنْ أَهْقِدَهُ لَأَسْقِدُ^(١)
إِنْ يُنْسَى كَالْبَقْلَةِ فِي لَيْلِهَا فَطَالَمَا أَصْبَحَ مِثْلَ الْوَسْدِ

وله أيضا فيه :

يَنَامُ عَلَى كَفِّ الْفَتَاةِ وَتَارَةً لَهُ حَرَكَاتُ مَا يُحْسِئُ بِهَا الْكَفُّ^(٢)
كَأَيُّ رِفْعِ الْفَرْخِ ابْنِ يَوْمَيْنِ رَأْسُهُ إِلَى أَبِيهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْغَضَبُ

الفتجديهي : سمعت الحافظ أبا جعفر الروزي يقول : ما زحت شهيدنا نجيب
ابن ميمون الواسطي يوما - وكان شيخا دمثا ظريفا - فقالت له : أخبرني هل
يَقِي - من سلطان الهوى شيء ؟ وهل تقوم للخدمة العكازة اليمونية ؟ فقال :
آه آه ، ثم أنشد :

تَعَقَّفُ فَوْقَ الْخُلُصِيِّينَ كَأَنَّهُ رَشَاءٌ عَلَى رَأْسِ الرُّكْبَةِ مَلْفُ^(٣)

(١) لمار القلوب ٢١٦ .

(٢) لإسحاق بن راشد ، شرح المختار من شعر بشار ٢١٧ .

(٣) شرح المختار من شعر بشار ٢١٣ ، ونسبه إلى راشد بن إسحاق ، وما أينا

في معاهد التنصيص ٣ : ١٩٧ .

(٢٦ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

كفرخ ابن ذى يومين برفع رأسه إلى أبوينه ثم بدركه الضعف
وأنشد أيضاً :

يقوم في الليل عند البول منحنيًا كأنه قوس ندافٍ بلا وترٍ
ولا يقوم إذا نهته سحرًا كما تقوم أيور الناس في السحر
ثم بكى بكاءً شديداً ، وذكرنا ووعظنا .

وهذه الأبيات المنسوبة لراشد بن إسحاق كلها من قصائده مطولة في هذا
الفن ، وأكثر شعره فيه ، وله فيه شعر كثير ؛ ومنه انزع الحريري قصيدته في
هذه اللقاة .

• • •

ثم إنه أعلن بالنعيب ، وبكى بكاءً المحب على الحبيب . ولما
رقات دمعته ، وانفثأت لوعته ، قال : يا نجمة الرؤاد ، وقُدوة
الأجواد ، والله ما نطقْتُ بيتهان ، ولا أخبرتكم إلا عن عيان ،
ولو كان في عصاى سَيْرٌ ، ولغنيمى مُطِيرٌ ؛ لاستأثرتُ
بما دعَوْتُكم إليه ، ولما وقفتُ موقفَ الدالِّ عليه ،
ولكن كيف الطيران بلا جناح ، وهل على من لا يجد
من جناح !

• • •

قوله : « أعلن » أى رفع صوته . والنعيب : البكاء . وفى بكاء المحب على
الحبيب يقول الشاعر وزاد معنى :

أنتنى تؤنبنى فى البكاء فأهلاً بها وبثانيها
تقول وفى قولها حكمة . أنتبكي بعين ترانى بها !

قلت : إذا استعصنت غيركم أمرت الهكاه بتأديبها
 قوله : رقأت ، أى اقطعت . انفتأت : انكسرت وسكنت . لوعته :
 حرقته . النجعة : المرعى . الرواد : الطالبون لها . بهتان : باطل . عيان : معاينة .
 قوله : « فى عصاى سير » مثل يضرب لمن ليس عنده منفعة ولا له قوة .
 والسير : الشراك يدخل فى ثقب فى رأس العصا ويقعد منه حلقة ، يدخل فيها يده
 التى تمسك العصا ، فتكون أشد لاعتاده عليها ، وضربه بها ، فجعل عصاه
 عاطلة من سيرها ، وهو يريد أن لا منفعة عنده .
 وأنشدوا :

بِالْك مِنْ هِمَّةٍ وَخَيْرٍ لَوْ كَانَ لِي فِي عَصَايَ سَيْرٌ
 صَبْرًا عَلَى الثَّابِتَاتِ صَبْرًا مَا يَصْنَعُ اللَّهُ فَهُوَ خَيْرٌ
 فَن قَلِيلٌ بَدَا كَثِيرُهُ كَمْ مَطَرٌ بَدَوُهُ مُطِيرٌ

• • •

[للعصا وما قيل فيها شعراً ونثراً]

وذكر الجاحظ^(١) فوائد العصا ، فنها : سئل يونس من قول الله عز وجل :
 ﴿ وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى ﴾^(٢) فقال : لست أحيط بجميع مآرب موسى ، لكنى
 أذكر جملة تدخل فى باب الحاجة إليها :

من ذلك أنها تحسّل للحية والقرب والذئب والفعل للهاج ، ويتوكأ عليها
 الكبير والسقيم والأقطع والخطيب والأعرج ، فتنوب للأعرج عن ساق أخرى
 [وتنوب^(٣)] للأعمى عن قائده . وهى للقصار والذباغ . وهى المفاد^(٤) للملّة وعمرّاك
 للتنور ، ولذق الجصّ والسسم ، ولخبط الشجر ، وللشرطى واللكارى ، وللراعى

(١) البيان والتبيين ٣ : ٦٧ وما بعدها ، مع تزيد واختصار

(٢) سورة طه ١٨

(٣) من البيان والتبيين .

(٤) المفاد : الحشبة التى يحرك بها التنور . والله : الرماد الحار الجمر

خفيه ، وللاراكب مركبه . ووتد في الحائط ، وتركزها فضعلمها قبله ، وإن شئت مظلة ، وتدخلها في عروة المزود وطرفها في يدك ، والثاني في يد صاحبك ، وإن كان فيها زُجْجَ كانت عترة ، فإن زدت شيئاً ، كانت عسكازاً ، فإن زدت شيئاً كانت مطرداً^(١) ، وإن زدت شيئاً كانت رحماً .

وكانت آيات موسى صلوات الله وسلامه عليه في عصاه ، وكانت لا تفارق يد سليمان عايد الصلاة والسلام في مقاماته ، حتى ساقط الله الأرضة وهو ميت فسقط ، فكانت للجن آية .

وكان الحكم بن عبدل أخرج أحدب هجاء خبيث للهجاء ، وكان الشعراء يفتنون بأبواب الملوك فلا يؤذن لهم ، وكان يكتب على عصاه حاجته ويبعث بها ، فلا تؤخر له حاجة ، فقال يحيى بن نوفل :

عصا - كم في الباب أول داخل ونحن على الأبواب نغمى ونعجب^(٢)
وكانت عصا موسى لفرعون آية وهذى لمر الله أدهى وأعجب
تطاع فلا تعصى ويحذر أمرها ويرغب في الرضا منها وترهب

فضحك الناس منها وشاعت بالكوفة ، وصارت ضحكة ، فاجتنب أن يكتب عليها .

وكان لابن عبدل صديق أمي يقال له يحيى بن حكيم ، وكان ابن عبدل قد أقعد ، فخرجا ليلة إلى منزل بعض إخوانهما ، وابن عبدل يحمل والأمي يقاد ، فلقيا صاحب الدس ، فأخذهما وحبسهما ، فنظر ابن عبدل إلى عصا ابن عتبة في الحبس إلى جانب عصاه ، فضحك وقال :

حبسى وحبسى أبي حكيم من أعاجيب الزمان^(٣)

(١) المطرد : رمح قصير .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ٧٥ ، الأغاني ٢ : ٤٠٤ .

(٣) الأغاني ٢ : ٤٠٥ .

أُمِّي يُقَادُ وَمَقْعَدُ لَا الرَّجُلُ مَعَهُ وَلَا الْيَدَانِ
 بِأَمْنٍ رَأَى ضَبَّ الْفَلَاةِ قَعِيدَ مَوْتٍ^(١) فِي مَكَانٍ
 طَرَفِي وَطَرَفُ أَبِي عُلَيْيَةَ دَهْرًا مُتَوَاقِفَانِ
 مِنْ يَفْتَخِرُ بِجَوَادِهِ فِي إِسَادِنَا بِكَارِزَانِ
 وَقَالَ أَيْضًا: ^(٢)

أَقُولُ لِيَحْيَى لَيْلَةَ السَّجْنِ سَادِرًا^(٣) وَنَوَى بِهِ نَوْمَ الْأَسَدِ الْقَعِيدِ
 أَعْنَى عَلَى حِفْظِ النُّجُومِ وَرَعِيهَا أَعْنَى عَلَى تَحْيِيرِ شِعْرِ مُقْعَدِ
 فِي حَالَتَيْنَا عِبرَةً وَتَفَكُّرًا وَأَعْجَبَ مِنْ ذَا حَبْسٍ أُمِّي وَمَقْعَدِ
 كَلَانَا إِذَا الْمَكَازِ فَارَقَ كَفَّهُ يُنْبِخُ صَرِيحًا أَوْ عَلَى الْكَفِّ يَسْجُدُ
 فَمَكَازَةٌ تَهْدِي إِلَى الشُّبُلِ أَكْثَمًا وَأُخْرَى مَقَامَ الرَّجُلِ قَامَتْ مَعَ الْيَدِ

وَوَلَّى لِمَا نَزَلَتِ الْكُوفَةُ أَعْرَجَ وَوَلَّى شَرَطَهَا أَعْرَجَ ، فَقَصَدَ الْأَمِيرُ ابْنُ عَهْدِلَ
 وَهُوَ أَعْرَجٌ ، وَوَجَدَ سَائِلًا أَعْرَجَ فَقَالَ ^(٤) :

أَلْقِ الْعَصَا وَدَعِ التَّضَامِعَ وَالتَّمِيسَ^(٥) حَمَلًا فَمَذَى دَوْلَةَ الْعُرْجَانِ
 لِأَمِيرِنَا وَأَمِيرٍ شَرَطْنَا مَعًا يَا قَوْمُنَا لِكُلِّهِمَا رَجُلَانِ
 فَإِذَا يَكُونُ أَمِيرُنَا وَوَزِيرُنَا وَأَنَا فَلَنْ الرَّابِعَ الشَّيْطَانُ^(٦)
 فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْأَمِيرُ بِمَائِقٍ دَرَمَ فِضَّةً وَسَأَلَهُ أَنْ يَكْفَ .

وَكَثِيرًا مَا تَعَرَّفَ لِلشُّعْرَاءِ فِي ذِكْرِ عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أَغْرَاضِهِمْ ،
 فَمِنْهَا مَا يَحْسَنُ وَمِنْهَا مَا يَتَّبِعُ . وَقَالَ ابْنُ سَارَةَ :

وَلَى عَصَا مِنْ طَرِيقِ الْقَدَمِ أَحَدُهَا بِهَا أَقْدَمَ فِي تَأْخِيرِهَا قَدَمِي
 كَأَنَّهَا وَهِيَ فِي كَفِّي أَهْشُ بِهَا عَلَى ثَمَانِينَ عَامًا لَا عَلَى غَنِي

(٢) الْأَغَانِي ٢ : ٤٠٦ .

(١) الْأَغَانِي دُورِينَ مَوْت .

(٤) الْأَغَانِي ٢ : ٤٠٦ .

(٣) الْمَاصِرُ : الْمُتَحَيَّرُ .

(٥) التَّضَامِعُ : التَّظَاهَرُ بِالْجَمْعِ ، وَهُوَ الْمَرْج . (٦) فِي الْبَيْتِ لِأَوَّلِهِ .

كَانَتْ قَوْسُ رَامٍ وَهِيَ لِي وَتَرٌّ أَرَمِي عَلَيْهَا سِهَامٌ لِلشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْبَلَوِيُّ :

كَانَ يَمِينِي حِينَ حَاوَلْتُ بَسَطَهَا لَتُودِيعَ الْإِنِّي وَالْهَوَى بِصَرْفِ الدَّمْعَا
يَمِينِ ابْنِ عِمْرَانَ وَقَدْ حَاوَلَ الْعَصَا وَقَدْ جَعَلْتَ تِلْكَ الْعَصَا حَيَّةً تَسْقَى
قَالَ ابْنُ رَشِيقٍ : كُنْتُ أُمِيلُ إِلَى قِيَمَةِ اسْمِهَا لَيْلَى ، فَمَشَتْهَا بَعْضُ خُدَّامِ
الْحَصُونِ ، وَكَانَ يَحْسَبُ خِدْمَتَهَا وَكَنَسَهَا مَنْزِلَهُ لَا يَثْلُمُ جَاءَ مَقُولُهَا فَتَهَيَّأَتْ
عِنْدَهَا فَلَمْ يَنْتَهَ ، فَقُلْتُ فِيهِ :

ظَنُّ أَنْ الْحَصُونَ مُلْكُ سَلِيَا نَ وَلَيْلَى يَجْهَلُهُ بَلَقِيْسَا
وَلَهُ فِي الْعَصَا مَأْرَبٌ أُخْرَى حَاشَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ لِمُوسَى
وَقَالَ الْعَصَابِيُّ :

يُبْدِي الْاَلْوَاطَ مَغَالِطًا وَعِجَابَهُ أَبْدَاً لِأَغْرَاضِ الْوَرَى يَسْتَهْدِفُ
فَكَأَنَّهُ ثَعْبَانُ مُوسَى إِذْ غَدَا لِحِبَالِهِمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يَتَأَنَّفُ
وَقَالَ الْمَصَاحِبُ :

هَذَا ابْنُ مَقْشُوبَةٍ لَهُ آيَةٌ يَبْتَلِغُ الْاَيُّرَ وَأَقْصَى الْخَلْقِ
يَكْتَفُرُ بِالرَّسْلِ جَمِيعًا سِوَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ لِأَجْلِ الْعَصَا
وَقَالَ أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي الْقَاضِي الْأَنْدَلُسِيِّ ، وَالتَّمَسُّ مِنْهُ عَكَازَةٌ فَلَمْ
يُعْطِهَا لِإِبَاهِ :

اسْمُ حَدِيثِي تَسْمَعُ آيَةً عَجَبَا لِأَشْيَاءٍ أَعْجَبَ مِنْهُ يَبْهَرُ الْقِصَصَا
طَلَبْتُ عَكَازَةً لِلرُّجُلِ تَحْمِلُنِي وَرُمْتُهَا عِنْدَ مَنْ يَخْفَى الْعَصَا فَمَقَى
وَكُفْتُ أَحْسَبُهُ يَهُوَى مَعْصَا عَصَبٍ وَلَمْ أَكُنْ خَلَقُهُ صَبَاً بِكُلِّ عَصَا
وَلَمَّا قَدِمَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلَمٍ وَالْيَا عَلَى خِرَاسَانَ سَقَطَتْ الْخُمْصَةُ مِنْ يَدِهِ ، فَتَطَيَّرَ

به أهل خراسان ، فقال : يا أهل خراسان ليس كما ظننتم ، ولكن كما قال الشاعر :

خَالَتْ عَصَاهَا وَاسْتَمَتْ بِهَا الْقَوَى كَأَقْرَبِّ عَيْنَا بِالْإِبَابِ الْمَسَافِرُ ^(١)

وأما قول الشاعر :

وَبِكَفِّكَ الْأَلَا يَرْحَلُ الضَّيْفُ لَأَنَّمَا عَصَا لِلْعَبْدِ وَاللَّهُرُ أَلَّتِي لَا تَمِيهُنَّهَا ^(٢)

فقال بقيوب: اللهبر هنا حفرة تجمل فيها الملة، وتجمل عليها الخبزة، والعصا تقلب بها الخبزة على الملة، وينفض بها الرماد.

وقال آخر :

إِذَا جَاءَ تَقَافٌ بِجَرٍّ قَدَّاتُهُ طَوِيلَ الْعَصَا نَكَبْتُهُ عَنْ شَاهِنَا

فالتقاف الرسول بين المريب والمريبة ، يأتى كالسائل ، فإذا وقف وقف الأرض بعصاه ، فإذا سمعت المرأة ذلك خرجت إليه ، فأبلغها الرسالة ، فتفقه علامة بينهما ، وأراد بالشيء للنساء .

قوله : « غيمي » ، أى سعابى . مُظْهِر : تصغير مطر ، أى لو كان لى قوة ومال لآثرت بذلك نفسى . استأثرت : اختصمت . جناح : إثم .

* * *

قال الراوى : فطَفِقَ الْقَوْمُ يَأْتُمُونَ فِيمَا يَأْتُمُونَ ، وَيَخَافُونَ فِيهِ يَأْتُونَ ، فَتَوَهُمَ أَنَّهُمْ يَتَمَلَّثُونَ عَلَى صَرَفِهِ بِحِرْمَانٍ ، أَوْ مَطَالِبَتِهِ بِبُرْهَانٍ ، فَفَرَطَ مِنْهُ أَنْ قَالَ : يَا يَلَامِعُ الْقَاعِ ، وَيَرَامِعُ الْبِقَاعِ ، مَا هَذَا الْإِزْتِيَاءُ ، الَّذِى يَأْبَاهُ الْحَيَاءُ ، حَتَّى

(١) السان - عصا ، ونسبه إلى مبدريه السلمي

(٢) السان - عصا ، من غير نسبة

كَأَنِّكُمْ كَلَّمْتُمْ شَقَّةَ لَشَقَّةٍ ، أَوْ اسْتَوْهَبْتُمْ بِلَدَةٍ لَا بُرْدَةَ ،
أَوْ هَزَزْتُمْ لِكُسُوتِ الْبَيْتِ ، لَا لِتَسْكُفِينَ اللَّيْتَ ، أَفَ لِمَنْ
لَا تَنْدَى صَفَاتُهُ ، وَلَا تَرَشَّحُ حَصَاتُهُ !

فَلَمَّا بَصُرَتْ الْجَمَاعَةُ بِذِلَالَتِهِ ، وَمَرَارَةِ مَذَاقَتِهِ ، رَفَأَهُ كُلٌّ مِنْهُمْ
بِنَيْلِهِ ، وَاحْتَمَلَ طَلَهُ خَوْفَ سَيْلِهِ .

* * *

بَاتَمَرُونَ : يتشاورون . يتخافتون : يتكلمون سراً . فَيَا يَاتُونَ ، أَيْ فَيَا
يُضَلُّونَ مَعَهُ . تَوْم : ظَنٌّ . صَرْفَهُ . رَدَّهُ .

حِزْمَان : خِيْبَةٌ . بُرْهَان : حَبَّةٌ . فَرَط : سَبَقُ : يَلَامَعُ : جَمْعُ يَلْمَعُ وَهُوَ
السَّرَابُ . الْقَاع : مُنْخَفِضُ الْأَرْضِ . يَرَامَعُ : جَمْعُ يَرْمَعُ وَهُوَ الْحَمَى الْبَيْضُ ،
وَقِيلَ الْحَجَارَةُ الرَّخْوَةُ .

الْبِقَاع : جَمْعُ بَقْعَةٍ ، وَأَرَادَ أَنْ لَهَا ظَاهِرًا وَلَيْسَ لَهَا خَبْرَةٌ ، كَالسَّرَابِ يَحْتَمِلُ
أَنَّهُ مَاءٌ وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ ، وَالْيَرْمَعُ تَظَنُّهُ فُضَّةٌ وَهُوَ حَبَرٌ .

الْإِرْتِيَاءُ : تَدْبِيرُ الرَّأْيِ ، وَأَصْلُهُ الِهْمَزُ لِأَنَّهُ مِنَ الرَّأْيِ . اسْتَوْهَبْتُمْ : طَلَبْتُمْ
مِنْكُمْ هَبَةً . بَرْدَةٌ : ثَوْبٌ يَلْبَسُ . هَزَزْتُمْ : حَرَّكْتُمْ . اللَّيْتُ : السَّكْبَةُ .

أَفَ : خِيْبَةٌ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الصَّخْرَةَ وَالْحَصَاةَ يَكْنَى بِهِمَا عَنْ يَدِ الْبَخِيلِ .
ذِلَالَتِهِ : حَذَّةُ لِسَانِهِ . رَفَأَهُ : وَصَلَهُ . وَالطَّلُ وَالسَّيْلُ هُنَا : الْفَلِيلُ وَالسَّكْبَةُ .

* * *

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَامٍ : وَكَانَ هَذَا السَّائِلُ وَاقِفًا خَلْفِي ،

ومحتجياً بظهرى عن طَرْفَى . فلَمَّا أَرْضَاهُ الْقَوْمَ بِسَيِّبِهِمْ ، وَحَقَّ
عَلَى التَّائِسَى بِهِمْ ، خَلَجَتْ خَاتَمِي مِنْ خِنْصَرِي ، وَلَفْتُ بَصَرِي ،
فَإِذَا هُوَ شَيْخُنَا السَّرُوجِيُّ بِلا قَرْيَةٍ وَلَا مِزْيَةٍ ، فَأَيَقَنْتُ أَنَّهَا
أَكْذُوبَةٌ تَكْذِبُهَا ، وَأَحْبُولَةٌ نَعَبَهَا ، إِلَّا أَنَّنِي طَوَيْتُهُ عَلَى
غَرْوٍ ، وَصُنْتُ شَفَاهُ عَنْ فَرْهٍ ، فَحَصَبْتُهُ بِالْخَاتَمِ ، وَقُلْتُ :
أَرْضِيذُهُ لِنَفَقَةِ الْمَآتِمِ ، فَقَالَ : وَاهَا لَكَ فَمَا أَضْرَمَ شَعْلَكَ ،
وَأَكْرَمَ فَعْلَكَ ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِسَمِي قُدَمَا ، وَيَهْرُولُ
هَزُولَتَهُ قُدَمَا .



سَيِّبِهِمْ : عَطَاؤُهُمْ . وَحَقَّ : وَجِبَ . التَّائِسَى : الْاِقْتِدَاءُ . خَلَجَتْ : جَذِبَتْ
وَأَخْرَجَتْ . الْخِنْصَرُ : الْأَصْفَرُ مِنَ الْأَصَابِعِ ، وَيَلْبِهَا الْبَهْصَرُ ثُمَّ الْوَسْطَى ثُمَّ
السَّبَابَةُ وَتَسْمَى الْمُسَبَّعَةُ وَالْمَشْهُورَةُ ، ثُمَّ الْإِبْهَامُ ، وَقَالَ أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعْرِيُّ :

شَفَلْتُ مِنَ الْمَرَّةِ مِنْ خَمْسَةِ اثْنَيْتَيْنِ نَخْصَمَا الْمَفْخَ (١)
بُشَارَ إِلَيْكَ بِسَبَابَةٍ وَثْنِي عَلَى فَضْلِكَ الْخِنْصَرُ
فَمَنْ أَجَلُ ذَا رُفْعَةٍ هَذِهِ إِلَى خَالِقِ الْخَلْقِ تَسْتَغْفِرُ
وَمَنْ أَجَلُ ذَا كَسَيْتٍ خَاتَمَا بَزِينِ وَعُرِّيَتْ الْبَهْصَرُ
وَقَالَ صَرِيحُ النَّوَائِي يَلْتَزِمُ خَاتَمَ :

وَأَيُّضَ أَمَّا رَأْسُهُ فَدَوْرٌ قَبِيٌّ وَأَمَّا جِسْمُهُ فَتَمَّارٌ (٢)

ولم يُتَّخَذْ إِلَّا لَتَسْكُنَ وَسْطُهُ^(١) خَضِيَّةُ رَأْسِ مَا عَلَيْهِ نُخَارٌ
لَهَا أَخَوَاتٌ أَرْبَعٌ مِنْ مِثْلِهَا وَلَسَكُنَّهَا الصُّفْرَى وَهِيَ كِبَارٌ
لَقَدْ رَدَدَتْ . فَرِيَّةٌ : كَذِبٌ . مَرِيَّةٌ : شَكٌّ ، وَتَقُولُ : بَيْنَ الْقَوْمِ أَكْذُوبَةٌ
يَعْكَازُونَ بِهَا ، أَيْ أَحَادِيثُ كَذِبٍ . تَكْذِبُهَا : اسْتَفْعَلَهَا . أَحْبُولَةٌ : آلَةٌ يَصَادُ
بِهَا . وَطَوْبِيَّتُهُ عَلَى غَرْهٍ ، أَيْ سَتَرَتْ عَلَيْهِ طَرِيقَتَهُ الْمَلْتَزِمَةَ مِنَ الْحَيْلِ ، وَالْغَرِّ
بِالنَّقَطِ : كَسُورِ الثُّوبِ ، يُقَالُ : اطْلُو الثُّوبَ عَلَى غَرْهٍ ، أَيْ عَلَى كَسُورِ طَيِّهِ الْأُولَى .
جَابِرٌ : قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « طَيَّ الثُّوبَ رَاحَتَهُ » .
صَنَتَ : حَفِظَتْ وَكَتَمَتْ . شَفَاهُ : عَيَّبَهُ . فَرَّهُ : كَشَفَهُ . وَاللِّشْفَا : بَرُوزُ سِنٍّ
عَلَى أَخَوَاتِهَا ، وَخُرُوجُ الْحَنَكِ الْأَعْلَى عَلَى الْأَسْفَلِ .

وَحَصْبَتُهُ : رَمِيَّتُهُ ، وَالْحَصْبَاءُ : الْحَصَى الصَّغِيرُ ، وَحَصْبَتُهُ : رَمِيَّتُهُ بِالْحَصْبَاءِ ،
فَاسْتَمَارَ لِلنَّخَاتِمِ .

أَرْصَدَهُ : أَعَدَّهُ . وَاهَاً : عَجَبًا . مَا أَضْرَمَ شِعْلَتَكَ ، أَيْ مَا أَكْبَرَ تَوْقَدَ
ذَهَبِكَ ، وَالشَّعْلَةُ لِسَانُ النَّارِ ، وَإِنَّمَا تَعَجَّبَ مِنْهُ لِأَنَّهُ قَدْ عَرَفَهُ وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ قَدْ
عَرَفَ مَكْرَهُ حِينَ قَالَ لَهُ : أَرْصَدَهُ ، ثُمَّ سَتَرَ عَلَيْهِ ، وَأَهْلُ الشَّرْقِ يَتَخَفَتُونَ
وَيَتَصَدَّقُونَ بِخَوَاتِمِهِمْ . وَفِي الْبَدِيعَةِ^(٢) بَعْدَ تَشَكُّقِ تَقْدَمِ مِنْ أَبِي الْفَتْحِ : قَالَ
ابْنُ هِشَامٍ : فَوَاللَّهِ مَا آتَسَنِي عَنْ وَحْدَتِي إِلَّا خَاتِمَ خَفَّتْ بِهِ خَنْصَرَةٌ ،
فَلَمَّا تَفَاوَلَهُ أَنْشَأَ يَقُولُ :

وَمِنْطِقِي مِنْ نَفْسِهِ بِقِلَادَةِ الْجُوزَاءِ حُسْنًا
مُتَأَلِّفٍ مِنْ غَيْرِ أَسْرَرْتَهُ عَلَى الْأَيَّامِ خِدْنًا
كَمَقِيمٍ أَقْبَى الْحَبِيبِ فَضْلَهُ شَفَقًا وَحَزْنًا

(١) الديوان : « وما يشتري إلا لتسكن وسطه » .

(٢) المقامة البغارية من مقامات البديع ٩٧ ، ٩٨ .

عَلَّقْتُ سَنِي قَدْرَهُ لَكِنْ مَنْ أَهْدَاهُ أَسْنَى
أَقْسَمْتُ لَوْ كَانَ الْوَرَى فِي الْمَجْدِ لَفُظَا كُنْتُ مَعْنَى

قال: ففهمته حتى سمرت الخلوة وجهها، فإذا والله أبو الفتح، والطلا زخلوله^(١)،
فقلت أبا الفتح، شبت وشب الغلام، فأين الكلام، وأين السلام؟ فقال:
غريباً إذا جعتمنا الطريقُ ألوفاً إذا نظمتنا الخيامُ
قوله، يسمى، أى يسرع المشى. قَدْماً: أى قدامه وقبالة. يهرول:
يسرع، والمهولة جرى بين المشى والعدو. قَدْماً، أى قديماً وأولاً، ومعناها
كافعل فى أول مرة حين سعى قدماً.

فَنَزَعْتُ إِلَى عِرْفَانٍ مَيْتَةٍ، وَامْتِحَانٍ دَعْوَى حِمِيَّتِهِ، ففَرَعْتُ
ظُنُوبِي، وَأَلْبَسْتُ أَهْوَئِي، حَتَّى أَدْرَكْتُهُ عَلَى غَلْوَةٍ، وَاجْتَلَيْتُهُ
فِي خَلْوَةٍ، فَأَخَذْتُ بِجُمُعِ أَرْدَانِهِ، وَعَقَّقْتُهُ عَنْ سَنَنِ مَيْدَانِهِ،
وَقُلْتُ لَهُ: وَاللَّهِ مَالِكٌ مِثْنِي مَلْجَأٌ وَلَا مَنْجَى، أَوْ تُرِيئِي مَيْتَتِكَ
الْمَسْجُوعِي، فَكَشَفَ عَنْ سَرَائِيلِهِ، وَأَشَارَ إِلَى غُرْمُولِهِ. فَقُلْتُ
لَهُ: قَاتِلْكَ اللَّهُ! فَمَا أَلْعَبُكَ بِالنَّهْيِ، وَأَخْيَلُكَ عَلَى اللَّهِ! ثُمَّ
عُدْتُ إِلَى أَصْحَابِي عَوْدَ الرَّائِدِ الَّذِي لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَلَا يَبْرُقُشُ
قَوْلَهُ، فَأَخْبَرْتَهُمْ بِالَّذِي رَأَيْتُ وَمَا وَرَيْتُ وَلَا رَأَيْتُ، فَفَقَهُوهُ
مِنْ كَيْتٍ وَكَيْتٍ، وَلَعَنُوا ذَلِكَ الْمَيْتَ!

نزعت : اشتقت . امتحان : تجربة . قرعت : ضربت . غلبوب : مقدم
عظم اللسان ، ويقال : قرع لهذا الأمر غلبوبه ، إذا أسرع وجد فيه ، ويبينه قول
سلامة بن جندل :

كنا إذا ما أتاناً صارخ فرع^(١) كان الصراخ له قرعَ اللظنايبِ
أى كانت إغائتنا له إسراعنا فى نصرته . ألهمت : أشعلت . ألهوئى : شدة
جري . والفلة : مقدار رمية للسهم . اجعلته : نظرت . بجمع أردانٍ ، أى
بجميع أطراف نوبه . عقه : صرفته عن وجهه . سنن : طريق . مئدانه : موضع
جريه وطلقه . ملجأ : موضع يُلجأ إليه . منجى : موضع تهجو فيه . غر موله :
ذكره . قاتلك الله ، أى قتلك الله ؛ وأكثر ما يقع فاعلت على الاثنين ،
وقد يكون عن الواحد ، نحو ناولت وسافرت ؛ وقيل : معنى قاتله ، لعنه ، وقيل
عاداه . اللهم : العنول ، واحدها شهية ، ومنه نهيقه عن كذا فانهى . والله :
اللطايا ، واحدها لهوة ، وأصله القبضة من الطعام ، تجعل فى فم الرخا . يكذب :
يحدث بالكذب : يبرقش : يزين ، والبرقشة للترزين بألوان شتى . وريت ،
يقال : رويت الخبر أوردته تورية : سترته وأظهرت غيره ، وفى الحديث الشريف ،
أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفراً ، ورى بغيره ، وهو مأخوذ من الراء ،
كأنه جعل الخبر وراه ولم يظهروه . راءيت : استعملت الراء ، يريد أنه صرح
لهم بذكر العورة ، ولم يسكن عنها . ففهموا : أكثروا الضحك .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياك
وكثرة الضحك فإنه يميم القلب » . والقمة من الشيطان والتبسم من الله .
من كيت وكيت ، أى من هذه القصة التى أسممهم ؛ وكيت وكيت ، كفاية
عن الحديث المدمج للداخل . والله أعلم .

ثم الجزء الثانى بحمد الله وبلية الجزء الثالث

وأوله المقامة الحادية والعشرون

فهرست المقامات

صفحة	
٣ - ٣٠	المقامة الحادية عشرة وتعرف بالساوية، تتضمن وقوف أبي زيد بالمقابر واعظا
٣٤ - ١٠٥	المقامة الثانية عشرة وتعرف بالدمشقية، تتضمن كون أبي زيد خفيرا، وأنه خفر للقافلة بدعوات لقنها في المنام
١٠٦ - ١٣٠	المقامة الثالثة عشرة وتعرف بالبغدادية تتضمن كون أبي زيد مكديا ومعه صبيان، وهو في صفة عجوز
١٣١ - ١٤٩	المقامة الرابعة عشرة وتعرف بالحجازية والمكية تتضمن كون أبي زيد وابنه معدمين، يطلب هذا راحلة وهذا زادا
١٥٠ - ١٦٢	المقامة الخامسة عشرة وتعرف بالفرضية، تتضمن أن أبا زيد ألغز عليه في مسألة فرضية فأخرج سيرها
١٦٣ - ٢٣٢	المقامة السادسة عشرة وتعرف بالمغربية، تتضمن إلقاء أبي زيد على أهل المسجد بعض المسائل
٢٣٣ - ٢٦٣	المقامة السابعة عشرة وتعرف بالقهقرية، تتضمن الرسالة التي تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه
٢٦٤ - ٣٥٢	المقامة الثامنة عشرة وتعرف بالسنجارية تتضمن قصة أبي زيد مع جاره النمام
٣٥٤ - ٣٩١	المقامة التاسعة عشرة وتعرف بالنصيبية تتضمن كون أبي زيد مريضا وزيارة أصعابه له وكيف كنى لابنه الكتابات الطفيلية
٣٩٢ - ٤١٣	المقامة العشرون وتعرف بالقارقية، تتضمن طلب أبي زيد تكفن ميت، وكفى بكلامه من ذكره

فهرس الموضوعات

صفحة	
١٠ — ٤	نبذ من الأقوال الحكيمة في المواعظ
٣٥ — ٣٤	غولة دمشق
٤٠ — ٣٨	باب جيرون
٥٥ — ٥٣	ضروب من الأدعية المأثورة
٦٢ — ٥٩	وصف بعض مجالس الشراب
٦٤ — ٦٢	مما قيل من الشعر في وصف الأزهار
٨٣ — ٦٧	مما ورد في الخمر والشراب من الشعر والحكايات
٩٢ — ٩١	ذكر للسقات
١٠٣ — ١٠٠	مما قيل في الخضاب
١١٠ — ١٠٦	الزوراء
١١١ ، ١١٠	وصف للشعراء
١١٤ — ١١١	مجالس للشعراء
١٢٢ ، ١٢١	أصل المثل : حال الجريص دون القريض
١٤٠ — ١٣٨	حرفة الأدب
١٤٥ ، ١٤٤	من الأقوال الحكيمة في الشكر
١٤٦ ، ١٤٥	عرقوب المضروب به المثل
١٤٩ — ١٤٨	من أقوالهم في الحنين إلى الأوطان
١٥٩ — ١٥٨	الضب وبعض طباعه
١٦١ — ١٦٠	مقامة البديع الجماعية
١٦٤ — ١٦٣	أصل المثل : رب رمية من غير رام
١٧٠ — ١٦٩	أصل المثل : نجوع الحرة ولا تأكله بتديها
١٧٧ — ١٧٣	مشاهير أهل الزرد

١٨٥ — ١٨٤	عما قيل في شكر النعمة
١٨٨ — ١٨٦	البطنه وأقوالهم فيها
١٩٤ — ١٩٣	التنفل وأصل اشتقاقه
٢٠٢ — ١٩٤	من أخبار الطفيليين
٢٠٨ — ٢٠٦	قصة أصحاب الكهف
٢١٤ — ٢١٢	مثل التصحيف وقلب الكلام
٢١٦ — ٢١٥	من أقوالهم في اختيار الصديق
٢١٨ — ٢١٧	ذكر المراء والجدال وما يقول منهما
٢٢١ ، ٢٢٠	ذكر سبحان وائل
٢٢٢	ذكر باقل
٢٢٤ — ٢٢٣	وصف الشمع
٢٣١ — ٢٢٩	نهد مما قيل في الزائر
٢٤٢ ، ٢٤١	عروة بن أذينة وهشام بن همد الملك
٢٥٨ ، ٢٥٧	مما قيل في السفر والاعتراق
٢٦٢ — ٢٥٩	ذكر سبأ وسد مأرب
٢٦٦ — ٢٦٤	ذكر الشام
٢٦٨ — ٢٦٧	بنو نمير
٢٦٩	سجعار
٢٧٢ — ٢٧٠	ذكر الحاضرة والبادية
٢٧٧ ، ٢٧٦	قصة ثمود
٢٧٩	القامة المضيرة للبديع
٢٨١ ، ٢٨٠	نهد من الأقوال الحكيمة في الجار
٢٨٢	مما قيل في المودة والإخاء
٢٨٨ — ٢٨٤	مما قيل في جمال المرأة
٢٩١ — ٢٨٩	ذكر بابل
٢٩٧ — ٢٩٣	أخبار معبد

سنة

٢٩٢ — ٣٠٧

ذكر إسحاق الموصلي

٣٠٨ — ٣١١

ذكر زناهم الزامر

٣١١ — ٣١٣

ذكر سطيج

٣١٧ — ٣٢٢

تكملة قصة موسى

٣٢٣ — ٣٢٨

ذكر بعض حكايات الجاريات المعاديات

٣٢٨ — ٣٣٠

نهد من الأقوال الحكيمة في الوشاة وبعض حكاياتهم

٣٣١ ، ٣٣٢

من أقوال في التهمة

٣٣٢ — ٣٣٤

نهد من أقوال العلماء في وصف الذهب والزجاج

٣٤٣ — ٣٤٥

من أقوالهم في الليل

٣٤٦ — ٣٤٩

ذكر هود عليه السلام رقومه

٣٥٣ ، ٣٥٤

ذكر مدينة نصيبين

٣٥٤ — ٣٥٧

ذكر أضرار مسنعة في أوصاف الرياض

٣٥٧ — ٣٦٠

فصل في ذكر ما يستحسن من أشعار المجانين

٣٦٤ — ٣٦٥

ذكر ثواب المرضى

٣٦٦ — ٣٦٧

من أقوالهم في عيادة المريض

٣٦٩ — ٣٧١

نهد من الأقوال المأثورة في عيادة المريض

٣٧١ — ٣٧٥

ذكر حمى كليب

٣٧٦ ، ٣٧٩

ذكر تخفيف العيادة

٣٧٩ ، ٣٨٠

نهد مما قيل في القيلولة

٣٨٧ — ٣٨٩

نهد من الأقوال الحكيمة في الفرج بعد الشدة

٣٩٢ — ٣٩٣

ذكر ميافارقين

٣٩٥ — ٣٩٦

شكوى الضعف والكبر

٣٩٦ — ٤٠٣

استطراد بذكر بعض الأفاكية

٤٠٣ — ٤٠٧

المصا وما قيل فيها شعرا ونثر